



ISSN 1985-8647

ثمن العـدد

البحرين	دينار بحريني
دول مجلس التعاون	٥ دولارات أمريكية أو ما يعادلها
جمهورية مصر العربية	٣ دولار أمريكي أو ما يعادله
الدول العربية الأخرى	٦ دولارات أمريكية أو ما يعادلها

قسيمة الاشتراك

تصدر المجلة مرتين في السنة، ويدفع الاشتراك بالدينار البحريني أو ما يعادله ويرسل إلى

مجلة العلوم الإنسانية - كلية الآداب - جامعة البحرين - ص.ب: ٣٢٠٣٨

الرجاء اعتماد اشتراكي في المجلة ولمدة:

☐ سنة واحدة ☐ سنتين

للأفــــراد

البــحــريــن:	☐ سنة واحدة ٣ د.ب	☐ سنتان ٦ د.ب
الـدول العربية:	☐ سنة واحدة ٥ د.ب	☐ سنتان ١٠ د.ب
الـدول الأخــرى:	☐ سنة واحدة ٧ د.ب	☐ سنتان ١٤ د.ب

للمؤسسات

البحرين والـدول العربية:	☐ سنة واحدة ٤ د.ب	☐ سنتان ٨ د.ب
الـدول الأخــرى:	☐ سنة واحدة ٨ د.ب	☐ سنتان ١٦ د.ب

تدفع الاشتراكات إما بشيك لأمر مجلة العلوم الإنسانية - كلية الآداب - جامعة البحرين على أحد المصارف البحرينية أو بتحويل مصرفي إلى حساب رقم (٠٢٨٠٠٥٨٨) لدى بنك البحرين الوطني

اسم المشترك وعنوانه

الاسم: .... المهنة: ....

العنوان: ....

خطبة العدد وفاتحة التجديد

إنَّ مجلةَ العُلُوم الإنسانية تُمثّل لسَانَ الجامعة الناطقَ بها في ميادين العلم والمعرفة والثقافة، وكذلك هي المرْآةُ العاكسةُ للمُجْتَمع الذي تُوجدُ فيه إذا ما تَسَاءلَ الناسُ عَنهُ مَنْ هو حضَارةً، وماذا يكون مدنيةً، وكيف يُحققُ ذاتَهُ تقدماً . إنَّها، بقول أكيد، صورتهُ التي يُقدِّمُ بها نَفْسَهُ إلى العَالَم . وهي صُورةٌ، لا شَكَّ، زاهيةٌ بحريةِ الكلمةِ وعُمْقها، ومُشْرقةٌ بمسؤوليةِ المكتوب وصِدْقِه، وراضيةٌ مَطْمَئِنَةٌ لأنَّ ما فيها هُوَ أَرْقَى ما يمكنُ للْعِلم الحديثِ والمُعَاصِرِ أنْ يُنْتِجَه.

ولقد نرى تأسيساً على ما تقدم، أنَّها مجلةٌ تقولُ، وليس لها فيما تقول إلا ابتغاءَ الحقيقة .... بعيداً عَن التعصب، وإعْلاءَ العَقْلِ ... بَعيداً عَن الخُرَافة، ودَحْرَ الظلمات ... في وَقْت أَحْوَجَ ما تكونُ فيه المُجْتمعاتُ إلى أَنْوارِ المَعْرفةِ لكي تجلوا ماضيَها، وتبنيَ حاضرها، وتَحْفَظَ غَدَها ومُسْتَقْبَلَها.

والمجلةُ حينَ تَتبنى فكرةَ العُلُوم الإنسانية وتَتَسَمَّى بهَا، فَهيَ، في نَشْرها لموادها، لا تَتَحَزَّبُ لفكرةٍ ضدَّ فكرة، ولا لميدانٍ علميٍّ ضدَّ ميدان، ولَا لشَخْص ضدَّ شَخْص، ولكنَّها تَتَحَزَّبُ لكلِّ الأفكار، ولكلِّ ميادينَ العلْم، ولكُلِّ الأشخاص، مادام ثَمَّةَ التزامٌ بالمسئولية الأخلاقية، وتَدرُّعٌ بالموضوعية، وعَمَلٌ أكيدٌ بالمَنْهَج العلْميِّ بحثاً وتحليلاً وإبداعاً لمَوْضُوع . والمجلةُ قَبْلَ هذا وذاك، وفَوْقَ هذا وذاك، تَتَعاملُ مع مُحَكمينَ دوليين، يُمَثلونَ الصَّفْوةَ العاليةَ والنُّخْبةَ الراقيةَ في مُجْتَمَعَاتهمُ العلْميّة . ولقد يَجْعَلُ هذا منها صَفْحةً مفتوحةً على كُلِّ الآفاق المعرفية، كَمَا يَجْعَلُ منْها، في الوَقْت نَفْسه، صَفْحةً رصينةً ورزينة ومُلْتَزمةً. كَمَا غَيَّرت المجلةُ منْ غلافها وأسلوب نَشْر المَوَادِّ وتَبْويبها. وهذه كُلُّها علاماتٌ دالةٌ على رَغْبَتها في تجديد دمائهَا وتسعَ الحياة والحيوية فيها. وهي أيضاً دعوةٌ لقُرّائها وكُتّابها منَ الباحثينَ الأفاضل لمواكبة التطور الحاصل فيها والتقدم الذي تَسْعَى إليه.

ألا وإنَّهُ لأمر عظيم أن تضطلعَ مجلةٌ بهذا وهيَ تُنْجزُ مَشْرُوعَهَا، إنَّها بذلك تَجْمَعُ بَيْنَ تطلُّعها الإنساني وتطلُّعها العلمي. وبذا تكونُ إنسانيةً في حَمْلهَا للقيم، وعلميَّةً في إنشائهَا للمعرفة، فلا تُفَرِّطُ في هذا عَلَى حساب ذاك، ولا في ذاك عَلَى حساب هذا، وتَجْمَعُ بَيْنَ الحَسنيين: الإنسانيةِ والعلْم. وَهُوَ مَسْعَى نَبيلٌ أكدته الأديانُ والفلسفاتُ، والنَّزعَاتُ التنويريةُ منْ قَديم الزمانِ وإلى الآن.

وَمنْ هُنا، فإنَّهُ إذا كان قد قيل إنَّ العلْمَ يقلصُ مساحات الانغلاق، ويَفْتَحُ فضاءات التسامح، ويُلْغي المَسَافات الفاصلة بين البشر، فإنَّ المجلةَ بمَوْضوعاتها العلْميَّة تُريدُ أن تكون منْبرًا للانفتاح، وعلامةً للتسامح، وجسْرًا واصلاً بين البشر. وهذا إكرامٌ للعلْم فيها، وإكرامٌ لها إذ يؤدي العلْمَ هذه المهمةَ النبيلةَ منْ خلالها . وكذلك أيضًا، إذا كان بعضُ الناس يَبْتَهجُ بالدِّرْهَم والدِّينار، وهما جسْرُ العبورِ إلى زوال، فإنَّ مُجْتَمَعَ العلْم منْ قارئينَ وكاتبين في مجلة العُلُوم الإنسانية، يَبْتَهجُونَ بالعَقْل والأفْكار، وهما جسرُ العبورِ إلى البناء والتطور والاستمرار. ولقد يَجْعَلُنَا هذا نَرَى أن المجلةَ تشيِّد، عَبْرَ دراساتها، للقيم الأخلاقية والإنسانية صَرْحاً تَجْذبُ إليه العلم ليكون معهما في هذا الصَّرْحِ للإنسان نافعًا ولمنتجه الفكريِّ مبدعًا. وإذا كان للفضل في هذا الجمع مكان يجب أن يُعترف.

د.هيا بنت علي النعيمي

رئيس التحرير

عميدة كلية الآداب





الطباعة
مطبعة جامعة البحرين - 2011 - 084113





قواعد النشر بالمجلة

ترحب مجلة العلوم الإنسانية بنشر الأبحاث والدراسات العلمية المتخصصة ذات الصلة باللغويات، والأدب، والنقد المقارن، والدراسات الفكرية والفلسفية، والاجتماع، والتاريخ، والجغرافيا، والتربية، وعلم النفس، والفنون ، والتراث الشعبي والإنثروبولوجيا، والآثار، وذلك وفقًا للقواعد الآتية:

أولاً قواعد عامة :

١- تنشر المجلة الأبحاث والدراسات الأكاديمية الأصيلة، وتقبل للنشر فيها الأبحاث المكتوبة باللغة العربية، أو اللغة الإنجليزية التى لم يسبق نشرها، وفي حالة القبول يجب ألا تنشر المادة في أي دورية أخرى دون إذن كتابي من رئيس التحرير.

٢- تنشر المجلة الترجمات، والقراءات ومراجعات الكتب، والتقارير، والمتابعات العلمية حول المؤتمرات، والندوات، والنشاطات الأكاديمية المتصلة بحقول اختصاصها، كما ترحب بالمناقشات الموضوعية لما ينشر فيها، أو في غيرها من المجلات، والدوريات، ودوائر النشر العلمي.

٣- ترحب المجلة بنشر ما يصل إليها من ملخصات الرسائل الجامعية (التى تمت مناقشتها وإجازتها) في حقول العلوم الإنسانية، شريطة أن يكون الملخص من إعداد صاحب الرسالة.

٤- يلتزم الباحث بإرسال ملخصين أحدهما بالعربية، والأخرى بالإنجليزية للبحوث والدراسات، على ألا يزيد عدد كلمات كل منها على ٢٠٠ كلمة.

٥- ترسل البحوث مطبوعة مصححة بصورتها النهائية عبر البريد الإلكتروني للمجلة أو على CD خاص، على أن يتضمن البحث، والملخص باللغتين العربية والإنجليزية.

٦- توجه جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم الإنسانية - جامعة البحرين
ص. ب: ٣٢٠٣٨ - فاكس: ١٧٤٤٩٦٢٠
هاتف: ١٧٤٣٨٤٢٩ - ١٧٤٣٨٤٢٣

ثانيًا الأبحاث:

١- يقدم الأصل مطبوعًا على الحاسوب على ألا تزيد عدد صفحات البحث على ٤٠ صفحة مطبوعة ومراجعة بدقة، على أن ترقم الصفحات ترقيمًا متسلسلاً بما في ذلك الجداول، والأشكال.

٢- تطبع الجداول، والصور، واللوحات على أوراق مستقلة، ويشار في أسفل الشكل إلى مصدره، أو مصادره، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن.

٣- يذكر الباحث اسمه وجهة عمله على ورقة مستقلة، ويجب إرفاق نسخة من السيرة العلمية إذا كان الباحث يتعاون مع المجلة للمرة الأولى، وعليه أن يشير فيما إذا كان







البحث قد قدم إلى مؤتمر، أو ندوة وأنه لم ينشر ضمن أعمال المؤتمر، كما يشار إلى اسم أية جهة علمية، أو غير علمية، قامت بتمويل البحث، أو المساعدة على إعداده.

٤- يمنح الباحث نسختين من العدد الذي يتضمن بحثه بالإضافة إلى خمس (٥) مستلات من المادة، كما يمنح أصحاب المناقشات، والمراجعات والتقارير، وملخصات الرسائل الجامعية نسخة من العدد الذي يتضمن مشاركاتهم.

ثالثًا: المصادر والحواشي:

١- يشار إلى جميع المصادر بأرقام الحواشي التي تنشر في أواخر البحث، ويجب أن تعتمد الأصول العلمية المتعارفة في التوثيق والإشارة بحيث تتضمن: اسم المؤلف، وعنوان الكتاب، أو المقال، واسم الناشر، أو المجلة، ومكان النشر إذا كان كتابًا، وتاريخ النشر، والمجلد، والعدد، وأرقام الصفحات إذا كان مقالاً.

٢- يزود البحث بقائمة للمصادر منفصلة عن الحواشي، وفي حالة وجود مصادر أجنبية تضاف قائمة بها منفصلة عن قائمة المصادر العربية، ويراعى في إعدادها الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين.

رابعًا إجازة النشر:

يتم إبلاغ أصحاب المساهمات بتسلم المادة خلال أسبوعين من تاريخ التسلم، مع إخطارهم بقبولها للنشر، أو عدم القبول بعد عرضها (في حالة البحوث) على محكمين، تختارهم المجلة على نحو سري. أو بعد عرضها على هيئة التحرير (في حالة المساهمات الأخرى). وللمجلة أن تطلب إجراء تعديلات شكلية، أو شاملة على البحث قبل إجازته.

جميع الأفكار الواردة في المجلة تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.

العنوان: مجلة العلوم الإنسانية، كلية الآداب - جامعة البحرين.

ص. ب: ٣٢٠٣٨ مملكة البحرين.

هاتف: رئيس التحرير ١٧٤٣٨٤٢٩ ـ ١٧٤٣٨٤٢٣ - فاكس: ١٧٤٤٩٦٥٥

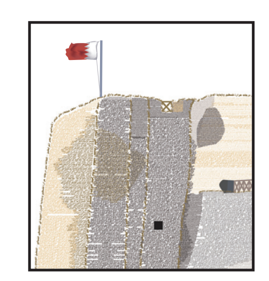
البريد الإلكتروني: e-mail: hssj@admin.uob.bh

الموزع في البحرين والوطن العربي: مؤسسة الأيام للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب: ٣٢٣٢ - المنامة - مملكة البحرين

هاتف: ١٧٦١٧٧٣٣ - فاكس: ١٧٦١٧٧٤٤





المحتويات

الأبحاث

المحور:

دراسات في الجغرافيا

قراءات ومراجعات



لوحة الغلاف

قلعة البحرين

يعتبر موقع تل قلعة البحرين من أكبر المواقع الأثرية بمملكة البحرين، وهو يقع على الساحل الشمالي للجزيرة، وتبلغ مساحته حوالي 400 × 700 متر، وبارتفاع حوالي 8 أمتار.

تتوج هذا الموقع قلعة تعود إلى القرن السادس عشر للميلاد، وهي قلعة البحرين التي أعطت اسمها إلى هذا التل والتي ربما تكون العاصمة القديمة لدلمون. ويحتوي الموقع على بقايا مدن كانت مسكونة في عدة فترات خلال الأربعة إلى الخمسة آلاف عام الماضية. وقد شكلت دراسة هذه البقايا أساس تاريخ البحرين الذي قام بدورٍ بارز في علم آثار الخليج العربي. وقد كشفت تنقيبات بعثة الآثار الدنماركية، عن بقايا بناء لستّ مدن تقع حول القلعة.

الأبحاث

- سلطة الفقهاء على الشعر الأندلسي في عصر المرابطين

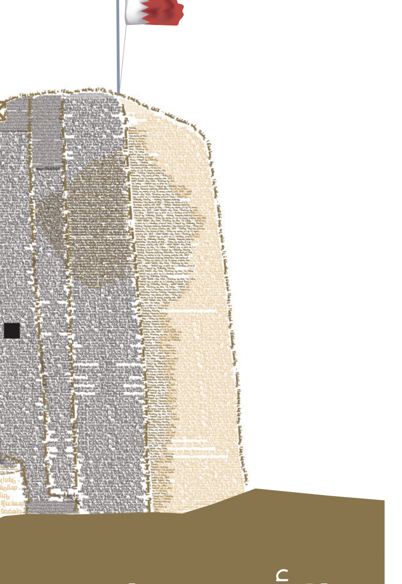
د. عيسى الوداعي

- كِندة الأصل والمستقر معطيات من النقوش والآثار

د. عبدالله كرامه التميمي

- موقع كارلايل في الدراسات الاستشراقية

د. عمر عبد الله باقبص



الأبحاث

سلطة الفقهاء على الشعر الأندلسي في عصر المرابطين

د. عيسى الوداعي*

الملخص

سلطة الفقهاء على الشعر الأندلسي في عصر المرابطين

استقرّ في أذهان كثير من الباحثين ومؤرخي الأدب، قدماء ومحدثين، أنّ الشعر في ظلّ دولة المرابطين (484-541هـ) قد تراجع، وانحسر ظلّه، وراح أولئك الباحثون يقدّمون الأسباب التي أدّت إلى ذلك التراجع.

وقد توقفوا عند أسبابٍ عدّةٍ، كعدم معرفة أمراء المرابطين بالعربية، وانشغالهم بالجهاد والغزو، وتبلبل الحياة السياسية وعدم استقرارها، وغير ذلك من أسباب، وقد بحثوا كلّ ذلك بحثا مستفيضا، غير أنّ أولئك الباحثين لم يولوا تسلّط الفقهاء على الشعر والشعراء اهتماما كبيرا، ولم يتتبعوا أثرهم السلبي في الشعر يومذاك.

ويأتي هذا البحث في سياق تتبّع الأثر الذي تركه فقهاء دولة المرابطين في الشعر والشعراء، من خلال استقراء الشعر الأندلسي في تلك المرحلة، معتمدا على شعر ثلاثة من كبار شعراء تلك الحقبة، هم الأعمى التطيلي، وابن خفاجة، وابن قزمان، مستفيدا في الوقت نفسه مما ورد في أشعار غيرهم في كتب التاريخ الأدبي التي أرّخت لتلك الحقبة.

---

* *أستاذ مساعد في جامعة البحرين*

The authority of the Islamic clergy on the Andalusian Poetry during the Almoravides age

Dr. Isa Al - Wadaee

Abstract

Most of the old and contemporary researchers and poetry historians believe that the poetry retreated throughout the Almoravides (hij484-541) reign in Andalusia; and they have provided a number of reasons for this decline which include the lack of the Arabic comprehension on the Almoravides side, their concentration on war and invasions and the political instability which plagued their time among other reasons. The historians have studied these reasons in depth yet they have ignored to a large extent the strong and the negative influence exerted by the Islamic clergy on the poetry during this period.

This study is about the authority exercised by the Islamic clerics on the poetry during the almorvides epoch. The study draws on the studies of the poetry in this period by concentrating on the work of three of the most well known poets at this era who are: the Blind of Tudela, Ibn-Khafaja and Ibn-Kuzman. The study also would investigate the other poets and poetry mentioned in the literary books that describe this period of time.

المقدمة:

بلغ الفقهاء في ظل دولة المرابطين (484 -541هـ) ما لم يبلغوه في ظل غيرها من الدول، حتى صارت أمور الناس، كبيرُها وصغيرُها، راجعة إليهم؛ لذا كانوا يتحكّمون في شئون المجتمع، ويسيرونه حسب ما يرون!

ومن البدهي أن يترك أولئك الفقهاء آثارهم في العلم والثقافة، كما تركوها على السياسة وغيرها، وما بسط مذهب مالك على الأندلس دون سواه، ومصادرةُ ما لا يرتضي أولئك الفقهاء من علوم، كعلم الكلام، وإحراقُ ما لا يشتهون من كتب كالإحياء إلا شواهد بارزة على أثر الفقهاء في الناحية العلمية والثقافية والدينية.

وقد استقرّ في أذهان كثيرٍ من الباحثين ومؤرخي الأدب، قدماء ومحدثين، أنّ الشعر في ظلّ دولة المرابطين قد تراجع وانحسر ظلّه، وراح أولئك الباحثون يقدّمون الأسباب التي أدت إلى ذلك التراجع.

وسيركز هذا البحث على سببٍ لم يوله الباحثون كثيرا من الاهتمام، أعني أثر تسلط الفقهاء يومذاك في الناحية الأدبية بصورة عامة، وفي الشعر بصورة خاصة، إذ ينطلق البحث من أسئلة محورية عدة: هل أثّر الفقهاء –حقّا- في الشعراء؟ ومن أي طريقٍ كان ذلك التأثير؟ ما العلاقة بين الفقيه والشاعر؟ وكيف كان ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر؟ وكيف انعكس ذلك كلّه على الشعر الأندلسي يومذاك؟

وفي محاولة الإجابة عن تلكم التساؤلات بدأتُ بعرضٍ موجزٍ للحالة السياسية والأدبية العامة في عصر المرابطين، ثمّ أفردت لحالة الشعر في ذلك العصر عنوانًا مستقلا، عرضت فيه مظاهر تراجع الشعر، ومناقشا ما ذكر الباحثون من أسباب.

ولأجل تبيان سيطرة الفقهاء جعلت لها عنوانا مستقلا، هو (مكانة الفقهاء في الدولة المرابطية)، ثم بحثت في نظرة أولئك الفقهاء للشعر، وبيّنت تقسيماتهم إياه، وكان لزاما على الباحث أن يعرّج على موقف يوسف بن تاشفين من الشعر بوصفه زعيم المرابطين من جهة، والتابع المنفّذ لآراء الفقهاء من جهة أخرى.

بعد ذلك تحدثت عن وصاية الفقهاء على المجتمع، وانعكاساتها على الشعر، كما

تحدثت عن أثر البيئة الفقهية في الصور الشعرية، وختمت البحث بالحديث عن صورة الفقيه في الشعر المرابطي.

وسيرى القارئ أني اعتمدت المنهج التاريخي الأدبي أساسا للمقاربة؛ إذ كنت أتتبع صدى الأحداث التاريخية في شعر تلك المرحلة، كما سيرى القارئ أني ركّزت على شعر ثلاثةٍ من كبار شعراء ذلك العصر، هم: الأعمى التطيلي، وابن خفاجة، وابن قزمان، مستفيدا في الوقت نفسه مما ورد من أشعار غيرهم في كتب التاريخ الأدبي التي أرّخت لتلك الحقبة.

وقد يعترض معترضٌ على الاستشهاد بأزجال ابن قزمان، بوصفها غير داخلة في الشعر الذي هو عنوان البحث، وإنما هي أزجال فحسب! وهو اعتراضٌ غير ناهضٍ؛ إذ إنّ أزجال ابن قزمان وغيره لا تخرج عن مظلّة الشعر، غاية ما في الأمر أنها كُتِبَت بالعامية، واحتفظت لنفسها بمقومات الشعر الكلاسيكي من وزن وقافية وصور وأخيلة، وإنّما أُفْرِدَت بالتسمية لتتميّز من قسيميها: الشعر الفصيح والموشحات.

الحالة السياسية والأدبية العامة في عصر المرابطين:

بعد أن قضى يوسف بن تاشفين –زعيم المرابطين– على ملوك الطوائف، رجعت الأندلس دولةً واحدة، وتوحدت مع المغرب في ظلّ أمراء مغاربة عرفوا بالمرابطين أو الملثمين.

ولقد كان لقيام تلك الدولة في الأندلس آثار سياسية واجتماعية واقتصادية وأدبية، فعلى الجانب السياسي تمكّن المرابطون من صدّ النصارى، وانتزاع كثير مما كان في أيديهم من مدنٍ إسلامية كانت قد سقطت إبّان عصر ملوك الطوائف؛ الأمر الذي حقق للأندلس استقرارا سياسيا، وأطال عمر الوجود العربي الإسلامي فيها عدة قرون أخرى[1].

أما على الجانب الاجتماعي، فقد ترك المرابطون آثارا بعيدة الأثر؛ إذ «ظهرت طبقة جديدة من الملثمين، طائفةٌ سيدةٌ، حاكمة، ذات حولٍ وطولٍ وسلطان، انتشرت في مدن المغرب وأقاليمه، وفي مدن الأندلس وأقاليمه، يتولون الأعمال، أو يزاولون

التجارة، أو الزراعة، أو الصناعة» [2].

هذا الأمر يعني استيلاء أولئك المرابطين الجدد على مقاليد الاقتصاد، إضافة إلى استيلائهم على الأمور السياسية والعسكرية، مما جعلهم يتحكمون في الناس كما يريدون، ويأنفون من الخضوع لأحكام القضاة، مما جعل (أمير المسلمين) يكتب لأحد القضاة مطمئنا إياه: «وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك في كلّ حقٍّ تقضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه» [3].

ولقد أشاعت طبقة الملثمين الخوفَ في قلوب الأندلسيين، وتعدّت سلطة الملثمين إلى عبيدهم وحشمهم، فكان هؤلاء يتشبهون بأسيادهم فيتلثمون، ويرتكبون الشرور والآثام؛ الأمر الذي أثار حفيظة الكاتب ابن عبدون، فقال: «يجب ألاّ يلثم صنهاجيٌّ أو لِمْتونيٌّ أو لَمْطيٌّ؛ فإنّ الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس، ويهيبونهم ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام» [4].

وقد تمكّن هذا الخوف من قلوب الأندلسيين، فامتنعوا عن المطالبة بأقل الحقوق، المتمثلة في لقمة الخبز، رغم جوعهم واشتياقهم إليه، وقد صوّر ابن قزمان في أزجاله حالة الخوف هذه أصدق تصوير، فقال [5]:

قد رجعت الآن باطل / منذ غاب الخبز عني
ويّ عقل يبقى لعاقل / والنشير [6] بعيدهُ مني
ونراه في الفرن داخل / وإذا خرج نغنّي
قد خرج محبوبِ برّا / ونريد ولسُّ نجرا
ويقلي قلبي اهجم / ونخاف من الملثم

ولعلّ حالة الخوف هذه كانت أحد أسباب سقوط دولة المرابطين، فقد حصر أحد الباحثين تلك الأسباب في «انعدام الأنظمة والتجديد في الدولة، فنظام الضرائب كان سيئا، ونظاما الإدارة والجيش كانا أسوأ بكثير، فالأمن استتبَّ خوفا من البطش والقمع، وليس احتراما وتوقيرا للقانون والنظام، والأنظمة الإدارية كانت مفقودة، والحكم كانت تسيِّره فتاوى الفقهاء واجتهاداتهم» [7].

حالة الشعر في عصر المرابطين

اعتنى الأندلسيون بالشعر كثيرا، فبدأوا مقلدين للمشرقيين، ثمّ ما لبثوا أن ابتدعوا طرقا شعرية كانت وليدة بيئتهم الساحرة، وكانت حال الشعر تتأرجح عُلُوّا وانخفاضا تبعا للظروف السياسية التي مرّ بها ذلك القطر، ويصف المقّري حال الأندلسيين والشعرَ، فيقول: «والشعر عندهم له حظٌّ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويُوَقَّعُ لهم بالصِّلات على أقدارهم، إلاّ أن يختلّ الوقت، ويغلب الجهل في حينٍ ما» [8].

وقد بلغ الشعر الأندلسي ذروته أيام ملوك الطوائف؛ إذ حظي الشعراء بمنزلة عظيمة لدى الملوك، حتى كان المعتمد بن عبّاد « لا يستوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعرا حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحدٍ قبله» [9].

من أجل ذلك راجت سوق الشعر، وبرزت أسماء لامعة في هذا الميدان، مثل ابن زيدون، وابن اللبانة، وابن حمديس، وابن وهبون، وغيرهم كثير، ولما استولى المرابطون على الأندلس، ركدت ريح الشعر، وبارت تجارة الشعراء، وصاروا يتكففون الناس؛ ليجودوا عليهم بما يسدّ رمقهم، ويستر عوراتهم.

وقد وجد بعض الشعراء خلاصهم كامنا في هجر الشعر، والاشتغال بغيره من الأمور، وقد وصف ابنُ بسّام أبا حاتم الحجاريّ بأنه «شاعر متصرِّف في النظم والنثر، ولما انقرضت أيام ملُوك الطوائف بالجزيرة، وتسلّط الكساد على أعلاق الشعر الخطيرة، خلع أبو حاتم بردته، وسَلَخَ جِلدته، وأصبح بحاضرة قرطبة صاحبَ طَوْلَقٍ وحنبل، وجلس بين هاون ومنخل، يأخذ للصحة من المرض، ويتكلّم عن الجوهر والعرض... كلّ ذلك حرصا على الحياة، واحتيالا لهذه الملابس والأوقات» [10].

وإذا كان لأبي حاتم هذا مهنة أخرى يلجأ إليها، فإنّ الحظَّ لم يسعف غيره من الشعراء؛ إذ لم تكن لهم سلعة غيره. ولذا، لم يجنوا منه سوى الحرمان، يقول الأعمى التطيلي [11]:

أنا الذي أجتني الحرمان من أدبي إنّ النواظر قد تُؤْتَى من النظر

ولعلّ في أخذ التطيلي بيت المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

موازنةً بين حال شاعر العربية، والحظوة التي لقيها عند سيف الدولة وغيره، بسبب شعره وشاعريته، والحال التي وصل إليها الأعمى التطيلي من فقر وحرمان، جسّده بقوله[12]:

الحمد للّه وشكرا له لا طارفٌ عندي ولا تالدُ
صرتُ ولا أُنْبيكَ عن غائبٍ في حالة يرثي لها الحاسد
إنّ ينبُ بي دهريَ فاللّه لي والمترجّى للندى خالد
يا واحدا أفضاله شركةٌ فينا ولكن مجده واحد
حوليَ أفراخٌ كزغب القطا ليليَ من همٍّ بهم ساهد
أنتَ أبٌ لي ولهم عاطفٌ رُبَّ ابنِ خمسين له والد

لقد صورت هذه الأبيات شظف العيش الذي يعانيه الشعراء في ظل دولة المرابطين، فقد أُهْمِلَ الشعراءُ فافتقروا، وصار أحدهم لا يطلب مالا ليرفِّهَ به عن نفسه، وإنّما كان قصارى ما يطلب الخبز ليسدّ رمقه، ويحفظ حياته.

ونجد عند ابن قزمان تصويرا لحالة العوز وضيق ذات اليد، التي صورها الأعمى في قوله السابق، إذ يقول ابن قزمان[13]:

ليتْ كما لسْ ماعِ لقمة / كتّكون دقيقة فالبيت
إذ كَنَّعمل لي عصيدة / إنْ وجدتُ نقطة من زيت
إنّما حُطَيِّبَ لسْ باه / كل ما يعوز لي سميت
ولو اصبح لي كُسَيْرَة / الكُسَيْرَة كَنَّحَمّص

فليس غريبا أن يوازن الشعراء بين حالهم في دولة المرابطين وفي غيرها من الدول، وبخاصة دولة ابن عبّاد، بل إنّ الشعراء ينطلقون من تلك الموازنة إلى تمني رجوع دولة المعتمد؛ لترجع دولة الشعر برجوعها، يقول ابن قزمان[14]:

وايّ غلام كنّكون ماعك شاعرٍ أديبّ

وان أردت الغِنا تسمع شيئا عجيب
في غير ذي الدولة كَنَّركب على نجيب
لو انّ يسمعني فالتغريد المعتميد

وفي المعنى ذاته يقول أبو بكر محمد الأعمى المخزومي، المتوفى سنة 540هـ[15]:

وأهونُ ما أهدى الزمان إليـــكم فلا عشتم للّوم طلعةُ شاعـــرِ
فأين الألى كانوا إذا جاء نـــاظمٌ تلقّته منهم بالندى كفُّ نـــاثر
سلام عليهم كلّما ارتحت نحوهم فلا أثرٌ من بعدهم للمـــــآثر
أُعيّركم جهــدي بكلّ قبيـــحة وما لكم من يقظةٍ بالمعايـــــر
ركنتم إلى الأعذار في كلّ حـــاجةٍ فهل نفعت نبلي حصون المعاذر

ولنا أن نتساءل عن أسباب هذه الانتكاسة الشعرية في ظل دولة المرابطين، فما الذي جعل الشعر يتقهقر إلى الوراء؟

لقد عزا الأستاذ إحسان عباس ذلك التراجع إلى «عدة عوامل، منها الاختلال السياسي في عصر ملوك الطوائف نفسه، ومنها الالتفات إلى الجهاد في عصر يوسف ابن تاشفين بخاصة، واعتباره الغاية الأولى في الدولة، واصطباغ الدولة بالصبغة الدينية، وضعف الرابطة بين الممدوح الذي لا يحسن تذوق الشعر البليغ، وبين الشعر نفسه»[16].

ولنا أن نناقش هذا الذي ذهب إليه إحسان عباس، وعزا إليه أسباب ضعف الشعر في تلك الحقبة وتراجعه، فنقول: إنّ الاختلال السياسي في عصر ملوك الطوائف كان أحد العوامل الرئيسة التي أدت إلى ازدهار الأدب بصورة عامة، والشعر بصورة خاصة؛ إذ كان ملوك الطوائف يحرصون على تقريب الشعراء منهم ليمدحوهم، ويظهروا فضائلهم وينشروها بين الناس، ويصوروا للناس أنّ هذا الملك أحقّ بالمُلك من خصمه، وهذا أمر أدى إلى كثرة الشعراء المجيدين في ذلك العصر، أعني عصر ملوك الطوائف.

وأما عدُّهُ الالتفات إلى الجهاد في عصر يوسف بن تاشفين، واعتباره الغاية الأولى

في الدولة سببا من أسباب انتكاسة الشعر في ظل دولة المرابطين فغير مسلَّم به؛ إذ قصارى ذلك أن تتراجع بعض أغراض الشعر، كالغزل أو وصف الطبيعة مثلاً، لتظهر أغراض أخرى منسجمة مع روح الجهاد، كالشعر الحماسي، والإشادة ببطولات الجيوش والقادة، وتخليد انتصاراتهم.

وأما عزو السبب في ضعف الشعر إلى ضعف الرابطة بين الممدوح الذي لا يحسن تذوق الشعر، وبين الشعر نفسه، فالذي يبدو لي أن الرابطة قد ضعفت حقا بين الممدوح والشاعر نفسه، لا لأن الممدوح لا يتذوق الشعر البليغ، بل لسبب أكبر من ذلك يتمثل في المانع الفقهي، وهو ما سأوضحه في مناقشتي لموقف يوسف بن تاشفين من الشعر.

بقي من الأسباب التي ذكرها إحسان عباس سبب واحد، وهو اصطباغ الدولة بالصبغة الدينية، وأراني مؤيدا لهذا السبب، وجعله على رأس أسباب انتكاسة الشعر في ذلك العصر؛ وذلك لتصريح الشعراء أنفسهم به، ولعلّ أوضح تصريحٍ بذلك كان على لسان الأعمى التطيلي في كافيته المشهورة(17):

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعه — على أنها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثُلّت عروشهم — فلا الفخر مختال ولا العزُّ تامكُ
إذا ابتدر الناس الحظوظَ وأشرفتْ — مطالب قوم وهي سودٌ حوالكُ
رأيتَهُمُ لو كان عندك مدفعٌ — كما كسدتْ خلف الرئال الترائك
فيا دولة الضيم اجملي أو تجاملي — فقد أصحبت تلك العرى والعرائك
ويا «قام زيد» أعرضي أو تعارضي — فقد حال من دون المنى «قال مالك»

وواضح أشدّ الوضوح أنّ الكناية في (قال مالك) إشارة إلى الفقهاء الذين جعلوا الاشتغال بفروع مذهب مالك الغاية الأولى من الحركة العلمية يومذاك، وقدّموا تعلّم تلك الفروع على كلّ شيء، حتى «نُسِيَ النظر في كتاب الله، وحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم»(18)، فأي مكانٍ يبقى للشعر والشعراء في مثل هذا الجو؟

ولعلي رسمت صورة معتمة لجو الشعر يومذاك، حتى ليخيل للقارئ أنْ لا وجود لشعرٍ البتةَ، وأسارع فأقول: إنّ الأمر لم يخل من وجود فجواتٍ يتنفس فيها الشعراء،

فقد يُشمَلون بمكرمةٍ من القصر تسعد حالهم بعض الوقت، غير أني لم أقف إلا على رواية واحدة في هذا الشأن، فقد روى الفتح بن خاقان في ترجمة أبي الحسن بن لسان «أنه استنجد الأميرَ الأجلَّ أبا إسحاق بن أمير المسلمين قائلا:

قل للأمير بن الأمير بل الذي ... أبدا به في المكرمات وفي الندى
والمجتني بالزرق وهي بنفسج ... ورد الجراح مضعَّفًا ومنضَّدا
جاءتك آمال العفاة ظوامئا ... فاجعل لها من ماء جودك موردا
وانثر على المُدّاح سيبك إنهم ... نثروا المدائح لؤلؤا وزبرجدا
فالناس إن ظُلِموا فأنت هو الحمى ... والناس إن ضلّوا فأنت هو الهدى

ويعلّق الفتح بن خاقان على هذه الأبيات بقوله: «أخبرني وزير السلطان أنّ هذه القطعة لما ارتفعت اعتنت بجملة الشعراء وشَفَعَت، فَأُنْجِزَ لهم الموعود، وأورق لهم ذلك العود، وكثر اللغط في تعظيمها، واستجادة نظيمها، وحصل له بها ذكر، وانصقل له بسببها فكر»[19].

مكانة الفقهاء في الدولة المرابطية

كانت حال الفقهاء مع الخلفاء والأمراء مضطربة غير مستقرة، فخليفةٌ يقربهم، وآخر يضطهدهم، ولم تقوَ شوكتهم كمثل ما قويت أيام دولة المرابطين، فقد رفع هؤلاء الفقهاءَ «إلى مراتب الرياسة، واستغلّ الفقهاء هذه الفرصة فبلغوا في ظلال المرابطين مطامحهم في الرياسة والسلطان، وأصبح القضاة في بعض النواحي حكّامَ الأقاليم، وأصبح الفقيه المشاور حاكما مدنيا إلى جانب القائد المرابطي، الذي كان حاكما عسكريا»[20].

ولم يكن هذا التقريب للفقهاء إلا ردّا للجميل الذي قدّمه أولئك الفقهاء للمرابطين، فهم الذين أفتوا بوجوب الاستنجاد بالمرابطين أول الأمر، وهم الذين أفتوا بجواز القضاء على ملوك الطوائف، كما فعل أبو جعفر القليعي، وأبو بكر الطرطوشي[21].

من أجل ذلك قربهم يوسف بن تاشفين، فإنه «لما ملك الأندلس جمع الفقهاء

وأحسن إليهم»[22]، أما ابنه عليٌّ فقد «اشتدّ إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء... فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم»[23].

وكذلك فعل تاشفين بن عليّ، الذي عاتب واليه على مرسية؛ لتهاونه وعدم إكرامه قاضي القضاة، يقول تاشفين بن علي موجِّها خطابه للوالي: «خبّرنا، أعزّك الله، كيف جاز أن يجتاز بكم الفقيه الأجلّ، القاضي الأعدل أبو بكر بن أسود... فتهاونتم بمثواه، ونمتم جميعا عن قِراه، كأنه مرّ منكم بفلاة، أو حطَّ على رفات، وجاز على قوم أموات... فلتعلموا مكان هذه الفعلة الفادحة، والفرطة الفاضحة، والله ولي الأعمالً الراجحة»[24].

نظرة الفقهاء إلى الشعر

وقف الفقهاء من الشعر موقفا صارما، وراحوا يؤطرون المواضيع التي ينبغي للشاعر الخوض فيها، وقسّموا الشعر، كغيره من الأشياء والموضوعات، إلى جائز ومحرّم ومكروه، فقد اتخذوا من قوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوونَ﴾[25]مدخلا ليقرروا أنه «لا ينبغي أن يكون الغالبَ على العبد الشعرُ، حتى يستغرق قولَه وزمانَه، فذلك مذموم شرعا»[26]، كما اتخذوا من الاستثناء في قوله تعالى ﴿إلا الذين آمنوا﴾[27] ذريعة ليحكموا أنّ «كلَّ شاعرٍ في الإسلام يهجو ويمدح من غير حقٍّ، ولا يرتدع عن قولٍ دنيءٍ فهم داخلون في هذه الآية، وكلّ تقي منهم يكثر من الزهد، ويمسك عن كلّ ما يُعاب فهو داخل في الاستثناء»[28].

وقد تحدث القرطبي في تفسيره عن الشعر حديثا فقهيا، فبيّن الشعر المستحسن والشعر المذموم، فالشعر «إن كان مما يقتضي الثناء على الله عزَّ وجلَّ، أو على رسوله، صلى الله عليه وسلّم، أو الذبّ عنهما، كما كان شعر حسّان، أو يتضمن الحضَّ على

الخير، والوعظ والزهد في الدنيا والتقلل منها، فهو حسنٌ في المساجد وغيرها»[29].

وأمّا الشعر المذموم «الذي لا يحلّ سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحّهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء، ويُفَسِّقوا التقيَّ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول... فهذا حكم الشعر المذموم، وحكم صاحبه، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجدٍ ولا غيره»[30].

وقد أفرد القرطبيّ لشعر التكسّب مبحثا خاصا، وحكم –تبعا للفقهاء– بتحريمه، انطلاقا من أن الشاعر المتكسِّب يفرط في المدح إذا أُعطِيَ، وفي الهجو والذم إذا مُنِعَ، «فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم، ولا خلاف في أنّ من كان على مثل هذه الحالة فكلّ ما يكتسبه بالشعر حرامٌ، وكلُّ ما يقوله من ذلك حرامٌ عليه، ولا يحلّ الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه»[31].

ويسرف القرطبي في حكمه على الشاعر نفسه، سواء أكان متكسبا أم غير متكسب، فإنّ «الذي قد غلب عليه الشعر، وامتلأ صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد لهٍ، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنيئة؛ لحكم العادة الأدبية»[32].

إنّ هذه النظرة السلبية للشعر تجعله –لا ريب– يتقهقر إلى الوراء، خاصة إذا علمنا أنّ أصحاب تلك النظرة هم الذين يحركون الساسة والمجتمع، ويتصرفون فيهما.

وقد انعكس ذلك على الشعراء أنفسهم، فكبتوا ما كان يجول في خواطرهم من صور وأخيلة، وهجر بعضهم الشعر، واشتغل بغيره، وذلك إما احتراما لرأي الفقهاء، وإما خوفا من التضييق الذي يلحق بهم. ولعلّ في الرسالة التي بعثها ابن خفاجة إلى أحد الفقهاء دليلا على ذلك؛ إذ نجد ابن خفاجة يخاطب ذلك الفقيه بقوله: «ولولا أني نزّهت سمعه عن الشعر، لأريته كيف حوك الطبع المهذّب، للوشي المذهَّب،

وكيف لفظ بحر الفكر للجوهر البكر، ولأطلعتُ في سماء معاليه نجوما تنير، ورجوما تبير»[33].

وحقيق بالملاحظة قول ابن خفاجة (نزهت سمعه عن الشعر) بكل ما تحمله كلمة (نزهت) من قيم سلبية، فلا ينزِّه السمع إلا عن كلّ مرذول من القول مستقبح، والطريف في الأمر أن المنزِّه هو أحد كبار شعراء ذلك العصر!! ولعل في ذلك مؤشرا إلى حجم الضغط الذي كان الشعراء يتعرضون إليه من قبل الفقهاء.

موقف يوسف بن تاشفين وخلفائه من الشعر

نقلت كتب التاريخ الأدبي موقفين متباينين ليوسف بن تاشفين من الثقافة عامة ومن الشعر بوجه خاص:

فالأول يزعم أنّ ابن تاشفين قرّب العلماء والمثقفين إليه؛ إذ «انقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كلِّ علم فحولُه، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصرٍ من الأعصار»[34].

إنّ في تشبيه حضرة يوسف بن تاشفين بحضرة خلفاء بني العباس في صدر دولتهم ما لا يخفى؛ إذ بلغت الحركة العلمية والأدبية أوجها، حتى سُمِّيَ ذلك العصر –بحقٍّ– العصر الذهبي، ولا يجتمع كل أولئك الأدباء في حضرة أمير لا يفهم ما يقال، أو لا يكون له دور في نقاشٍ أو جدل حول مسألة تُطْرَح، أو رأي يُفَنَّدً.

وفي مقابل هذا الموقف الإيجابي، ينقل بعض مؤرخي الأدب موقفا سلبيا ليوسف بن تاشفين من الشعر؛ إذ رسم الشَّقُنديُّ لابن تاشفين صورة هزلية، قوامها جهل ابن تاشفين بالعربية وعدم تذوقه الشعر الفصيح؛ لجهله بمقاصد الشعراء، الأمر الذي جعل شعراء الأندلس يعرضون عن مدحه، لولا توسط المعتمد بن عباد، الذي سأله بعدما أنشده الشعراء: «أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال: لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخبز. ولما انصرف المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها:

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقا إليكم وما جفّت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلمّا قرئ عليه هذان البيتان، قال للقارئ: يطلب منا جواري سودا وبيضا؟ قال: لا يا مولانا، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا؛ لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلا؛ لأن أيام الحزن ليالٍ سود. فقال: والله جيد، اكتب له في جوابه: إنّ دموعنا تجري عليه، ورُؤُوسنا توجعنا من بعده»[35].

لقد صوّرت هذه المحاورة بين ابن تاشفين وكاتبه جهل الأول بمقاصد العرب من كلامها، كما بيّن جوابه الذي يريد إيصاله إلى ابن عباد جهله بطرائق التعبير العربي؛ لذا لم يكن غريبا أن يجعله الشقندي غرضا لتهكمه وسخريته إذ قال: «ليت العباس ابن الأحنف قد عاش حتى يتعلّم من هذا الفاضل رقة الشوق!»[36].

والحقّ أنّ في هذه الرواية ما يبعدها عن الحقيقة؛ ويتجلّى ذلك في متنها؛ إذ تنصّ كتب التاريخ على أنّ هذه المحاورة المزعومة وقعت عندما اجتاز المعتمد البحر إلى المغرب لملاقاة ابن تاشفين والاستنجاد به، فكيف يخاطب المعتمدُ ابنَ تاشفين بـ(أمير المسلمين)، وهو لقبٌ جُعِلَ ليوسف بعد قضائه على ملوك الطوائف، وتسلمه ملك الأندلس؟

ولا بدّ من الانتباه لأمرٍ آخر، يضعف هذه الرواية؛ ذلك أنّ الإسلام مرتبطٌ بالعربية، فلا إسلام تامّا بلا عربية، فهي لغة القرآن، وإتقانها شرط في صحة الصلاة، وقد انتشرت العربية بانتشار الإسلام منذ أوائل الفتح، وصار المسلمون الأعاجمُ يقبلون على تعلّم لغة دينهم، وصار المتفقهون منهم من أبرع طلاب العربية نحوا وأدبا. وما سيبويه، وابن جني، ونفطويه، وأبو علي الشلوبين، إلا أمثلة على ذلك.

أفيعقل –والحال هذه– أن يكون يوسف بن تاشفين، وهو الملازم للفقيه عبد الله ابن ياسين الجزولي وغيره من الفقهاء، حتى قرّبوه وجعلوه من المقدَّمين، غير ملمٍّ بلغة العرب؟

فإن قيل: إنّ معرفة العربية للتعامل بها شيءٌ، ومعرفتها بوصفها لغة أدبٍ شيءٌ آخر؛ لما فيها من خروجٍ على مألوف الاستعمال، واتكائها على المجاز والاستعارة.

قلت: إنّ الفرق بين المستويين غير منكور، لكنَّ من يعرف كيف يتلقى الطلابُ علومَ الدين يدرك أنّ هؤلاء الطلاب ليسوا بعيدين عن الاستعمالات الأدبية للعربية، فهم حين يدرسون القرآن الكريم، وحديث الرسول –صلى الله عليه وآله وسلم- لا بدّ أن يقفوا على ما فيهما من مجازات واستعارات، ثمّ إنّ نظرة في كتب أصول الفقه ترينا مدى اهتمامهم بالمجاز وضروب الكلام الخارجة عن الاستعمال الأصلي.

ثمّ إنّ لنا في الوثائق التاريخية دليلا على معرفة يوسف بن تاشفين العربيةَ، فقد نقل الأمير عبد الله، آخر ملوك بني زيري بغرناطة، في كتابه الموسوم بـ(التبيان) صورة عن المجالس التي عقدها ملوك الطوائف مع يوسف بن تاشفين، وسجّل الوقائع فيها حرفيا، وكان الحديث يدور بين الملوك وبين ابن تاشفين دون وساطةٍ، ولا يكون هذا دون معرفةٍ بالعربية(37).

إذن، ما الذي حمل ابن تاشفين على قول ما قال في الشعراء؟ لا أراه فعل ذلك إلا استجابة لفتوى الفقهاء التي تحرِّم سماع شعر التكسب، فإنّ الشاعر المتكسِّب «لا يحلّ الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه». ومن هنا، نفهم إشارة ابن تاشفين الذكية (لكنهم يطلبون الخبز)، أي إنهم شعراء يتكسّبون بشعرهم، وكأنه يذكّر المعتمد بالموقف الفقهي من هذه الطبقة، وأنه لن يسمح بأن يكون لهم مقام في دولته.

وهكذا كانت سيرة من جاء بعده، فقد وضعوا الحُجّاب على الأبواب، ولم يجد الشعراء إليهم سبيلا؛ ولذا توسّلوا بمن لهم حظوة عند أولئك الأمراء، فها هو ذا الأعمى التطيلي يكتب إلى مالك بن وهيب، يذكِّره أمره، ويرجو قيامه بشأنه لدى أمير المسلمين(38):

لعلّك قد أشجتك أخرى شكايـــة قضيتُ بأولاهـــا نحيبي أو نحبي
رفعتُ بها صوتا إذا شئت أحرقت بلابله مـــا انهلَّ من دمعي السكب
وبين أميـــــر المؤمـــــنين وبينه مضايقة الحجّاب أو هيبة الحجب

وإذا ما أفلح الشاعر في الوصول إلى الأمير المرابطي، وجد نفسه محاصرا لا يستطيع البوح بكل ما يختلج في نفسه؛ لتبرم الأمير منه، فلا يجد الشاعر مندوحة

من الاختصار، يقول ابن قزمان مادحا ابن تاشفين[39]:

لسّ لي إلا على سخاك تعويـــــلْ
وانت وحدك ولَسّ يوجد لك مثيل
ربّما ضرّك الكـــــلام الطويل
أَهْـــــنَ نقطع كلامي جِدّ هُ بَعَدْ

وصاية الفقهاء على المجتمع وانعكاساتها على الشعر

بعد أن ثبّت الفقهاء أنفسهم لدى أمراء المرابطين، فرضوا وصايتهم على طبقات المجتمع: عامّته، وعلمائه، وشعرائه.

وتتجلّى وصاية الفقهاء على عامة الناس في الفتاوى بتحريم كثيرٍ من العادات الاجتماعية السائدة في المجتمع الأندلسي يومذاك، كتحريم الطرطوشي شراء الحلوى احتفالا بليلة القدر، وتحريم ابن الحاج تقديم الأطعمة والفواكه يوم عاشوراء، واعتبار ذلك بدعة، بل إنّ ابن عبدون نهى عن لعبة المقارع التي اعتاد عليها الأطفال، وكانت تحدث الهرج والصخب بالأزقة والشوارع[40].

أمّا وصايتهم على العلم فتظهر جلية عندما «قرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرَهم مَنْ ظهر عليه شيءٌ منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدّى أكثره إلى اختلال في العقائد»[41].

ولم يكتف الفقهاء بالقول، بل راحوا ينفذون عمليا تلك الفتاوى، ولعلّ محنة كتاب «الإحياء» خير دليل على ذلك، فقد جُمِعَت نسخ الكتاب وأُحْرِقَت سنة 503هـ[42]، وظلّ الكتاب ملاحقا إلى نهاية الدولة المرابطية[43].

يضاف إلى ذلك تحكُّمُ الفقهاء، وجعلُهم مذهب مالكٍ المذهبَ الوحيدَ، فلا يقبل غيره من المذاهب الإسلامية، بل إنّ من اتّبع غير مذهبٍ مالك فقد اتبع هواه وركب رأسه[44]، ولا يخفى ما في ذلك من تضييق على العقل وحجرٍ على التفكير.

أمّا وصاية الفقهاء على الشعراء فتتمثّل في قسمين:أحدهما خاصٌّ، والآخر عامّ يشتركون فيه والمجتمع.

فأما الوصاية الخاصة على الشعراء فتتمثل في تقسيم الفقهاء الشعر، وجعلِ بعض أقسامه حراما، كشعر التكسب، ووصمهم الشاعر المتكسِّبَ بأنه ملازم للأوصاف المذمومة، وتحديدهم الموضوعات التي ينبغي للشعراء أن يقولوا شعرهم فيها، كشعر الزهد والدعوة إلى الله، والحث على التقوى، أي إنهم أرادوا تحويل الشاعر إلى خطيب واعظ، ولا يخفى ما في ذلك من تضييقٍ على الشاعر، وحبس الملكة الإبداعية لديه.

ويبدو أن الفقهاء كانوا يستعملون سلطتهم فعلا، (فيؤدّبون) من يخرج من الشعراء على ما رسموه، وهذا ما يفهم من قول ابن قزمان[45]:

لولا ما أنتَ قاضٍ / ونخـــاف أن نؤدَّب
كنّقول الخطّ يو / سف و هُ الحق ليعقوب

وأمّا الوصاية العامّة التي طبقها الفقهاء على الشعراء وغيرهم من طبقات المجتمع، فتتمثل في ملاحقة الفقهاء كلّ ما يتعارض –حسب رأيهم- والشريعةَ الإسلامية، وبخاصة الخمر والخمارات، وقد بدا ذلك واضحا في رسالة (أمير المسلمين) إلى فقهاء بلنسية؛ إذ أمرهم بملاحقة الخمر وإراقة دنانها[46].

ولقد طبّق الفقهاء العقوبة على شارب الخمر، وتفننوا في العقوبات، حتى إن الفقيه ابن العربي ظلّ «يوالي التشدّد والتسلّط حتى ثقل على الفساق والأشرار فهاجوا»[47].

وينقل ابن عذاري صورة من تشدد ابن العربي، واختراع أنواع العقوبات، فقد «كان له في عقاب الجناة اختراعات مهلكات ومضحكات، فانتدب أنفسا جمّة صلبا وضربا، وسيق إليه أحد الزَّمَرَةِ[48] فأمر بضرب يديه وثقب شدقيه، فانبطلت الحكمة عليه»[49].

في هذا الجو المشحون بالخوف لا يستطيع شاعرٌ أن يطلق لنفسه العنان، فيشرب أو يتخيّل أنه يشرب، ويبوح بمكنونات نفسه، خاصة بعد أن حُرِمَ من الحانات، والمتتبع لحركة الأدب العربي يجد أن كثيرا من الأدب الراقي إنما ارتبط بالخمر، سواء في وصف حانات الخمر وما يجري فيها، أم في وصف مجالس الشراب الخاصة وما يدور

فيها من لهو وعبث بالقيان وغيرهن، كما يجد المتتبع للشعر العربي في أزهى عصوره أنّ كثيرا من الشعراء صرفوا همتهم في وصف الخمر وأنواعها، وما تفعله بالشارب إذا دارت في رأسه، وإنّ نظرة في ديوان أبي نواس أو الحسين بن الضحاك –على سبيل المثال– لتبرهن على ذلك.

من هنا، نفهم السبب في الحرب المشتعلة بين الفقيه والشاعر، تلك الحرب التي كانت الخمرُ محورها، يقول ابن قزمان[50]:

بيني وبين الفقي جاري فالكاس حروب
في ايّام الخس والبسباس تحلا الذنوب

ونرى ابن قزمان يحذِّر أصحابه ورفاقه في الشرب، ويوصيهم بالكتمان؛ كي لا يسمع الفقيه خبر سكرهم[51]:

اسكت اسكت هذا الخبر يمضغ
وقلادهُ في عنق من بلّغ
إنّ دراها محمد بن أصبغ
خمسُ متّ سوط يحسّر البراح

ويبين ابن قزمان في هذا الزجل نفسه تدخُّلَ الفقيه، وتحقيقه مع الناس؛ ليتأكّد إن كانوا قد شربوا الخمر أم لا، ولا يبخل ابن قزمان بتقديم النصيحة لمن يقوده سوء حظه فيقف مع الفقيه هذا الموقف[52]:

وإذا كنت معْ فقيه أو إمام
ويقولك: شربت قط مدام؟
قُلُّ: اشّنّهُ يا فقي ذا الكلام؟
بالله ما ذقت قط شراب تفاح.

ويبدو أنّ ابن قزمان –لفرط ولعه بالخمر ومعاقرتها– امتلك الدربة في مراوغة الفقيه؛ لذا يعلن صراحة أنه لا يخشاه، كما يعلن أنه سيظلّ يشرب الخمر، ولو وقف على رأسه الفقيه الغزالي نفسه[53]:

يخشى الفقيه كل مَن لا يَدّرُبْ

أنا نوقّر فقيه أو نهرُب؟

جقجقة أم الذي لس يشرب

لو كان على راسي الغزّالي.

إنّ هذا التحدي السافر لسلطة الفقهاء من قبل ابن قزمان هو الذي حملهم على الحكم عليه بالقتل، لولا تدخل محمد بن سير الذي أنقذه(54):

للقتل كان رفعني / ولد ابن المناصف

وعلّمني منافق / وحسبني مخالف

لس عندك مصيبة / لو خرج روح واقف

ونرى السيف بعيني / لِقُطوع راسي يُجّبَذ

أثر البيئة الفقهية في الصور الشعرية

تحدثت فيما مرّ عن تركيز فقهاء المرابطين على الفروع الفقهية في مذهب مالك، وأنهم قدّموا تعلمَ تلك الفروع على كل درسٍ آخر، حتى نسي النظر في القرآن والحديث، على حدّ تعبير عبد الواحد المراكشي.

ومن البدهي أن يكون لهذا التوجّه الفقهي أثر في شعر تلك المرحلة، خاصّة إذا علمنا الوصاية التي فرضها أولئك الفقهاء على الشعراء، وتحديدهم ما يجوز، وما لا يجوز في الشعر.

وقد برزت كثير من الصور الشعرية مرتبطة بالأحكام الفقهية، كالصلاة والصيام والحج وغيرها، ومن ذلك على سبيل التمثيل قول ابن خفاجة(55):

يا رُبَّ قطرٍ جـــــامد حلّى به	نحر الثـــرى بَرَدٌ تحدّر صائبُ
حصَبَ الأباطحَ منه مـــاءٌ جامدٌ	غشّى البـــلاد به عذابٌ ذائبُ
فالأرض تضحك عن قلائد أنجم	نُثِرَتْ بهـــا والجوُّ جهمٌ قاطبُ
فكأنّما زنت البسيـــــطة تحتهً	فأكَبَّ يرجمها الغمام الحاصبُ

لقد أحسن ابن خفاجة وهو يرسم صورة البرد النازل على الأرض، تلك الصورة

المتلألئة الطافحة بالجوهر المنثور على الأرض، لكنه اعتسف الطريق؛ إذ أخرج المتلقي إلى صورة بشعة مستكرهة تنقله إلى جو الزنا والخيانة، بكلِّ ما يحمله ذلك الجو من معانٍ قبيحة، لينهي الصورة بجوٍّ أشدَّ قتامةً، وهو الرجم المؤدِّي إلى الموت.

ويظهر أثر البيئة الفقهية كذلك في قول ابن خفاجة:

ألا طمَّ بحـــــرٌ أَتيٌّ طما — وأجرى كفيٌّ سماء تجــودُ
فأهوتْ تخرُّ هناك البُنى — كما تتلقى الملوكُ الوفــودَ
وباتت كأنَّ عليها صــلاةً — فبعضٌ ركوعٌ وبعضٌ سجودْ

لقد صوّر ابن خفاجة هذا البناءَ الذي طما عليه السيل، فأخذت شرفاته تتهاوى الواحدة تلو الأخرى بالمصلي الذي يهوي مرة راكعا وأخرى ساجدا، ووجه الشبه الملحوظ هنا هو حركة الاثنين فقط، دون ملاحظة أنّ المصلي يخرّ راكعا وساجدا بإرادته، في حين تتهاوى تلك البنى مكرهةً بسبب السيل الذي غمرها.

ومن الصور التي أثرت فيها بيئة الفقهاء، قول ابن خفاجة بعد استرجاع بلنسية من يد العدو(56):

وأقشعَ الكفرَ قسرا عن بلنسية — فانجاب عنها حجابٌ كان منسدلا
وطهَّرَ السيف منها بلدةً جُنُباً — لم يجزها غير ماء السيف مغتسلا

وتتكرر صورة الصلاة عند شعراء تلك الحقبة، كما يتجلى ذلك عند الأعمى التطيلي، فها هو ذا يتحدث عن قصائده التي ساقها في ممدوحه علي بن يوسف بن تاشفين قائلا(57):

أنا ممن أهدى إليك القــوافي — غيرَ وحشيةٍ ولا أَهْمـــــالِ
كنجوم السماء يطلعن في الكتب — ويغربن في صدور الرجـــال
جادها في بلادها رائدُ الوبــل — فأغنى عن نُجْعَةٍ وارتحـــال
وأقيمت لها الصــــلاة بذكرا — ك فكانت صلاتها في الرحال

ويقول في مدح ابن حمدين:

أَعِدْ نظرةً في صادق الودِّ غَضِّهِ يواليك إلظاظَ الحجيجِ بزمزمِ

تيمَّمَ حتى عاينَ الماءَ مطلقًا		فهل تُجْزِيَن عنه صلاة التيمّم

وفي مدح الشخص نفسه، أعني ابن حمدين، يقول ابن قزمان(58):

لا سرور لحدّ إلا / أن يديم الله سرورك

لسّ يرى في وجه احد نور / حتى يستضي بنـورك

من طلب كسب المعالي / وامتنع من ان يــزورك

هذا هُ بحال من اسقط / فالصلاة تكبير الاحرام

ومن مظاهر تأثير الفقهاء على الشعراء مخاطبة الشعراء إياهم بمصطلحاتهم الفقهية، إذ تتردّد على ألسنة الشعراء الكثير من المصطلحات والتعبيرات التي يتداولها الفقهاء، ومن ذلك قول أبي بكر الخولاني المنجِّم، يشفع لأحد السكارى(59):

إنّ درْءَ الحدودِ بالشُبُهاتِ		لَحديثٌ رواه كلُّ الثقــاتِ

ما أراه إلا تناول تفــا		حًا فنمَّتْ عليه في الطرقاتِ

نفحات التفاحِ والراحِ والأتـرجِّ للمرء جدُّ مشتبهـــاتِ

فبتلك الشمائِل المخجلاتِ الروضَ غِبَّ الغمائم الهـاطلاتِ

وبحلم إليه مذْ كنتَ تُعْزَى		وبصبـــر تُعْزَى له وأناةِ

اعفُ عنه وأعفهِ من ثمانيـن تدمِّي أعطافَـه المائسـاتِ

وأقلْ ذنبه وعثـــرته فهو بمـــرآهُ من ذوي الهيـــئاتِ

ويلاحظ في هذا المقام أنه كلّما ازدادت صلة الشاعر بالفقيه ازدادت الصور المستوحاة من البيئة الفقهية عنده، ولعلّ هذا ما يفسر شيوع هذه الصور في شعر ابن خفاجة إذا ما قارنّاه بالأعمى التطيلي وابن قزمان.

صورة الفقيه في الشعر المرابطي

تحول الفقهاء في عصر المرابطين -بسبب سيطرتهم على مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية- إلى موضوع شعري مستقل؛ إذ صار الناس -ومن بينهم الشعراء- يقصدونهم بغية الحصول على بعض المال، أو الوصول إلى درجات عالية في المجتمع.

وكان من البدهي أن تدبَّج المدائح فيهم، وأن تُضفَى عليهم كثير من النعوت والصفات الإيجابية في سبيل استدرار ما في أيديهم، خاصة إذا علمنا حالة الجوع والحرمان التي يمرّ بها الشاعر، واحتياجه إلى الفقيه الذي بيده كلّ شيء، يقول ابن قزمان:

يا فقي القمح غالي / والدقيق أغلى واغلى
والبطن كما في علمك / بلا خبز لسْ يُخَلّى
وغدًا لا شك نسعى / إلا ان كان شي من الله
فإذا اعطيت بفضلك / بالنبي عجّل ورِوِّج

وربّما أعرض أولئك الفقهاء عن بعض الشعراء القاصدين، أو رأى الشعراء سيطرة الفقهاء على كل شيء، فغاظهم ذلك، وثاروا عليهم، ونعتوهم بأسوأ النعوت.

وبين المادح والهاجي تتجلى صورة الفقيه تلك الأيام، وسأستعرض أولاً صفات الفقيه الإيجابية:

لقد أضفى الشعراء على ممدوحيهم من الفقهاء نعوتا إيجابية كثيرة، منها التقدم في العلم، وسعة الحفظ، والشجاعة والإقدام، والجود والكرم، وغيرها.

إن هذه الصفات مبثوثة في كثير من القصائد الطوال، بل لا تكاد تجد ناظما ولا شاعرا في ذلك العصر لم يتعرّض إلى مدح فقيه من الفقهاء.

أما صفة العلم فقد ركّز عليها الشعراء، وجعلوها أول صفات الممدوح؛ إذ بهذه الصفة يتميز الفقيه من غيره، كما يستحق بها أن يتقدم على غيره من الفقهاء، فيكون قاضيا أو ما شابه ذلك، يقول ابن خفاجة مادحا الفقيه ابن حمدين(60):

أحسنْ بقرطبةٍ وقد حملت به ... حسن الفتاة ولبس خلق العانسِ
وتتوَّجَتْ بمنار علم ســـاطع ... قد قام فوق قرار ديــــنٍ آنسِ

ويقول الأعمى التطّيلي(61):

إيه أبــا بكرٍ وهــــذي المنى ... تَفَنَّنٌ منـــــها في أفــــانينِ
يا جملةَ العلمِ وتفصيـــــلَهُ ... من كلّ مفــــروضٍ ومسنـــون

إنْ جيءَ قومٌ بدواوينهم فأنتَ ديوان الـــدواوينِ

وإذا كانت صفة العلم فيما تقدّم من أبيات مطلقةً، فإنها أكثر تحديدا عند ابن قزمان، فالعلم كامنٌ في حفظ المتون، يقول في مدح الفقيه أبي يونس بن مغيث[62]:

ويحفظ المدوَّنْ ظاهر
ولسْ لعلمه بالسُّنة آخر
افخرْ فإنَّ معك مفاخر
بالله يا أخي غاية ما ابقيت

ويقول في مدح فقيه آخر[63]:

واذا اتكلّم لسْ يغلبُ غالبْ
بين يديه يرجع ابن بجّا طالب
والحديث يدري من أمرُ غرايبْ
تراه «قال مسلم» و «قال البخاري»

فالفقهاء –حسب تعبير ابن قزمان- ليسوا فلاسفةً فحسب، وإنّما يكون فلاسفة ذلك الزمان، كابن باجّة، طلابا يتعلمون منهم، يضاف إلى ذلك حفظهم كتب الصحاح، وبخاصة صحيح مسلم وصحيح البخاري، كما لا تخفى الإشادة بحفظ كتاب المدونة عن ظهر قلب، وهو كتاب في الفقه على مذهب مالك.

أما الصفة الأخرى التي يضفيها الشعراء على ممدوحيهم من الفقهاء فهي صفة الشجاعة؛ فالفقيه فارس حربٍ مقدام، مرهوب الجانب، يقول الأعمى التطيلي مادحا الفقيه ابن حمدين[64]:

المُعَلَّى من القـــداح وذو الأثْرِ المحلّى بين الواضي الرقــاقِ
وقريع الأيام ذو نجدة تمضي وشمس النهار في الإشــراقِ
أَسَدٌ يملأ العرين من البـــأ سِ وطودٌ يحمي من الإملاقِ
وفتًى مثلما يشقُّ على الحسادِ ماض يـــوم الكريـــهة واقِ

ويقول ابن خفاجة في مدح الفقيه أبي أمية[65]:

فما شئتَ من سيّـدٍ أيِّدٍ يصُدُّ العِـــدى ويسدُّ الثُّلَمْ
يغار ويمنع من غـــارةٍ فيحمي الحريمَ ويرعى الحرَمْ
يسدِّدُ حتى صدور القناً ويضرب حتى رؤوس البُهَـــمْ

وإنما ركز الشعراء على إبراز صفة الشجاعة في ممدوحيهم من الفقهاء؛ لأنّ هؤلاء الفقهاء كانوا يخرجون للحرب، ويشاركون في القتال إلى جانب الأمراء الملثمين(66)، ويصف ابن قزمان خروج الجيش وقتال (رذمير)، ويبين مكانه في ذلك الجيش؛ إذ لم يفارق الوزير ولا الفقيه(67):

وأنا على فرس / بثيـــابي الكبـــار
بين وزير وبين فقيه / لسّ نزول بَلّقار

والعدل من صفات الفقيه التي لا تفارقه، وإنما يُعرف العدل باقترانه به، يقول ابن خفاجة مادحا أبا أمية(68):

عدلٌ يظلُّ بظلّه ذئب الغضا جارا هناك لظبية الوعساء
وكفاهما أن يخلـــوا بأراكةٍ عند المقيل ويشربا من ماء

فعدل الممدوح لم يشمل البشر حسب، بل تعداهم؛ ليشمل البهائم التي تخلّت عن طبيعتها القائمة على الافتراس.

أما الصفة التي يتفنن الشعراء في إبرازها في الممدوحين فهي صفة الكرم والجود؛ إذ هي صفة نجدها في كلّ فقيهٍ ممدوح، وإنما ركّز الشعراء على هذه الصفة الحميدة؛ بغية أن يجود عليهم الممدوحون، وفي ذلك يقول ابن خفاجة مادحا الفقيه أبا أمية(69):

وحسبك من أوحــد أمجد تباهي به العرب صِيدَ العجم
سنيّ العطايا حفيّ التحاياً عليّ السجـــايا وفيّ الذمم
يُنوِّر بالبشر أخــــلاقه ويجري بكفيـــه ماء الكرم
ويهتزّ للضيف خدّامـــه وتعدي سجايا الموالي الخدم
فـــزره تزر روضةً غضّة وحيِّ تجد هِزةَ الـــروضِ ثَمّ

ويقول في مدح الفقيه أبي العلاء بن زهر[70]:

ولله درُّ أخـــي ســـؤدد		رسا هضبةً وسرى كوكبـــا
تصوب السماء إذا ما حبا		ويمثُل رضوى إذا ما احتبى
وتعشو الضيوف إلى نـاره		فتلقى هنـــاك ألا مرحبا

أما الأعمى التطيلي فيقول في الفقيه ابن حمدين[71]:

أريحيٌّ تراه يهتزّ للبـــذ		لِ اهتزاز القضيبِ للإيراقِ
راكدٌ مثل صفحة الماء أورى		عن ذكاء كالنار في الإبراق
مستبدٌ بالمجد هشَّ إلى الجو		دِ مطيقٌ للأمر غير مطاقِ
دِربٌ بالإحسان مُثْرٍ من الحسـنى		أقام العلا على كلّ ساق
وكفيلٌ بالعدل والجود مشدو		دُ الأواخي ممزِّق الإملاق

فإذا أبطأ الممدوح بالكرم على الشاعر، عاتبه هذا الأخير وذكّره بحاجته، فلما أبطأ ابن حمدين على الأعمى قال[72]:

أبا قاسم خذها عتـــاب تذلّلٍ		وربّتما كـانت عتـاب تبـرّم
أتمضي اللّيـالي لا تقضّي مآربي		ولو شفّني همي بهـــا وتهمّميَ
أجدّك لم تعجَبْ لجدب مسارحي		بحيث رأيت الروض رطب التنمنم
وكم نطفةٍ من مـاء وجهي أرقتها		بـودّيَ لو أني أرقـــتُ لها دمي
وما لمت نفسـي يوم جئتك مـادحا		ولكنه من يحـــرم اللّه يُحــرَمِ
أأكسر قوسـي بعد علمي بـأنني		رميتُ فما أخطيـت شاكلة الرميَ

ثانيا: الصفات السلبية:

صبَّ بعض الشعراء جام غضبهم على الفقهاء، وهم يرونهم يثرون على حساب الفقراء، ويرونهم لا يتورعون عن قبول الرشى، والحكم بما لم ينزل الله به سلطانا، ولذلك فالفقهاء –في نظر الشعراء– سرّاق للمال، لا يستحقون المناصب التي وضعوا فيها.

ومن الصفات السلبية التي ألصقها الشعراء بالفقهاء اتخاذ الفقهاء من العلم

وصورة الزهد طريقا لنهب الناس، يقول ابن خفاجة في هذا المعنى[73]:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتبٍ ومجالسِ
وتزهّدوا حتى أصابوا فرصةً في أخذ مال مساجدٍ وكنائسِ

وفي المعنى نفسه يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني[74]:

أهل الرياء لبستمُ ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتمُ شهب الدواب بأشهبٍ وبأصبغٍ صبغت لكم في العالم

أما الصفة السلبية الثانية في الفقهاء فهي صفة الجشع، التي سوّغت لهم الإفتاء حسب مصالحهم الخاصة، فهم يضيّقون على من لا يملك شيئا، أمّا من يقدم لهم الرِّشى فإنهم يفتونه بما يوافق مصلحته، وفي هذا المعنى يقول ابن الطراوة[75]:

إذا رأوا جملا يأتي على بُعُدٍ مدّوا إليه جميعا كفَّ مقتنصِ
إنْ جئتهم فارغا لزّوك في قَرَنٍ وإن رأوا رشوةً أفتوك بالرخَصِ

وقد هُجي الفقهاء بصفة ثالثة، وهي النجاسة، فإنّهم أنجاس حتى إنّ ظلّ أحدهم لينجس الشمس، وحتى إنّ الوضوء ليبطل بمجرد ذكر اسم الفقيه، يقول أبو بكر يحيى ابن سهل اليَكّيّ –هجّاء المغرب[76]:

أعدِ الوضوء إذا نطقت به متذكّرا من قبل أن تنسى
واحفظ ثيابك إن مررتَ به فالظلُّ منه ينجّس الشمسا

وقد نُعتوا بصفة أخرى وهي النحس، فمتى ما دعوا بحاجة وقع ضدُّها، فقد خرج الفقهاء "ليستسقوا على أثر قحطٍ، في يومٍ غامت سماؤه، فزال ذلك عند خروجهم، فقال ابن الطراوة:

خرجوا ليستسقوا وقد نشأتْ بَحْرِيَّةٌ ممَّن بها السَّحُّ
حتى إذا اصطفوا لدعوتهم وبدا لأعينهم بها نضح
كُشِفَ الغمامُ إجابة لهم فكأنما خرجوا ليستصحوا "[77]

وأخيرا فإنّ اليكيّ يجمع خصال الفقهاء قائلا[78]:
ثماني خصالٍ في الفقيه وعرسه وثنتان والتحقيق بالمرء أليَقُ

....

ويكذبُ أحيانا ويحلف حانثا ويكفر تقليدا ويرشى ويسرق
وعاشرة والذنب فيها لأمّه إذا ذُكِرَت لم يبقَ للشتم منطقُ

وبعد،

فقد بقيت مفارقة واحدة لا بدّ من الوقوف عندها؛ فإنّ كثيرا من أولئك الفقهاء الذين عرضنا إلى موقفهم المتشدد من الشعر والشعراء كانوا شعراء كذلك! وإنّ من يتتبع كتب التاريخ الأدبي كالمطمح والذخيرة والنفح وغيرها يجد كثرة كاثرة من شعر أولئك الفقهاء، فكيف يمكن التوفيق بين رأيهم وفعلهم؟

تلك دراسة ينبغي أن تكون مستقلة، يُبْحَثُ فيها موضوع (شعر الفقهاء) بعد جمعه من مصادره، وتقسيمه حسب موضوعاته، ودراسة أساليبه، ولعلّ مثل تلك الدراسة تتكفّل بحل المفارقة المشار إليها.

الحواشي (الهوامش):

1 -انظر: نجيب زبيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، 2/ 280.

2 - حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 413

3 -المرجع نفسه، ص 414

4 - حمدي عبد المنعم: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 325 نقلا عن: ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 28

5 -ديوان ابن قزمان، زجل 98/ 5، ص 664

6 - النشير هو الخبز.

7 -نجيب زبيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، 2/ 305

8 -المقّري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، 1/ 222

9 -عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 75

10 -ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 3، ج 2/ 653-654

11 - ديوان الأعمى التطيلي، ص 52

12 - المرجع نفسه، ص 42

13 -ديوان ابن قزمان، زجل 67/ 14، ص 436

14 - ديوان ابن قزمان، زجل 74/ 7، ص 480

15 -المغرب في حلى المغرب، 1/ 224

16 - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 72-73

17 - ديوان الأعمى التطيلي، ص 90

18 - المعجب، ص 151

19 - الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص 375-376

20 - حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، ص 24

21 - انظر تاريخ ابن خلدون، 6/ 187

22 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 7/ 236

23 – المعجب، ص 150

24 –حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، ص27

25 –من الآية 224/ سورة الشعراء.

26 – أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن، 3/ 470

27 – من الآية 227/ سورة الشعراء

28 – ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 4/ 247

29 – أبو عبد الله القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 12/ 271

30 –المصدر نفسه 13/ 149-150

31 – المصدر نفسه 13/ 150

32 –المصدر نفسه 13/ 151

33 – الذخيرة، ق3، 2/ 552

34 –المعجب، ص 144

35 – نفح الطيب، 3/ 191-192

36 –المصدر نفسه، ص 192

37 – انظر: التبيان، ص 106-107

38 – ديوان الأعمى التطيلي، ص 14

39 – ديوان ابن قزمان، زجل 102/ 13، ص 690

40 – يراجع ذلك وكثير من الأمثلة في: إبراهيم القادري بو تشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 86-101

41 –المعجب، ص 151، ولا ينتقض هذا التوجّه العام لفقهاء المرابطين ببزوغ نجم واحد من أكبر علماء الكلام، وهو أبو بكر بن العربي؛ لأن ذلك لا يعدو كونه حالة فردية، وكلام المعجب هنا شاخص إلى الحالة العامة، وموقف الفقهاء على العموم من علم الكلام.

42 – انظر المصدر السابق والصفحة نفسها.

43 – انظر نصّ الرسالة التي بعثها تاشفين بن علي لفقهاء بلنسية في: نصوص سياسية، حسين مؤنس،

مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، ص 113

44 – المصدر نفسه، ص 112-113

45 –ديوان ابن قزمان، زجل 44/ 5، ص 306

46 –حسين مؤنس: نصوص سياسية، ص 113

47 –ابن عذاري: البيان المغرب، ص 94

48 – هذه الكلمة غير مشكولة في النص، وقد رأيت أنها تضبط على هذا النحو: الزَّمَرَة ككفرة وفَسَقَة، من يستعملون الزَّمر، وهو آلة موسيقية.

49 – ابن عذاري: البيان المغرب، ص 93

50 –ديوان ابن قزمان، زجل 71/ 3، ص 460

51 –ديوان ابن قزمان، زجل 94/ 4، ص 630

52 –الزجل نفسه، الفقرة 8

53 –ديوان ابن قزمان، زجل 22/ 4، ص 166

54 – المصدر نفسه، زجل 41/ 2، ص 286

55 – ديوان ابن خفاجة، ص 24

56 – ديوان ابن خفاجة، ص 219

57 –ديوان الأعمى التطيلي، ص 105

58 –ديوان ابن قزمان، زجل 97/ 6، ص 658

59 – الذخيرة، القسم 4، ج1، ص 357

60 – ديوان ابن خفاجة، ص 154

61 – ديوان الأعمى التطيلي، ص 221

62 – ديوان ابن قزمان، زجل 18/ 8، ص 128

63 –ديوان ابن قزمان، زجل 20/ 26، ص 152

64 –ديوان الأعمى التطيلي، ص 86

65 – ديوان ابن خفاجة، ص 242

66 – انظر خبر خروج أبي بكر بن العربي، واستشهاد بعض الفقهاء في وقعة (كتندة) سنة 514هـ في : نفح الطيب، ج4، ص 461

67 – ديوان ابن قزمان، زجل 10/86، ص 558

68 – ديوان ابن خفاجة، ص 20

69 – المصدر نفسه ، ص 243

70 – المصدر نفسه، ص 50

71 –ديوان الأعمى التطيلي، ص 86

72 –المصدر نفسه، ص 173،174

73 – ديوان ابن خفاجة، ص 155، وانظر رأي الغزالي في فقهاء عصره في: ملحق إحياء علوم الدين، ص 13

74 – المعجب، ص 150

75 – تحفة القادم لابن الأبّار، ص 18

76 – المُغرِب في حُلَى المَغرب، ج2، ص 267

77 – تحفة القادم لابن الأبّار، ص 19

78 – المغرب، ج2، ص 267

قائمة المصادر والمراجع

1 – ابن الأبّار، تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1967م.

2 – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1982م.

3 – بلكين، عبد الله، التبيان، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1955م.

4 – بو تشيش، إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1993م.

5 – التطيلي، ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

6 – ابن خاقان، الفتح، مطمح الأنفس ومسرح التأنّس، تحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م.

7 – ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، دار صادر، بيروت، (د.ت)

8 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1971م.

9 – زبيب، نجيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، 1995م.

10 – الشنتريني، ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، 1979م.

11 – عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عمّان، 1997م.

12 – عبد المنعم، حمدي، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م.

13 – ابن العربي، أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.

14 – ابن عطية، أبو محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد.

15 – القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1964م.

16 – ابن قزمان، ديوان ابن قزمان، نشر ف. كورنيطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد،

1980م.

17 - مؤنس، حسين، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م.

18 - مؤنس، حسين، نصوص سياسية، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثالث، العدد الأول، 1955م.

19 - محمود، حسن أحمد، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة.

20 - المرّاكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م.

21 - المرّاكشي، ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

23 - المغربي، ابن سعيد، المُغْرِب في حُلى المَغْرِب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1964م.

24 - المقّري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

كِندة الأصل والمستقر
معطيات من النقوش والآثار

د. عبدالله كرامه التميمي*

الملخص

يتناول هذا البحث قبيلة كِندة في ضوء النقوش المكتشفة والآثار، ويهدف إلى إيضاح الدور الذي لعبته هذه القبيلة على مستوى الجزيرة العربية قبل الإسلام، ويعالج إشكالية رئيسة تتمثل في تحديد الموطن الأول لكِندة وتحوّل مستقرها في ضوء المعلومات الجديدة التي قدمتها النقوش والآثار.

وتم تقسيم البحث إلى ستة محاور هي:

1) كِندة في عاصمتها قرية ذات كهل (قرية الفاو)

2) كِندة قبيلة أعرابية

3) كِندة في حضرموت

4) كنده في غمر ذي كِندة في نجد

5) المدن الكِندية في حضرموت

6) الخاتمة.

وقد خلص البحث إلى أن الموطن الأول لكِندة ليس حضرموت كما كان متداولاً، بل مدينة (قرية ذات كهل) (قرية الفاو) إلى الشمال الشرقي من نجران الواقعة حاليًّا جنوب المملكة العربية السعودية. ثم انتقلت إلى منطقة الأعراب في عسير وما حولها إثر هزيمتها، واستقر بها المطاف في حضرموت مقتسمة بذلك أرض حضرموت مع السكان الحضارمة الأصليين. وظلت كِندة مقتسمة أرض حضرموت مع سكانها الأصليين حتى دخول حضرموت في كنف الدولة الإسلامية. وشيئًا فشيئًا اندمج الكنديون مع السكان الأصليين وشكلوا في مرحلة لاحقة عنصرًا سكانيًّا واحدًا وهو ما عُرف بـ (الحضارمة).

---

* قسم التاريخ - كلية الآداب - المكلا - جامعة حضرموت - الجمهورية اليمنية

The Arabic Comparative Study
Realism and Optimism

Dr. Abdullah kramah Al Tamimi

Abstract

This paper discusses the factor of the Arabic Comparative Study through some issues and problems connected with the study of Arabic Comparative Literature like, its concept, methods, directions and other relevant issues which concern the researcher in the Comparative Literature.

Although most of these issues were resolved by prominent American and European comparative literature scholars long time ago, some of them are still under discussion among Arab scholars. Other problems hinder the progress and development of Arabic comparative literature and prevent it from achieving its aim and improvement.

No doubt, the main reason of the differences in viewpoints is due to the variety of the comparative methods, which Arab scholars have studied at the hands of their advocates in the West. There is an important factor to enrich the Arabic Literature in particular, and the Arabic Culture in general. The fearing point in this context is to reach an extent of intolerance and not respecting others' opinions.

The purpose of this paper is to reach a clear Arabic vision and a comprehensive academic method in studying Arabic comparative literature. For this reason: 1. the situation and the problems facing the Arabic comparative studies have been discussed, 2. The situation of translation and publication in the Arabic comparative literature have been discussed too. A wide bibliography on the comparative literature in the Arab World which contained publications and researches has been prepared.

This paper ends with a conclusion which includes the most important methods that Arab researchers must follow to improve and enrich the horizons of Arabic Comparative Literature.

توطئة - نسب كِندة

تتفق النقوش والمصادر الإخبارية العربية في أن كِندة تنسب إلى شخص يدعى (ثور)، و قبل الكشف عن النقوش درجت المصادر الإخبارية العربية على القول بأن كِندة قبيلة قحطانيّة يمنية تنسب إلى (ثور بن عفير بن عدي بن الحارث وينتهي نسب ثور إلى كهلان بن سبأ، وثور عندهم هو كِندة)[1].

ويجعل النسّابون العرب (كِندة) ضمن قبائل اليمن ثم هاجرت من ديارها بدمّون بأرض حضرموت، واستقرت في غمر ذي كِندة بنجد على مسافة عشرين ميلاً من مكة، و أصبحوا حكامًا لتحالف قبلي أساسه قبائل (معدّ)[2]، ويستدل هؤلاء النسابون على أنها قبيلة يمنية من أسماء ملوكها وأفرادها التي تتشابه مع أسماء إخوانهم في اليمن أمثال (شرحبيل) و(معدّ يكرب) ...إلخ. كما أن هناك شعرًا للشاعر الكندي الجاهلي امرئ القيس أشار فيه إلى موطن أجداده بدمّون باليمن، و لعل الإخباريين استندوا إلى شعره في تحديد موطن قبيلة كِندة في حضرموت، حيث جاء في شعره:

تطاول الليـــل علينا دمّون دمّون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبون

وقوله أيضًا:

ولو شاء كان الغزو من أرض حِميرا و لكن عمدًا إلى الروم أنفرا[3]

وفي هذا البيت نجده يشكو حاله بعد مقتل أبيه غدرًا على يد بني أسد ، فيقول وهو مغادر للاستنجاد بالروم: لو كانت بلاد حِمير على ما كانت عليه قبل غزو الأحباش لها لكان النصر من هناك و لما استنجدت بالروم.

وجاء اسم (ثور) في أحد النقوش السبئية نسبًا إلى أحد الملوك الكِنديين وهو (ربيعة آل ثور) ملك كِندة و قحطان. وهذا النقش من عهد الملك السبئي (شعرم أوتر بن علهان نهفان) ملك سبأ وذي ريدان[4] فجاء نسب الملك الكندي المعاصر لشعرم أوتر (آل ثور) وهو النسب الذي جعله الإخباريون لكِندة ، الأمر الذي يدل على صدق روايتهم عن انتساب كِندة إلى ثور، على الرغم من أَنهم جعلوا كِندة هو ثور نفسه، في

حين نجد في النقوش أن كِندة قبيلة استقرت في قرية ذات كهل، وأقامت دولة هناك يرجع تاريخها حسب النقش المذكور إلى القرن الأول الميلادي[5].

ومما سبق وعلى ضوء المقارنة بين ما جاء في النقوش و ما جاء عند الإخباريين العرب عن نسب كِندة نستطيع القول: إن ملوك كِندة بدءًا بـ (حجر بن عمرو آكل المرار) و انتهاءً بالشاعر امرئ القيس بن حجر بن الحارث ينتسبون إلى الملك الكندي المذكور في النقش جام 635 وهو (ربيعة آل ثور) (ملك كِندة و قحطان) المعاصر للملك السبئي شعرم أوتر بن علهان نهفان ملك سبأ وذي ريدان[6].

أولاً: دولة كِندة في قرية الفاو:

قبل الكشف عن النقوش السبئية والحِميرية كانت معلومات المؤرخين عن الدور السياسي لكِندة تنحصر فيما جاء عنهم في كتب الإخباريين العرب ملوكًا على قبائل معدّ في وسط شبه الجزيرة العربية، متخذين من (غمر ذي كِندة) مقرًا لحكمهم[7]. أما بعد الكشف عن النقوش فقد تبين أن كِندة دولة منذ القرن الأول الميلادي، كانت تتخذ من مدينة (قرية) (قرية ذات كهل) مقرًا لحكمها و ذلك إلى الشمال الشرقي من نجران. و جاء حديث هذه النقوش عن كندة في سياق حديثها عن الحروب التي خاضها بعض الملوك السبئيين مع ملوك كِندة[8].

وبالكشف عن هذه النقوش فإن التاريخ قد عاد بكِندة إلى القرن الأول الميلادي، كيانًا سياسيًّا وعسكريًّا مستقلاً يحكم في (قرية ذات كهل) ونصت هذه النقوش أن كِندة شعب، وهو بالمفهوم اليمني القديم قبيلة حضرية مستقرة[9]. وفي مرحلة متأخرة أَسند علم الآثار ما جاءت به النقوش السبئية والحِميرية عن كِندة حيث تم الكشف عن آثار (قرية ذات كهل) العاصمة الكِندية القديمة فيما يعرف اليوم بـ (قرية الفاو) إلى الشمال الشرقي من نجران في وادي الدواسر الواقع اليوم ضمن حدود المملكة العربية السعودية، وقد حدث هذا الكشف الأثري في عام 1970م[10].

وسوف نتناول بشيء من التفصيل المعلومات المتوافرة عن كِندة في عاصمتها (قرية

ذات كهل) المستقاة من النقوش ونتائج التنقيب الأثري.

أ) المعلومات الواردة في النقوش عن كندة في قرية ذات كهل:

تحدثت النقوش عن كِندة مملكة و شعبًا يحكمها ملوك من عاصمتها (قرية ذات كهل) [11] كما تحدثت عن كِندة قبيلة أعرابية في قوام الجيش الحِميري غير النظامي (جيش الأعراب)، و مشاركة في حملات ملوك حمير التأديبية ضد قبائل معدّ في وسط شبه الجزيرة العربية[12] وتحدثت عنها كيانًا سياسيًّا قائمًا في حضرموت في عهد أبرهة الحبشي[13].

وسوف نتناول هذه النقوش لنقف عند كل نقش والمعلومات التي أمدنا بها عن كِندة:

النقش الأول الموسوم بـ (635 جام):

يُعد هذا النقش ذا أهمية عظيمة بالنسبة إلى تاريخ كِندة في عاصمتها (قرية ذات كهل) والتي كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت عام 1970م عن موقعها إلى الشمال الشرقي من نجران في موقع يقال له: (قرية الفاو) جنوب المملكة العربية السعـــــودية [14].

وتكمن الأهمية التاريخية لهذا النقش في أنه كشف لنا، ولأول مرة، عن كِندة مملكة تحكم في وسط شبه الجزيرة العربية في فترة القرن الأول الميلادي حسب تقديرات جام لتاريخ كتابة هذا النقش، بعد أن كانت معلومات المؤرخين عن كِندة لا تتعدى القرن الخامس الميلادي. عندما كانت حاكمة على قبائل معدّ تتخذ من غمر ذي كِندة مقرًّا لها[15].

وكما أسلفنا فإن هذا النقش يعود إلى عهد الملك السبئي (شعرم أوتر بن علهان نهفان) ملك سبأ وذي ريدان، وسطر النقش قائده (أبا كرب أحرس) الذي ذكر في هذا النقش أنه قائد الحملة العسكرية ضد (قرية ذات كهل) التي يحكمها (ربيعة آل ثور) (ملك كِندة و قحطان)، وضد سادات قرية وشعب قرية بأمر من سيده (شعرم أوتر) ملك سبأ وذي ريدان [16] .

ولفظة ذات كهل المرتبطة باسم (قرية) في النقش تعني أنها قرية الإله كهل أو القرية التي تتعبد للإله كهل. والإله كهل هو من الآلهة العربية الجنوبية (كهل آن) (أي الكهل). ويصور هذا اللفظ إله القمر عند الشعوب السامية التي تتعبد له وتتصوره رجلاً كهلاً وهو إله القمر في كل الأساطير السامية[17].

ويذكر النقش كِندة بـ (كدت) أي بالتاء المفتوحة، و(كدت) في النقوش هي (كِندة) لأن النون الساكنة في اللغة اليمنية القديمة تنطق ولا تكتب وهذه خاصية من خصائص اللغة اليمنية القديمة[18] وبها حسمت مسألة الشك التي أثارها بعضهم حول اسم (كدت) في النقوش، وأنه قد يكون اسمًا لقبيلة أخرى غير كِندة المعروفة لدى المؤرخين العرب.

لقد ظهرت كِندة في هذا النقش عدوًّا للملك السبئي (شعرم أوتر) ولهذا جرّد عليها هذه الحملة العسكرية الضخمة بقيادة أحد قادته البارزين وهو (أبو كرب أحرس) الذي سبق أن ظهر قائدًا لحملة أخرى ضد الأحباش المحتلين لظفار العاصمة الحميرية .

أما غرض الحملة كما بيّنه النقش هو مهاجمة ملك كِندة وسادتها وشعبها المتمركزين في(قرية ذات كهل). وكتب جام عن أحداث هذه الحملة بعد دراسته لهذا النقش وقال: «إن جيش شعرم أوتر التحم في معركتين: الأولى مع ربيعة آل ثور ملك كِندة وقحطان (ر ب ع ت / ذ ث و ر م / م ل ك / ك د ت / و ق ح ط ن م / و ب ع ل ى / أ ب ع ل / هـ ج ر ن / ق ر ي ت م /) وحارب سادات قرية وشعب قرية، وحقق النصر عليهم وعاد بالغنائم الوفيرة. والمعركة الثانية مع بني أسد لمساعدتهم بني ثورم (كِندة) في هذه الحرب وحقق النصر عليهم أيضًا»[19].

و نستخلص من هذا النقش ما يلي:

1 - كِندة دولة عاصمتها قرية ذات كهل.

2 - يحكم كِندة ملك ، يدعى (ربيعة آل ثور) ولقبه (ملك كِندة وقحطان).

3 - قحطان قبيلة تخضع لكِندة ولملكها ربيعة آل ثور.

4 – تجريد الملك السبئي (شعرم أوتر) حملة عسكرية ضخمة لغزو كِندة بقيادة قائده (أبي كرب أحرس) اتجهت إلى قرية وملكها ربيعة آل ثور وإلحاقه الهزيمة بهذا الملك وبشعبه.

5 – ذكر النقش الكِنديين بلفظ (شعب كِندة)، وهو لفظ له دلالة حضرية نفهم منها أن كِندة شعب حضري مستقر في مدينته (هجرن قريتم) أي (مدينة قرية). وليس قبيلة أعرابية بدوية كما هو حال قبائل معدّ.

6 – تظهر كِندة في النقش عدوًّا للملك السبئي (شعرم أوتر) ولم يذكر النقش سبب هذه العداوة ولكن ربما شكلت كِندة خطرًا على القوافل التجارية المتجهة من بلاد سبأ إلى الخليج العربي حيث تقع قرية على الخط التجاري الذي تسلكه القوافل التجارية المتجهة من بلاد سبأ إلى الخليج العربي[20]. أو أن كِندة استغلت ضعف دولة سبأ ودخولها في صراع داخلي حول العرش السبئي في مأرب قبيل وصول (شعرم أوتر) إلى سدة الحكم في مأرب فقامت بعمل معادٍ حمل (شعرم أوتر) على تأديبها[21].

7 – الفترة التي كان يحكم فيها الملك الكِندي (ربيعة آل ثور) هي فترة القرن الأول الميلادي حسب تقدير جام لتاريخ هذا النقش[22].

إن هذا النقش يمثل وثيقة تاريخية مهمة بالنسبة إلى كِندة فهو منطلقٌ لكل من أراد أن يقف على تاريخ كِندة قبل الإسلام، وأي تجاهل له يجعل الحديث عن كِندة ودورها التاريخي في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام واهيًا ومنقوصًا. فبعد اكتشاف البعثة الأمريكية عام 1951م لهذا النقش ودراسة جام له توافرت لدى الباحثين والدارسين معلومات عن تاريخ كِندة في نجد في القرون الميلادية الأولى وربما القرن الأول ق.م بعد مرور فترة من الزمن ساد فيها الاعتقاد بأن الدور السياسي لكِندة يبدأ في القرن الخامس الميلادي كقبيلة حاكمة على قبائل معدّ في نجد.

لقد بيّن هذا النقش أن كِندة كانت دولة قائمة في وسط شبه الجزيرة العربية تتخذ من (هجرن قريتم) عاصمة لها وليس هذا فحسب، بل يلقي الضوء على طبيعة العلاقة القائمة بينها وبين الدولة السبئية في تلك الفترة، ويستشف منه أن دولة كِندة

كانت على قدر من القوة بحيث شكلت خطرًا على دولة سبأ مما استدعى تجريد الملك السبئي (شعرم أوتر) حملة عسكرية ضخمة لتأديبها. وعلى الرغم من أن الهزيمة قد لحقت بكِندة وملكها؛ نلاحظ أنها ظلت قائمة بعد تلك الحملة بدليل تجريد حملة سبئية أخرى عليها في نهاية القرن الثاني أو أوائل القرن الثالث الميلادي[23].

ويستوقفنا لقب ملك كِندة في هذا النقش وهو (ملك كِندة و قحطان)، فهو يشير إما إلى تحالف كِندة مع قحطان تحت زعامة الملك الكندي (ربيعة آل ثور)، أو أن قحطان قد خضعت للسيطرة الكِندية. ويستوجب الأمر علينا أن نقف عند هذا الاسم (قحطان)، وهو بدون شك اسم لقبيلة تعيش بجوار كِندة في منطقة وادي الدواسر وما حولها. ومن محاسن الصدف أن ذلك النقش الذي عثر عليه في أنقاض (قرية) - وهو عبارة عن شاهد قبر أحد الملوك وهو معاوية بن ربيعة - مكتوبًا بخط المسند وهذا نصه:

1 - قبر معاوية بن ربيعة من آل . . .

2 - ملك قحطان و مذحج بنى عليه.

3 - عبده هفعم بن بران بن آل ألا[24]

إن هذا النقش يثير إشكالية في تاريخ كِندة إذا ما قورن بالنقش 635 جام، ففي النقش 635 جام كان لقب الملك الكندي (ربيعة آل ثور) هو (ملك كِندة و قحطان)، في حين نجد في نقش (قرية) لقبًا آخر للملك معاوية بن ربيعة وهو(ملك قحطان ومذحج)، دون ذكر لكندة هنا، كما أنه لا وجود لاسم ثور. وهناك تلف في السطر الأول بعد اسم ربيعة أَضاع علينا اسم جده، ثم يأتي لقبه (ملك قحطان ومذحج) ليدل على أنه ليس من كِندة، وربما يكون قحطانيًّا[25].

إن ما يمكن الخروج به من قراءة هذا النقش وتحليله أن قحطان أصبحت هي القبيلة الحاكمة في قرية في عهد هذا الملك متحالفة مع قبيلة أخرى هي (مذحج) في حين لم يعد لكِندة وجود في قرية، وربما أنها هاجرت منها بعد انتصار التحالف القحطاني المذحجي بزعامة الملك القحطاني (معاوية بن ربيعة).

وفي تعليق للدكتور عبدالرحمن الأنصاري على هذا النقش يقول: «هذا النص، على قصره، يثير كثيرًا من الاستفسارات عن هذا الملك الجديد الذي لم يرد له ذكر لا في النقوش الجنوبية ولا في كتب الأخبار العربية، فهو على ما يبدو قحطاني بسط نفوذه في قرية على قحطان ومذحج »[26].

ويتساءل الأنصاري قائلاً: «ما صلة معاوية هذا بربيعة آل ثور ملك كِندة و قحطان في النقش 635 جام؟ ويجيب قائلاً: إنني أظن أن معاوية هذا، وأعتقد أنه كان في القرن الثاني الميلادي إنما كان في فترة ضعف لكِندة فاستطاع وهو من قحطان أن يتملك عليها وعلى مذحج رغم أن مذحج مرتبطة ارتباطًا قويًّا مع كِندة في النقوش الجنوبية وفي الكتب العربية»[27].

فالأنصاري هنا يرجح سيطرة قحطان على كِندة في فترة ضعف كانت تمر بها ولكنه لم يحدد أسباب هذا الضعف. ونحن نتفق مع الأنصاري ونتساءل: هل تعرضت كِندة في الفترة التي سبقت وصول هذا الملك القحطاني (معاوية بن ربيعه) لغزو خارجي أضعفها أمام قحطان فتغلبت عليها وأصبحت كِندة محكومة بعد أن كانت حاكمة، ثم آثرت الرحيل عن قرية طواعية أو كرهًا؟

والإجابة عن هذا التساؤل نجدها في حيثيات النقش السبئي الموسوم بـ 2110جام، ونقش النمارة. فالنقش الأول يتحدث عن حملة عسكرية كبيرة قادها الملكان السبئيان (إل شرح يحضب وأخوه يأزل بيّن) (ملكا سبأ وذي ريدان) على مدينة (قرية) وملكها الكندي (مالك بن بدّا) الملقب بـ (ملك كِندة ومذحج)[28].

والسؤال الذي يطرح نفسه، ما سبب هذا الغزو؟ وما النتائج التي ترتبت عليه؟

خلاصة المعلومات الواردة في هذا النقش يمكن حصرها في الآتي:

1 - يعود النقش لعهد الملكين السبئيين (إل شرح يحضب وأخيه يأزل بيّن) (ملكي سبأ وذي ريدان).

2 - تجريد الملكين حملة عسكرية كبيرة على (قرية) وملكها الكندي (مالك بن بدّا) (ملك كِندة ومذحج) وعلى (أسد) وملكها (الحارث بن كعب).

3 - سبب هذه الحملة هو معاداة ملك كِندة وقبيلة كِندة للسبئيين، وذلك لقيامهم بدعم وتأييد (امرئ القيس بن عوف) (ملك خصصتن) (ملك خصاصة) الذي قام بغزو مأرب العاصمة السبئية وفشل هذا الغزو.

4 - نتيجة الحملة تحقيق النصر وإلحاق الهزيمة بكِندة وأسر ملكها وقادته والقدوم بهم إلى العاصمة السبئية (مأرب).

5 - يذكر النقش أن الأمر انتهى بعقد صلح بموجبه يقوم الكنديون بتسليم امرئ القيس بن عوف للسبئيين وتقديم الرهائن، ومن بينهم ابن الملك الكندي وأبناء سادات كِندة بالإضافة إلى تقديم الأموال من الإبل والخيل والذهب والفضة، ومقابل ذالك يقوم السبئيون بفك أسر الملك الكندي وقادته[29].

6 - يؤكد النقش تنفيذ الصلح بكامل شروطه وفك أسر الملك الكندي[30].

7 - يعود زمن هذه الحملة حسب تقدير جام لتاريخ النقش إلى نهاية القرن الثاني الميلادي، أو أوائل القرن الثالث الميلادي [31].

لقد أجاب هذا النقش عن تساؤلنا حول ما إذا تعرضت كِندة لغزو خارجي أضعفها أمام منافسيها القحطانيين، وكان هذا غزوًا سبئيًّا تعرضت له كِندة في عقر دارها (قرية) في نهاية القرن الثاني أو أوائل القرن الثالث الميلادي، وأصبحت مغلوبة على أمرها بعد أن أسر السبئيون ملكها وقادتها. وعلى الرغم من عقد الصلح، وإطلاق سراح الملك الكندي، نلاحظ أن كِندة قد أصابها الضعف وأنهكتها الحرب وشروط ذلك الصلح خاصة الأموال التي دفعتها وإن لم تكن معروفة لنا؛ إلا أنه من الطبيعي أن تكون باهظة كعادة المنتصر في الحرب إذ يفرض غرامات تعويضًا عن خسائره ومحاولة منه لإنهاك عدوه بحيث يظل ضعيفًا. ولهذا نرجِّح أن هذه الحملة قد أضعفت كِندة أمام القحطانيين فاستغلوا الفرصة ونصّبوا زعيمهم ملكًا في قرية. وإلى هذه الفترة يعود تكوين جيش الأعراب الحِميري الذي أسسه الملك الحِميري (شمر يهرعش بن ياسر يهنعم) (ملك سبأ وذي ريدان) في نهاية القرن الثالث الميلادي. وأصبحت كِندة الفصيل الرئيس في هذا الجيش الأمر الذي يفسر لنا انحسار دورها في قرية

وبروز دور قحطان[32]. أما نقش النّمارة فقد حمل لنا أخبار الحملة العسكرية التي قادها ملك الحيرة (امرؤ القيس بن عمرو) (288-328م) منطلقًا من الحيرة ومنتهيًا بأسوار نجران في الجنوب. وفي طريقه أخضع القبائل العربية في نجد ، التي كانت في عداء معه ، وهي قبائل أسد ونزار ومذحج. وما يهمنا من هذا النقش أمران :

الأول فترة الحملة، وقد تمت خلال فترة حكم الملك (امرىء القيس بن عمرو) (288-328م) ، حيث تم تدوين تاريخ وفاته بعام 328م . وربما يكون هذا العام هو العام الذي حدثت فيه هذه الحملة، بدليل أن قبر هذا الملك عُثر عليه في حوران ببلاد الشام (خرائب النّمارة).و من المحتمل أن وفاته كانت عند عودته من حملته على جنوب الجزيرة العربية وفشله في غزو الأراضي الحِميرية، بدليل قوله في النقش (وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر)، وشمر هنا هو الملك الحِميري المشهور في النقوش العربية الجنوبية باسم (شمر يهرعش بن ياسر يهنعم) الذي كان معاصرًا للملك (امرىء القيس بن عمرو) صاحب نقش النّمارة.[33].

وهذه الفترة هي الفترة التي أصبحت فيها كِندة قبيلة أعرابية، تعيش في كنف الدولة الحِميرية، ولم تعد حاكمة في (قرية ذات كهل) [34] .

الأمر الثاني : أن نقش النّمارة على الرغم من أنه لم يذكر كِندة، لكنه ذكر مذحج بأنها هُرِّبَت، أي تم إجلاؤها عن منطقتها باتجاه الجنوب. وعرفنا من النقوش السابقة أن مذحج كانت متحالفة مع كِندة إبّان حكم الأخيرة لقرية ذات كهل، ثم أصبحت في القرن الرابع الميـــلادي في قوام جيش الأعراب الحِميـــري جنبًا إلى جنب مع كِندة [35].

ويقودنا هذا الأمر إلى القول باحتمال مغادرة كِندة لموطنها في قرية ذات كهل باتجاه الجنوب (منطقة الأعراب المحاذية لأراضي الدولة الحِميرية) إثر هزيمتها وحليفتها مذحج من قبل ملك الحيرة (امرىء القيس بن عمرو)، الذي لقب نفسه، عقب انتصاراته في الجزيرة العربية، بلقب (ملك العرب كلهم) [36].

وفي هذا الصدد يقول الدكتور يوسف محمد عبدالله: «. . ورغم أن النقش ـــــ

نقش النّمارة – لم يشر إلى كِندة، إلا أن المرء يفترض أن كِندة كانت ممن هُرّب أيضًا.. استنادًا إلى ما ورد ذكره في النقوش من دخول كِندة ومذحج في اتحاد قبلي واحد وفي ظل ملك واحد» (37).

ورجّح الدكتور عبد العزيز صالح أيضًا هجرة كِندة ومذحج إلى الجنوب واستقرارهما في أراضي حليفهما القوي (شمر يهرعش) ملك حِمير عقب حملة ملك الحيرة (امرىء القيس بن عمرو)، استنادًا أيضًا إلى وجود كِندة ومذحج في اتحاد قبلي واحد ، ولاحقًا في قوام جيش الأعراب الحميري (38).

وخلاصة ما جاء في النقوش المذكورة آنفًا أن كِندة كانت قبيلة حكمت في (قرية) منذ ما قبل القرن الأول للميلاد وحتى نهاية القرن الثاني للميلاد أو بداية القرن الثالث للميلاد. وأنها كانت مملكة قوية نافست مملكة سبأ وذي ريدان، وانتهى حكمها عقب الحملات السبئية و حملة ملك الحيرة (امرىء القيس بن عمرو) و هجرتها إلى الجنوب .

ب) كِندة في ضوء الآثار المكتشفة (قرية حاضرة كِندة الأولى):

قبل عام 1972م لم يكن أحد يعرف شيئًا عن موقع قرية ذات كهل عدا ذكرها في النقوش السبئية (675.635، 2110جام) ومن خلالها عرف العلماء أنها – وبدون شك – تقع إلى الشمال الشرقي من نجران. وبدأ علماء الآثار يبحثون عن موقعها منذ اكتشاف تلك النقوش حتى اهتدى هؤلاء العلماء إلى موقع أثري بالصدفة عندما نبه أحد موظفي شركة (أرامكو) العاملة في المملكة العربية السعودية لأهمية هذا الموقع وكان ذلك في عام 1940م. وتلا ذلك رحلات استطلاعية للعالم الأثري (فليبي).

وبعد دراسة الموقع والتأكد من أنه موقع أثري بدأت عمليات التنقيب فيه من قبل البعثة الأثرية العربية منذ سنة 1970م(39).وكان يطلق على الموقع تسمية (الفاو) نسبة إلى امتداد قناة الفاو فيه. وأسفرت التنقيبات عن الاكتشاف العظيم، وهو مدينة قرية ذات كهل، وهنا تعانقت الآثار مع النقوش؛ لتعلن الكشف عن آثار حضارة راقية

شهدتها منطقة وسط شبه الجزيرة العربية، ألا وهي الحضارة الكِندية وحاضرتها (قرية ذات كهل) [40] .

ولقد تحدد بعد هذا الكشف موقع (قرية) إلى الشمال الشرقي من نجران بمسافة 280 كلم بوادي الدواسر الواقع حاليًّا ضمن حدود المملكة العربية السعودية. ومثّلت بموقعها هذا محطة تجارية مهمة على الطريق التجاري المتجه من جنوب الجزيرة العربية صوب الخليج العربي(نجران ← قرية ← الأفلاج ← اليمامة ←جرها← العراق). وبموقعها هذا فإنه يُشرف عليها من جهة الشرق جبل طويق، الأمر الذي يدل على أن الكِنديين قد اختاروا هذا المكان بعد دراسة للموقع فرأوا في هذا الجبل حاميًا طبيعيا للمدينة من جهة الشرق؛ لحمايتها من الغزاة [41]. ولتأمين مدينتهم أقاموا سورًا من الجهات الأخرى، كما شيدوا سورًا آخر يحيط بالسوق التجاري مدعمًا بالحصون والأبراج بلغ سمكه ستة أمتار، وله باب واحد من الناحية الغربية، ويصل ارتفاعه إلى حوالى ثمانية أمتار[42].

لقد دعمت التنقيبات الأثرية في قرية وما أسفر عنها من نتائج مهمة ، ذلك الدور الحضاري الذي قامت به (قرية) الحاضرة الكندية الأولى في فترة ما قبل الإسلام. وكشفت مواسم التنقيب الأثري في هذه المدينة العربية القديمة، التي قام بها قسم الآثار بجامعة الرياض بقيادة الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري، عن الكثير من المعالم واللُّقَى الأثرية التي دللت على المستوى الحضاري الذي بلغته (قرية) في ميادين مختلفة.

لقد تم الكشف عن سور المدينة وسوقها و قصرها ومقبرتها ومعبدها ، إلى جانب الكشف عن قطع أثرية متعددة [43]. واحتوى القصر على قاعتين شمالية وجنوبية تزين جدرانها الرسوم مما يوحي بأنه كان مقرًّا للحكم، الأمر الذي يدل على ما بلغته (قرية) من تطور في نظام الحكم . ودلّ المعبد المكتشف على بلوغ (قرية) درجة متطورة في الجانب الديني من حيث إقامة الطقوس الدينية، و تم العثور فيه على تماثيل برونزية، أبرزها تمثال الطفل المجنح الذي يمسك بيده اليسرى قرن الخير

و به عنقود عنب، مُقرِّبًا سبابة يده اليمنى من فمه ويتدلّى شعره على جانبي رأسه. وتمثال آخر لحيوان بحري هو (الدلفين) يقول الدكتور عبد الله حسن الشيبة: إن اكتشاف هذا التمثال يمثل الاعتقاد السائد آنذاك من أن الدلفين هو الحامي من المخاطر والواقي من المخاوف وسط الصحراء وفي عباب البحر[44]، وهناك تمثال ثالث لنصف امرأة، وتماثيل أخرى [45].

وفي مجال الفن المعماري وفنون الرسم والنحت دلت آثار (قرية) على تطور هذه الفنون، حيث عرفت هذه المدينة فنًّا معماريًّا عربيًّا متميزًا، استخدموا فيه اللِّبن المربع والمستطيل في البناء، والحجر المنقور والمصقول في الأسس إلى جانب مواد مختلفة أخرى كالجبس والرمل والرماد في التمليط الداخلي، وعرف سكانها زخرفة الجدران من الداخل والخارج، كل ذلك كان مجسدًا في القصر والمعبد والسوق والمنازل. ويبرز هذا الفن المعماري بوضوح في بناء القصر وقاعاته وأعمدته المربّعة والمثمّنة [46].

وفي مجال الرسم والنحت عُثر في (قرية) على بعض اللوحات الفنية المعبرة عن تقدم وتطور فنون الرسم والنحت، وهنا يقول الدكتور عبدالله حسن الشيبة :«إن الفنان العربي في (قرية) قد مر بأربع مراحل تبدأ بالنقر على سفوح الجبال وتمثلها صورة إنسان في كامل ملابسه، ويمسك رمحين في يديه ويتمنطق سيفًا أو جنبية طويلة، إلى جانب لوحة على جبل(مريبخ) لحفل راقص تتخلله مناظر النخيل وجني الثمار وصور لحيوانات. والمرحلة الثانية، وتمثلها لوحات ورسوم داخل المنازل . أما المرحلة الثالثة التي أصبح فيها الفنان ذا مكانة اجتماعية، فتمثلها ثلاث لوحات منتزعة من البيئة والمشاهدات اليومية كالرحلة والصيد وما يستبقهما»[47].

وتبلغ قمة الفن عند فنان (قرية) في لوحات القصر ، وأغلبها كان مفتتًا وتم إنقاذ قسم منها ـــــ بمجهودات فنية وعلمية ـــــ منها جزء من لوحة تمثل بحرًا فيه أسماك، وجزء من لوحة أخرى بها جزء من جسم امرأة [48] .

وفي مجال النحت عُثر في(قرية)على تماثيل فنية رائعة معدنية وحجرية وطينية وخزفية، استطاع فيها الفنان أن يمزج بين التأثيرات الخارجية والفن العربي الذي

يعكس البيئة العربية، وذلك في صور أشكال آدمية وحيوانية، أهمها تمثال الطفل المجنّح، وتمثال حيوان الدلفين، وتمثالان لناقة وجمل، وتمثالان آخران لرأسي أسد ووعل صغير، وتماثيل أخرى، منها تمثال لرأس امرأة (49) .

وعُثر أيضا على أدوات منزلية مختلفة منها أواني طعام (قدور وجرار وتؤوس فضية وأوانٍ فخارية على شكل أطباق وأباريق، وأوانٍ حجرية أغلبها من حجر المرمر والحجر الجيري والبلّور الصخري والجرانيت). وزيّنوا أوانيهم بالرسوم والزخارف والنقوش(50).

وفي مجال الكتابة والنقوش عُثر في مقبرة قرية ذات كهل على شاهد قبر الملك (معاوية بن ربيعة) المشار إليه آنفًا، ويمثل النقش أهمية علمية، فقد دلّ على معرفة سكان قرية للقراءة والكتابة والتدوين، وقد كتبوا بالخط المسند الجنوبي. وبهذا النقش تكتمل الصورة الحضارية المشرقة لقبيلة كِندة القاطنة في وسط شبه الجزيرة العربية.

أما كتابتهم بخط المسند الجنوبي فمرجعه إلى أن خط المسند كان منتشرًا في أصقاع متعددة من شبه الجزيرة العربية إلى جانب موطنه في جنوبها. أما لغة الكِنديين فكانت مزيجًا من اللغة العربية الجنوبية واللغة العربية الشمالية التي يتكلم بها سكان الحجاز ونجد، وهو أمر يدل على امتزاج الثقافتين العربيتين: الجنوبية والشمالية، فشكلت كندة في موطنها بقرية ذات كهل نقطة التقاء لقبائل الجزيرة العربية وسوقًا تجاريًّا مهمًّا في فترة ما قبل الإسلام (51).

إن هذه الآثار المكتشفة في قرية ذات كهل لهي دليل قاطع على المستوى الحضاري الذي بلغته قبيلة كِندة والقبائل المتحالفة معها كقحطان ومذحج في الفترة من القرن الأول الميلادي حتى القرن الثالث الميلادي سواء من حيث الكتابة أو الفنون المختلفة كفن البناء والهندسة المعمارية والرسم والزخرفة والنحت وغيرها.

وحيث إن أغلب الكتابات التي تحدثت عن كِندة كتبها مؤلفون قبل أن يتم الكشف عن آثارها والنقوش التي تحدثت عنها فإن معلوماتهم عن كِندة جاءت ناقصة

حصرت كِندة في قبيلة حاكمة في مناطق أعرابية وسط نجد في غمر ذي كِندة ليس لها من الحضارة سوى الحكم على طريقة الحكم العشائري عند العرب مدعومين من الملوك الحِميريين. ولهذا وجب الآن إعادة صياغة تاريخ كِندة بناءً على ما توصل إليه عِلما النقوش والآثار اللّذان أظهرا أن كِندة دولة ذات إرث حضاري شادته في وسط الصحراء العربية؛ لتكتمل بذلك الصورة الحضارية عن عرب شبه الجزيرة العربية جنوبها ووسطها وشرقها وشمالها.

ج- الأهمية التجارية لقرية قديمًا:

لقد احتلت المواصلات أهمية عظيمة في شبه الجزيرة العربية في تاريخها القديم، وذلك بسبب موقعها الاستراتيجي؛ حيث احتلت موقعًا متوسطًا في العالم القديم فشكلت حلقة الوصل التجاري بين مشرقه ومغربه. واستفاد العرب من موقعهم هذا فعملوا بتجارة النقل واختطوا طرقًا تجارية برية، تخترق الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب والعكس، مستفيدين من موقع جزيرتهم التي تطل على عدد من البحار (المحيط الهندي – البحر الأحمر – الخليج العربي)، وامتلاكهم لأهم الموانئ البحرية التي تتحكم في طريق المواصلات العالمي عبر البحر الأحمر والخليج العربي [52] . وأبرز هذه الخطوط التجارية البرية خطان هما الخط المسمى بـ(طريق اللبان أو طريق البخور)، ويمتد من الجنوب إلى الشمال بمحاذاة البحر الأحمر (نجران←يثرب ←ديدان (العلا) ←الحجر (مدائن صالح) ←البتراء)، ويبلغ نهايته في بلاد الشام . وكان (بليني) هو أول من أطلق على هذا الطريق تسمية (طريق اللبان أو طريق البخور) في القرن الأول الميلادي [53].

ويمتد الخط الثاني من الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية إلى الخليج العربي شرقًا بمحاذاة الصحراء العربية من جهة الجنوب (نجران← وادي الدواسر← الأفلاج← اليمامة←جرها) [54].

وكان لهذين الطريقين دور رئيس في ازدهار التجارة العربية، وخلق نوعٍ من التكامل

الاقتصادي لأهل الجزيرة العربية في فترة ما قبل الإسلام. وكان الجمل هو الوسيلة الرئيسة للنقل، وشكل استخدامه مرحلة فاصلة في حركة التجارة داخل شبه الجزيرة العربية منذ أواخر الألف الثاني ق. م، بعد أن كانت الحمير هي الوسيلة الرئيسة، وذلك لما يمتاز به الجمل من مزايا جعلته بحق سفينة الصحراء، وما يؤكد ازدهار التجارة العربية عبر الطرق البرية قبل الإسلام؛ ورود سورة في القرآن الكريم تتحدث عن تجارة قريش ورحلتي الشتاء والصيف (إلى الشام واليمن)[55].

وأهم السلع التي تاجر بها العرب عبر هذه الخطوط التجارية : اللبان(البخور) والمر، بالإضافة إلى السلع القادمة من شرق أفريقيا والصين والهند، وتحدث مؤلف كتاب (دليل البحرالإرثري- الأحمر) والمسمى أيضًا بـ(كتاب الطواف) لمؤلفه المجهول، واصفًا التجارة في ميناء موزا (المخا) على البحر الأحمر قائلًا: «والمتاجر التي تصل إلى موزا تتألف من الأقمشة الأرجوانية، الناعم منها والخشن، والثياب العادي منها، والمطرز والمذهب ، والزعفران ونبات السعادى الحلو وقماش الموسلين، والبرود والحرامات، بعضها عادي، والآخر مصنوع على الطريقة المحلية . والأوشحة المنوعة الألوان ، والدهانات المعطرة بكميات معتدلة، والخمر والقمح. .» [56]

واكتسبت (قرية) أهميتها التجارية؛ لوقوعها على الطريق التجاري الممتد من جنوب بلاد العرب حتى شرقها على سواحل الخليج العربي(نجران← وادي الدواسر← الأفلاج← اليمامة←جرها)، وعن هذه الأهمية لقرية كتب الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري في كتابه (قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام) فقال: «إن كتابنا هذا صورة حية لما كانت عليه منطقة من مناطق وسط الجزيرة العربية من مستوى حضاري في فترة ليست طويلة في عمر الزمن، ولكنها ذات أهمية في التسلسل التاريخي لحضارة الجزيرة العربية»[57].

وكتب الدكتور يوسف محمد عبدالله عن أهمية قرية، فقال: «إن قرية في عز ازدهارها كانت أشبه ما تكون بإحدى دول مدن القوافل التي عرفت جزيرة العرب عددًا منها، فقد كانت قرية مدينة أو محطة تجارية على ذلك الطريق الذي يربط

جنوب الجزيرة بشرقها، ويمتد من (نجران) إلى (هجر) مارًّا بوادي الدواسر والأفلاج» [58].

ويعد الهمداني أول من أشار إلى (قرية) وموقعها التجاري في كتابه (صفة جزيرة العرب) حيث قال:

« ثم رجعت إلى الطريق من المقترب تريد اليمن قصد نجران فتشرب بحسي كباب. . فإن تيامنت شربت ماء عاديا يسمى قرية إلى جنبه آبار عادية وكنيسة، منحوتة في الصخر، ثم ترد ثجْرِ ماء . . . » [59].

وأورد الدكتور يوسف محمد عبدالله في موضوع له بعنوان (كندة في دهرها الأول) حديثًا لـ(فون فيسمان) عن أهمية مناطق شرق الجزيرة العربية فقال: « ويرى فون فيسمان أن مناطق شرق الجزيرة العربية الواقعة على الخليج تدخل في نطاق مراكز الحضارة . . ومستندهُ في ذلك اللقى الأثرية التي كشفت عنها تنقيبات البعثة الدانماركية في البحرين التي بدأت بنشر دراستها في عام 1984م، و التي أبانت عن بناء مدينة منتظمة الشكل تعود أسفل طبقاتها إلى ما بين عامي 2800-1800ق.م، وعن معبد واسع يرجع تاريخ بنائه إلى ما بين عامي 2300-1800ق.م» [60].

نحن إذًا أمام طريق تجاري يربط بين ثلاثة مراكز حضارية عربية تعود إلى فترة ما قبل الإسلام و تتمثل في حضارة جنوب الجزيرة (اليمن)، وحضارة(قرية)في وسطها، وحضارة الخليج في شرقها ممثلة بحضارة البحرين القديمة، الأمر الذي يدل على التواصل الحضاري بين المراكز الحضارية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، الذي لعبت الخطوط التجارية دورًا رئيسًا فيه .

ولعبت (قرية) بموقعها على هذا الطريق التجاري دورًا مهمًّا في عملية التبادل التجاري بين جنوب الجزيرة العربية وشرقها، ومثلت الوسيط التجاري بينهما. ودعمت التنقيبات الأثرية في موقع (قرية) وما أسفر عنها من نتائج مهمة، هذا الدور التجاري الذي قامت به (قرية) في فترة ما قبل الإسلام، حيث كشفت مواسم التنقيب التي

قام بها قسم الآثار بجامعة الرياض بقيادة الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري عن عدد من المعالم الأثرية في موقع (قرية)، ومنها السوق التجاري الذي تجسد ت فيه التجارة الداخلية والخارجية، وأمّن بسور ضخم، الأمر الذي يدل على ازدهار التجارة على هذا الطريق المار بـ(قرية) حاضرة كِندة الأولى ومدى الثراء المادي لأهل قرية الذي انعكس على المرأة وزينتها وحليها ، فقد عثر في أنقاض (قرية) على العديد من الأساور المعدنية والزجاجية والعظمية والعاجية وبعض الخواتم الفضية والنحاسية والحديدية، إلى جانب عقود ودلايات مصوغة وغير مصوغة، مصنوعة من العقيق والبلّور الصخري والياقوت والزجاج المعتم والشفاف. وعُثر أيضًا على فصوص مختلفة للخواتم من العقيق الملون و مقابض للشعر مصنوعة من النحاس وأمشاط خشبية (61).

ثانيًا : كِندة قبيلة أعرابية تعيش في كنف الدولة الحِميرية من نهاية القرن الثالث حتى نهاية القرن الخامس الميلادي:

1 - **كِندة وجيش الأعراب الحِميري:**

أشرنا سابقًا إلى احتمال الرحيل القسري لكِندة عن ديارها بقرية ذات كهل إثر ضعفها عقب حملة الملكين السبئيين (إل شرح يحضب وأخيه يأزل بيّن)، ومن ثم إزاحتها من السلطة من قبل القحطانيين وذلك حوالى أوائل القرن الثالث الميلادي.

ثم ارتحلت كِندة صوب الجنوب في منطقة عسير وما حولها (مناطق الأعراب كما تسميها النقوش الحِميرية). وبدءًا من نهاية القرن الثالث الميلادي، أصبحت كندة القبيلة أكثر قُوَّةً بين قبائل الأعراب من حيث العدد والقوة العسكرية، لاسيما أَنها كانت دولة تدرب أفرادها على الحروب، غير أنها الآن أصبحت قبيلة تدور في فلك الحِميريين وتخضع لقائد حِميري هو قائد جيش الأعراب الحِميري، وهو الجيش الرديف للجيش النظامي الحِميري (62) .

ويبدو أن كِندة قبل انضمامها إلى جيش الأعراب الحِميري كانت تمارس هيمنتها في مناطق الأعراب الواقعة على خطوط التجارة البرية التي تربط جنوب الجزيرة العربية بشرقها وشمالها. ويتحدث الدكتور با فقيه عن معاهدة الخفارة بين سبأ وكِندة قائلاً: «الخفارة في ذاتها نظام تعاقدي عريق، توجد أقدم إشارة إليه في نقش سبئي من القرن الثالث الميلادي؛ حيث أصبحت كِندة في العهد الذي يلي شعرم أوتر مسئولة لملوك سبأ عن خفارة الطرق حتى أنها لتطالب بتسليم المخربين، وهو أمر ينطوي على شيء من خضوع كِندة وتبعيتها لسبأ».

إن هذه المعاهدة ترجح مسألة هجرة كِندة من مركزها في قرية ذات كهل باتجاه منطقة عسير المسماة في النقوش بأرض طودم المنتشرة بها قبائل الأعراب(63).

ومنذ نهاية القرن الثالث الميلادي أخذت النقوش الحِميرية تتحدث عن دور جيش الأعراب كرديف للجيش النظامي الحِميري وما يقوم به من دور عسكري بارز في الحملات التي شنها ملوك حِمير؛ لتأديب قبائل معدّ في وسط شبه الجزيرة العربية التي شكلت خطرًا على مصالح الدولة الحِميرية ولاسيما المصالح العسكرية والتجارية.

ولم يقتصر دور جيش الأعراب على الحملات الخارجية فقط بل الداخلية أيضًا، وخاصة في حضرموت التي شهدت العديد من حركات التمرد على السلطة المركزية الحِميرية في ظفار(64). إن كِندة لم تعد دولة في هذا الوقت، بل قبيلة أعرابية كغيرها من قبائل الأعراب القاطنة في بلاد عسير ونجران، وأصبحت في عداد القبائل المكونة لجيش الأعراب الحِميـــري الذي تزعمه في تلك الفتـــرة شخص يدعى (وهب أوام)(65).

وينقل جواد علي عن جام قوله: إنَّ أرض كِندة في هذه الفترة بعد زوال مُلكها وهجرتها من قرية يجب أن تكون في جنوب (قشمم - قشام) (القشم) وذلك لأن النقش الموسوم بالرقم (660جام) يضعها بين حضرموت ومذحج(66).

ويحدثنا النقش (660جام) وصاحبه (وهب أوام) - قائد جيش الأعراب الحِميري

- عن الكيان العسكري الجديد (جيش الأعراب) التابع للملك الحِميري (شمر يهرعش بن ياسر يهنعم) وهو الملك الحِميري الذي أصبحت منطقة جنوب الجزيرة العربية في عهده موحدة تحت قيادته ويحكمها من عاصمته (ظفار)، وذلك بعد قيامه بإخضاع سبأ وحضرموت لسلطة الحِميريين في ظفار في الفترة ما بين نهاية القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع الميلادي(67). وفيه تظهر كِندة على رأس قبائل الأعراب المكونة لجيش الأعراب الحِميري بزعامته؛ إذ جاء لقبه في النقش (كبير أعراب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت وكِندة ومذحج وحرام وباهل وزيدإيل(زيدإل) والحدا وأظلم وأمير وكل أعراب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت)(68).

إن ظهور كِندة على رأس قبائل الأعراب المكونة لجيش الأعراب الحِميري إنما يدل على قوتها وكونها القبيلة الرئيسة في هذا التكوين العسكري الذي أدّى دورًا بارزًا في تاريخ الدولة الحِميرية منذ قيامها على أرض جنوب الجزيرة العربية في أوائل القرن الرابع الميلادي عقب إخضاع حضرموت النهائي(69).

وتحدث وهب أوام في هذا النقش عن نجاح جيشه في تنفيذ المهمة العسكرية التي أوكلها إليه سيده الملك الحِميري (شمر يهرعش بن ياسر يهنعم)؛ لملاحقة (الحارث ابن كعب) و(سود بن عمرو) و(النخع بن عمرو) و(جرم) فتمكن من اللحاق بهم والقبض عليهم وإيداعهم سجن مأرب(70).

ويرى الدكتور خالد العسلي أن هذا النقش يعالج ثورة على الملك الحِميري (شمر يهرعش) قامت بها القبائل التي كانت تسكن شمال نجران، وهم بنو الحارث بن كعب وسود بن عامر والنخع بن عمرو وجرم(71).

ونقف في هذا النقش أمام الحقائق الآتية:

الأولى: أن كِندة لم تعد دولة أو كيانًا مستقلًا كما كان الحال في النقشين 675.635 جام، والنقش أنصاري-الفاو2.

الثانية: أن كِندة في ترتيبها تأتي في مقدمة القبائل المكونة لجيش الأعراب

الحِميري، وبدت قوة يحسب لها حسابها داخل كيان الدولة الحِميرية.

الثالثة: الفترة التي أصبح فيها الكنديون خاضعين لملوك حمير هي فترة حكم الملك شمر يهرعش (نهاية القرن الثالث و الثلث الأول من القرن الرابع الميلادي).

2 - **مشاركة كِندة في حملات ملوك حِمير على قبائل معدّ:**

تتحدث النقوش عن حملات لملوك حِمير إلى وسط شبه الجزيرة العربية، شاركت فيها كِندة كقبيلة أعرابية خاضعة للحِميريين منها النقش (509 رينان)، الذي يتحدث عن حملة عسكرية كبيرة قادها الملكان (أبو كرب أسعد) وابنه (حسّان) ملكا سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم طودم وتهمت إلى أرض قبائل (معدّ)، ودارت المواجهة في وادي (مأسل الجمح)، وأعاد العلماء تاريخ هذا النقش إلى العقدين الأولين من القرن الخامس الميلادي[72].

ويتحدث نقش آخر عن تجريد حملة عسكرية أخرى تزعمها الملك الحِميري (معدّ كرب يعفر)؛ للدفاع عن الأعراب الخاضعين لمملكة حِمير بعد تعرضهم لهجوم المنذر ملك الحيرة، وكانت كِندة من بين قبائل الأعراب تلك، وشاركت مع الجيش الحِميري في هذه الحملة؛ لصد الهجوم اللخمي المساند لقبائل معدّ، وكان ذلك في عام 516م. وهذا النقش موسوم لدى العلماء بـ (510 رينان). ودارت المعركة بأرض نجد بوادي مأسل الجمح، وانتصر فيها الجيش الحِميري[73].

كما شاركت كِندة في الحملة العسكرية التي أرسلها أبرهة؛ لمحاربة قبائل معدّ في نجد، وحينها كان أبرهة ملكًا على حِمير إثر الغزو الحبشي لمملكة حِمير عام 525م[74] وكان على رأس كِندة قائدها (أبو جبر). وتاريخ هذه الحملة هو عام 547م[75].

وتشكل هذه المشاركة الكِندية في الحملات الحِميرية على قبائل معدّ استمرارًا للدور العسكري لكِندة كقبيلة محاربة في قوام الجيش الحِميري غير النظامي (جيش الأعراب).

وبهذه النقوش يتضح لنا الدور العسكري الكبير الذي قامت به كِندة لصالح

ملوك حِمير على مدى قرنين من الزمان، منذ أن أصبحت قبيلة أعرابية، بل الفصيل الرئيس في جيش الأعراب إثر سقوط حكمها في قرية ذات كهل. ولاشك أن الكِنديين قد جمعوا من هذه الحروب غنائم كثيرة، وظلوا محافظين على كيانهم في مناطق الأعراب ولكن في ظل الخضوع للمملكة الحِميرية، وتجسد ذلك الخضوع في خضوعها لقائد جيش الأعراب الحِميري(76).

ثالثًا: كندة في حضرموت:

تعد كِندة اليوم من سكان حضرموت، ويمكننا القول: إنَّ المعقل الأخير للكنديين في شبه الجزيرة العربية هو حضرموت، ونقصد بذلك كِندة ككيان سياسي وقبلي برز وجوده في حضرموت قبل الإسلام بفترة تقدر بأكثر من مائة عام(77). و السؤال الذي يواجه الباحث هنا هو: كيف انتقلت كِندة إلى حضرموت بعد أن كانت قبيلة أعرابية في مقدمة القبائل المكونة لجيش الأعراب الحِميري في الفترة من نهاية القرن الثالث الميلادي حتى نهاية القرن الخامس؟

كان الاعتقاد السائد لدى المؤرخين العرب القدامى قبل الكشف عن النقوش أن الموطن الأول لكِندة هو حضرموت، وهنا يقول ابن خلدون: «إن مواطن كِندة الأصلية كانت بجبال اليمن مما يلي حضرموت»(78). أما الهمداني فيقول: «كان بحضرموت الصدّف من يوم هُم ثم فاءت إليهم كِندة بعد قتل ابن الجون يوم شِعب جِبلة لما انصرفوا من الغمر غمر ذي كِندة». ويقصد الهمداني هنا هجرة الكنديين من آل الجون الذين أقاموا حكمًا لهم في اليمامة في فترة القرن السادس الميلادي، وعليه فإن الهمداني قد جعل الموطن الأول لكِندة بلاد نجد. ويعتقد الدكتور سرجيس أن ذلك اليوم قد حدث في الفترة ما بين عامي 525م – 580م، ويرجح حدوثه عام 569م(79).

وقد تبيّن لنا من النقوش والآثار أن الموطن الأصلي لكِندة هو قرية ذات كهل، وعليه فإنه لا حضرموت ولا غمر ذي كِندة في نجد يشكلان الموطن الأصلي لكِندة كما اعتقد مؤرخونا القدامى والمحدثون، وسوف نتتبع النقوش؛ لنعرف من خلالها كيفية انتقال

كِندة إلى حضرموت:

النقوش التي لها علاقة بالوجود الكندي في حضرموت:

نبدأ حديثنا بنقش أبرهة الموسوم بـ (C.I.H 541)؛ لأنه النقش الوحيد الذي يتحدث عن الوجود الكندي الصريح في حضرموت. لقد سطر أبرهة نقشه الطويل هذا والذي احتوى على ذكر العديد من الأحداث المهمة في الفترة التي يتحدث عنها النقش، كان من أبرزها تمرد يزيد بن كبشة خليفته على كِندة، وثانيها هو تهدم سد مأرب والإصلاحات التي قام بها أبرهة؛ لإعادة السد إلى ما كان عليه قبل تهدمه الذي حصل إبان ثورة يزيد بن كبشة.

ويبدأ النقش بتسجيل أحداث ثورة يزيد بن كبشة وسماه في النقش بـ (خليفته الذي استخلفه على كِندة)[80].

ونقف في هذا النقش أمام عبارتين لهما دلالات مهمة فيما يتعلق بالأوضاع السياسية في حضرموت في تلك الفترة التي حدثت فيها ثورة يزيد بن كبشة على أبرهة:

العبارة الأولى: «يزيد بن كبشة خليفته الذي استخلفه على كِندة»[81].

والعبارة الثانية: «ويزيد جمع الذين أطاعوه من كِندة وحارب حضرموت»[82].

فالعبارة الأولى تؤكد أن يزيدًا كان خليفة لأبرهة على كِندة، وأبرهة هو الملك الحِميري، وإن لم يكن حِميريًّا فقد أصبح يتمتع بما كان يتمتع به الملوك الحِميريون، ودانت له معظم مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية، ومن بينها حضرموت بما في ذلك كِندة. ونستخلص من هذه العبارة أيضًا أن يزيدًا هو الزعيم الكندي. ويوحي لنا النقش بأنه أعلن ولاءه لأبرهة بعد أن أصبح ملكًا على حِمير، وأقره أبرهة على كِندة زعيمًا وخليفةً له بمعنى نائبه على كِندة. وذلك على طريقة الحكم في اليمن قبل الإسلام، المتمثلة في تعيين خلفاء للملك على القبائل والمدن ينتمون إلى قبيلة نفسها عدا بعض الحالات التي يتم فيها تعيين خلفاء للملك لا ينتمون إلى قبيلة.

ويزيد كان كنديًّا واكتفى أبرهة بذكر اسمه واسم أمه (كبشة). ويذكر لوندين أن زوجة معاوية بن حجر والد يزيد كانت تسمى (كبشة) ودُعي أبناؤها عادة باسمها كما

هو الحال في بعض أسماء المشهورين من ملوك العرب وشعرائهم قبل الإسلام، أمثال عمرو بن هند وعمرو بن كلثوم وغيرهما، وذكر الهمداني أن يزيدًا هو ابن معاوية أحد بطون قبيلة كِندة[83].

أما العبارة الثانية: «ويزيد جمع الذين أطاعوه من كِندة وحارب حضرموت» فيُفهم منها أن يزيد بن كبشة سيطر على حضرموت بدليل أن أبرهة ذكر في النقش بأن يزيد أطاح بـ (مازن هجان الأذموري) وقام بأسره في حين لجأ إليه فارًّا كبير حضرموت (حاكم حضرموت)[84].

فنقش أبرهة يثبت لنا الوجود الكندي الصريح بحضرموت، وهو ليس وجودًا عاديًّا بل كيانًا كِنديًّا يحكم جزءًا من حضرموت، بل إنه سيطر على حضرموت بكاملها في فترة زعامة يزيد بن كبشة الذي أصبح حاكمًا لحضرموت وكِندة معًا بعد فرار كبير حضرموت إلى مأرب وأسر (مازن هجان الأذموري) الذي ربما كان رسول أبرهة إلى يزيد؛ لإقناعه بالعدول عن الثورة التي أعلنها على الأحباش منطلقًا من حضرموت[85].

ونستدل من هذا النقش أيضًا ومن العبارة التي سبق ذكرها أن منطقة حضرموت كانت تخضع لحاكمين أو زعيمين وليس حاكمًا واحدًا وهما (كبير حضرموت)، وكان حاكمًا على حضرموت، و(يزيد بن كبشة) وكان حاكمًا على كِندة بجوار حضرموت، ويقودنا هذا إلى القول بوجود كيانين في حضرموت هما الكيان الحضرمي والكيان الكِندي.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن يزيد بن كبشة وثورته ضد أبرهة لأن ما يهمنا هنا هو الوجود الكندي بحضرموت، حيث تأكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن كِندة قد أصبح لها كيانٌ سياسيٌ في حضرموت منذ النصف الأول من القرن السادس الميلادي، وعاشت جنبًا إلى جنب مع الكيان الحضرمي، الأمر الذي يقودنا إلى القول بأن كِندة استوطنت جزءًا من حضرموت في فترة سابقة لهذا التاريخ، فمتى حصل هذا الاستيطان؟

لقد ساد اعتقاد لدى مؤرخينا، القدامى منهم والمحدثون بأن استيطان كِندة لحضرموت قد حدث في القرن السادس الميلادي عقب هزيمتها في نجد واليمامة. ويرى بعضهم أن استيطانًا كِنديًا في حضرموت قد سبق هجرتهم الأخيرة ولكن دون تحديد زمني دقيق، حيث اكتفى جونار أوليندر بالقول: إن الجزء الأكبر من كِندة مع زعمائهم كان بحضرموت في فترة ظهور وازدهار المملكة الكِندية الجديدة في نجد في القرن الخامس الميلادي. أما سرجيس فيرى أن استيطان كِندة لحضرموت قد حدث في بداية الأربعينات من القرن السادس الميلادي معتمدًا على ذكر يزيد بن كبشة وتمرده على أبرهة الحبشي كما جاء في نقش أبرهة الموسوم بـ(C. I. H 541) وذلك عام 542م[86].

تحدثنا النقوش عن قيام جيش الأعراب الحِميري بحملتين عظيمتين على حضرموت؛ تنفيذًا لأوامر ملوك حِمير للقضاء على حركة الانفصال عن الدولة المركزية التي شهدتها حضرموت في فترة القرن الخامس الميلادي[87].

وللوقوف على الأمر وتفاصيل هاتين الحملتين نعرض المعلومات الواردة في تلك النقوش:

النقش الأول هو الموسوم بـ (665 جام)، وهو من عهد الملكين ياسر يهنعم وابنه ذرأ أمر أيمن وسجله قائدهما (سعد تألب يتلف الجدني) وهو نفسه قائد جيش الأعراب الحِميري في عهدهما، وجاء فيه: (بأمر من سيديه الملكين (ياسر يهنعم وابنه ذرأ أمرأيمن) (ملكي سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) اتجه بجيشه الأعرابي، وفي مقدمته كندة؛ للقضاء على حركة الانفصال في حضرموت)[88].

وذكر سعد تألب الجدني المناطق الحضرمية التي وصل إليها جيشه فذكر(العبر) و(دُهر) و(رخية). ويبدو من سياق النقش أن سعد تألب

قد ألحق الهزيمة بجيش حضرموت ولكنه لم يتمكن من القضاء على الحركة، وإعادة حضرموت إلى حظيرة الدولة الحِميرية؛ إذ لم يذكر أنه أسر سيدي حضرموت وقادة الانفصال فيها، وهما (ربيعة بن وائل) و(ذهل) وذكر فقط أنه أسر قائد الركبان ويدعى (أفصي بن جمان) وأقيال وكبار حضرموت[89].

والنقش الثاني هو الموسوم بـ (32 إ) وصاحبه هو القائد نفسه الذي كتب النقش السابق (665جام) وصفته هي صفته نفسها السابقة (قائد جيش الأعراب الحِميري) غير أن الأوامر في هذا النقش تلقاها من الملك الجديد (ذمار علي يهبر) (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) وهو الملك الذي خلف الملكين (ياسر يهنعم وابنه ذرأ أمرٌ أيمن) وهو أمر يؤكده استمرار القائد نفسه (سعد تألب يتلف الجدني) قائدًا لجيش الأعراب في العهدين المذكورين[90] وذكر سعد تألب الجدني في هذا النقش أنه رابط في مدينة (العَبر) بعد عودته من أرض حضرموت إثر غزوته السابقة لها حتى وصلت إليه الأوامر من سيده الملك (ذمار علي يهبر) لغزو حضرموت وأسنده بقبيلة سبأ مأرب[91]. إن إسناد جيش الأعراب بقبيلة سبأ مأرب يدل على أن القوة السابقة لم تكن قادرة على القضاء على حركة الانفصال في حضرموت ولهذا رابط سعد بمدينة العبر الحدودية الحضرمية حتى وصل إليه المدد العسكري المتمثل في قبيلة سبأ القاطنة مأرب. وهنا يتحدث سعد تألب في نقشه الجديد (32 إ) عن مهاجمته جميع مدن حضرموت وذكرها بالاسم (صوأران، شبام - وذكر أن بشبام قبائل الصدف - رطغة، سيئون، مريمة، حدب، عر أهلان (حصن أهلان)، تريم، دمون، مشطه، عر كليب (حصن كليب) [92]. ومن سياق ذكر تلك المدن الحضرمية في النقش يتضح مدى الدقة في هذا النقش، فالترتيب لهذه المدن في النقش هو الترتيب نفسه المحدد لها على الواقع حتى يومنا هذا بدءًا بشبام فتريم فدمون فمشطة فحصن العر القريب من منطقة السوم الحالية التي تشكل بداية النهاية لمناطق وادي حضرموت، ومازالت معظم هذه المدن قائمة وبأسمائها

نفسها المذكورة في النقش .

وذكر سعد تألب الجدني أنه هزم جيش حضرموت وقام بأسر سيد حضرموت وملكها واسمه (أنمار) ومعه (ربيعة بن وائل)، وأخذهما معه حتى قدم بهما إلى (ظفار) العاصمة الحِميرية[93]. وبأسرهما عادت حضرموت من جديد إلى حظيرة الدولة المركزية الحِميرية.

وما يهمنا من هذين النقشين هو أمر كِندة التي كانت في مقدمة جيش الأعراب الذي يقوده (سعد تألب الجدني) وهي بذلك تدخل حضرموت لأول مرة ولا ذكر لها في حضرموت قبل ذلك التاريخ (النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي).

وإذا ما قارنا بين نقش أبرهة (C.I.H 5 4 1) والنقشين (665 جام، 32 إ) فسنجد أن الفارق الزمني الذي يفصل بينهما يقدَّر بحوالى قرن من الزمان، وهذا هو الفارق الزمني بين دخول كِندة واستيطانها في حضرموت، وبين كِندة كيانًا حاكمًا في جزء من حضرموت في عهد أبرهة [94].

والتفسير الذي يبدو مقبولاً عندنا حول استيطان كِندة في جزء من حضرموت هو أن كِندة أو قسمًا منها آثر البقاء في حضرموت عقب انتصار جيش الأعراب على الحضارمة. ومن المحتمل أن الملك الحِميري (ذمار علي يهبر) هو الذي أمر بتوطين كِندة أو قسم منها في حضرموت؛ لضمان عدم عودة حضرموت للتمرد على الدولة المركزية الحِميرية والانفصال مرة أخرى، وذلك لما تتمتع به كِندة من قدرات قتالية عالية. وعلى هذا الأساس اتخذت كِندة من المناطق الغربية من حضرموت التي تبدأ من شبام، وتنتهي بالعبر منطقة السكن والعيش الجديدة لها. فاستقروا في هذه المدن الحضرمية وتركوا حياة الأعراب التي كانوا يعيشونها، وذلك منذ منتصف القرن الرابع الميلادي، وشيئًا فشيئًا توطد نفوذهم حتى أصبحوا في القرن السادس الميلادي كيانًا حاكمًا للجزء الغربي من حضرموت[95]. وظل هذا الكيان الكندي قويا في الجزء الغربي من حضرموت.

ويمكننا القول: إنه ومنذ استيطان كِندة للجزء الغربي من حضرموت في القرن

الرابع الميلادي أصبحت حضرموت مقسّمة بين الحضرميين والكِنديين، فاستقر الكنديون ما بين شبام والعبر، في حين انحصر الحضرميون ما بين شبام وحصن العر إلى الشرق من تريم، ثم حدثت الهجرة الأخيرة لكِندة من نجد واليمامة فاستوطن القادمون في الجزء الشرقي من حضرموت. وما يؤكد ذلك الانقسام قبل الإسلام هو وجود ملكين يحكمان بلد حضرموت عند مجيء الإسلام، وهما اللذان أعلنا إسلام حضرموت أمام الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم في المدينة، وهما (وائل بن حجر الحضرمي) و(الأشعث بن قيس الكندي) [96]. ومن الطبيعي أن يدخل الطرفان الكندي والحضرمي في نزاع، في الفترة التي أعقبت استيطان كِندة، وأشار بعض الباحثين إلى حدوث هذا النزاع، ومن بينهم الأستاذ الباحث الحضرمي سعيد عوض باوزير يرحمه الله حيث كتب: «وكان بين كِندة وحضرموت حروب في الجاهلية أفنت كثيرًا منهم، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين، وبقي العداء بينهم حتى جاء الإسلام»[97].

وكتب المستشرق الروسي بيوتروفسكي: «أن الحضارمة دخلوا مع كِندة الوافدين في نزاع مستمر، ودارت رحى المنافسة بين الزعماء الكِنديين وأقيال حضرموت، وكانت هذه المنافسة جوهر حرب الردة في حضرموت حيث تمرد الكنديون على المسلمين»[98].

أما في النقوش فقد وردت إشارة في نقش أبرهة الموسوم بـ (C.I.H 541) عن حدوث نزاع بين يزيد بن كبشة وكبير حضرموت تمكن بعده يزيد من السيطرة على حضرموت بكاملها، وفرَّ كبير حضرموت مستنجدًا بأبرهة. ومن المحتمل أن خلافًا قد نشب بين الزعيمين حول القيام بالثورة ضد الحكم الحبشي انطلاقًا من حضرموت الأمر الذي دفع يزيد بن كبشة إلى محاربة حضرموت والسيطرة عليها.

رابعًا: تأسيس حكم كِندة في نجد:

لقد أصبح لكِندة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ما يشبه الحكومة

القبلية في منطقة نجد بوسط شبه الجزيرة العربية، وكان مقرها في غمر ذي كِندة على بعد عشرين ميلاً من مكة. وأطلق زعماء كِندة على أنفسهم لقب (ملوك كِندة) وكان أول ملوكهم هو(حجر بن عمرو) الملقب بـ (آكل المرار)[99] وتحدث الإخباريون العرب بالتفصيل عن هؤلاء الملوك وسنوات حكمهم، وامتلأت الكتب الحديثة بأخبار كِندة في غمرها، وأشهرها كتاب (جونار أوليندر) وعنوانه (ملوك كِندة من بني آكل المرار) الذي صدر عام 1927م، وصدرت ترجمة له من قبل الدكتور عبد الجبار المطلبي عام 1973م، وصدر عن دار الحرية ببغداد .

وحيث إننا ملتزمون في هذا البحث بأخبار كِندة في النقوش والآثار فسوف يقتصر حديثنا في هذا الموضوع بالبحث عن دليل نقشي نتعرف من خلاله على الدور الكندي في نجد في هذه الفترة، وخاصة فيما يتعلق بتأسيس هذا الحكم الذي ربطته الروايات العربية بأحد ملوك حِمير العظام ويسمونه بـ (تُبَّع حسان) و(تبع كرب) و(أبي كرب)[100]. وتفيد الروايات العربية أنَّ التبع اليماني السابق ذكره لما غزا العراق خضعت له قبائل معدّ في نجد، فجعل عليهم (حجر بن عمرو الكندي) الملقب بـ (آكل المرار) فأصبح ملكًا عليهم. وجعلوا حجرًا أخًا للتبع الحِميري حسان من جهة أمه[101] وذكرت الروايات العربية أن أول موقع نزل به حجر هو (بطن عاقل) جنوب وادي الرّمه على الطريق بين مكة والبصرة[102] وبمقارنة أسماء الملوك الحِميريين المذكورين في كتب الأخبار مع أسماء الملوك الحِميريين الذين ورد ذكرهم في النقوش في فترة القرن الخامس الميلادي، نجد أن الأَمر ينحصر بين الملك الحِميري (أبي كرب أسعد) وابنه (حسّان).

وأبو كرب أسعد هو الملك الحِميري الذي تنسب إليه أول إضافة في اللقب الملكي الحِميري بعد ضم حضرموت لهذا اللقب في عهد شمر يهرعش والمتمثلة في (وأعرابهم طودم وتهمت)، والتي تعني توسيع سيطرة ملوك حِمير؛ لتشمل الأعراب في جبال عسير وتهامة[103].

وتفيدنا النقوش أنَّ الملك أبا كرب أسعد قد أشرك معه ابنه حسان في الحكم، واشتركا في غزوة إلى أرض نجد وقبائل معدّ، وتمت المواجهة العسكرية في وادي (مأسل الجمح) وحقق الجيش الحِميري النصر على قبائل معدّ، وذلك في حدود القرن الخامس الميلادي حسب تقديرات العلماء لتاريخ النقش[104].

وكان في قوام الجيش الحِميري كِندة، وقد ورد وصف الكِنديين بـ (الأعراب) في هذا النقش، الأمر الذي يدل على أن كِندة المشاركة في الحملة هم من الأعراب، وقد عرفنا سابقًا أن كِندة قد نزحت من مركزها في قرية إلى منطقة الأعراب في عسير وما حولها[105]، فهذا النقش الموسوم بـ (509 رينان) يؤكد لنا حقيقة قيام أبي كرب أسعد وابنه حسان بغزوة إلى أعماق شبه الجزيرة العربية، وبالتحديد قبائل معدّ التي أصبحت بعد هذه الحملة تخضع لحكم ملوك كِندة من بني آكل المرار.

والمحتمل هنا أن معدًّا شكلت خطرًا ما على حدود الدولة الحِميرية التي شهدت توسعًا في عهد هذا الملك الحِميري فشملت مناطق الأعراب (عسير وما حولها)، وبذلك أصبحت معدّ مجاورة لحدود المملكة الحِميرية، الأمر الذي دفع أبا كرب أسعد للقيام بهذه الحملة؛ لتأديب قبائل معدّ، وربما فكر في إخضاعها ولو بشكل غير مباشر عن طريق تعيين الزعيم الكندي (حجر بن عمرو) ملكًا على قبائل معدّ نيابة عن الحِميريين. وربما لأن الكنديين هم الأقربون للمعدّيين، وأدرى بهم بمالهم من عهد سابق للحكم في المنطقة إبَّان حكمهم في قرية ومجاورتهم لقبائل معدّ .

إن اكتشاف هذا النقش التاريخي المهم قد ساعد على تفسير الرواية العربية حول تأسيس حكم كِندة في نجد، وارتباط ملوك كِندة بالمملكة الحِميرية .

لقد ظل علماء التاريخ وبخاصة المستشرقون منهم يرون في هذه الرواية العربية عن تأسيس حكم كِندة في نجد، وارتباطه بالمملكة الحِميرية مجرد قصص وأساطير تروى عن تبابعة اليمن حتى تم العثور على هذا النقش الحِميري، فأصبح لهذه الرواية أساس تاريخي متين وليس أسطوريًا. وأصبح ثابتًا لدى العلماء وصول الجيش الحِميري يقوده الملكان الحِميريان: أبو كرب أسعد وابنه حسان إلى وسط نجد، وتحديداً وادي

(مأسل الجمح)، ومما زاد من مصداقية هذه الحملة أنه تم العثور على هذا النقش في وسط هذا الوادي القابع في وسط نجد.

وهنا يستقيم الأمر وتتفق الرواية العربية مع أحداث هذا النقش (509 ريان)، فهو يذكر انتصار الجيش الحِميري بقيادة الملكين (أبي كرب أسعد وابنه حسان) على قبائل معدّ، ورغم أنه لم يذكر شيئًا عن تنصيب الزعيم الكندي (حجر بن عمرو) حاكمًا على قبائل معدّ نيابة عن الحِميريين فإن الأمر يبدو مقبولاً، فهما قد حققا النصر على معدّ، وكانت كِندة في قوام الحملة الحِميرية، الأمر الذي يرجح تعيين زعيمها حاكمًا على معدّ نيابة عن الحِميريين.

ويذكر جونار أوليندر أنه تم العثور على نقش من قبل (ريكمانز) في هذه المنطقة يحمل اسم (حجر بن عمرو ملك كِندة) غير أنني لم أقف على هذا النقش ومحتواه وهل اقتصر على الاسم فقط أو أكثر؟ فالكاتب لم يشر إلى ذلك[106].

إن ما يمكن الخروج به من هذه المقارنة بين المصادر النقشية والمصادر الإخبارية العربية فيما يتعلق بالحكم الكندي في نجد أمران:

الأمر الأول: تأكيد صلة ملوك كِندة بالملوك الحِميريين أثناء فترة حكمهم في نجد حكامًا وملوكًا على قبائل معدّ، وما يؤكد صحة هذا الرأي أن سقوط الحكم الكندي في نجد جاء عقب سقوط المملكة الحِميرية على يد الأحباش عام 525 م[107].

الأمر الثاني: ضرورة إعادة النظر في الحكم على المعلومات التي ذكرها الإخباريون العرب عن تاريخ شبه الجزيرة العربية والتي يعتقد الكثير من مؤرخينا المعاصرين أن معظمها نسج من الخيال والأساطير وبعيدة عن الواقع، وخاصة تلك التي تتعلق بأخبار العرب قبل الإسلام، بدليل ما أكده اكتشاف هذا النقش الحِميري من المعلومات التي جاءت على لسان الإخباريين العرب عن تأسيس حكم كِندة في نجد وحملة التبع الحِميري على قبائل وسط شبه الجزيرة العربية. وعلينا نحن الباحثين والمؤرخين أن نبادر بتحقيق ما جاء في المصادر الإخبارية العربية عن طريق المقارنة

مع المصادر النقشية والأثرية، وإنصاف مؤرخينا القدامى الذين بذلوا جهودًا مضنية في جمع تلك المعلومات وتحمل المعاناة في تلك الظروف القاسية، وتمكنوا من حفظها للأجيال اللاحقة.

ومهما شاب هذه المعلومات من بعض الخرافات الأسطورية فإنَّ الحقيقة التاريخية كامنة بداخلها تنتظر من يبحث عنها. ولنا في الأوروبيين أنفسهم مثلٌ، فقد جعلوا ملحمتي الإلياذة والأوديسة مصدرًا رئيسًا لتاريخ اليونان على الرغم من الجانب الأسطوري المصاحب لهاتين الملحمتين.

أما عن ارتباط كِندة نجد بكِندة حضرموت فليس في النقوش المكتشفة ما يشير إلى ذلك حتى الآن. أما في المصادر الإخبارية العربية فإننا نجد حديثًا عن هجرة كِندة من نجد إلى حضرموت إثر سقوط حكمها هناك[108]. ونستخلص من هذه المصادر دليلين حول ارتباط كِندة نجد بكِندة حضرموت :

الأول: ما ذكرته هذه المصادر على لسان شاعر كِندة الجاهلي المعروف، وهو امرؤ القيس عندما قال:

دمون إنا معشر يمانون وإننا لأهلنا محبون

والدليل الثاني ما قاله الملك الكندي الأشعث بن قيس في المدينة وهو يعلن إسلام كِندة قادمًا من حضرموت، (يا رسول الله نحن بنو آكل المرار، وأَنت ابن آكل المرار)[109]. على الرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم ردّ عليه مصححًا بقوله : «نحن بنو النضر بن كنانة» ، نجد أن فيما قاله الأشعث تأكيدًا لامتداد نسبه إلى آكل المرار (حجر بن عمرو).

فامرؤ القيس أكد نسبه اليماني وموطنه في دمون بأرض حضرموت الواقعة اليوم بمنطقة دوعن، وهو ابن آخر ملوك كِندة – حجر بن الحارث – الذين حكموا في نجد ثم قتل على يد بني أسد[110].كما أن الملك الكندي الأشعث بن قيس قد أكد صلته بـ (آكل المرار) وهو (الملك حجر بن عمرو) مؤسس الحكم الكندي في نجد

في القرن الخامس الميلادي. فإذا ما صح هذا الارتباط فإن كِندة نجد قد هاجروا من حضرموت ثم عادوا إليها بعد سقوط حكمهم هناك، ولكن يبقى البحث عن أدلة قوية؛ لتأكيد هذا الارتباط.

خامسًا: المدن الكندية في حضرموت:

لاتذكر النقوش مدناً كندية في حضرموت، ولكنها تذكر مدنًا حضرمية في سياق اكتساح جيش الأعراب الحِميري لهذه المدن؛ لإعادتها إلى حظيرة الدولة الحِميرية بعد محاولة حضرموت الانفصال عن الدولة الحِميرية عقب ضمها في أوائل القرن الرابع الميلادي على يد الملك الحِميري شمر يهرعَش(111).

ومن المدن المذكورة في النقش (32 إ): (العبر، وصوأران، وشبام، ورطغة، وسيئون، ومريمة، وحدب، وتريم، ودمون، ومشطة). ومن الحصون: (عر أهلان (حصن الأهل)، وعر كليب (حصن كليب)(112).

أما في النقش (665جام) فقد جاء ذكر مدن أخرى هي: (أراك، دهر، رخية، أعيان خراص)(113)

وفي النقش (31 إ) جاء ذكر مدن أخرى أيضًا وهي: (عقران)، وجاء ذكرها بعد ذكر مدينة (صوأران) و(رطغة) بين (شبوة) و(عقران)(114)، وجاء ذكر مدينة (قنا) في النقش (13 إ)(115). وما زالت معظم هذه المدن تحمل الأسماء نفسها والمواقع نفسها ماتزال حتى يومنا هذا في وادي حضرموت(116).

أما إذا أردنا معرفة المدن الكِندية بحضرموت فسوف نجدها عند الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب)، وقد أسهب في ذكر بعض التفاصيل عنها، فقال: «فإذا خرج الخارج من (العبر) لقي أول ذلك (درب العُجَيز الكندي) ثم (هينن)»، ويقول عن (هينن): «إنها قرية كبيرة في أسفلها سوق وفي أعلاها حصن للحصين محمد التجيبي وساكنها (بنو بدّا) و (بنو سهل) من تجيب). وما زالت هينن تحمل الاسم نفسه حتى يومنا هذا».

ثم ذكر مدينة (صوران)، وهي المدينة المذكورة نفسها في النقوش باسم (صوأران) وقال عنها: «إنها قرية مقتصدة لتجيب من كِندة ثم (قشا قش)» وقال عنها: «إنها قرية في رأس جبل لتجيب. ثم (عندل) وقال عنها: «مدينة عظيمة للصدف، ويذكر قول امرئ القيس فيها:

كأنيَ لم أَلْهُ بدمون مرَّةً *** ولم أشهد الغارات يومًا بعندل

ثم (خودون) و(هدون) و(دمون) ويقول عنها: «إنها مدن للصدف بحضرموت»[117].

ثم يذكر (الهجرين)، وقال عنهما: «إنهما مدينتان متقابلتان في رأس جبل حصين يقال لواحدة (خيدون) اليوم، وذكر أن ساكن (خيدون) الصدف، وساكن (دمون) بنو الحارث الملك ابن عمرو المقصور بن حجر آكل المرار»[118].

ثم يصف الهمداني هذه المدن بأنها: (بلد كِندة) ويقول عنه: «بلد كِندة مرتفع كأنه سراة، وتصب أوديته في حضرموت، ثم يصب حضرموت إلى بلد مهرة من الهجرين إلى ريدة أرضين واد فيه قرى كثيرة ونخل للعباد من كِندة»[119].

ثم يواصل حديثه عن المدن الكِندية السفلى فيقول: «ثم يهبط الهابط إلى (سدبة) قرية محمد بن يوسف التجيبي ثم (حُورة)». وقال عن حورة: «إنها مدينة عظيمة لبني حارثة من كِندة[120]. ثم (قارة الأشبا) وقال: «إنها لكِندة، ثم (العجلانية) وقال عنها: (قرية كبيرة مقابلة لهينن) إلا أن هينن في وادي العبر واسمه عين، ثم (منوب) واد فيه قرى كثيرة ونخل وزرع ويفيض مع (العَبر) و (دوعن) بين شبام والقارة)[121].

ويلخص الهمداني في ختام حديثه عن المدن الكِندية بحضرموت بلد كِندة في واديين فيقول: «وبلد كِندة هي هذان الواديان العَبر ودوعن، أعلاهما الحصون

وأسفلهما الزرع والنخل»[122].

وإذا ما قارنا هذه المدن الكِندية التي ذكرها الهمداني بالمدن الحضرمية التي جاء ذكرها في النقوش فسنجد أن المدن الكِندية كانت في الأصل مدن حضرمية، وليست كندية، الأمر الذي يدعم الرأي الذي ذهبنا إليه في أن كِندة استوطنت حضرموت عقب مشاركتها في جيش الأعراب الحِميري الذي اكتسح حضرموت كما أسلفنا.

الخاتمة :

خلص البحث إلى أن الموطن الأول لكِندة ليس حضرموت أو غمر ذي كِندة في نجد، كما كان يُعتقد بل مدينة (قرية ذات كهل) وهو اسمها في النقوش و(قرية الفاو) حاليًّا إلى الشمال الشرقي من نجران جنوب المملكة العربية السعودية، بعد أن رُفعت الأنقاض عنها إثر التنقيبات التي جرت منذ عام 1970م، ثم انتقلت كِندة إلى منطقة الأعراب في عسير وما حولها إثر هزيمتها على يد القحطانيين. واستقر بها المطاف في حضرموت مقتسمة بذلك أرض حضرموت مع السكان الحضارمة الأصليين وذلك في حدود منتصف القرن الرابع الميلادي. وعلى إثر الكشف عن تلك النقوش وما تلاها من تنقيب، وما أسفر عنه من اكتشاف للمدينة الكِندية (قرية ذات كهل) فإن التاريخ قد عاد بكِندة ما يقرب من خمسة قرون عن التاريخ السابق الذي تحدث عن كِندة ككيان حاكم في نجد في القرن السادس الميلادي. وبذلك الكشف أضافت كِندة رصيدًا حضاريًّا لشعوب الجزيرة العربية قبل الإسلام. وشكلت بإرثها الحضاري هذا نقطة الاتصال والتواصل الحضاري ما بين حضارة جنوب الجزيرة العربية وشمالها وشرقها في فترة ما قبل الإسلام.

كما خلص البحث أيضًا إلى أن فرعًا من الكِنديين قد هاجر من حضرموت إلى نجد في القرن الخامس الميلادي، وإلى هذا الفرع ينسب الكيان الكندي الذي تأسس في نجد في القرن السادس الميلادي، وشكل هذا الكيان امتدادًا للسلطة الحِميرية على قبائل معدّ؛ حيث أناب الملوك الحِميريون حاكمًا كنديًّا عنهم في نجد عقب انتصارهم

على قبائل معدّ أواخر القرن الخامس الميلادي. وتلاشى هذا الدور الكندي في نجد عقب سقوط الدولة الحِميرية على يد الأحباش عام 525 م. ثم عاد الكنديون إلى موطنهم قبل تلك الهجرة وهو بلد حضرموت، وعلى الأرجح أنهم اتجهوا إلى الجزء الشرقي فيما يُعرف اليوم ببلد تريم وما حولها.

وظلت كِندة مقتسمة أرض حضرموت مع سكانها الأصليين حتى دخول حضرموت في كنف الدولة الإسلامية بالمدينة. ثم استضعفت كِندة عقب هزيمتها على يد جيش الخلافة الذي أرسله الخليفة الأول أبو بكر الصديق بعد أن دخلت كِندة في عداد القبائل العربية المرتدة عن الإسلام.

الحواشي (الهوامش):

1 – ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، 1983م، ص399. والهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، الإكليل، ج10، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ص31 - 32، وابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر، م:2، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت 1990م، ص56.

2 – دمون المقصود بها دمون الواقعة اليوم في دوعن، وليست دمون الواقعة إلى الشرق من تريم، وقد خلط بعضهم بين المدينتين .

3 – ابن خلدون، السابق، ص56، وابن حزم الأندلسي، السابق، ص92.

4 – ابن حزم، السابق، ص477.

5 – النقش 635 جام.

6 – نفسه.

7 – ابن خلدون، السابق، ص 56.

8 – النقوش 635 - 576 جام و509 ريнان.

9 – انظر معنى لفظة (شعب) في المعجم السبئي، ص 130.10

10 –الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، 1979م، أضواء جديدة على مملكة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها، (دراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام)، كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ج1، الرياض، ص16-17.

11 –النقش 635 جام .

12 –النقش 660 جام .

13 –النقش C. I. H 541

14 –النقش أنصاري الفاو ، 2. (نقش شاهد قبر الملك معاوية بن ربيعة) .

15 – الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، السابق، ص 16.

16 – ابن خلدون، السابق، ص 56.

17 – النقش 635 جام.

18 – نلسن، ديتلف ، فرتزهومل، ل. رودوكاناكيس ، أدولف جرومان، التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م، ص –190 208.

19 – بيستون، إلفريد، لغات النقوش اليمنية القديمة، في كتاب مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985م، ص 70.

20 –النقش 635 جام .

21 –انظر موقع قرية على الخريطة ص30.

22 –مرت دولة سبأ بمرحلة ضعف بسبب التنافس على العرش السبئي بين الأسر المتنفذة، وهو ما أطلق عليه بـ عصر ملوك سبأ وذي ريدان .

23- Jamme، A Sabaean inscriptions from Mahram Bilgis (Marib)، Baltimor، the John Hopkins press،1962، p 125.

24– النقش 576 جام وهو يتحدث عن حملة عسكرية سبئية على قرية ذات كهل في عهد الملكين إلـ شرح يحضب و أخيه يأزل بين. انظر النقش في كتاب مختارات من النقوش اليمنية القديمة تحت رقم 67، ص262.

25 –الأنصاري، السابق، ص16 – 17.

26 –النقش أنصاري، الفاو2.

27 – الأنصاري، السابق، ص16 - 17 .

28 – 576 جام و Ry 535 .

29 – النقش 576 جام.

30 – نفسه.

31 – نفسه.

32 – بيوتروفسكي، م . ب، اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى قبل الهجرة، تعريب محمد الشعيبي، دار العودة، بيروت 1987م، ص71، وجواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، بيروت

1969م، ص317.

33 – نقش النّمارة ، كتاب جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، بيروت، منشورات المكتبة الأهلية، د.ت ، ص211.

34 – النقش 660 جام .

35 -النقوش 635، 2110جام ، أنصاري الفاو ، 2، نقش النمارة .

36 – نقش النمارة .

37 – يوسف محمد عبدالله ، السابق ، ص 274.

38 – عبد العزيز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة ، مكتبة الأنجلو المصرية، 1997، ص169.

39 – الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية جامعة الرياض، 1982م، أعمال التنقيب الأثري في قرية الفاو ونتائجها، كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ج1، 1979م، الرياض، ص 16 وما بعدها.

40 –نفسه.

41 –نفسه .

42 –نفسه.

43 –نفسه.

44 –الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، السابق، ص16 وما بعدها. وعبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1997م، ص169. وعبد الله حسن الشيبه، محاضرات في تاريخ العرب القديم، صنعاء، 1991م، د . ن، ص401 وما بعدها.

45 – عبد الرحمن الطيب الأنصاري، السابق ، ص3-11.

46 – عبد الله حسن الشيبة ، السابق ، ص407.

47 – نفسه.

48 – عبد الرحمن الطيب الأنصاري ،1979، أضواء جديدة على مملكة كِندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها ، (دراسات تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام) ، كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ج1 ، الرياض، ص16-17.

49 –الأنصاري، نفسه، ص19.

50 –الأنصاري، نفسه، ص16 وما بعدها. وعبد الله الشيبه، نفسه ص404.

51 –الأنصاري، نفسه، ص19. وعبد الله الشيبه، نفسه، ص405 – 406.

52 –نقولا زيادة، دليل البحر الإرثري، كتاب الجزيرة العربية قبل الإسلام، عبد القادر محمود عبد الله وآخرون، جامعة الرياض، مطابع الملك سعود ، 1984، ص263 وما بعدها.

53 –شيبمان كلاوس، تاريخ الممالك القديمة في جنوب الجزيرة العربية ، ترجمة فاروق إسماعيل، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء 2002، ص120. وكذلك دراسة طريق اللبان وأسواق العرب، وثيقة الوفد اليمني المقدمة إلى مؤتمر الآثار 12، المنامة، مملكة البحرين، مايو 1993، مجلة ريدان، حولية الآثار والنقوش اليمنية القديمة، العدد 7، سنة 2001، ص124-126.

54 –شيبمان كلاوس، السابق، ص120 .

55 –سورة قريش .

56 –نقولا زيادة، السابق، ص256، (الفصل 24 من كتاب دليل البحر الإرثري).

57 –عبد الرحمن الطيب الأنصاري، السابق، ص 136.

58 –يوسف محمد عبدالله، السابق، ص 269.

59 –الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، 1990م، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ص266.

60 –يوسف محمد عبدالله، السابق، ص 277 .

61 –عبد الرحمن الطيب الأنصاري، السابق، ص 136–137.

62 –النقش 660 جام.

63 –بافقيه، محمد عبدالقادر، في العربية السعيدة (دراسات تاريخية قصيرة)، مركز البحوث

والدراسات اليمني، صنعاء، 1985م، ص34.

64 -النقش 32 إ .

65 -النقوش -660 665 جام، 32 إ .

66 -النقش 660 جام.

67 -نفسه.

68 -نفسه.

69 -نفسه.

70 -نفسه.

71 -انظر مجلة العرب، ج9، ص825، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، د. ت.

72 -انظر دارسة هذا النقش (509 رينان) عند أوليندر (ملوك كِندة من بني آكل المرار) ترجمة عبد الجبار المطلبي، ص325 وعند بيوتروفسكي كتاب (اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة)، ترجمة الشعيبي، ص75 .

73 - انظر دراسة للنقش المذكور (510 رينان) عند أوليندر السابق، ص326، وعند بيوتروفسكي، السابق، ص75.

74 -النقش C.I.H 621.

75 - انظر دراسة لهذا النقش (500 رينان) عند أوليندر، السابق، ص327.

76 -النقش 660 جام.

77 - تحدث نقش أبرهة الموسوم بـ C.I.H 541 عن كِندة ككيان سياسي في حضرموت عام 542م.

78 -ابن خلدون، السابق، ج2، ص56 .

79 -الهمداني، صفة جزيرة العرب، 1990م، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء. ود. سرجيس فرانتسوزوف، 2004م، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، تعريب عبدالعزيز جعفر بن عقيل، المعهد الفرنسي للآثار، صنعاء، ص73.

80 - الأسطر -10 -11 - 12 من النقش C.I.H 541.

81 – الأسطر 21 - 22 من النقش C.I.H 541.

82 –كان مصطلح (شعبن) بمعنى (الشعب) هو السائد في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وقابله العلماء بـ (مصطلح القبيلة) السائد في شمالها رغم الفارق في الدلالة الاجتماعية؛ إذ إن مصطلح (الشعب) يعبر عن التجمع السكاني الحضري المستقر في مدن وقرى جنوب شبه الجزيرة العربية، في حين يعبر مصطلح القبيلة، عن التجمعات السكانية البدوية المترحلة أو شبه المستقرة في وسطها وشمالها. انظر المعجم السبئي ص130.

83 –الهمداني، الصفة، ص88. وانظر لوندين، أ.ج، اليمن إبان القرن السادس الميلادي، ترجمة محمد علي البحر، مجلة الإكليل، العددان 1 – 2، السنة 6، 1988م، المركز اليمني للأبحاث الثقافية، صنعاء، ص25.

84 – الأسطر 86 – 87 من النقش C.I.H 541. ولفظة (كبير) لقب يطلق على الحاكم الإداري للإقليم. ويتم تعيينه من قبل الملوك الحِميريين. انظر المعجم السبئي ص76.

85 – يُعَدُّ النقش C.I.H 541 هو المصدر الوحيد الذي يتحدث عن هذه الثورة.

86 –أوليندر، جونار، السابق ص 208 - 215، وانظر سرجيس، السابق، ص70.

87 –النقش 665 جام و النقش 32 إ .

88 –النقش 665 جام .

89 –الأسطر 31 – 34 من النقش 665 جام في كتاب مطهر الإرياني (نقوش مسندية)، 1990م، المركز اليمني للدراسات والبحوث، صنعاء، ص242 – 243 .

90 –النقش 665 جام و النقش 32 إ .

91 –النقش 32 إ، السطران 2 - 3 في كتاب الإرياني، السابق، ص200.

92 –نفسه.

93 –نفسه.

94 –أرّخ أبرهة نقشه الموسوم بـ C.I.H 541 بعام 542 م = 657ح، في حين أن فترة حكم الملك ذمار علي يهبر كانت في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي.

95 –النقش أبرهة الموسوم بـ541 C.I.H.

96 –ابن خلدون، السابق، ج2، ص56.

97 –باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، 1983م، دار الهمداني، عدن، ص22-23.

98 –بيوتروفسكي، السابق، ص133.

99 –ابن خلدون، السابق، ص56. والهمداني، السابق ، ص166.

100 –نفسه، ص56.

101 – نفسه، ص56.

102 –نفسه، ص56.

103 –النقش 509 رينان.

104 –نفسه.

105 –انظر ص10-11 من البحث (كِندة قبيلة أعرابية).

106 –أوليندر، جونار، السابق، ص23 .

107 –النقش 621 C.I.H .

108 –الهمداني، الصفة، ص166 .

109 –ابن خلدون، السابق، ص56 .

110 –نفسه، ص274.

111 –النقش 643 جام.

112 –النقش 32 إ .

113 –النقش 665 جام (وأعيان خراص جاء ذكرها عند الهمداني في الصفة، ص166 بـ (عين) وذكر أنه اسم لوادي العبر).

114 –النقش 32 إ .

115 –النقش 13 إ .

116 –لمعرفة مواقع هذه المدن اليوم يمكن العودة إلى معجم (إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت)،

لمؤلفه عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، تحقيق إبراهيم المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 2002م .

117 –الهمداني، السابق، ص166 .

118 –هجرن بمعنى الهجر، مصطلح حِميري يطلق على المدن اليمنية القديمة تمييزًا لها من القرى، انظر المعجم السبئي ص56 .

119 –سدبة، قرية اليوم من قرى وادي حضرموت .

120 –حورة، قرية مازالت تحمل الاسم نفسه في وادي حضرموت .

121 –الهمداني، الصفة، ص166 .

122 –نفسه، ص166.

مصادر ومراجع البحث:

1 -القرآن الكريم .

2 -الأنصاري، عبدالرحمن الخطيب، 1979م أضواء جديدة على مملكة كِندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها، (دراسة أثرية تاريخية نشرت في كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام) إشراف عبد القادر محمود طه وسامي الصقار، جامعة الملك سعود، الرياض، ج1.

3 -الأنصاري، عبدالرحمن الخطيب، 1979م قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية ، أعمال التنقيب الأثري في قرية الفاو ونتائجها ، نشر في كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ،إشراف عبد القادر محمود طه و سامي الصقار،جامعة الملك سعود، الرياض ، ج1.

4 -الإرياني، مطهر علي، 1990 نقوش مسندية، المركز اليمني للدراسات والبحوث، صنعاء.

5 -أوليندر، جونار، 1973م ملوك كِندة من بني آكل المرار، ترجمة عبدالجبار المطلبي، دار الحرية للطباعة، بغداد.

6 -باوزير، سعيد عوض، 1983م صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الهمداني، عدن

7 -بافقيه، محمد عبدالقادر، إلفريد بيستون ،كريستيان روبان ،محمود الغول، 1985م مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

8 -بافقيه، محمد عبدالقادر، 1985م في العربية السعيدة (دراسات تاريخية قصيرة) مركز البحوث والدراسات اليمني، صنعاء.

9 -بيوتروفسكي، م . ب، 1987م اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة، ترجمة محمد الشعيبي، دار العودة، بيروت.

10 -ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد، 1983م جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة

11 -ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، 1990م العبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت.

12 - زيادة ، نقولا، 1984 م دليل البحر الأرثري،(في كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام) إشراف عبد القادر محمود طه وسامي الصقار، جامعة الملك سعود، الرياض، ج1.

13 -زيدان، جرجي ، د. ت العرب قبل الإسلام ، منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت .

14 -الشيبه، عبدالله حسن، 1991م محاضرات في تاريخ العرب القديم، صنعاء، د. ن.

15 -صالح، عبد العزيز، 1997م تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة (مكتبة الأنجلو المصرية)، القاهرة.

16 - عبد الله . يوسف محمد، 1990 م أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، دار الفكر المعاصر، بيروت

17 -علي، جواد، 1969م المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، دار العلم للملايين، بيروت .

18 -كلاوس شيبمان، 2002 م تاريخ الممالك القديمة في جنوب الجزيرة العربية، ترجمة ، فاروق إسماعيل. مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.

19 - نلسن، ديتلف ، فرتزهومل ،ل. رودوكناكيس، أدولف جرومان، 1958م التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

20 -الندوة العالمية الثانية (13 – 19 إبريل 1979م)، 1984م دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، (الجزيرة العربية قبل الإسلام)، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض.

21 - الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، 1991م صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء.

22 -الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، د . ت الإكليل، ج10، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء.

الدوريات:

مجلة العرب، ج9، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، د . ت.

مجلة الإكليل، الأعداد 1 – 2، السنة 1988م، المركز اليمني للأبحاث الثقافية، صنعاء.

المعاجم:

المعجم السبئي، 1982م. تأليف بيستون، إلفريد، وآخرين، دار نشر بيترز (لوفان الجديدة)، بيروت.

المراجع باللغة الأجنبية:

1 - Corpus Inscriptionum Semiticarum، pars quarta، Inscriptiones Himyariticas et Sabaeas Continens، 3. Bde. Paris، 1889، 1911، 1929.

2 -Jamme، A Sabaean inscriptions from Mahram Bilgis (Marib)، Baltimor، the John Hopkins press، 1962، p 125.

3 -Repertoire d'Epigraphie Semitique.(R.E.S) Paris، 1929 .

المختصرات:

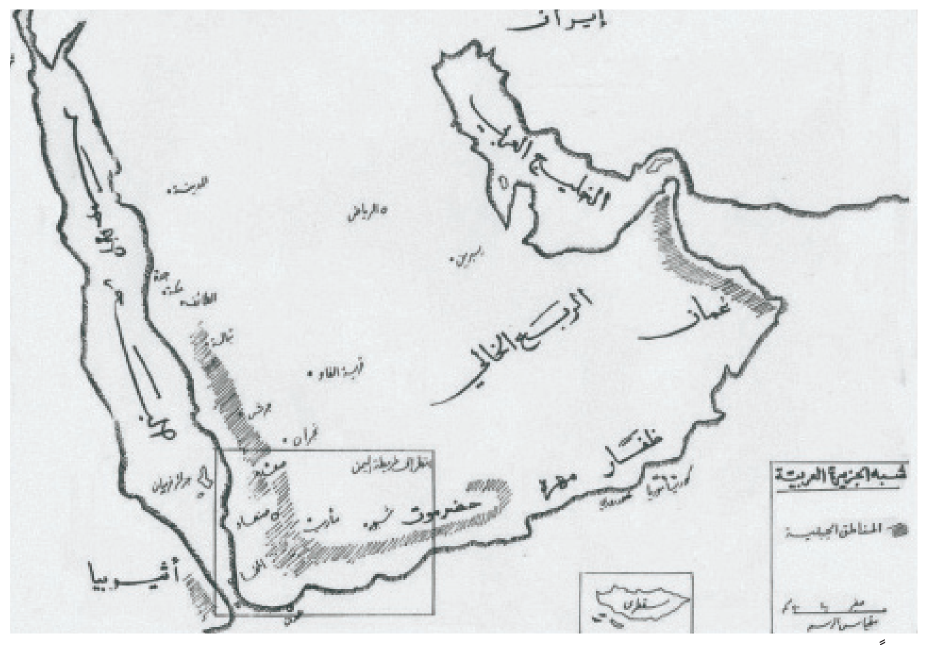
إ = إرياني.

د . ت = دون تاريخ.

د . ن = دون ناشر.

Ry = ريكمانز.

C . I . H = كوربوس (مدونة النقوش السامية).



نقلاً عن بافقيه، مختارات، ص474.

Kindah th Kindah through inscriptions and antiquities This search deals with Kindah tribe in the light of the latest discovered inscriptions and antiquities. It aims at clarifying its role at the pre-Islam period at the level of the Arabian peninsula. The research tackles one main problem، that is، the original place of Kindah by the help of the recent data provided by the inscriptions and antiquities. The research is divided into six main points as follows:

1) Kindah`s capital، THAT KAHEL village. ``Al-FAW village``.

2) Kindah as Bedouins tribe.

3) Kindah in Hadhramout.

4) Kindah in Najd?

5) Kindah sities.

6) Conclusion.

The research comes to the conclusion that the original place of Kindah is not Hadhramout، however، it is THAT KAHEL village ``AL-FAW village``، located on the northern east of Najran which is situated in the southern part of the Kingdom of Saudi Arabia at present time. When it was defeated، Kindah moved to Bedouins area at Aseer and around it. Eventually it landed in Hadhramout، sharing Hadhramout region with the native people. Gradually the people of Kindah mingled with the native inhabitants and later formed one main element of the population known as ``Al-Hadharemah``. rough insc

- Ribner, Irving. "The Idea of History in Marlowe's Tamburlaine." English LiteraryHistory 20, no. 4 (1953): 251-266.
- The Riverside Shakespeare. Boston: Houghton Mifflin Company, 1974.
- Rivlin, Benjamin, ed. The Contemporary Middle East Tradition and Innovation.
- New York: Random House, 1965.
- Rodinson, Maxime. Mohammed. Trans. Anne Carter. London: Penguin Books, 1971.
- .... "A Critical Survey of Modern Studies on Muhammad" in Studies on Islam. Trans. Merlin L. Swartz. New York & Oxford: Oxford University Press, 1981.
- Said, Edward W. Orientalism. London: Routledge, 1978.
- Sale, George, Trans. The Koran: Commonly Called The Alcoran of Mohammed .... to Which is Prefixed a Preliminary Discourse. 6th ed. Philadelphia: Lippincott,1876.
- Sell, the Reverend Canon Edward. The Life of Mohammad. London: The Christian Literature Society for India, 1913.
- Smith, Byron Porter. Islam in English Literature. New York: Caravan Books, 1977.
- Southern, R. W. Western Views of Islam in the Middle Ages. Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1962.
- Torrey, C. C. The Jewish Foundations of Islam. New York: KTAV PublishingHouse, 1967.
- Von Grunebaum, Gustave E. Medieval Islam: A Study in Cultural Orientation.
- Chicago: University of Chicago Press, 1953.
- Wann, Louis. "The Oriental in Elizabethan Drama." Modern Philology, 12 (1915): 423-47.
- Watt, W. Montgomery. Muhammad: Prophet and Statesman. London: Oxford University Press, 1961.
- Williams, Patrick and Laura Chrisman, eds, Colonial Discourse and Post-Colonial Theory: A Reader. London & New York: Harvester Wheatsheaf, 1993.
- Young, Robert. White Mythologies: Writing History and the West. Londn: Routledge, 1990

- Jones, Eldred D. The Elizabethan Image of Africa. Charlottesville: VirginiaUniversity Press, 1971.
- Jones, C. Meredith. "The Conventional Saracen of the Songs of Geste." Speculum, 17 (1942), 201-25.
- Lewis, Archibald, ed. The Islamic World and the West. New York: John Wiley andSons, Inc., 1970.
- Langland, William. The Vision of Piers Plowman. Edited A. V. C. Schmidt. London: J. M. Dent & Sons, 1978.
- Lulu, Abdul Wahid. "Andalusian and English Lyrical Poetry: Probable Influence through the Troubadours." Journal of Human Sciences. University of Bahrain, 1 (1998): 255- 275 al-Mubarakpuri, Safi-ur-Rahman. The Sealed Nectar: A Biography of the NobleProphet. Riyadh: Dar-us-Salam Publications, 1996.
- Mahmoud, Rais. "The Representation of the Turk in English Renaissance
- Drama." Unpublished Ph. D. dissertation. Cornell University, 1973.
- Makdisi, G. The Rise of Colleges: Institutions of Higher Learning in Islam and the West. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1981.
- Marlowe, Christopher. Tamburlaine The Great in Drama of the English Renaissance I: The Tudor Period. Ed. Russell A. Fraser & Norman Rabkin. New York: Macmillan Publishing Company, 1976.
- Massinger, Philip. The Renegado in The Dramatic Works of Massinger & Ford.
- Ed. Ernest. H. Coleridge. London: Routledge, 1875.
- Merghelani, Abdul-Rahman Amin. "Saracenism on the British Stage 1580-1642: A Formula For Distance." Unpublished Ph. D. dissertation. University of Colorado, 1982.
- Muir, William. Life of Muhammad. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1912.
- Munro, Dana C. "The Western Attitude Toward Islam During the Period of the
- Crusades." Speculum 6, no. 3 (1931): 329- 343.
- Naqvi, S. Ali Raza. "Prophet Muhammad's Image in Western Enlightened Scholarship." The MWL Journal, Shawwal (1403 corresponding to 1983): 28- 33 Prince of Wales, Charles. "Islam and the West." Periodica Islamica, 4, No. 1 (1994): 3-4.

printed 1964.
- Bhabha, Homi, "Signs Taken for Wonders: Questions of Ambivalence And Authority Under A Tree Outside Delhi, May 1817," A paper contributed to the Essex Conference on the Sociology of Literature in Europe and its Others.(July, 1984): 89-106.
- ...., The Location of Culture (London & New York: Routledge, 1994).
- Briffault, R. The Making of Humanity. London: Allen & Unwin Publishers, 1921.
- Buaben, Jabal Muhammad. "Image of Prophet Muhammad (pbuh) in the West: A Study of Muir, Margoliouth and Watt." Unpublished Ph. D. dissertation, University of Birmingham, UK, 1996.
- Byng, Edward J. The World of the Arabs. Boston: Little Brown & Company, 1944.
- Carlyle, Thomas. Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History. Edited with an introduction by Carl Niemeyer. Lincoln: University of Nebraska Press, 1966.
- Comfort, William W. "The Saracen in the French Epic." PMLA, 55, no. 3 (1940): 628- 659.
- Cook, Michael. Muhammad. Oxford: Oxford University Press, 1983.
- Daniel, Norman. Islam and the West: The Making of an Image. Edinburgh:Edinburgh University Press, 1960.
- Dante Alighieri. The Comedy of Dante Alighieri. Trans. Dorothy L. Sayers. Baltimore: Penguin Books, 1949.
- Draycott, G. M. Mahomet: Founder of Islam. London: Martin Secker, 1915.
- Fadl, Salah, The Impact of Islamic Culture on Dante's Divine Comedy. Cairo: Dar al -Ma'aref, 1980.
- Fengzhen, Wang. "Third-World Writers in the Era of Postmodernism." New
- Literary History, 28 (1997): 45- 55 Gibb, Hamilton A. R. Studies on the Civilization of Islam. Boston: Beacon Press,1962.
- .... Mohammedanism - An Historical Survey. London, OxfordUniversity Press, 1949.
- Hofmann, Murad. Islam: The Alternative. Reading: Garnet Publishing Ltd, 1993.

105. Rodinson, "A Critical Survey," p. 25.
106. Carlyle, p. 76.
107. Ibid., p. 62.
108. Ibid., p. 101.
109. William Shakespeare, Macbeth in The Riverside Shakespeare (Boston: Houghton Mifflin Company, 1974), V.v. 25-26, p. 1337.
110. Charles, the Prince of Wales, "Islam and the West," Periodica Islamica 4 (no.1, 1994), p. 4.
111. Wang Fengzhen, "Third World Writers in the Era of Postmodernism," New Literary History 28 (1997), p. 49.
112. Edward J. Byng, The World of the Arabs (Boston: Little Brown and Company, 1944), pp. 186-7.
113. Asin, Islam and the Divine Comedy, p. vii.
114. Ibid., pp. 267-269.
115. Ibid., p. 272.
116. Von Grunebaum, Medieval Islam, pp. 340-41.
117. Abdul Wahid Lulu, "Andalusian and English Lyrical Poetry: Probable Influence through the Troubadours," Journal of Human Sciences, University of Bahrain (1, 1998), p. 262.
118. Ibid., p. 262.

References

- Ahmed, Akbar S. Postmodernism and Islam: Predicament and Promise. London: Routledge, 1992
- Andrae, Tor. Mohammed: The Man and His Faith. Trans. Theopil Menzeil. London: Allen & Unwin, 1936.
- Arnold, Thomas, and Guillaume, Alfred. The Legacy of Islam. Princeton: Princeton University Press, 1968
- Asin, Miguel. Islam and the Divine Comedy. Tran. Harold Sunderland. London: John Murray, 1926.
- Battenhouse, Roy W. Malowe's Tamburlaine: A Study in Renaissance Moral Philosophy. Nashville, Tenn.: Vanderbilt University Press, 1941. Re-

83. Rodinson, Mohammed, p. 276.
84. Murad Hofmann, Islam: The Alternative (Reading: Garnet Publishing Ltd, 1993), p. 1.
85. Rodinson, p. 279.
86. Ibid., p. 280.
87. Carlyle, p. 71.
88. Ibid., p. 70.
89. Ibid., p. 76.
90. Ibid., p. 75.
91. Ibid., p. 76.
92. Benjamin Rivlin, The Contemporary Middle East Tradition and Innovation (New York: Random House, 1965), p. 87.
93. Carlyle, p. 77.
94. Rodinson, “A Critical Survey,” p. 50.
95. R. Briffault, The Making of Humanity (London: Allen & Unwin Publishers, 1921), p. 189.
96. G. Makdisi, The Rise of Colleges: Institutions of Higher Learning in Islam and the West (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1981).
97. Carlyle, p. 100.
98. Ibid., p. 112.
99. S. Ali Raza Naqvi, “Prophet Muhammad’s Image in Western Enlightened Scholarship,” The MWL Journal (Shawwal 1403/1983), p. 29.
100. Archibald Lewis, The Islamic World and the West (New York: John Wiley and Sons, Inc., 1970), p. 62.
101. Miguel Asin, Islam and the Divine Comedy, trans., Harold Sunderland (London: John Murray, 1926), p. 242.
102. Carlyle, p. 101.
103. Thomas Arnold and Alfred Guillaume, The Legacy of Islam (Princeton: Princeton University Press, 1968), p. 186.
104. Ibid., p. 211.

60. Maxime Rodinson, “A Critical Survey of Modern Studies on Muhammad,” in Studies on Islam, trans. Merlin L. Swartz (New York & Oxford: Oxford University Press, 1981), p. 24.
61. Daniel, p. 1.
62. Philip Massinger, The Renegado in The Dramatic Works of Massinger and Ford, ed. Ernest H. Coleridge (London: Routledge, 1875), p. 177.
63. Carlyle, p. 44.
64. Ibid., pp. 66-67.
65. Tor. Andrae, Mohammed: The Man and His Faith, trans. Theopil Menzeil (London: Allen & Unwin, 1936), p. 177.
66. Maxime Rodinson, Mohammed, trans. Anne Carter (London: Penguin Books, 1971), p. 218.
67. Carlyle, p. 64.
68. George Sale, trans., The Koran: Commonly Called The Alcoran of Mohammed ... to Which Is Prefixed a Preliminary Discourse, 6th ed. (1734; rpt. Philadelphia: Lippincott & Co., 1876), p. v.
69. Carlyle, pp. 64-65.
70. Ibid., p. 65.
71. Ibid., p. 44.
72. Ibid., p. 55.
73. Ibid., p. 67.
74. Ibid., p. 73.
75. Ibid., p. 67.
76. Ibid., p. 112.
77. Ibid., p. 48.
78. Ibid., p. 53.
79. Ibid., p. 59.
80. Ibid., p. 61.
81. Ibid., p. 71.
82. Ibid., p. 72.

38. Ibid., Part I, IV.ii. 98-100, p. 225.
39. Ibid., Part I, III.iii. 77-80, p. 221.
40. Ibid., Part I, III. iii. 271, p. 223.
41. Ibid., Part II, I.i. 142, p. 238.
42. Ibid., Part II, I.i. 137-141, p. 238.
43. Ibid., Part II, II.ii. 25-28, p. 242.
44. Ibid., Part II, II.ii. 36-64, pp. 242-243.
45. Ibid., Part II, II.iii. 33-35, p. 243.
46. Ibid., Part II, V.i. 171-200, pp.257-258.
47. Ibid, Part II, V.i. 193-197, p. 258.
48. Ibid., Part II, II.iv. 98-101, p. 244.
49. William Langland, The Vision of Piers Plowman, ed. A. V.C. Schmidt (London: J. M. Dent & Sons, 1978), Passus III, line 329, p. 34.
50. Abdul-Rahman Amin Merghelani, “Saracenism on the British Stage 1580-1642: A Formula for Distance,” Unpublished Ph.D. dissertation (University of Colorado, 1982), pp.24-25.
51. Daniel, p. 68.
52. Ibid., pp. 67-73.
53. Byron Porter Smith, Islam in English Literature (New York: Caravan Books, 1977), p. 30.
54. Thomas Carlyle, “The Hero as Prophet” in Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History, edited with an introduction by Carl Niemeyer (Lincoln: University of Nebraska Press, 1966), p. 52. Henceforth cited as Carlyle. All subsequent references are made to this edition.
55. Safi-ur-Rahman al-Mubarakpuri, The Sealed Nectar: A Biography of the Noble Prophet (Riyadh: Dar-us-Salam Publications, 1996), p. 60.
56. Daniel, p. 71.
57. Carlyle, pp. 65-66.
58. Ibid., p. 65.
59. Ibid., p. 66.

18. Ibid., p. 90.
19. Robert Young, White Mythologies: Writing History and the West (London: Routledge, 1990), p. 147.
20. Said, p. 54.
21. Meredith Jones, “The Conventional Saracen of the Songs of Geste,” Speculum 17 (1942), p. 202.
22. Dana C. Munro, “The Western Attitude Toward Islam During the Period of the Crusade,” Speculum 6 (no.3, 1931), p. 337-338.
23. R.W. Southern, pp. 28-29.
24. Norman Daniel, p. 273.
25. William W. Comfort, p. 639.
26. Meredith Jones, p. 203.
27. Louis Wann, “The Oriental in Elizabethan Drama,” Modern Philology 12 (1915), p. 428-429.
28. Said, p. 1.
29. Southern, pp. 29-30, and Daniel, pp. 79-108.
30. Comfort, p. 635.
31. Eldred D. Jones, The Elizabethan Image of Africa (Charlottesville: Virginia University Press, 1971), p. 1.
32. Said, p. 60.
33. Roy W. Battenhouse, Marlowe’s Tamburlaine: A Study in Renaissance Moral Philosophy (Nashville: Vanderbilt University Press, 1941), p. 12.
34. Christopher Marlowe, Tamburlaine The Great in Drama of the English Renaissance I: The Tudor Period, ed. Russel A. Fraser and Norman Rabkin (New York: Macmillan, 1976), PartI, III.iii. 3-4, p.220. All other references to the play are to this edition.
35. Ibid., Part I, III.iii. 7, p.220.
36. Rais Mahmoud, “The Representation of the Turk in English Renaissance Drama,” Unpublished Ph.D. dissertation (Cornell University, 1973), p. 39.
37. Tamburlaine, Part I, IV.ii. 42, p. 224.

Notes

1. R. W. Southern, Western Views of Islam in the Middle Ages (Cambridge, Mass: Harverd University Press, 1962), p. 28.
2. Norman Daniel, Islam and the West: The Making of an Image (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1960), p. 14.
3. William W. Comfort, "The Saracen in the French Epic", PMLA 55: (no.3, 1940), p.640.
4. Ibid., p. 639.
5. Gustave E. Von Grunebaum, Medieval Islam: A Study in Cultural Orientation (Chicago: University of Chicago Press, 1953), p. 43.
6. Edward Said, Orientalism (London: Routledge, 1978), pp. 1 & 5 respectively.
7. Ibid., p. 21.
8. Ibid., p. 22.
9. Ibid., p. 3.
10. Ibid., p. 15.
11. Ibid., p. 11.
12. Ibid., p. 95.
13. Akbar S. Ahmed, Postmodernism and Islam: Predicament and Promise (London: Routledge, 1992), p. 121.
14. Homi Bhabha, "Signs taken for Wonder: Questions of Ambivalence and Authority Under A Tree Outside Delhi, May 1817," A Paper contributed to the Essex Conference on the Sociology of Literature in Europe and its Others, (July: 1984), p. 92.
15. Ibid., pp. 89-92.
16. Homi Bhabha, "Remembering Fanon: Self, Psyche and the Colonial Condition," in Colonial Discourse and Post-Colonial Theory: A Reader, edited & introduced by Patrick Williams and Laura Chrisman (London & New York: Harvester Wheatsheaf, 1993), p. 117.
17. Homi Bhabha, The Location of Culture (London & New York: Routledge, 1994), p. 89.

if not an extension of, that fruitful interaction between Islam and the West. Thus the illustrious page in history that Carlyle seems to overlook has to be opened once more for a whole world to see in order to realize that a positive cultural bridge can be built between Islam and the West, and hopefully as more enlightened scholarship is conducted by Orientalists on Prophet Muhammad and Islam, a lot of the biased and hostile views inherited from the Medieval tradition are relegated to the back scene.

studied without acknowledging an Islamic debt. Hence Carlyle's reading of modern history, or the history of contemporary Europe in 1840, lacks the comprehensiveness of vision and broadness of sight which should have allowed him to relate the past to the present, rather than seek its divorce from the current moment where Europe, as he claims, speaks in these loud times as opposed to the empire of Silence which has been forgotten. It is only when one takes an overall and complete view of the entire history of relations between Islam and the West that a balanced and appreciative view may be trusted and accepted. Just as Carlyle's views of the Prophet and Islam cannot solely be based on his lecture "The Hero as Prophet" since he continues to express his views in the following lecture "The Hero as Poet", and just as the reader is expected to take the two lectures as a whole or as one unit since they are inseparable before he can make an assessment of Carlyle's views, Carlyle should have realized that the past is needed to understand the present. The two are as inseparable for an understanding of the history of relations between Islam and the West as his two lectures are inseparable from each other. The two complement each other and it is erroneous to make a judgement of Carlyle's views based on one lecture only. Just as William Butler Yeats in *Among School Children* draws a picture of the 'great-rooted' chestnut tree, which is neither the leaf, the blossom, nor the bole, but all three parts put together to form a large, single and interrelated unit of life, Carlyle's two lectures need to be studied together before his conceptions of the Prophet and Islam become clear. While the reader should take that broader view to be in a position to evaluate Carlyle's vision, Carlyle fails to take that panoramic view as he fails to realize that his hero-poet is in fact another product,

of the Prophet and his great impact on the Arabs. Perhaps what distinguishes Carlyle's essay is his firm confidence in the deep and genuine sincerity of the Prophet which he believes to come from Mahomet's heart. The paper shows how Carlyle has refuted certain fables, which survived in the western literary tradition, such as the pigeon feeding fable, and also rejected some baseless accusations with which the Prophet had been labelled such as the imposture hypothesis or the Prophet's sensuality. In that respect, he is moving away from the hostile Medieval tradition, though he cannot totally free himself from it when he discusses the origins of Islam and refers to the Prophet's encounter with Sergius. The paper also shows how Carlyle contradicts himself particularly when he speaks of the Arabs as men of genius who were revitalized by Mahomet's call and who were the torch-bearers whose light shone "through long ages over a great section of the world", but then he denies their remarkable contributions to Western civilization. Though he praises the Arabs whose history became soul-elevating and great because they had a deep faith in Islam, he fails to realize that the interaction between the Arabic and Islamic civilization and Western culture was fruitful as it paved the path for the flourishing of the Western Renaissance.

Dante whom Carlyle believes to survive 'Mahomet' and to embody the Religion of the Middle Ages is ironically one of the fruits of that productive interaction between two complementary rather than antithetical worlds because his works are generally influenced by an Islamic tradition. Neither his *Divine Comedy* nor *Il Convivio* and *Canzoniere* could have been composed without an Islamic and Arabic influence. The *Divine Comedy* which symbolizes the whole culture of Medieval Europe cannot be

The proximity of Provence to Andalus, and the constant relations, peaceful or belligerent, between the two territories, with or without the intermediacy of the Christian kingdoms of the north of Spain all created an atmosphere of exchange on every level, commercial or cultural [117]

Furthermore, Lulu asserts the influence of the troubadours on Dante who expresses admiration for one in particular when he says:

More than 150 years after the earliest troubadour, we find the Catholic and Latin scholar, Dante,... make admiring references to the Provencal lyric, and, in his masterpiece of poetic composition in Latini vulgari, the Divina Commedia, he expresses unique admiration for the troubadour Arnaud Daniel, and composes a few lines in Provencal (*Purgatorio, xxvi*, 148ff) calling Daniel “il miglior fabbro.”[118]

In the light of the above analysis, how could Carlyle deny Dante’s indebtedness to rich Islamic and Arabic cultural and literary influences at the time he wrote his major works when sufficient evidence can be provided to substantiate this claim!

Conclusion

The paper therefore proves that Carlyle is inconsistent in his argument and rather biased in his attitudes toward the contributions of Muslims to the West in the past. It also shows how he hovers between the views of the Christian polemicists with respect to the authenticity of the ‘Koran’ and an acceptance of the divinity of Mahomet’s mission and the views of some modern Orientalists who record their admiration for the unique character

in no way be immune to external influences. He would have acknowledged a debt to Islamic sources. Furthermore, Asin draws attention to striking similarities between Dante's *Canzoniere and Il Convivio* with two books of Ibn Al-Arabi,_*The Interpreter of Love*, as Nicholson translates it so, and its commentary *The Treasures of Love*. The literary principles underlying the works of both authors are more or less the same. In both Ibn Al-Arabi's and Dante's works, the poets express love for a lady who possesses the same qualities, and surprisingly, the circumstances which led both poets to compose their love songs were strikingly similar[114]. Ibn Al-Arabi claims that he alludes in his poem to spiritual mysteries and to the teachings of philosophy, using the language of love to express such lofty thoughts. Asin draws attention to the similarities between Ibn Al-Arabi's and Dante's love poems to show that both poets have fallen under the same influence as far as their conception of lyrical poetry, known in Italian as dolce stil nuovo, is concerned. He also traces the origin of that form of lyrical poetry and "the ideas expressed by the Italian poets of the dolce stil nuovo... through the songs of Provencal troubadours"[115] to Muslim Spain to show that very "little doubt" can be raised concerning "the influence of Arabic poetry on the songs of the troubadours ... [since] the Provencal poets (of south western France) adopted many of the complicated prosodical forms of Spanish Muslims"[116]. Among the Provencal poets was Guillaume the Ninth who was instrumental in developing Provencal courtly poetry and who certainly fell under the influence of Andalusian love poetry. Abdul Wahid Lulu makes a reference to the influence of the love-lyric in the Provencal language which appeared in the late 11th century "about two centuries after the appearance and development of the Andalusian muwashshah" and says:

founded the basis for the *Divine Comedy*. Asin, in fact, draws attention to the striking similarities between the general outline of Dante's poem and the Prophet's Isra (Night Journey) and Mi'raaj (Ascent). In the *Divine Comedy*, Dante is taken by Virgil, on a journey through Hell, Purgatory and Paradise. Hence the Prophet's Journey furnished Dante with the framework for his most known literary work which "symbolizes the whole culture of medieval Christian Europe"[113]. Such a culture cannot deny its indebedness to the Islamic tradition.

What Carlyle therefore fails to realize is that Dante has also fallen under the Islamic influence. Asin also discovers the close resemblance between the general outline of the ascension of Dante and Beatrice through the spheres of paradise in the *Divine Comedy* and another allegory of the ascension of a philosopher in the *Futuhat* by Ibn Al-Arabi of Murcia. He traced the transmission of the Islamic models from Muslim Spain to Italy where the Florentine poet was. He also demonstrated the great wealth of Muslim features in the *Divine Comedy* after a very minute examination. In another section of the book, he showed how the majority of the pre-Dante legends were derived from Islamic literature. Besides, there is the possible influence of the *Treatise on Pardon* by Abul Ala'a al-Ma'arri on Dante. The *Treatise of Pardon* is written in the form of a literary epistle where the protagonist, Ibn Al-Qarih of Aleppo, meets a large number of people, mainly poets and men of letters such as Imru-l-Qays, Al-Akhtal, Ibn Burd, Al-A'asha, Al-Hutai'a and others, who appear in heaven or hell. A careful reading of Abu Ala'a's work reveals striking similarities and analogies with the *Divine Comedy*. Had Carlyle known all this, he would have realized that Dante could

Arab heritage..... Medieval Sicily offered the world a unique spectacle..... In Sicily, as in Spain, the Arabs introduced a living standard based upon much higher conceptions of hygeine, comfort and general culture than those that had previously prevailed [112]

Dante's Indebtedness to Arabic and Islamic Sources

If the interaction between the two cultures was so fruitful, how can it be imagined that Dante could have composed any of his works without falling under an influence, however slight, of an Islamic and Arabic tradition! Miguel Asin's book proves that Dante Alighieri, has been deeply influenced by numerous Islamic ideas in the composition of his *Divine Comedy*. His *Islam and the Divine Comedy*, uncovers the Islamic models which were known to Dante and without which his famous work could not have been composed. From the date of its publication in Spanish in 1925, the book aroused the curiosity of the general public and caused a great stir among critics of literary history. The book has certainly opened the gates for a new kind of investigation and research where the study of the impact of the Islamic tradition on Western literature deserves more attention and focus. Even Arab scholars such as Salah Fadl, among others including Louis Awad, Raja'a Jabr and Gunaimi Hilal, owe a debt to Asin who encouraged them to pursue research on possible Islamic influences on Dante. Hence Fadl, as an example, wrote *The Impact of Islamic Culture on Dante's Divine Comedy*. Both Western and Arab scholars are therefore aware of the Islamic influence on Dante. Those who deny it can only come to accept it after carefully reading Asin's book. Ironically, Prophet 'Mahomet's Nocturnal Journey and Ascent to the Seventh Heaven before his migration to Madina

For a people to develop, they must have a constant recourse to their own history. Not uncritical recourse but definitely a recourse. To deny them the existence of this therefore has a purpose, for it makes them neutered objects on whose tabula rasa, that clean slate of the mind, the text of the master race- cultural, economic, religious, and so on - can be inscribed [111].

By denying that recourse to ancient history, Muslims are deprived of a chance to ascertain a past identity which is bound to be replaced by an imposing Western culture which has become the obligatory example. This is certainly the Western culture of Carlyle's "loud times" that does not give the chance to other inferior cultures to rise, but rather relegates them to a silent and dormant past. In that case, Carlyle gives us a rather biased and parochial Western vision of an Islamic civilization when he dismisses it altogether from the present moment. Thus when Carlyle praises Dante as "the Italian man, who was sent into our world, to embody musically the Religion of the Middle Ages", he fails to realize that even Dante could not have accomplished his great works without a debt to an Islamic and Arabic influence. How could the Islamic past be buried then if Carlyle, in a whimsical mood, decides that its fruit is no longer useful in modern times! If we deny that past, the West could not have built its Renaissance on the solid foundations of an Islamic heritage. If we agree with Carlyle, then we implicity deny any fruitful interaction between Islamic and Western cultures when the former was

carried from Sicily to every corner of Italy, and to Germany. They (Moslem culture and civilization) kindled the flame of the spirit in the barbaric North.... The Renaissance is a part of our

the past, we wipe out and deny the significance and impact of a golden page of history when the West was indebted to Islamic civilization since the contributions of Arab and Muslim scholars had certainly led to the birth of the Western Renaissance.

The Contributions of Muslims in the Past Cannot be Denied

Prince Charles in a famous lecture on "Islam and the West" refers to that splendid past and says:

> We have underestimated the importance of the eight hundred years of Islamic society and culture in Spain between the eighth and the fifteenth centuries. The contribution of Muslim Spain to the preservation of classical learning during the Dark Ages and to the first flowerings of the Renaissance has long been recognized [110]

It is therefore obvious that in the light of the above remark, Carlyle has set himself up as a bad judge of the contributions of Muslims to Western civilization. By basing his assessment of Muslims on current times where their role is reduced to a mere passive and silent observer rather than an initiator of action, he goes against the theory of history which sees the continuity and inseparability of past and present. He dismisses what Wole Soyinka calls the project of 'race retrieval'. Though Soyinka is more concerned with the retrieval of the authentic history of the struggle against colonial oppression, his ideas fit perfectly well into the discussion here as he sees the past as indispensable for an understanding of the present particularly for nations twhich have gained independence after a long history of colonial rule. Wang Fengzhen who quotes Soyinka writes:

role is pushed to the periphery as it is taken up by the West. He also draws a dichotomy, as Said does in Orientalism, between a weak and marginalized Islamic culture which does not fit into the contemporary scene as it belongs to the past on the one hand and a powerful, advanced and sophisticated Western culture on the other. The loud times is certainly a reference to the contemporary scene where power or 'hegemony' is in Western hands and the empire of Silence is the Islamic empire which is like Shakespeare's actor who "struts and frets his hour upon the stage,/ And then is heard no more"[109]. What therefore matters to Carlyle is the modern scene and the current situation rather than the splendid past that Muslims could brag of and feel proud about. It does not matter to Carlyle how far Islam has spread or what the Muslim Caliphs have gained by the Islamic expansion into foreign territories or what Muslims have accomplished in old times because Europe is in ascendancy now and it speaks with a voice much louder than the uproar made by the early Muslims. Carlyle has every right to judge the modern situation where the scale of power has turned upside down as he likes. One cannot deny that when Carlyle delivered his series of lectures in 1840, Europe was dominant. But Carlyle's rather sarcastic and unfavourable attitude toward the accomplishments of the Islamic civilization is questionable since he focuses on the present moment on which he bases his judgement and also divorces it from the past history. While one agrees with Carlyle that others should evaluate the achievements of any individual and determine their usefulness or uselessness, how can one accept his assessment of Islamic accomplishments in the light of their real value and degree of usefulness and influence in modern times! If we accept his view which is rather confined to the present that he disassociates from

Environment (1926), Karl Ahrens and Julias Wellhausen, C. C. Torrey in The *Jewish Foundation of Islam*, then why should the debt that the West owes to the Islamic civilization be denied if one is consistent in one's reasoning that Islam was under the influence of other religions which preceded it? If that was so, then it is natural that Islam must have made a deep impact on the cultures of people who lived under Islamic rule. But this is not the way Carlyle views the fruit of Islamic expansion. In fact, he denies that there are any fruits at all of such a civilization, which is a rejection of a well-known historical fact when he says:

> Let a man do his work; the fruit of it is the care of Another than he. It will grow its own fruit; and whether embodied in Caliph Thrones and Arabian Conquests, so that 'it fills the Morning and Evening Newspapers,' and all Histories, which are a kind of distilled Newspapers; or not embodied at all; - what matters that? That is not the real fruit of it! The Arabian Caliph, in so far only as he did something, was something. If the great Cause of Man, and Man's work in God's Earth, got no furtherance from the Arabic Caliph, then no matter how many scimetars he drew, how many gold piasters pocketed, and what uproar and blaring he made in the world, he was but a loud -sounding insanity and futility; at bottom, he was not all. Let us honour the great empire of Silence, once more! The boundless treasury which we do not jingle in our pockets, or count up and present before men! It is perhaps, of all things, the usefulest for each of us to do, in these loud times [108].

Carlyle makes a comparison above between a past which Muslims regard as their golden era and a present where their

laid the foundation of Italian literature [that] the Arab troubadours assembled [and] were emulated by the Christians", a proof which "affords an instance of contact between the two literatures, Christian and Moslem"[101]

Carlyle's Failure to Realize the Benefits of Cultural Exchange

So how could Carlyle claim that Dante "was sent into our world to embody musically the Religion of the Middle Ages"[102], and how could it be possible that Dante had not been touched or influenced by an Arabic and Islamic tradition particularly if we bear in mind Arnold's view that early Italian popular poetry has affinities with the popular poetry of Andalusia?[103] Arnold, also reviews mystical works written by Arab philosophers and thinks that "it would be strange if no influence from this source reached men like Thomas Aquinas, Eckhart, and Dante; for mysticism was the common ground where medieval Christianity and Islam touched each other most nearly"[104]. If Carlyle believes that the journey of the young 'Mahomet' to Syria opened his eyes to a richer milieu that must have made its impact on the formation of his personality and his religion, then why does he not admit, following the same line of argument, that the Western exposure to a rich Islamic intellectual heritage must have made a deep imprint on the West? If Rodinson, as an example, argues that "Islam was not born in a sealed container in an environment sterilized against the germs of other ideologies"[105] to prove Carlyle's point that "this Religion of Mahomet is a kind of Christianity"[106] or that "Mahomet's Creed we called a kind of Christianity"[107], an argument put forth by many Orientalists who trace Christian or Judiac influences on Islam such as Richard Bell in his *The Origins of Islam in its Christian*

end in 1091 with the Norman Conquest by the Count Ruggero, nevertheless, the linguistic and cultural mark of the Arabic-Islamic civilization remained for another whole century, the century of the Normans. Both the dynasties of Ruggero and Guglielmi knew how to take advantage of every positive element from the Islamic heritage which they incorporated in the composite civilization of their State. For this reason, the age of the Normans kept or preserved the most vivid vestiges of the Islamic presence in Sicily in the institutions, documents, inscriptions, coins, verses of court poets and scientific works. Al-Idrisi's book, *Nuzhat Al-Mushtaq fi Ikhtiraq Al-A'faq*, was an important geographic document of the Middle Ages. This work devotes four sections to Italy, three to inland territories and one section to the Italian islands. Al-Idrisi describes Palermo in detail, and this is quite obvious because he wrote his work on behalf of King Ruggero II, who was living in the capital Palermo then. This also explains why the book is known in the West as the *Book of Roger*. Though few literary evidences directly from the period of Islamic domination are preserved, our knowledge of the period is primarily based on general Arabic and Western chronicles. From those sources, we know of an intensive development of agriculture and landed property and of a rich cultural life of that period. Not only did the Norman kings like Ruggero fashion their courts after Islamic styles and dress themselves like Frederick the Second in flowing Islamic robes and turbans, but they also made the Islamic intellectual accomplishments and arts popular in Europe during the 12th and 13th centuries [100]. Frederick the Second had literally hundreds of Arab savants, scholars, physicians, engineers, merchants, philosophers and astrologers on his payroll. It was at Frederick's court, "which first used the vulgar tongue and thus

on the whole world. Naqvi quotes from Lamartine's "Histoire de la Turquie" where the latter says:

> never has a man accomplished such a high and lasting revolution in the world, because in less than two centuries after its appearance, Islam, in faith and in arms, reigned over the whole of Arabia,..... numerous islands of the Mediterranean, Spain and a part of Gaul..... This man moved not only armies, legislations, empires, peoples and dynasties but millions of men in one-third of the then inhabited world; and more than that, he moved the altars, the gods, the religions, the ideas, the beliefs and the souls [99]

One can easily refute Carlyle's allegation that 'Mohamet' only succeeded in influencing the common people by referring to so many Western intellectuals such as W. Montgomery Watt and W. A. R. Gibb who offer a general assessment of the Prophet's personality and achievements in their works and give what may be termed the intellectual's perspective on the Prophet and Islam and express views similar to Lamartine's. As Carlyle compares 'Mahomet' to Dante, he seems to have forgotten that the latter could never have written his *Divine Comedy* without an acknowledgement of a debt to an Islamic tradition.

The Islamic Presence in Italy

Even before the discussion of an influence of an Islamic tradition on Dante, how could it be imagined that the Islamic presence in Italy and in Sicily in particular had no impact on the flourishing of a great Western civilization in subsequent years! It was through Sicily that a cultural and an intellectual bridge or connection between the Islamic civilization and the West was made. Though the Islamic presence in Sicily came to an

> the world was small in comparison? Not so: his arena is far more restricted; but also it is far nobler, clearer;- perhaps not less but more important. Mahomet speaks to great masses of men, in the coarse dialect adapted to such; a dialect filled with inconsistencies, crudities, follies: on the great masses alone can he act, and there with good and with evil strangely blended. Dante speaks to the noble, the pure and great, in all times and places. Neither does he grow obsolete as the other does. Dante burns as a pure star, fixed there in the firmament, ... Dante, one calculates, may long survive Mahomet [97].

When Carlyle speaks about Shakespeare as his second hero poet, he expresses a similar view to the above. He thinks that Shakespeare is greater and more successful than 'Mahomet' since Even in Arabia, as I compute, Mahomet will have exhausted himself and become obsolete, while this Shakespeare, this Dante may still be young; - while this Shakespeare may still pretend to be a Priest of Mankind, of Arabia as of other places, for unlimited periods to come![98]

One may ask if 'Mahomet' has become obsolete, how the Islamic message continues to attract many nations across the globe due to its dynamic power to unite in an equality of status, of opportunity and of endeavours so many various races of mankind, and one also wonders why the Prophet has always been the focus of numerous studies of Orientalists. S. Ali Raza Naqvi, for example, traces the Prophet's image in Western Enlightened Scholarship to show how much attention has been given by some Orientalists to the personality of the Prophet who is admired for the great impact that he has made not only on the Arabs but also

that Arab minds (i.e., scholars) developed, excelled and naturally influenced the world around them. And it was those scholars who led to the emeregence of the European Renaissance that owes a great debt to the contributions of the Arabs in numerous fields. A scholar like Briffault rejects the naive argument of those who deny any impact that the Islamic civilization had on the West in the following statement:

> That a brilliant and energetic civilization full of creative energy should have existed side by side and in constant relation with populations sunk in barbarism, without exercising a profound and vital influence upon their development, would be a manifest anomaly [95].

Another scholar like Makdisi traces the ways the influx of new knowledge came to the West through the Arab scholars in Spain whose scholarships made their contributions to the great revival of learning[96]. Such a view coincides with Carlyle's when he admits that the Arabian light of genius shone for many centuries over the ancient world.

Carlyle Compares 'Mahomet' to Dante

But Carlyle expresses a rather different view and low opinion of Islamic civilization in the essay entitled "The Hero as Poet". He thinks that Dante's impact is much greater compared to Mahomet's whose influence is confined to common people, rather than intellectuals. He therefore says:

> In a hundred years, Mahomet, as we saw, had his Arabians at Granada and at Delhi; Dante's Italians seem to be yet very much where they were. Shall we say, then, Dante's effect on

"an uncultured and semi-barbarous Son of Nature, much of the Bedouin still clinging to him" has been successful because of the special time and the location or environment where he grew and propagated his beliefs. He is therefore good and suitable for the Arabs and not for any other nations. The repeated references to the Prophet as the "wild Son of Nature" establishes the view that the Prophet is crude and unlettered as he lacks the refinement and sophistication of Western heroes such as Dante and Shakespeare who have made a greater impact on humanity. Carlyle here sets up a binary opposition between the cultural and intellectual achievements of both East and West, and sees the superiority of the latter to the former. Comparing Carlyle with Rivlin, the two are in agreement as they share the view that the Prophet has made a great impact on others. But they differ on the degree of such an impact, as Carlyle believes it to be a limited one and confined to the Arab nation where the Prophet was reared, whereas Rivlin speaks of a universal or a much wider impact on the history of other nations. In that respect, Carlyle's view does not differ from Rodinson's who says that his objective in writing about the Prophet is "to show how a personal, psychological evolution shaped Muhammad into an instrument capable of formulating and communicating an ideology that corresond[ed] to the needs of the time and the milieu"[94]. Furthermore, Carlyle in the quotation above speaks positively of an Arabic, rather than an Islamic civilization, which shone "over a great section of the world" when the rest of Europe was engulfed in darkness, and the Arabs were the torch-bearers in Spain in particular. It was then that the West turned its attention at first, not to Greek sources, but to the Arabic ones, when it finally wanted to renew its contact with ancient thought. Carlyle therefore admits here

scholarship as far as it has dealt with the positive contributions of Arabic and Islamic civilization to the West and also as far as it has focused on the Prophet's impact on the Arabs. Benjamin Rivlin pays tribute to the Prophet since he thinks highly of his role in changing the course of history when he says:

> Few men have influenced history as Muhammad.... He was a unique individual who greatly affected the destinies of millions...... His instruction was largely responsible for the establishment of Islam as a world religion, for the Islamic conquests and for the creation of a rich Arab-Islamic culture [92].

It is worth comparing Rivlin's ideas with Carlyle's as they are identical at certain points, but totally different at others. No doubt Carlyle admits the great change that has occurred in the history of the Arabs after 'Mahomet' was sent to them "with a word they could believe". He admits

> that To the Arab Nation it was a birth from darkness into light; Arabia first became alive by means of it. A poor shepherd people, roaming unnoticed in the deserts since the creation of the world: a Hero Prophet was sent down to them with a word they could believe: see, the unnoticed becomes world-notable, the small has grown world-great; within one century afterwards, Arabia is at Granada on this hand, at Delhi on that; -glancing in valour and splendour and the light of genius, Arabia shines through long ages over a great section of the world [93].

The quotation deserves a closer look as it points to a number of facts. First, Carlyle is aware of the radical transformation in the lives of Arabs brought about with the mission of the Prophet. But he believes that the Prophet whom he describes earlier as

the direction they desire to reach. He also realizes that Islam, through the teachings of 'Mahomet', has clarified the chief end of man here below. Mahomet has answered this question, in a way that might put some of us to shame. He does not, like a Bentham, a Paley, take Right and Wrong, and calculate the profit and loss, ultimate pleasure of the one and of the other; and summing all up by addition and subtraction into a net result, ask you, Whether on the whole the Right does not preponderate considerably?[90]

Carlyle ends his discussion by praising the Prophet whose approach to the question of the final destiny of men is purely a moral one. Man has the choice "in his threescore years of Time" to "reach upwards high as Heaven, {or} downwards low as Hell". If Carlyle is asked "which gives, Mahomet or they (referring to Bentham and Paley), the beggarlier and falser view of Man and his Destinies in this Universe, [he] will answer, it is not Mahomet! [91]

Carlyle's lecture therefore sheds light on numerous positive aspects and remarkable attributes of the Prophet. In that respect, it deviates from the stereotypical image of the Prophet encountered in the writings of the Christian polemicists which are replete with false accusations.

Carlyle Speaks of a Limited, but Positive, Impact of Mahomet

The above commendation of the Prophet provides the evidence that Carlyle at certain points has managed to break away from the cuffs of that biased and hostile tradition as he records admirable moments in the Prophet's life. It may be approriate at this point to see where Carlyle stands in that long history of Oriental

month after Hafsa and Ai'sha disclosed secrets to each other which caused great distress to the Prophet and not because he wanted to give more time to Mariya as Rodinson incorrectly says. In chapter LXVI of *Tahrim* or *Holding something to be forbidden*, the Qur'an makes a reference to the whole incident where the Prophet took an oath not to touch Mariya any more Or not to drink of the honey juice at Zainab Bint Shahj's hut, particularly after Hufsa and Ai'sha conspired to tell him that his mouth had the bad smell of 'Maghafir'. Carlyle refutes the false accusation that 'Mahomet' was a sensual man. He says that "we shall err widely if we consider this man as a common voluptuary, intent mainly on base enjoyments, - nay on enjoyments of any kind"[87]. Carlyle also says that 'Mahomet' came at a time when polygamous marriages were in practice from "immemorial time in Arabia; what he did was to curtail them, restrict them, not on one but on many sides"[88]. The second baseless charge that Carlyle refutes is the sensuality of the Islamic paradise. In his discussion of the Islamic paradise, he criticizes the philosophy of Jeremy Bentham and its underlying principles which weigh things in terms of profit and loss. How can life and death be seen in Utilitarian philosophy and how can God's world be reduced to "a dead brute Steam-engine", and how can the "infinite celestial Soul of Man" be reduced to "a kind of Hay-balance for weighing hay and thistles on!"[89]. Hence moral values cannot be judged or measured in the light of profit and loss. The Soul of Man cannot be reduced to matter where everything is calculated and figured out with precision and accuracy. The purpose of life and the destiny of Man are clear issues in Islam as Carlyle sees them. It is the kind of deeds which we do in this life which determine wherewe will be next. Thus Carlyle sees the "Month of Ramadhan" as the time which leads Moslems toward

plainly to all manner of Persian kings, Greek Emperors, what it is they are bound to do"[82]. Rodinson, by contrast, denies such a historical truth and says:

> the letters said by tradition to have been sent by him to foreign potentates are unlikely to be authentic; but it is quite probable that he made some attempt to enter into diplomatic relations with the neighbouring powers. He may even have been sufficiently naive to call on them to convert to Islam[83].

While Murad Hofmann regards the messages sent by the Prophet to neighbouring rulers as "the beginning of relations between Islam and the West"[84], Rodinson casts doubt on the authenticity of such letters.

Perhaps Carlyle's most obvious and courageous defense of the Prophet comes in his rejection of two charges which the Prophet has been falsely accused of. The first is his sensuality which Rodinson, in imitation of the polemicists, confirms. He states that though "the Prophet was growing old at the time of the expedition to Tabuk (since) he must have been in his sixties, even so, he had not lost his fondness for women" as he spent more time and "had done his best" with Mariya, the "Coptic concubine, the pretty girl with a white skin and curly hair"[85] Rodinson claims that after the Prophet slept with Mariya, in Hafsa'a hut, an event which made Hafsa and Ai'sha furious, he "made up his mind to spend a whole month with Mariya and Mariya alone" as his "comparatively illicit relations with her had made her all the more attractive"[86]. This report differs from Islamic sources where we know that the Prophet renounced the society of his wife for a

yet not wholly wrong. All God's works are still in a sense symbols of God"[77].

Carlyle Praises 'Mahomet'

But apart from those instances where Carlyle's views are not definite with respect to the Revelation or his assessment of the Islamic civilization in its relation to Europe, his lecture throws light on some of the unique qualities of the Prophet whom he praises as "a serious, sincere character; yet amiable, cordial, companionable, jocose even, - a good laugh in him withal"[78]. He has a high regard for a man who was so determined to pursue the required course of action to the extent that he would never give up his call even when faced with the most insurmountable obstacle or difficulty. Carlyle reports what the Prophet said to "Abu Thaleb" when he asked him gently not to trouble others with his call, "anger the chief men, endanger himself and them all, talking of" the new faith: "If the Sun stood on [my] right hand, and the Moon on [my] left, ordering [me] to hold [my] peace, [I] would not obey"[79] The Prophet started preaching the message on his own but because of his dedication to his mission, he won the hearts of the great masses. Thus Carlyle comments on the way a new idea is received by others: "Every new opinion, at its starting, is precisely in a minority of one"80. Carlyle praises the modesty and simplicity of the Prophet whose "common diet {was} barley bread and water. Sometimes for months there was not a fire for once lighted on his hearth". The Prophet was down to earth as he "would mend his shoes, patch his own cloak". But "no emperor with his tiaras was obeyed as this man in a cloak of his own clouting" 81. Carlyle also confirms that in his correspondence with kings and emperors, 'Mahomet' "speaks

swindlery, forgery of celectial documents, continual high-treason against his Maker and Self [75].

The lines above make it difficult to come up with one specific view of Carlyle regarding the Revelation. While he comes to defend the Prophet who could in no way commit treason against God by forging the Qur'an and writing it himself, Carlyle seems to doubt that the Prophet could have been in complete control of his senses to receive a revelation that he could claim with accuracy and certainty to be God's exact words. In fact, he says in his third lecture "The Hero as Poet", that 'Mahomet's Koran' "has become a stupid piece of prolix absurdity; we do not believe, like him, that God wrote that"[76]. By comparing this last statement with the quotation above, we are aware of a contradition as if Carlyle cannot occasionally make clear-cut decisions. But it looks as if this fluctuation between doubt and belief is the malaise of the Victorian Age, and Carlyle is certainly not an exception.

In addition to his ambivalent attitude toward the 'Koran', Carlyle fails to take a clear stand at numerous instances in his lengthy lecture. As will be discussed later, his failure to realize the fruitful interaction between the Islamic civilization and Western culture and also his failure to acknowledge the role played by Arab and Muslim scholars as transmitters of ancient knowledge to the West undermine his inconsistent and unconvincing argument. Furthermore, he does not take a definite stand when, as an example, he speaks of the early Arabs as worshippers of natural objects which they "recognized as symbols, immediate manifestations, of the Maker of Nature". His first response is that "It was wrong" to worship them; but then he goes on to say "and

toilsome reading as I ever undertook. A wearisome confused jumble, crude, incondite; endless iteration, long-windedness, entanglement; most crude, incondite; - insupportable stupidity, in short![69]

For Carlyle, the 'Koran' is as dry as any publication that comes from the "State-Paper Office, unreadable masses of lumber"[70]. His conception of the Qur'an and the Prophet does not vary much from the views of the polemicists with the only difference that whereas the polemicists regarded the Prophet as an imposter or a false Prophet, Carlyle denies the charge when he says that "A false man found a religion? Why, a false man cannot build a brick house! ... It will not stand for twelve centuries, to lodge a hundred-and-eighty million; it will fall straightway"[71]. Later on in the lecture, he also dismisses the imposture theory: "We will leave it altogether, this imposture hypothesis, as not credible; not very tolerable even, worthy chiefly of dismissal by us"[72]. He also rejects Prideaux's charge that the 'Koran' is "a mere bundle of juggleries" or that it has been forged by the Prophet, but still can neither accept the divinity of the mission of the Prophet nor the authenticity of the Koran. Carlyle therefore hovers between the views of the polemicists and the views of the modern Orientalists who have a great respect for the Prophet and who are aware of his sincerity, but still believe that he is not impeccable. Carlyle says that the Prophet "has faults enough"[73], but he sees "the very falsehoods of Mahomet [as] truer than the truths of a man" whom Carlyle believes to utter, produce and represent falsehood[74]. Hence the Prophet should not be taken

for a wretched Simulacrum, a hungry Imposter without eyes or heart, practising for a mess of pottage such blasphemous

responded to his Prophetic commission with fear and trembling. 'But if Mohammad had fabricated any saying concerning Us, We had surely seized him by the right hand, and had cut through the vein of his neck. Nor would We have withheld any of you from him' (the Qur'an, 67: 44-47)'[65].

But Rodinson in *Mohammed* expresses a different standpoint. He justifies his rejection of the authenticity of the Qur'an on personal rather than objective reasons in the following statement:

For (Muslims) the Koran is the book of Allah and I respect their faith. But I do not wish to fall back, as many orientalists have done, on equivocal phrases to disguise my real meaning...... It is evident that I do not believe that the Koran is the book of Allah. If I did I should be a Muslim....For several centuries the explanation produced by Christians and rationalists has been that Muhammad was guilty of falsification, by deliberately attributing to Allah his own thoughts and instructions [66].

This view is no different from Carlyle's; and Carlyle's view is not a surprise to us if we bear in mind that he keeps referring to George Sale's translation of the Qur'an when he says: "We also can read the Koran; our translation of it, by Sale, is known to be a fair one"[67]. Carlyle therefore passes a judgement on a translation which is known to be biased and hostile toward the Prophet and Islam since Sale in his translation believes that the 'Koran' is a dull and repititious book and a "manifest forgery"[68]. Carlyle goes on to express his attitude toward Sale's translation. Though he does not agree with Sale's statement that the 'Koran' is a "manifest forgery", his hostile views are expected since he followed his mentor when he said that the 'Koran' is

Then made his credulous followers believe
It was an angel, that instructed him
In the framing of his Alcoran.....[62]

Carlyle Hovers Between Two Polar Opposites

Carlyle dismisses the charge that a pigeon was "trained to pick peas from Mahomet's ears, and pass for an angel dictating to him"[63]. But still he is not totally sure that the means through which the Prophet received revelation could guarantee its full accuracy. As has been pointed out earlier, he believes that the Prophet's restless life and the battles which he had fought

> kept him in a perpetual whirl, his soul knowing rest no more. In wakeful nights, as one may fancy, the wild soul of the man, tossing amid these vortices, would hail any light of a decision for them as a veritable light from Heaven; any making-up of his mind, ..., would seem the inspiration of a Gabriel [64].

It may be appropriate here to refer to two different views by Tor Andrea and Rodinson concerning the Revelation to show how Carlyle seems to be hovering between two polar opposites. Andrae in his Mohammed: the Man and His Faith refutes the charge raised by Rodinson and Sale on whose translation of the 'Koran' Carlyle relied. Andrae is aware of the coherence and magnificence of the Qur'an, which indicates that it could not have been composed by an epileptic during his seizures and over an extended period of twenty-three years. He goes on to admit the genuineness of the Prophet's inspiration when he says:

> Mohammad regarded his call with the utmost sincerity; he felt his heart tremble before the King of the Judgement Day, and he

fit or an epilepsy when Muslims belive that he received the divine book.

How Did Some Literary Men View Revelation?

The literary tradition from the Medieval period until the 17th century also repeated that charge in addition to the repitition of other fables and legends about the Prophet which were handed down from the polemicists. The reference to the dove which the Prophet tamed and fed with corn when it came to whisper in his ear at moments he claimed to be receiving revelation is found in Langland's Piers Plowman Passus XV, 397-409. Langland also reiterates the charge that the Prophet resorted to witchcraft and deception to convince people that he was a true Messenger from God. The false charge that the Prophet fabricated the Revelation has survived throughout the 17th century. Voltaire (1694-1778), as an example, in his Mahomet represented the hero of the tragedy as a camel dealer who receives from Gabriel that incomprehensible book. Perhaps a reference to Philip Massinger's The Renegado (1624) is sufficient to show how most dramatists of that period relied quite heavily on their Medieval predecessors as far as their conception of Islam and 'Mahomet' was concerned. When Donusa tries to convince Vitelli to convert to Islam so that he can enjoy a sexual relation with her, the latter repeats in the following lines some of the false accusations which have been circulated ever since the Middle Ages about Islam:

I will not foul my mouth to speak of the sorceries
Of your seducer, his base birth, his whoredoms,
His strange impostures; nor deliver how
He taught a pigeon to feed in his ear,

the most exciting biographies which they would desire to see published following the sequence of their choice and preference. Interestingly, Muhammad came on top of the list by a wide margin 60. But in spite of this deep interest, the biggest obstacle for an Orientalist remains the belief in the authenticity of the Qur'an. While one observes a marked difference between the early and recent biographies of the Prophet as the latter disregard a lot of the false fables and baseless stereotypical charges and draw attention to the great impact of the personality of the Prophet and his unique qualities, one still finds that some Orientalists cannot totally divorce themselves from that ancient tradition which somehow expresses a spirit of intolerance and animosity toward Islam and the Prophet. Michael Cook's Muhammad, published in 1983, cannot break away from the Medieval tradition as it still exhibits the same spirit of intolerance and a deep hostility toward the Prophet and Islamic teachings. Perhaps Chinua Achebe's remark in Things Fall Apart (1958) that old customs and traditions die hard is fitting here. Daniel explains that "in relatively modern times, some authors have self-consciously tried to emancipate themselves from Christian attitudes, [but] they have not generally been as successful as they thought themselves"[61]. This may well explain why some of the modern Orienalists' views toward the Revelation have not changed much from the views of the Christian polemicists.

While Muslims believe that the Prophet received the Revelation or the Wahy through angel Gabriel who recited to the Prophet God's exact words, many Orientalists such as Margoliouth, William Muir in his Life of Muhammad and Edward Sell in The Life of Mohammad repeat the charge that the Prophet fell into a

any mortal ever could consider this Koran as a Book written in Heaven, too good for the earth; and not a bewildered rhapsody; written, so far as writing goes, as badly as almost any book ever was!'[58]. He further thinks that so many matters preoccupied the Prophet's mind during the twenty three years of his mission that he would never have been in the right mood to receive revelation. Such a view is explicity expressed in the following statement:

> The man has not studied speaking; in the haste and pressure of continual fighting, has no time to mature himself into fit speech. The panting breathless haste and vehemence of a man struggling in the thick of battle for life and salvation; this is the mood he is in!...The successive utterances of a soul in that mood, coloured by the various vicissitudes of three-and-twenty years; not well uttered, now worse: this is the Koran [59].

Other Orientalists' Views of the 'Koran'

Though the spirit of hostility and religious fervor evidenced in the writings of polemicists and early biographers of the Prophet subsided to some extent in spite of its persistence in the writings of some modern Orientalists with the rise of modern scholarship and the gradual change in the nature of the relationship between the Islamic world and the West in the early years of the 20th century, the issue of the authenticity of the Qur'an remains questionable to many Orientalists. As early as 1905 and with the appearance of Margoliouth's Muhammad and the Rise of Islam, there has been a constant demand for more reliable information in the West on the Prophet's biography. Rodinson, as an example, refers to a poll conducted in France where a Book Club requires its members to choose personalities with

One of the well-known biographies of the Prophet written toward the end of the 17th century was Humphery Prideaux's *The True Nature of Imposture Fully Display'd in the Life of Mahomet* (1697). It was written in the same spirit of intolerance and hostility as was expressed by the Christian polemicists of the Middle Ages who required the fulfillment of certain conditions for prophethood not met by Mahomet and who, therefore, refused to acknowledge his claim to prophethood. Daniel explains that such requirements or "tests have to some extent been tailored in advance to fit Muhammad's circumstances" (p. 71) and eventually prove that they are not applicable in his case.

Carlyle's Ambivalent Views of the Koran

Carlyle makes a reference to Prideaux's biography of the Prophet, particularly where he expresses his views on the 'Koran' in the following statement:

> Prideaux, I know, and others, have represented it as a mere bundle of juggleries; chapter after chapter got-up to excuse and varnish the author's successive sins, forward his ambitions and quackeries.

But Carlyle rejects such a view and says "it is time to dismiss all that"[57]. Though Carlyle has some sympathy for the Prophet as he is convinced of his sincerity in preaching and calling others to the fold of Islam, like most Orientalists, he casts doubt on the authenticity of the Qur'an. Though he says that "much perhaps has been lost in the Translation" which could never capture the eloquence and sublimity of the Arabic tongue, he goes on to say that "with every allowance, one feels it difficult to see how

It is therefore obvious that Carlyle believes that the young Muhammad received his early instructions in religion from Sergius and that his meeting with him at such an early age paved the path for his prophethood. According to Islamic sources, Muhammad was twelve when he travelled in the company of his uncle to Busra in the vicinity of Howran in Syria. Bahira the Monk, also known as Georges, "showed great kindness and entertained (his guests) lavishly" and recognized by certain signs, among which was the seal of Prophethood which was below Muhammad's shoulder, that the young boy "is the master of all humans" since the stones and trees prostrated themselves as he appeared from the direction of Aqabah, and the Monk knew that they would only do so for a Prophet[55]. But out of Mahomet's early encounter with Sergius, Carlyle intends to prove his point which he explicity states later that Islam is a distorted version of Christianity and that does not differ from Sandys' view as he also makes the reference to Sergius who assisted the Prophet in compiling his "damnable doctrine" which contained "a hodgepodge of sundry religions" when he lived in the cave. In spite of the apparent contradiction between Carlyle's and Sandys' account with respect to the role of Sergius, the point remains that Islam was concocted by the Prophet out of his exposure to alien sources. But if Carlyle believes that Mahomet's exposure to a different environment in Syria brought about a great change, a deeper insight and an understanding of the true religion, why does he not believe that a similar exposure of the Christian West to the distinctive Islamic culture at its golden period is also responsible for the emergence of the European Renaissance? This point will be elaborated on later when Carlyle's lecture on the Prophet is looked at in more depth.

information which had been created and spread by the Christian polemicists whose primary objective was to establish the point that ‘Mahomet’ was not qualified as a Prophet on the basis of their criteria or “standards against which all prophethood would be tested and Muhammad’s be dismissed”[51]. As Daniel explains, the polemicists stipulated certain traits or conditions in any prophet so that certain facts in Muhammad’s life would be in opposition or inconsistency with them[52]. Besides the erroneous account of the Prophet’s life given by Sandys, we find similar details being repeated by an Orientalist like Lancelot Addison who, according to Byron Porter Smith, makes an effort in his *Life and Death of Muhamed* which appeared in 1679 “to give us the life of Muhammad free from the fables that clustered around the name, and he succeeds admirably, even to the giving up of the story of Sergius” though he still believes him to be an imposter, and his doctrine a heresy propagated by force and deception[53]. It is interesting that while Addison rejects the story of Sergius, Carlyle (1795-1881) confirms it in his lecture when he talks about the young Mahomet’s early journey to Syria and its tremendous impact on him as if his exposure to a different Christian environment had a bearing on his future mission. Carlyle therefore thinks that:

> the most significant of all his (i.e., Mahomet’s) journeys is .... a journey to the Fairs of Syria. The young man here first came in contact with a quite foreign world, - with one foreign element of endless moment to him: the Christian Religion. I know not what to make of that ‘Sergius, the Nestorian Monk,’ whom Abu Thaleb and he are said to have lodged with; or how much any monk could have taught one still so young.... the eyes of the lad were open....These journeys to Syria were probably the beginnings of much to Mahomet [54].

influence of Dante on Marlowe as far as their conception of Hell is concerned as both are likely to be influenced by an Islamic tradition is relevant to our analysis of Carlyle's views of the Prophet particularly when he compares the Prophet to Dante and talks about the achievements of each hero. But it is sufficient to say at this junction that Malowe's stereotypical ideas about Islam and 'Mahomet' are voiced in biographies which appeared in the 17th century.

Early Biographies of Mohammad

The first English translation of the Qur'an through the French version of Andre, Sieur du Ryer appeared in 1649 under the title: *The Alcoran of Mahomet*, Translated out of Arabique into French, by the Sieur du Ryer .... and now newly Englished, for the satisfaction of all that desire to look into the Turkish vanities. The translation is preceded by the biography of the Prophet which reiterates a lot of the false old legends which had survived until that time about the Prophet. George Sandys, an English poet of the early 17th century, makes a reference to those legends in his account on the Prophet:

> Mahomet the Saracen lawgiver: a man of obscure parentage, born in Ittarip a village of Arabia in the year 551..... That he was sent by God to give a new law unto mankind; and by force of armes to reduce the world unto his obedience.... Two years .... he lived in a cave, not faire distant from Mecha, where he compiled his damnable doctrine, by the help of one Sergius a Nestorian Monke, and Abdalla a Iew: [containing a hodgepodge of sundry religions] [50].

The intention of the early writers of the Prophet's biography was certainly to confirm inherited misconceptions and false

Perhaps an allusion to the scene where Tamburlaine orders the "Turkish Alcoran" to be burnt is a fitting conclusion to our discussion of the image of the Prophet as portrayed in Marlowe's play. Tamburlaine's violent language and condemnation of the Prophet who is powerless to come down and "work a miracle" and who is "not worthy to be worshipped" and whose "Alcoran" is full of superstitions and "foolish laws"[46] repeat a lot of false charges against the Prophet that we find in the numerous biographies which had been written of the Prophet around the time of or after Marlowe's Tamburlaine. When 'Mahomet' fails to respond by taking "vengeance on the head of Tamburlaine / That shakes his sword against (Mahomet's) majesty", Tamburlaine cries to his soldiers that "Mahomet remains in hell;/ He cannot hear the voice of Tamburlaine"[47]. It is interesting that Tamburlaine makes a reference to the Muslim Hell which is divided into stages, each stage reserved for a particular group of sinners condemned to one particular torture when his fair Zenocrate lies in her bed expecting death at any moment, but Tamburlaine will "descend into the infernal vaults,/ To hale the Fatal Sisters by the hair,/ And throw them into the triple moat,/ For taking hence (his) fair Zenocrate"[48]. This conception of Hell is found in Dante's Divine Comedy, and it is there in Canto 28 of the *Inferno* where "Maometto" is located in the eighth of the nine stages or circles of Hell for a sin which he shares with Fra Dolcino, a renegade priest who is condemned for his sensuality and pretensions to theological eminence. But Dante is not the only author who punishes the Prophet in his Inferno. Even William Langland in *Piers Plowman* in the trial of Mede makes a reference to the sad fate that awaits "Makometh" and Mede who "myshappe shul that tyme" [i.e., "shall come to grief"][49]. This discussion of a possible

barbarous!"[40]. Other characters like Orcanes, the King of Natolia, swear by the Prophet's name "to keep this truce [with Sigismund, the King of Hungary] inviolable"[41]. According to the truce, the two countries maintain friendly ties as they pledge not to launch war against each other . There we find the reference to the legend of the Prophet's tomb:

By sacred Mahomet, the friend of God,
Whose holy Alcoran remains with us,
Whose glorious body, when he left the world,
Closed in a coffin mounted up the air,
And hung on stately Mecca's temple roof,..[42]

But the Christians break the truce and their "treacherous army.... Comes marching on (Orcanes' army), and determines straight/ To bid (them) battle for (their) dearest lives"[43]. Sigismund goes back on his words and disregards the solemn covenant and the oath that he has sworn by Christ. Consequently, Orcanes invokes Mahomet and Christ before the battle with Sigismund to give him victory against the deceitful Christians [44]. When Sigismund is defeated, Orcanes believes that the credit goes equally to Mahomet and Christ as they thundered vengeance from heaven for Sigismund's hateful perjury and dishonourable conduct. Thus Orcanes praises both Prophets: "Yet in my thoughts shall Christ be honored,/ Not doing Mahomet an injury,/ Whose power had share in this our victory"[45]. This illustrates that Marlowe shared with Elizabethans their erroneous conceptions of the Prophet and Islam as they imposed a Christian outlook on the latter and thought that it was merely an extension of Christianity when in fact it differed greatly from it on numerous issues.

this Turk"[37], and later on he refers to the "Moors, that drew him [i.e., Bajazeth] from Bithynia / To fair Damascus,.../ (and) Shall lead him with us whereso'er we go" to humiliate Bajazeth still more[38]. When historical facts and the information that Marlowe provides in his play are compared, it becomes obvious that Marlowe's presentation of the confrontation between Tamburlaine and Bajazeth had to depart from history to suit public taste and meet Elizabethan expectations. For this reason, Tamburlaine had to appeal to sentiments to win the audience's sympathy and support in his war against the Turkish emperor.

Tamburlaine sees himself in PartI.III.iii.43-58 as the liberator of the oppressed who have been tortured by the Turks. In the following scene, we see Bajazeth who appears to be boastful and confident of his success over his enemy. He swears by the Prophet's name and by the "holy Alcoran" that Tamburlaine "shall be made a chaste and lustless eunuch,/ And in (his) sarell tend (his) concubines;/ And all his captains that thus stoutly stand,/ Shall draw the chariot of [his] Empress,"[39]. Ironically, we see Bajazeth a short time after his boastful claim to victory in utter defeat and then imprisoned in a cage. What becomes of Bajazeth after the quick battle is over as he is being fed with scraps in his cage is nothing but a sensational and grandiose celebration of Tamburlaine's triumph which has certainly come at the expense of his enemy's disgraceful defeat. But before the battle, his wife, Zabina, invokes Mahomet in Part I.III.iii.195-200 to assist Bajazeth against the Scythians.

But when Bajazeth is defeated, she blames it on the Prophet who has made them "the slaves to Scythians rude and

the story of Tamburlaine and twists a lot of historical facts in order to please the audience and capitalize on public sentiment. Battenhouse emphasizes the significance of the Scourge of God theme in *Tamburlaine* and asserts that as a scourge Tamburlaine acts merely as God's instrument to whip His enemies, who are none other than the Turks [33]. Before his battle with the Turkish emperor Bajazeth - whose real name is Bayazid - at a place called Bithynia, Tamburlaine describes the Turks as "full of brags,/ And menace more than they can well perform"[34]. Tamburlaine goes on to draw a contrast between his power and the Turks' weak fortune; consequently they are at a disadvantage in encountering "the strength of Tamburlaine"[35]. But the Turkish 'Basso' (or Pacha) informs Tamburlaine otherwise, in an attempt to dissuade him from launching a battle where he is bound to be the loser if the outcome of war is judged in terms of numbers.

On the basis of the Basso's speech in Part I.III.iii.11-22, it appears that victory is on the Turkish side as their army is reputed to be invincible and since it outnumbers Tamburlaine's forces. But it is questionable how faithful Marlowe remained to historical sources which differ tremendously from what he presents on the stage for dramatic purposes. While Marlowe's Tamburlaine meets Bajazeth with a relatively small army, and the battle is made very short, "the historical Timur met Bayazid with an army seven times greater than his enemy's and through a highly organized network of intelligence and spies he was able to sow as much dissension as possible within the ranks of his opponent's army"[36]. In fact, the historical Timur did put an end to the Siege of Constantinople by defeating Bayazid at Angora in Bithynia in 1402. Marlowe's Tamburlaine refers to Bithynia twice as the place "when [he] took

that

> Mahomet's remains are buried in a great shining temple of marble and gold, and his tomb is sustained by the force of a magnet, which his ingenious followers think to be a miraculous proof of his power [30].

According to Eldred Jones, the legends which were circulated about the Prophet and the Saracens in the Middle Ages persisted unchallenged until the time of Shakespeare and well after[31]. Hence Marlowe keeps referring to them to entertain the audience and confirm a long-standing tradition which the Elizabethans inherited from their predecessors as far as their conception of the Saracens and Islam is concerned. We therefore find characters who are believed to be Muslims taking an oath by Mahomet or his Alcoran. They seek Mahomet's assistance at moments of need such as before going to the battlefield, and if they are defeated, they upraid the Prophet for having failed to support the followers of his faith. It is quite evident that Marlowe's image of Islam which he introduced to the Elizabethan audience was not so much to present Islam in itself as to represent it in a way that the Christian concept of Islam was self-sufficient[32]. Since the Christians swear by Jesus and appeal for his help, their enemies have to swear by the name of their Prophet and ask for his assistance too. Marlowe therefore relies heavily on legends for the creation of an image of the Prophet.

Perhaps it is approriate at this point to turn attention to the text to illustrate all the above. When Marlowe wrote *Tamburlaine*, the Turkish threat was at its zenith. The Elizabethans would therefore find great pleasure in watching a play where the sole enemy of Christendom was defeated and humiliated. Marlowe chooses

the beliefs and customs of the infidels"[26].

"Mahomet" in Marlowe's Tamburlaine

While Medieval poets relied on clerical sources for their conception of Islam, Elizabethan dramatists, as Louis Wann states, relied on historians who made use of legends which had spread across Europe about Muslims and Islam ever since the Middle Ages for their depiction of the Saracens in their plays. Interestingly enough, Wann has made a useful survey of Elizabethan plays which are based wholly or in part on Oriental themes, and he concludes that between 1558 and 1642, 47 plays "dealing entirely with Orientals" were written, and the plays were "either pure tragedies or conqueror plays" probably because the Elizabethans conceived of the Orient "as the domain where war, conquest, fratricide, lust and treachery had freer play than in the lands near home"[27]. Furthermore, the Orient was conceived as "a place of romance, exotic beings, haunting memories and landscapes"[28]. The image that Marlowe, as an example, draws of the Orient is an idealized one of far-away lands replete with legendary splendours, dazzling colors, great pomp, glorious ease, magnificent surroundings and endless treasures. Marlowe's familiarity with certain aspects of Islamic life is evident throughout Tamburlaine (1587) in the numerous references to 'Mahomet', to the 'holy Alcoran', to the Muslim Hell and to the legend of the celestial ascension of Mahomet's coffin. Southern and Daniel confirm that it was believed in the Middle Ages that Mahomet's tomb lay suspended in mid-air by means of a magnet [29]. It is quite possible that the early Christians confused the well-known Ascent or Mi'raaj of the Prophet to the seventh heaven with some miracles which the Prophet could perform. Hence they believed

about the Prophet and Islam "persisted in spite of the fact that more accurate information was given by Christians of approved faith even as early as the time of Saladin, of the twelfth century"[22]. Southern argues that one reason why the early depiction of the Saracens was primarily based on invention, rather than facts, was attributed to the fact that European literature acquired this image of the Saracenat

> a moment of great imaginative development in Western Europe. The romances of Charlemagne and soon those of Arthur; the Miracles of the Virgin; the wonders of Rome and the legends of Virgil; the legendary history of Britain -- they are all products of approximately the same period and precisely the same point of view as that which produced the legends of Mahomet and the fantastic description of Moslem practices...... At the level of popular poetry, the picture of Mahomet and his Saracens changed very little from generation to generation. Like well- loved characters of fiction, they were expected to display certain characteristics, and authors faithfully reproduced them for hundreds of years[23].

It is not surprising then that there was a general tendency to create a legend out of the Prophet's life because, as Daniel argues, such a legend was "an important part of the Christian anti-Islamic polemic in their approach to Islam"[24]. This explains why the epic and romance writers of Medieval literature "appropriated from their clerical sources" the lies and incorrect image which "were handed down {to them}, not because they cared anything about the historical Mahomet, but because they wished to expose to ridicule the faith of their enemies"[25]. As Meredith Jones rightly observes, "The Medieval poet's conception of Islam was based on ecclessiastical authorities, whose interest it was to disfigure

Oriental scholars who share his attitudes and outlooks.

Western Forms of Representation of Islam

In the light of the above analysis, it will be inaccurate to assume that the Western hostile or sometimes contemptuous view of Islam is exclusively attributed to relgious bias or bigotry. The constant Islamic threat posed at the West from Islam's early years of expansion aroused Western fears of religion which was projected on to the Islamic world. This naturally had a bearing on the creation of a negative image of Muslims in general, and the Prophet of Islam in particular. But by Carlyle's time religious fervor was relegated to the back scene. Europe represented by its colonial powers was on the threshold of an industrial and scientific era which accounted for its pride in its accomplishments. The Islamic world, by contrast, was at the nadir of stagnation and backwardness. Hence the binary opposition or the dichotomy on which Said bases his argument related to a superior Occident and an inferior Orient drawing on Claude Levi-Strauss' strucuralism is applicable in Carlyle's case. Western forms of representation of Islam therefore enhance and reproduce existing structures of Western sovereignty over a distant and weak Other. It therefore becomes understandable that Western views of Islam have always been distorted as they are never based on historical facts. As Meredith Jones correctly observes "The occidental conception of Mahomet and his teachings came more from literary sources than from actual observations of the Moslem peoples" where Western writers "drew on obscure or second-hand sources, and the result is a combination of a little fact and much imagination of a very biased character"[21]. Western views of the Prophet rarely rely on facts or authentic sources. Fanciful and legendary ideas

classification[17]. Hence mimicking the white master is motivated out of internal feelings of inadequecy and, in fact, lack of freedom that the colonizer thinks that he attains once he becomes like the white man when in reality imitation proves his bondage because differences among white and non-white, between “being English and being Anglicized” go deeper than a mere knockdown of apparent barriers as “discriminatory identities [are] constructed across traditional cultural norms and classifications”[18]. As Robert Young argues, the mimic man cannot be entirely like the colonizer, but he “constitutes only a partial representation of him [and] the colonizer sees a grotesquely displaced image of himself”[19]. Hence at Carlyle’s time, there was definitely a turning point in the structure of power relationship between two antithetical worlds: the colonizer and the colonized; the former indicates the presence of authority and the desire to subjugate while the latter represents the oppressed and the enslaved on whom Western values are easily imposed. The change in the nature of the relationship between the two accounts for Carlyle’s feelings of superiority as Europe was in ascendancy and also justifies his unfavourable opinion toward Islamic civilization as will be demonstrated later. Carlyle was therefore conscious of a marked difference between ‘a familiar space which is “ours” and an unfamiliar space beyond “ours” which is “theirs”’ as a way of making geographical distinctions between Europe and its Other[20]. On the basis of this arbitrary demarcation, the Orient has always existed in the European imagination as a different, hostile, dangerous and feared Other which must be controlled. Though Carlyle has some sympathy for Islam, his views cannot entirely be divorced from the Oriental scholarship that preceded him. Hence the paper seeks to locate his position among other

therefore used as a camouflage that imposes on Asiatic societies Western values, standards and ethics, and consequently transform them, in the eyes of the colonizer, from the state of stagnation and sterility they were found in before colonization into dynamic, advanced and productive people who will realize for themselves that their own regeneration lies in imitating the West and adopting the Western style of life. This is exactly the ultimate target of a Victorian savant like Lord Thomas Babington Macaulay when he wrote his famous Minute on education in 1835 which had an impact on changing the course of Indian history. He believed that the British should create in India "a class of persons, Indian in blood and colour, but English in taste, in opinions, in morals and in intellect" to ensure that the Indian becomes more alienated "from his own people and the culture which he is meant to represent"[13]. Hence the new generation of Indian intellectuals "might be the instruments of pulling down their own religion, and of erecting in its ruins the standards of the Cross"[14]. This is also the end-result of 'mimicry', the term that Homi Bhabha who draws on psychoanalysis theories uses for the construction of the colonial Other who desires to imitate his Master blindly[15]. But does the imitation make him a Westerner? Certainly not.

While Bhaba examines the psychological implications of the exchanged glances between the settler and the native who "dreams at least once a day of setting himself up in the settler's place [because] it is always in relation to the place of the Other that colonial desire is articulated"[16], he shows that such a desire is "interdictory" as it only leads to more frustration and psychological imbalance experienced by the colonizer in his attempt to mimic the white man and knock down the colonized's artificial social

one cannot possibly understand the enormously systematic discipline by which European culture was able to manage--and even produce--the Orient"[9]. The mutual implication of power and knowledge is therefore one of Foucault's insights which becomes so essential for Said's entire project. All forms of knowledge - historical, geographical, scientific, literary, linguistic, anthropological and artistic - facilitated the deployment of Western power in the Orient. Said shows how various branches of knowledge including "novel-writing, and lyric poetry [have] come to the service of Orientalism's broadly imperialistic view of the world"[10]. He adds that imperial powers' political societies "impart to their civil societies a sense of urgency, a direct political infusion as it were, where and whenever matters pertaining to their imperial interests abroad are concerned"[11].

The Colonizer and the Colonized

Victorian writers such as John Mill, the author of *The History of British India* (1817), Ruskin, Newman and certainly Carlyle, to mention only some, were conscious of such "imperial interests" because by the early nineteenth century "Oriental-European relationship was determined by an unstoppable expansion in search of markets, resources, and colonies" which entailed that Orientalism had to undergo "self-metamorphosis from a scholarly discourse to imperial institution"[12]. We should therefore bear in mind that when Carlyle delivered his lecture on Prophet Muhammad as a hero, imperialistic expansions into the Orient were in full swing, which meant that Europe, particularly Britain and France, were in a much more powerful position than ever before. The early nineteenth century was the time when English became the lingua franca of the subcontinent. Language was

Said's Orienalism

Just as Said argues that Western views of the Orient were based on mere fantasy as "the Orient was almost a European invention" or "creation with no corresponding reality"[6], Western conception of Islam relied more on the West than on what Islam in reality is. In other words, Western conception of both Islam and the Orient have "excluded, displaced, made supererogatory any such real thing as "the Orient"" or Islam[7]. Hence "Western techniques of representation ... rely upon institutions, traditions, conventions, agreed-upon codes of understanding for their effects, [and] not upon a distant and amorphous Orient"[8]. In its attempt to deal with the Orient and exercise authority over it, Western culture gained its identity as being superior to all other non-European cultures. In fact, Said borrows Gramsci's idea of hegemony or cultural leadership, as a major concept that helps us understand the cultural life in the West, to explore the nature of relationship between a powerful, advanced and superior Occident on the one hand and a weak, backward and inferior Orient on the other. Orientalism in Said's interpretation relates to a system of knowledge that found its way into Western consciousness about the Orient and on the basis of which Europe developed a certain image which accompanied its territorial expansions. Orientalism therefore deployed a number of strategies to ensure a position of superiority for the West vis-a-vis the Orient in general, and the Islamic world in particular. Said deals with Orientalism mainly as a Western discourse where the interaction between power and knowledge is so fundamental. He also acknowledges his use of "Michel Foucault's notion of a discourse, as described by him in *The Archaeology of Knowledge* and in *Discipline and Punish*... [because] without examining Orientalism as discourse

baseless and unjust accusations. According to R. W. Southern, when the Prophet's name became first known in northern Europe, he was immediately described as an idol who was worshipped by the 'Saracens' who offered him sacrifices[1]. Norman Daniel says that the word 'Saracen' was widely used in Europe since the 11th century and throughout the 15th and 16th centuries to mean a man who followed and practiced the same religion as Muhammad[2]. Erroneously, it was believed that 'Saracens' worshipped idols, and among them, as Comfort states, are "Mahoun, (meaning 'Mahomet') Apolin, Baraton, Cahu, Tervagent, Lucifer, Jupiter" besides many others[3]. It is therefore obvious that Islam was falsely presented in "the writings of the clerical historians and of the Crusaders and of learned visitors to the Holy Land" whose main target was "to present Mahomet as a heresiarch, the founder of a schism"[4]. Von Grunebaum throws light on the way Islam was perceived by an average Christian in those years and says:

> When the Christian looked upon Islam, his primary task was not to study this phenomenon of an alien faith ...... but rather to explain the unexplainable, to wit, the artful machinations by which Mohammed had won over his people to the acceptance of his absurd confabulations[5].

While the above view reflects an obvious hostility toward Islam and the Prophet and accuses him of employing certain deceptive strategies to talk people into Islam, it also points to the parochial vision of the contemporary average Christian who showed adamant unwillingness to familiarize himself with "an alien faith". The early conception of Islam was hardly based on historical facts or sound information.

Thesis Statement

This paper looks closely at Thomas Carlyle's lecture "The Hero as Prophet" which attracted a large audience when delivered in 1840. It attempts to link the lecture, which was published in 1841 in *Heroes*, *Hero-Worship and the Heroic in History*, to a series of writings in the Western tradition by many Orientalists who have taken opposed views on the character of Prophet 'Mahomet'. Occasional references are made to the image of the Prophet in early English literature at propitious moments during the course of the discussion to show how literature reflected and embodied prevalent unsympathetic and somewhat prejudiced ideas toward Islam and Muslims in general, and the Prophet in particular. The paper argues that while Carlyle's lecture dismisses numerous false charges against the Prophet and emphasizes his essential sincerity in his mission, his views are not only confined to one lecture. He continues to express his attitude toward the Prophet in his third lecture, "The Hero as Poet". It is only when his conflicting views toward the Prophet in the two lectures are juxtaposed to each other that we can assess his standpoint toward the various issues raised in connection with the Prophet's character. Consequently, Carlyle's perspective determines his position in Western scholarship which has focused on the personality of the Prophet and also shows how he is affiliated with other Orientalists who share his similar concerns and views.

Historical Background

Generally speaking, numerous historical factors were largely responsible for the creation of an unfavourable image of Islam and Muslims ever since the early years of contact between the Islamic world and Christendom. The Prophet was the target of

"موقع كارلايل في الدراسات الاستشراقية"

د. عمر عبد الله باقبص*

الملخص

يسلط البحث الضوء على محاضرة لكارلايل بعنوان «البطل كرسول» حيث يظهر تأثره بكتابات الجدليين النصارى المنحازة والعدائية والتي تكرر الاتهامات الباطلة حول صحة القرآن الكريم، واستناد الإسلام إلى جذور نصرانية. ونجد أن كثيرًا من أدباء العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر يعتمدون على تلك الاتهامات المنسوبة إلى الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، في تصوراتهم المشوهة عن الإسلام والرسول. غير أن كارلايل يحاول جاهدًا» أن ينفك عن ذلك التقليد المتوارث من القرون الوسطى حيث يتبنى وجهة نظر اعتمدها بعض المستشرقين المتأخرين والذين أبدوا اهتمامًا» بدراسة شخصية الرسول ومدى تأثير تلك الشخصية في المحيط الخارجي. إلا أن كارلايل في محاولته للتحرر من الموروث القديم، يعترف بتأثير محدود وإيجابي للرسول في العرب من حوله فقط. وبالرغم من أنه يثني على العرب الذين حملوا مشعل النور والمعرفة الذي أضاء لمدة طويلة جزءًا كبيرًا من العالم، نلاحظ أنه أخفق في إدراك أن التبادل الثقافي المثمر والإيجابي بين الحضارة الإسلامية والغرب كان هو السبب المباشر وراء ظهور النهضة الأوروبية. كما أنه أخفق عندما لم يدرك أنَّ دانتي، الذي يعتقد أنَّ تأثيره وذكراه تفوقان الرسول محمدًا، هو ثمرة من ثمار ذلك التواصل الثقافي بين التراث العربي والإسلامي والغرب؛ حيث إنه تأثر في أعماله الأدبية بالفكر الإسلامي والأدب العربي. وعليه فإن رؤية كارلايل وتصوره للإسلام والرسول لاتقتصر على محاضرته "البطل كرسول"، بل لابد من ربط هذه المحاضرة بالتي تليها "البطل كشاعر" حتى تكتمل الصورة التي يريد إرسالها حيث تشكل المحاضرتان وحدة متماسكة، وقياسًا على ذلك فإن تقويم كارلايل للوضع الراهن الذي تتكلم عنه أوروبا بملء فمها لاينبغي أن يفصل عن الماضي حين هيمنت «الإمبراطورية الصامتة» على العالم. ويدعو الباحث كل من يدرس تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب بألا ينهج نهج كارلايل، الذي فصل الماضي عن الحاضر، ونظر إلى تلك العلاقة من زاوية ضيقة، بل لابد أن تكون النظرة أكثر شمولية وعمقًا.

---

* ***أستاذ مشارك بقسم اللغات الأوروبية وآدابها - جامعة الملك عبد العزيز***

"Carlyle's Position in Oriental Scholarship"

Omar Abdullah Bagabas

Abstract

This paper looks closely at Carlyle's lecture "The Hero as Prophet" to show how Carlyle is still influenced by the biased and somewhat hostile writings of the Christian polemicists which repeat false accusations concerning the authenticity of the Revelation and firmly believe that 'Mahomet's Islam' relies heavily on Christian sources. Such baseless and unjust charges are reiterated by most literary figures in the Medieval period and until the 17th century. But the paper also shows how Carlyle tries to break away from the Medieval tradition, as he takes a different approach which some modern Orientalists adopt in their assessment of the character and achievements of the Prophet. However, the paper argues that in his attempt to liberate himself from an ancient tradition, Carlyle acknowledges a limited, though positive, impact of the Prophet on the Arabs only. Though he praises the Arabs whose "light of genius" shone "through long ages over a great section of the world", he failes to realize that the positive and fruitful cultural exchange between a rich Islamic civilization and the West was largely responsible for the emergence of the European Renaissance. He also fails to realize that Dante, whom he believes to long survive Mahomet, is deeply influenced by Arabic and Islamic literary sources. While Carlyle's views of the Prophet and Islam are expressed in his two lectures "The Hero as Prophet" and "The Hero as Poet" which form a complete unit, similarly, his assessment of the contemporary scene where Europe speaks in these loud times should not be divorced from the past when "the empire of Silence" used to dominate the scene. The paper therefore calls for a comprehensive and deeper, rather than a limited and superficial, viewpiont, which should be taken by any fair scholar whenever he/ she examines the history of relations between Islam and the West.

---

* ***Associate Professor at The Department of European Languages & Literature, King Abdulaziz University,***



دراسات في الجغرافيا

- النفط الخام في دول إقليم الخليج العربي بين التصدير والتصنيع - تحليل جغرافي

د. نظام بن عبد الكريم الشافعي

- تملك الأرض ومشكلة الديون وأثرهما في التحول في الأراضي في فلسطين العثمانية

د. زهير غنايم عبد اللطيف

- التحليل الجيومورفولوجي للخصائص المورفومترية للجزء الأعلى من حوض وادي الرميمين وحوض نهر تكالا

د. صبري محمد التوم

- العلاقة بين درجات حرارة فلسطين وذبذبة الدورة الجوية في الأطلنطي الشمالي

د. أحمد خليل القاضي



المحور

العدد 20 - 2011

النفط الخام في دول إقليم الخليج العربي بين التصدير والتصنيع

- تحليل جغرافي -

د. نظام بن عبدالكريم الشافعي*

الملخص

يهدف البحث الى دراسة واقع وتطور صناعة النفط في إقليم الخليج العربي بدوله الثماني الذي يُعَدُّ الأكثر أهمية اليوم في مجال النفط عالميا، وحتى المستقبل رغم ظهور منافسين. وتحاول الورقة الاجابة عن بعض التساؤلات التي من بينها على سبيل المثال : هل تتجه دول الإقليم بعد هذه الفترة الزمنية التي تقترب من 100 عام من بداية نشاطها النفطي بصورة أكبر نحو تكرير نفطها بدلا من تصديره خاما ، وما التباينات بين دول الإقليم في تصنيع النفط وتكريره، وما مدى تلبية المصنع منه للحاجات المتزايدة فيها، وما ذا عن مستقبل توجه الدول نحوهذه الصناعة ؟ اعتمد الباحث على مصادر بيانات محلية وإقليمية ودولية وقام بتحليلها لتوضيح الحالة الواقعية لتكرير النفط في الإقليم مقارنة مع الإنتاج والتصديرمن الخام، وإجراء بعض دراسات المقارنة محليا ودوليا. توصل البحث إلى نتائج، من بينها: أن جميع الدول لديها مصافي تكرير، بلغ عددها 37 في عام 2001 ، مختلفة في طاقاتها التصميمية وإنتاجها الفعلي، وأن إجمالي الكمية المكررة يصل إلى حوالى 5 ملايين برميل يوميا تمثل حوالى 25 % من إجمالي المنتج من الخام، ولكن بنمو بطيء خلال الثلاثين سنة الماضية . ومن بين النتائج كذلك أن السعودية تعد أكبر دول الإقليم تكريرا، في حين مملكة البحرين ماتزال تمثل نموذجا مختلفا عن بقية دول المنطقة، وتتجه الكويت إلى أن تقدم كذلك نموذجا آخر في شأن تصنيع النفط الخام بدلا من تصديره خاما في اتساع نشاطها جغرافيا. وأظهرت الدراسة أن دول الخليج نفسها والدول المجاورة لها تحتاج في المستقبل إلى المزيد من المنتجات المكررة بسبب النمو السكاني الكبير، وبسبب التنمية الشاملة التي تشهدها، وتدعو الدراسة دول الخليج، وخاصة أعضاء مجلس التعاون بالتخطيط لهذا الأمر، وتحقيق استغلال أنسب لمواردها النفطية؛ لما تتميز بها من مزايا نسبية إنتاجية بالإضافة إلى مزايا الموقع الجغرافي .

---

* *أستاذ الجغرافيا المشارك - جامعة قطر*

The Oil in the Arabian Gulf Region between Exporting and Refining

- a geographical analysis -

Dr. Nedham A.Kareem Al-Shafai

Abstract

This paper deals with oil of the most important region in the world which includes eight countries. It aims to draw a clear picture of the eight countries in the region regarding the refining of its oil, instead of exporting it as crude.

Some questions to be answered here: are the gulf countries refining its oil more than exporting it after almost 100 years of oil discovery, what are the differences between them in this matter?, and is the growth of refining high enough during the last 30 years, compared with other countries even non-oil producers such as Singapore?.

International and regional as well as local information and data were used to present a real situation and its development with enough comparisons in time and space.

The paper ends with findings such as: all eight countries of the region have 37 refineries, with almost 5 millions barrel per day represents almost 25 % of the total oil daily production, Saudi Arabia is the largest producer while Bahrain presents a special case, because it refines more than its oil production and Kuwait on other hand, represents a different case as it spreads internationally, but the ratio of growth is very slow.

Finally, the region has economic and geographical location advantages which should encourage them to increase it capacities to cover the growing need of the region itself as well as the area around where the population is increasing at high rate and comprehensive social, urban and economic developments are going on.

المقدمة :

بدأ الإنتاج التجاري للنفط في العالم عام 1857 من حقل بلوستي الواقع شمال بوخارست برومانيا بإنتاج يومي بلغ 2000 برميل، وفي عام 1859 تم حفر أول بئر في الولايات المتحدة الأمريكية في حقل تيتوسفيل بولاية بنسلفانيا وبإنتاج مماثل للحقل الروماني، وكان النفط يستخدم أساسا في الإنارة (الزوكة 1981 : 366). وبعد أن عرف الإنسان أهمية هذه المادة ودورها في التطور الصناعي والحضاري بدأت الشركات النفطية الكبرى في البحث عن النفط في بقاع الأرض المختلفة بدءا بالمناطق السهلة وانتهاء بالمناطق الصعبة، كقيعان البحار العميقة ومناطق الغابات وحتى المناطق المتجمدة، مستعينة في ذلك بالتقنيات الحديثة بكل أنواعها المباشرة أو غير المباشرة.

أما عربيا، فقد كانت مصر الدولة الأولى التي بدأ فيها إنتاج النفط في عام 1911 من حقل جمصة (الناضب حاليا) على ساحل البحر الأحمر عند مدخل خليج السويس، واتسعت دائرة الكشف والإنتاج في العالم حتى شملت إقليم الخليج العربي حيث كانت البداية بإيران عام 1908 فالعراق فالبحرين وانتهاء بعمان عام 1967.

وتجدر الإشارة إلى أن جميع الدول المطلة على حوض الخليج العربي تنتج النفط، وإنتاجها قدر بحوالى 22 مليون برميل يوميا في بداية عام 2004، وتمتلك في الوقت نفسه احتياطيا بنسبة تتراوح بين 65و70 % من جملة الاحتياطي العالمي ، وما تزال عمليات الكشف مستمرة (11 : 27-OPEC Bulletin 2004).

إن النفط كما هو معلوم مادة ناضبة، لذلك فإن حسن استغلاله يجب أن يكون الهدف الأكبر قبل فوات الأوان ، فالنفط يمكن أن يحول بعمليات صناعية إلى عدد من المنتجات يفوق 4000 منتج ذات قيمة عالية جدا تعمل على مضاعفة الإيرادات ، وتكريره إلى منتجات يمثل أحد هذه الخيارات.

تشير بيانات عام 2004 أن حجم النفط المكرر في العالم بلغ 82 مليون برميل يوميا من النفط الخام، جاءت الولايات المتحدة في المرتبة الأولى حيث كان نصيبها حوالى

21 % من خلال 149 مصفاة عاملة على أراضيها، طاقتها الإنتاجية 16.9 مليون برميل، أتت بعدها دول الاتحاد الأوروبي مجتمعة بنسبة 10 %، ثم اليابان فالصين بنسبة 6% و 5% على التوالي. أما في إقليم الخليج العربي ، فإن دوله كررت حوالى 5.5 ملايين برميل يوميا، وجاءت المملكة العربية السعودية على رأس الدول الثماني بالإقليم بطاقة إنتاجية بلغت 1.8 مليون برميل يوميا تقريبا (EIA ، 2005 : 62 -63) .

تبحث هذه الورقة العلمية صناعة تكرير النفط في دول إقليم الخليج العربي بدلا من تصديره خاما لما لهذا الأمر من إيجابيات اقتصادية، وتحاول الإجابة عن أسئلة مثل: إلى أي مدى وصلت قناعات متخذي القرار في دول الخليج بضرورة تصنيع هذا المورد المهم ؟ وإلى أين وصلت جهودها؟ وهل ما يصنع اليوم من النفط أكبر مما يصدر خاما مقارنة بعمر إنتاج النفط فيها ؟ وما معدلات النمو في هذه الصناعة؟ وهل من اختلافات بين دول الإقليم ؟ وهل يتناسب المصنع منه مع المنتج منه حاليا وخاصة بالمقارنة مع دول أخرى منتجة أو غير منتجة للنفط؟ وهل نمو الطلب محليا وإقليميا وعالميا يدعو دول الإقليم؛ لتكثيف خططها في هذا الشأن؟

تعريفات :

نعني بدول إقليم الخليج تلك الدول المطلة على حوض الخليج العربي كما في مسميات دول الخليج العربية أو الخليج الفارسي كما لدى جمهورية إيران الإسلامية، فالإقليم يضم ثماني دول، وهي : إيران والعراق والبحرين والسعودية والكويت وقطر والإمارات وعمان بترتيب اكتشاف النفط في كل منها. أي إن الدراسة شاملة لهذا الإقليم الجغرافي من العالم، والذي يمثل مركزا متقدما في إنتاج النفط في الوقت الحاضر أو في المستقبل.

أما تصدير النفط فنعني به تصديره خاما وكذلك المكثفات، ولا ندخل هنا الغاز الطبيعي، أما تصنيع النفط فنقصد به تكرير النفط الخام وتحويله إلى منتجات أو مشتقات نفطية مكررة، وقد تكون هذه العملية المرحلة الأولى في التعامل مع النفط

تصنيعا، ومن ثَمَّ لا تدخل هنا الصناعات الأخرى التي تتعامل مع النفط والتي توجد في الخليج بكثرة مثل: البتروكيماويات وغيرها.

أهداف البحث ومنهجه:

يهدف هذا البحث الى:

1 - معرفة مدى توجه دول الخليج المنتجة للنفط والمالكة لاحتياطي كبير منه إلى تصنيعه بدلا من تصديره خاما، وهل الوضع الحاليّ في هذا الشأن أفضل نسبيا من البدايات ، حيث مرت أكثر من تسعين عاما على بداية عهد النفط فيها.

2 - معرفة التباينات الموجودة في دول الإقليم في صناعة تكرير النفط من حيث الهدف من الصناعة والظروف المحيطة بها، وفاعلية النشاط وخططه واستراتيجياته المستقبلية.

3 - معرفة مدى الحاجة إلى المزيد من مصافي النفط لبنائها في دول المنطقة لتلبية الحاجات المحلية المتزايدة، وحاجات دول الجوار للإقليم التي تنمو سكانيا واقتصاديا وعمرانيا بمعدلات كبيرة.

أما المنهج المستخدم في البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي المعتمد على وصف واقع النشاط النفطي في الخليج، خاصة فيما يتعلق بإنتاج النفط الخام وإنتاج المنتجات المكررة بناء على الإحصائيات المتاحة، والاستفادة منها بتحليلها تاريخيا وجغرافيا، وكذلك الوصول إلى النتائج المرتبطة بأهداف البحث مباشرة.

دراسات سابقة :

تصفح الباحث الكشاف الذي أصدره مركز دراسات الخليج والجزيرة بالكويت عام 2001، والذي يكشف عن جميع البحوث والدراسات التي نشرت في أعداد مجلة «دراسات الخليج والجزيرة العربية» منذ 1975، فلم يجد أي بحث أو دراسة عن الموضوع، ولا حتى عن جزء من الإقليم تحت الدراسة. واطلع الباحث كذلك على جميع أعداد مجلة «التعاون الصناعي في دول الخليج العربية والتي تصدرها منظمة

الخليج للاستشارات الصناعية في قطر منذ عام 1980 وحتى تاريخ كتابة هذا البحث، فلم يكن هناك بحث مماثل أو حتى التطرق إلى موضوع البحث بصورة مباشرة، ولكن المنظمة أصدرت خلال ربع قرن دراسات متنوعة عن الصناعة في دول الخليج العربية أو عن القطاعات الصناعية فيها، كان من بينها دراسة وصفية عن صناعة تكرير النفط ومعالجة الغاز الطبيعي في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية عام 1994. واستفاد الباحث كثيرا من الدراسات التي كتبها مجموعة من الجغرافيين الذين كلفوا بالكتابة عن دول العالم الإسلامي في الموسوعة التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بأجزائها الإقليمية المختلفة، والتي صدرت بين 1999 و2000.

أولا: إنتاج النفط في دول إقليم الخليج:

بدأ إنتاج النفط في إقليم الخليج عام 1908 في إيران، في حين كانت البحرين أولى دول مجلس التعاون الخليجي إنتاجا له في عام 1932، وبحلول عام 1967 كانت جميع دول الخليج الثماني منتجة للنفط. ويعد الإقليم الأكثر أهمية في إنتاج النفط على مستوى العالم على الرغم من ظهور دول أخرى في مناطق عديدة من العالم، أوتكثيف النشاط في المنتجة منها، وخاصة بعد أزمة ارتفاع أسعار النفط في بداية السبعينات من القرن العشرين مثل: المكسيك واليمن والنرويج ودول بحر قزوين ودول غرب أفريقيا وأخيرا السودان. وتظهر البيانات المتاحة عن الإنتاج في دول الإقليم أن تغيرات كثيرة طرأت عليه بمرور الزمن لعدة أسباب معروفة من بينها على سبيل المثال: اكتشاف حقول جديدة، واستخدام تقنيات جديدة متقدمة في الحفر؛ لاستخراج النفط، واختلاف أسعار النفط بين الارتفاع والانخفاض، بالإضافة إلى الوضع السياسي والأمني بالإقليم الذي أثر بشكل كبير في كميات الإنتاج. وكان لتأميم معظم دول الخليج نشاطها النفطي في السبعينات تأثير في تدني الإنتاج وانخفاضه في كثير من الحقول، وخاصة القديمة وتنطبق هذه الحالة على قطر بشكل واضح، كما كانت سياسات الحظرالاقتصادي التي مورست دوليا أو أمريكيا على بعض الدول،

كإيران والعراق في نهاية السبعينات من العوامل التي أثرت في الإنتاج (المهر1984: 25-180) . والجدول رقم (1) يبين التغيرات التي حدثت في إنتاج النفط واحتياطيه لفترة 15 عاما من 1986 وحتى 2001، حيث نجد :

1 - أن الإنتاج الكلي لدول الخليج قد ارتفع من حوالى 12.1 مليون برميل يوميا إلى حوالى 22.2 مليون برميل على التوالي ، ومثل إنتاج عام 1986 نسبة 21.7 % من الإنتاج العالمي، في حين مثل إنتاج عام 2001 نسبة 29.4 %، وتعد أسعار النفط من الأسباب الرئيسة لذلك الاختلاف في الإنتاج، فقد كان سعر البرميل في منتصف الثمانينات قد انخفض إلى أقل من 10 دولارات، في حين أن الأسعار تحسنت كثيرا مع بداية القرن الحادي والعشرين إلى أكثر من 25 دولارا للبرميل، وتخطت الستين دولارا في عام 2005 .

2 - تعد السعودية الأكبر إنتاجًا على المستوى الخليجي، وتأتي إيران في المركز الثاني وبفارق كبير عن السعودية التي يمثل إنتاجها 40 % سنة 2001 ، في حين أن إنتاج إيران مثل فقط 18 % تقريبا في السنة نفسها، مع العلم أن الكويت كانت حتى عام 1960 هي أكبر إنتاجا بين دول الإقليم حيث كانت تنتج حوالى 594 ألف برميل يوميا مقارنة

الدولة	إنتاج 1986 ألف برميل يوميا	إنتاج 2001 ألف برميل يوميا	% للتغير في الإنتاج	الاحتياطي 1986 مليار برميل	الا حتيا طي 2001 مليار برميل	% للتغير في الاحتياطي	# عمر الاحتياطي 2001
إيران	1.806	3.804	+111	92	90	__2	65
العراق	1.788	2.452	+37	100	113	+13	125
البحرين	0.044	0.043	__2	0.1	0.1	=	7
السعودية	4.883	8.871	+82	170	262	+54	85
الكويت	1.365	2.117	+55	95	97	+2	125
قطر	0.332	0.864	+160	3.2	15.2	+375	48
الإمارات	1.374	2.566	+86	98	98	=	104
عمان	0.541	0.964	+78	4	5.5	+38	16
إقليم الخليج	12.133	22.181	+83	562.3	678.8	+21	86
العالم	55.922	75.461	+35	888	1032	+16	38
إقليم الخليج	% 21.7	% 29.4	+35	%63.4	%65.8	+2.4	-

الجدول رقم (1) تطور إنتاج النفط واحتياطيه في دول الخليج عامي 1986 و2001

عمر الاحتياطي من حساب الباحث بتقسيم الاحتياطي المؤكد على إجمالي الإنتاج السنوي لعام 2001 .

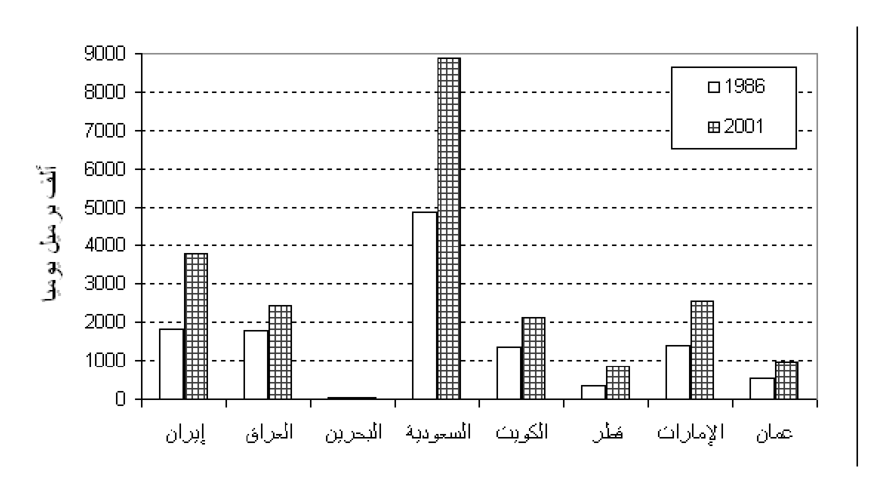
المصدر :

Arab oil and gas directory ، 2002

International Petroleum Encylopedia ، 1994

مع السعودية الثانية في الترتيب بإنتاج وصل فقط إلى حوالى 457 ألف برميل يوميا (Alexander، Gibson 1979 ؛ 187)

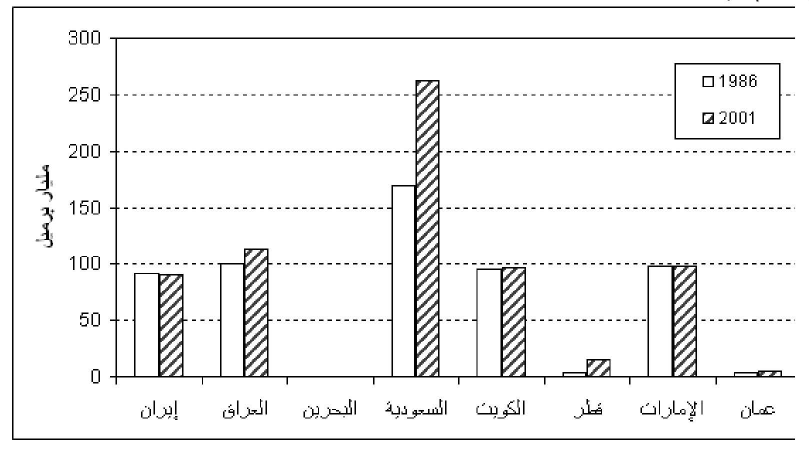
3 - إن زيادات قد حدثت في إنتاج جميع دول الإقليم للفترة، فيما عدا البحرين، وتراوحت نسبة الزيادة بين 160 % في قطر، و37 % في العراق، وبمتوسط عام للزيادة بلغ 83 % بين عامي 1986 و2001 .



الشكل رقم (1) إنتاج النفط الخام في دول إقليم الخليج العربي عامي 1986 و2001

4 - إن احتياطيات المخزون النفطي في الإقليم هائلة، فعلى الرغم من طول مدة الإنتاج وكمياته الكبيرة خلال المائة عام الماضية تقريبا، فإن الاحتياطي ما يزال الأكبر دوليا، بل تؤكد التقارير الدولية أن الاحتياطي قابل للارتفاع في معظم دول الخليج، فنذكر هنا على سبيل المثال أن احتياطي قطر قد ارتفع إلى أكثر من ثلاثة

أمثال مع بداية القرن الحادي والعشرين، ويتوقع أن يصل الاحتياطي العراقي إلى احتياطي السعودية نفسه أو أكثر، وكذلك احتياطيات بقية الدول، وخاصة إيران التي ازدادت نشاطا مع بداية القرن الحادي والعشرين. وبصورة عامة، فإن الاحتياطي الخليجي المؤكد قدر بحوالى 562 مليار برميل أي ما نسبته 63 % عالميا عام 1986، وارتفع إلى حوالى 679 مليار عام 2001 ليمثل حوالى 66 % من الاحتياطي العالمي المقدر بحوالي 1032 مليار برميل. ويأتي الاحتياطي السعودي في المركز الأول وبنسبة 39 % تقريبا من إجمالي احتياطي إقليم الخليج ونسبة 25 % من الاحتياطي العالمي في سنة 2001 . وتعد سلطنة عمان - بعد البحرين - الدولة الصغرى في الاحتياطي على الرغم من زيادته بنسبة 38 % مقارنة بسنة 1986، وكذلك شأن معظم الدول الثماني التي شهدت احتياطياتها نموا خلال الخمس عشرة سنة بنسبة عامة بلغت 21 % على الرغم من الكميات الكبيرة التي أنتجتها الدول خلال تلك الفترة (1986 و2001)، (الشكل رقم 2) .



الشكل رقم (2) احتياطي النفط في دول إقليم الخليج العربي عامي 1986 و2001

في ضوء الاحتياطيات الحالية وكميات الإنتاج، فإن دول الإقليم قادرة على الإنتاج بالكمية نفسها، لإنتاج عام 2001 لمدة متوسطة لا تقل عن 86 عاما مقارنة مع حوالى 38

عاما على المستوى العالمي . في حين أن احتياطيات أكبر الدول المنتجة للنفط من خارج الإقليم محدودة، فهي على سبيل المثال: حوالى 32 مليار برميل في الولايات المتحدة الأمريكية والتي تستمر في الإنتاج لمدة عام، وحوالى 50 مليارًا برميل في المكسيك، أي لمدة عاما، وحوالى 27 مليار برميل في النرويج لمدة عام، وحوالى 70 مليارًا في فنزويلا ومن ثَمَّ عمر الإنتاج فيها يصل إلى حوالى 70 عاما (اليوسف 2002 : 39-70، الجميلي 2002 :71) .

ثانيًا : تصدير النفط في دول الخليج

منذ أول اكتشاف للنفط وبدء إنتاجه بصورة تجارية سارعت الشركات البترولية العالمية الكبارأو فروعها المحلية التي اكتشفت النفط في دول الإقليم النفطية، وهي على سبيل المثال إما أمريكية، كتكساكو، أو بريطانية، كبريتش بتروليوم، أو فرنسية، كتوتال أو هولندية، كشل، في إنشاء موانئ لتصديره إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وبأسعار زهيدة لم تتعد حتى عام 1973 الدولارين في أحسن الأحوال، ففي الفترة من 1947 و1957 كان السعر المعلن هو فقط 1.17 دولار أمريكي (المهر1982: 187)، في حين كان الغاز المصاحب أو المرافق يحرق بنسبة 100 % في البدايات قبل استغلاله في توليد الطاقة وتحلية مياه البحر فيما بعد.

منافذ التصدير: كان التصدير يتم عبر موانئ على الخليج العربي أعدت خصيصا لتصدير النفط، ومن بين هذه الموانئ على سبيل المثال: رأس تنورة السعودي، والأحمدي وعبدالله في الكويت، وجزيرة داس في أبوظبي، وسترة في البحرين ومسيعيد بقطر، وعبادان وجزيرة خرج في إيران، وجزيرة حالول القطري، والفاو والبكر العراقيان في رأس الخليج. واتسعت منافذ التصدير لتصبح عن طريق موانئ لا تطل على حوض الخليج العربي، حيث قامت بعض دول الإقليم في وقت لاحق بمد خطوط أنابيب ضخمة ولمسافات طويلة تبلغ آلاف الكيلومترات لنقل كميات كبيرة من نفطها إلى أسواق العالم ، من بين هذه المنافذ : منفذ ينبع في السعودية على البحر الأحمر، وميناء خور فكان الإماراتي، وميناء الفحل العماني على خليج عمان،

بالإضافة إلى منافذ البحر المتوسط، وهي على سبيل المثال: ميناء جيهان التركي وطرطوس وبانياس السوريان، وغيرها .

وتنقل البواخر عبرتلك الموانئ وغيرها ما يصل إلى أكثر من 20 مليون برميل يوميا من النفط المنتج في دول الإقليم (17 مليونًا من الخام و3 ملايين من المشتقات النفطية المكررة). وتشير البيانات أنه في عام 2001، على سبيل المثال ، تم تصدير ما نسبته 20 % من نفط الخليج عبر موانئ لا تطل على حوض الخليج العربي. فقد تم على سبيل المثال تصدير مليوني برميل يوميا عبر ميناء ينبع السعودي على البحر الأحمر، وحوالي 800 ألف برميل عبر ميناء جيهان التركي على البحر المتوسط، وحوالى 200 ألف عبر الموانئ السورية على البحر المتوسط، وحوالى 400 ألف بالوسائل البرية إلى الدول المجاورة (EIA، 2002 : 4 -6)

تغير أسواق النفط الخام الخليجي وكمياته: كانت أوروبا الغربية في بدايات الإنتاج النفطي في إقليم الخليج العربي، الجهة الرئيسة في استقبال النفط الخام المصدر من دوله، ولكن في مراحل تالية، وخاصة بعد حرب أكتوبر عام 1973 ، بدأ النفط الخليجي يصدر إلى جهات جديدة، وعلى رأسها الدول الآسيوية، وخاصة اليابان وكوريا وسنغافورة والصين والهند. فاليابان، على سبيل المثال، اعتمدت على نفط الخليج بنسبة وصلت إلى أكثر من 75 % عام 2000 بعد أن كانت النسبة 60 % عام 1982، في حين انخفضت نسبة اعتماد دول غرب أوروبا على نفط الخليج إلى 35 %، أما الولايات المتحدة الأمريكية فاستقبلت ما نسبته 25 % تقريبا عام 2000 بعد أن كانت 16 % تقريبا عام 1982 (EIA، 2002 : 6 -7).

وتظهربيانات أخرى ، أن سلطنة عمان ، على سبيل المثال، صدرت في عام 2000 ما نسبته 27 % من خامها إلى اليابان و20 % إلى الصين و19 % إلى كوريا الجنوبية ونسبة 17 % إلى تايلند(Arab Petroluem 2002 : 312). أما السعودية التي قامت في عام 2000 بتصدير 6.3 ملايين برميل يوميا ، فما تزال صادرات نفطها الخام إلى دول أمريكا الشمالية، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، تمثل نسبة لا بأس بها، فقد كانت

الكمية 1.6 مليونا أي بنسبة 25 % تقريبا، وكان نصيب أوروبا الغربية 1.3 مليونا، ولكن الكمية الكبرى من النفط الخام السعودي ذهبت إلى دول آسيا، وهي ما يقارب 2.9 مليونين وبنسبة 50 %، وكانت اليابان على رأس تلك الدول حيث استوردت ما معدله 908 آلاف برميل يوميا من النفط السعودي (385- 384 : Arab Petroluem 2002). أما إيران فقد قامت بتصدير 2.5 مليوني برميل يوميا في عام 2000، كان نصيب دول آسيا حوالى 1.2 مليونا يوميا، وكان نصيب اليابان منه نصف مليون برميل تقريبا، ومثلت دول أوروبا الغربية الجهة الثانية في صادرات الخام الإيرانية بكمية بلغت 921 ألف برميل، وبشكل خاص إيطاليا وهولندا حيث استوردتا حوالى نصف الكمية، (Arab Petroluem 2002: 139 -140).

والجدول رقم (2) يبين الكميات السنوية التي صدرتها دول الخليج من النفط الخام المنتج بها عام 2001 مقارنة مع إجمالي الإنتاج، حيث يتضح أن إجمالي ما قامت دول الخليج بتصديره بلغ 5.5 مليارات برميل أي بنسبة 76 % من إجمالي الناتج البالغ حوالى 7.2 مليارات برميل . والبحرين هي الدولة الوحيدة من بين الدول الثماني التي لا تصدرنفطا خاما ، في حين ترتفع كثيرا نسبة ما يصدر من النفط الخام في كل من قطر وعمان حيث تصل إلى أكثر من 95 % . وتحتل الكويت المركز الأفضل بين الدول الكبرى المنتجة للنفط بالإقليم ، حيث تنخفض نسبة ما يصدر من نفطها على شكل خام إلى 62 % ، مما يعني أنها تتبع سياسة واضحة في تصنيع نفطها، (الشكل رقم 3). وللمقارنة مع دول أخرى مصدرة للنفط أعضاء في منظمة الأوبك، نجد فنزويلا، على سبيل المثال، ما تزال تصدر ما نسبته 65 % من إنتاجها النفطي خاما إلى الخارج، أما نيجيريا فنسبة صادراتها من النفط تصل إلى حوالى 90 % في عام 2004، في حين تقوم أندونيسيا بتكرير مانسبته 93 % من ناتجها النفطي (Opec Annual Statistical Bulletin 2004)، في حين أن نسبة النفط المصدر يمثل في كل من ليبيا والجزائر حوالى 73 % و30 % على التوالي عام 1998، في حين تصل النسبة العامة في الوطن العربي إلى حوالى 70 % في العام نفسه (صالح 2002: 244).

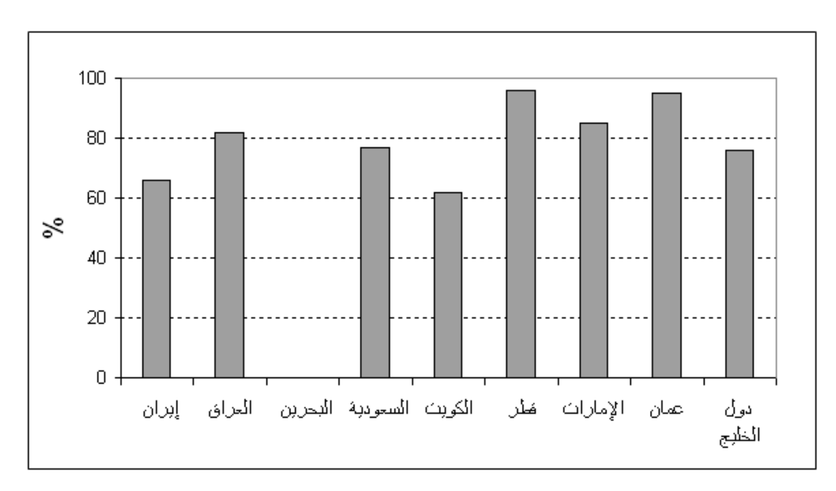
الجدول رقم (2) إنتاج النفط الخام وصادراته في دول الخليج عام 2001

الدولة	الإنتاج السنوي مليون برميل*	الصادرات من الخام مليون برميل*	نسبة الصادرات % من الإنتاج السنوي
إيران	1389	913	66.0
العراق	895	730	82.0
البحرين	16	00	00.0
السعودية	2879	2203	76.5
الكويت	711	443	62.3
قطر	231	221	95.7
الإمارات	772	652	84.5
عمان	349	332	95.1
المجموع	7242	5494	75.9

* بعض الأرقام كانت في الأصل بالطن وحولت إلى برميل ، بسبب اختلاف مصادر البيانات.

المصدر : بيانات صادرة عن منظمة الأوبك ومنظمة الأوابك وغيرهما موجودة في :

Arab Oil and Gas Dierctory ، Paris، 2002



الشكل رقم (3) النسبة المئوية لصادرات النفط الخام المنتج في دول إقليم الخليج العربي

عام2001

ثالثا : تصنيع النفط في دول الخليج

لا يصلح النفط، كما هو مثبت علميا، وهو خام لشيء تقريبا، على الرغم من احتوائه على آلاف المركبات الكيميائية، إلا بعد فصله إلى مشتقات عن طريق تكريره، وقد يسمى أيضا تصنيعه، عبرعمليات مختلفة في التعقيد، حيث يهدف تصنيع النفط حسب ما تقصده هذه الدراسة، إلى تحويله من خام إلى مشتقات أو منتجات أساسية، وهي كما بينا سابقا في المقدمة تُعَدُّ المرحلة الأولى في تصنيع النفط. والمشتقات أو المنتجات النفطية متمثلة في : الجازولين (البنزين) بأنواعه المختلفة المستخدمة في وسائل النقل والكيروسين ووقود الطائرات ووقود الزيت الثقيل وغازات الوقود المختلفة مثل البيوتين المستخدم في المنازل، ومنتجات أخرى أساسية، كالشحوم والشموع والديزل والاسفلت، وأخرى جانبية لا حصر لها، وبصورة عامة يصل عدد المنتجات إلى أكثر من 100 صنف (رسول 1985 : 223)، وتتم عمليات التكريرهذه إما بالتكسير الحراري الفيزيائي بواسطة الحرارة أو بخار الماء الحار، أو بالتكسير الحفزي الكيميائي بالأكاسيد المعدنية والأحماض المضافة إلى الخام.

وتكريرالنفط يحقق للدول وخاصة دول الخليج المنتجة للنفط مجموعة من الأهداف الاقتصادية، فإنه على سبيل المثال، يحقق زيادة في قيمة هذا المورد المهم وغير المتجدد، ويقلل نسبيا تأثيرات انخفاض أسعار الخام، ويمكن في الوقت نفسه الدول المنتجة من توسيع دائرة أسواقها، وخاصة في الدول النامية، ويعمل أيضا على خفض ضريبة الكربون في حال فرضها على النفط الخام، وخاصة المنتجات الخالية من الرصاص، وأخيرا، يؤدي تكرير النفط إلى حصول الدولة على منتجات تحتاج إليها يوميا بأسعاررخيصة مقارنة بالمنتجات المستوردة المعروفة بارتفاع أسعارها كثيرا، وبتكريره يتم تأسيس قاعدة إنتاجية تدعم قطاع الصناعة، وتشغيل العمالة، وتنشيط الفعاليات الاقتصادية الأخرى ذات الصلة المباشرة وغير المباشرة (صالح 2002 : 244).

ومن بين خصائص صناعة تكرير النفط أنها إحدى الصناعات التي تكون فيها

نسبة الوزن الفاقد صغيرة، وأنها من الصناعات القليلة التي تزيد من حجم المواد الأولية بعد تصنيعها، فهي صناعة يفضل أن تتخذ من الأسواق مواقع لها، وأنها أيضا صناعة ذات تقنية عالية تقلل من استخدام العمالة ومن ثَمَّ خفض تكلفة العمل إلى حوالى 6 % من مجموع التكاليف النهائية، ولكنها تحتاج إلى رُءُوس أموال ضخمة جدا (رسول 1985 : 223).

وبما أن صناعة تكرير النفط تعد صناعة ذات كثافة رأسمالية عالية، وتتميز كذلك بتكاليف إنتاجية عالية، فأرباحها تتأثر بنسبة استغلال أو استعمال الطاقة التصميمية أو التجهيزات التي يجب أن تتراوح بين 93 و94 % من القدرات النظرية كما يقول الدكتور الحبيب دلالة، والذي يقول أيضا: إنَّ عامل الوفورات الاقتصادية يلعب دورا مهما في تحقيق أرباح مأمولة، والوفرة الاقتصادية تلك يمكن أن تنتج من طريق الاستغلال الأنسب للطاقة التصميمية للمصفاة وتنويع المنتجات، و حسن التعامل مع الآلات والأجهزة، وحسن إدارة المصفاة، وتنوع المنتجات، واختيار المواقع الجغرافية المناسبة (الحبيب دلالة 1990 : 99).

كانت صناعة تكرير النفط حتى الخمسينات من القرن العشرين تقام في الأصل بالقرب من حقول النفط ، ومن ثم يذهب الإنتاج إلى الأسواق ، لذلك كانت الولايات المتحدة الأمريكية تستحوذ على حوالى 60 % من الطاقة العالمية حتى تلك الفترة، لأنها الدولة المنتجة الكبرى نفطيا، في مقابل 10 % لدول أوروبا الغربية وأقل من 9 % لدول الشرق الأوسط. أما في فترة الخمسينات والستينات فقد اختلفت مواقع التكرير فأصبحت الأسواق هي الجاذبة لهذه الصناعة بدلا من مناطق إنتاج المواد الخام (النفط) لعدة أسباب، من بينها :

1) اتساع دائرة استبدال الفحم بالنفط وخاصة في دول أوروبا .

2) ظهور السفن العملاقة لنقل النفط .

لذلك ، فإن صناعة التكرير بدأت تزدهر في أوروبا لتصل نسبتها إلى حوالى 30 % من جملة صناعة النفط العالمية حتى عام 1970 مع تراجع لحصة الولايات الأمريكية

إلى 28 %، وانخفاض أكبر في قدرات دول الشرق الأوسط إلى حوالى 5 %، وكانت الدول الرئيسة في تكرير النفط هي الدول الصناعية التي لا تمتلك النفط باستثناء الولايات الأمريكية وروسيا اللتين كانتا تكرران النسبة العظمى من الطاقة التكريرية في العالم في عام 1980. ولكن مع تنامي حاجة الدول النامية إلى المزيد من المنتجات المكررة، تلبية للتطورات الاقتصادية والحضرية والعمرانية منذ الثمانينات وحتى الآن، سعت دول كثيرة منها، وعلى رأسها دول الأوبك بتوسيع قدراتها التكريرية بنسبة 50 % بين سنتي 1985 و1990 لتصل إلى 9 ملايين برميل يوميا (دلالة 1990 : 99-106).

وتشير البيانات (EIA، 2001:62- 64) إلى أن إجمالي ما أنتجه العالم من المنتجات النفطية المكررة في يناير عام 2001 بلغ حوالى 81 مليون برميل يوميا في 122 دولة، تمتلك 49 دولة منها فقط مصفاة واحدة ، وكان نصيب الدول غير الأعضاء في أوبك حوالى 73 مليونا، أي بنسبة 90 % تقريبا . وجاءت الولايات المتحدة الأمريكية على رأس الدول المالكة للمصافي بعدد 152 مصفاة أنتجت حوالى 16.6 مليون برميل يوميا ومن ثَمَّ فهي تحتل المرتبة الأولى بين دول العالم، في حين وصلت الطاقات الإنتاجية لدول غرب أوروبا مجتمعة إلى حوالى 8.4 ملايين برميل، وروسيا بإنتاج بلغ حوالى 5.4 ملايين برميل لتحتل المرتبة الثانية، فاليابان بتكرير حوالى 5 ملايين برميل يوميا، ومن ثم كانت الصين بكمية إنتاج بلغت حوالى 4.3 ملايين يوميا ، ويمكننا من خلال تلك البيانات استخلاص وصف مصافي التكرير الصينية بأنها صغيرة لأن متوسط إنتاج الواحدة منها هو حوالى 47 ألف برميل يوميا ، في حين متوسط إنتاج المصفاة الأمريكية يصل إلى حوالى 110 ألف ، واليابانية هو حوالى 137 ألف، أي إنها متوسطة الأحجام، في حين تتسم مصافي كوريا الجنوبية وسنغافورة بأحجامها الكبيرة حيث المتوسط يقترب من 433 ألف برميل يوميا وقد يكون سبب ذلك حداثة المصافي في الدولتين، ومحدوية انتشارها الجغرافي بسبب المساحات الجغرافية لهما، (الجدولان رقما 4 و6) .

أما في عام 2004 فقد ارتفع إنتاج العالم من تكرير النفط إلى 83 مليون برميل أي

بتغير بسيط لم يزد على إنتاج عام 2001 المقدر بحوالى 81 مليونا يوميا، أي بنسبة زيادة أقل من 2.5 % خلال أربعة أعوام، وهذا يعني أن هذه الصناعة بطيئة في النمو، ولكن الملاحظة المهمة هي أن إنتاج الصين قد ارتفع بمقدار بين 200-300 ألف برميل يوميا، في حين أن إنتاج الولايات المتحدة لم يطرأ عليه أي تغيير؛ لأنها توقفت عن بناء مصاف جديدة منذ منتصف السبعينات لأسباب بيئية واقتصادية.

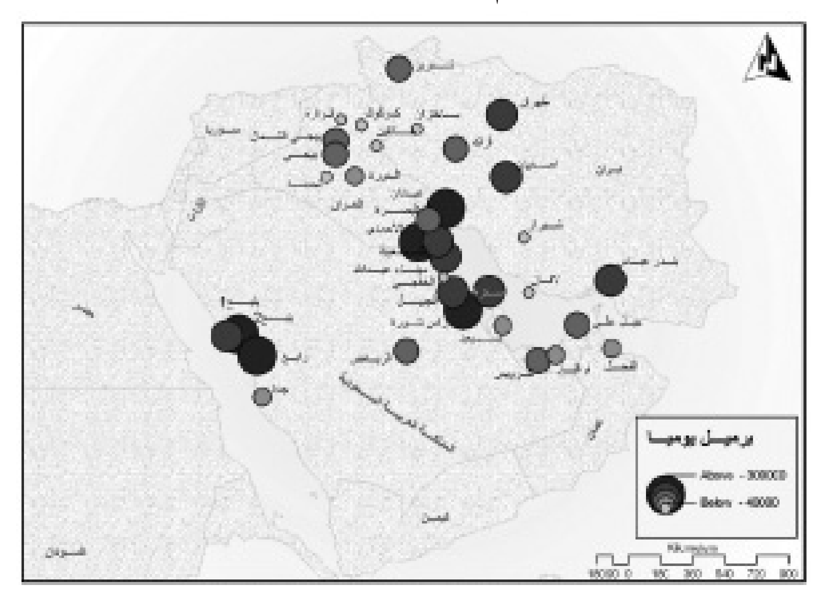
الجدول رقم (3) تطورصناعة تكريرالنفط في دول الخليج وبعض خصائصها الإنتاجية بين عامي 1986 و2001

الدولة	سنة إنشاء أول مصفاة	الموقع	عدد المصافي 1986	إجمالي حجم التكرير 1986 ألف برميل يوميا	عدد المصافي 2001	إجمالي حجم التكرير 2001 ألف برميل يوميا	التغير في التكرير بين 1986 و2001
إيران	1929	عبادان	4	530	9	1.484	+ 180 %
العراق	1927	الدورة	8	319	8	418	+ 32 %
البحرين	1936	سترة	1	250	1	249	=
السعودية	1944	رأس تنورة	7 *	1195	8	1.745	+ 46 %
الكويت	1953	الشعيبة	3	634	3	773	+ 22 %
قطر	1954	مسيعيد	1	56	2	58	+ 4 %
الإمارات	1976	أم النار	3	185	5	515	+ 178 %
عمان	1982	الفحل	1	48	1	85	+ 77 %
الإقليم	-	-	29	3.217	37	5.327	+ 66 %
العالم	-	-	428	40.200	744	81.400	+ 103 %
%	-	-	6.8 %	8.0 %	5.0 %	6.5 %	-

* العدد يشمل مصفاتي ميناء سعود ورأس الخفجي العاملتين في المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية، ومعظم المصادر تضعهما ضمن مصافي الكويت، ولكنهما في الحقيقة تابعتان للسعودية بتقسيم المنطقة المحايدة .

المصدر :

- تواريخ أول مصفاة واسمها من كتاب حوض الخليج والموسوعة الإسلامية (انظر الجدول 1).
- بيانات 2001 من التقرير الأمريكي عن المصافي في العالم (انظر الجدول 6).
- بيانات 1986 من انترناشيونال بتروليوم 1986 العدد 19 ، ص 386- 392 .



الشكل (4) الطاقات التصميمية لمصافي النفط في دول إقليم الخليج العربي لسنة 2001

وفي إقليم الخليج العربي ، وبناء على بيانات الجدول رقم (3)، يمكن استخلاص النقاط التالية حول صناعة تكرير النفط الخام فيه:

1 - كانت العراق أولى دول إقليم الخليج العربي في تكرير النفط، وكان ذلك عام 1927، حيث أقيمت مصفاة الدورة جنوب بغداد وما تزال تعمل، في حين كانت سلطنة عمان آخر الدول الخليجية في إقامة مصفاة للنفط في ميناء الفحل بمسقط، كان ذلك في عام 1977 أي بعد مرور أكثر من نصف قرن على إقامة أول مصفاة في الإقليم، ويعزى ذلك التأخير إلى كون عمان آخر الدول اكتشافا وإنتاجا للنفط.

وكانت البحرين أولى دول مجلس التعاون الخليجي، وأهمها في شأن تكرير النفط لفترة طويلة.

2 - أن جميع الدول الخليجية الثماني بها مصافٍ لتكرير النفط، يبلغ عددها الإجمالي 37 مصفاة، تأتي إيران في المرتبة الأولى من حيث عدد المصافي؛ إذ بها 9 مصافٍ، أقدمها مصفاة عبادان ، وتأتي العراق والسعودية بعد ذلك، و في كل واحدة منهما 8 مصافٍ، ومصفاة رأس تنورة تُعَدُّ الأقدم في السعودية ، وهي الواقعة على الساحل الشرقي للسعودية حيث أنشأتها شركة أرامكو عام 1944 في قلب المنطقة النفطية للدولة ، و تمتلك كل من البحرين وعمان مصفاة واحدة .

3 - أما من حيث المواقع الجغرافية لمصافي النفط في دول إقليم الخليج العربي فإنها تقع إما على السواحل كمصفاة عبادان وسترة ورأس تنورة وينبع ومسيعيد والأحمدي والرويس والفحل وغيرها ، وهي غالبا ما تصدر أكثر منتجاتها إلى الخارج، أوأنها تقع بالداخل كالدورة وبيجي (الشمال) وصلاح الدين العراقية، وكذلك شأن مصافي طهران وأصفهان والرياض وخانقين التي غالبا ما تسوق منتجاتها إلى الأسواق المحلية، (الشكل رقم 4) .

4 - تختلف الطاقات التصميمية لمصافي الخليج، فمعظمها (22 مصفاة من 37) ذات طاقات تتعدى 100 ألف برميل يوميا، خاصة تلك التي في السعودية والكويت وإيران والبحرين، في حين معظم المصافي العراقية صغيرة. والجدول رقم (5) يبين ترتيب أكبر عشرمصافٍ في إقليم الخليج من حيث الطاقات التصميمية في عام 2004، اعتمادا على بيانات منظمة الأوبك ، حيث يتضح أن أكبر مصفاة هي مصفاة رأس تنورة السعودية بطاقة 525 ألف برميل يوميا ، تليها مصفاة ميناء الأحمدي في الكويت بطاقة 466 ألف برميل، والثالثة هي عبدان الإيرانية بطاقة 400 ألف برميل وتتساوى معها مصفاة ينبع السعودية. والطاقات التصميمية للعشر الكبرى تصل إلى حوالى 3.5 مليون برميل يوميا، أي بنسبة 60 % تقريبا من الطاقات التصميمية الإجمالية لمصافي إقليم الخليج السبع والثلاثين ، في حين أن مصفاة بيجي (الشمال) هي

الكبرى في العراق بطاقة تصميمية تبلغ 150 ألف برميل (OPEC Annual Statitical Bulletin 2004)

الجدول رقم (4) المصافي العشر الكبرى من حيث الطاقات التصميمية

في دول إقليم الخليج العربي 2004

الترتيب	المصفاة	الدولة	الطاقة التصميمية (ألف برميل يوميا)
1	رأس تنورة	السعودية	525
2	ميناء الأحمدي	الكويت	466
3	عبادان	إيران	400
4	ينبع (تصدير)	السعودية	400
5	رابغ	السعودية	370
6	حبيل	السعودية	313
7	سترة	البحرين	280
8	ميناء عبدالله	الكويت	270
9	أصفهان	إيران	265
10	ينبع (محلي)	السعودية	235

المصدر : OPEC، Annual Statistical Bulletin 2004 ، pp . 75 -85.

(5) إن إنتاج دول الخليج من تكرير النفط كان 3.22 ملايين برميل يوميا عام 1986، وارتفع إلى 5.33 ملايين برميل يوميا في عام 2001 أي بنسبة زيادة بلغت حوالى66 % خلال 15 عاما . ويتضح كذلك أن إيران والإمارات هما أكثر الدول نموا في الطاقة التكريرية خلال الخمس عشرة سنة هما إيران ودولة الإمارات بنسبة زيادة تصل إلى 180 % عن إنتاج عام 1986 ، حيث قامتا ببناء مصاف جديدة مكنتهما من زيادة أكبر في إنتاج هذه المنتجات المهمة ، وعلى العكس من ذلك نجد أن قطر والكويت لم تشهدا نموا في الإنتاج إلا بنسب ضئيلة ، بل ينعدم النمو تماما في البحرين. وبصورة عامة، فإن نسبة إجمالي إنتاج دول الخليج الثماني من الإنتاج العالمي من المنتجات المكررة تساوي 6.5 % في عام 2001 في حين أنها كانت حوالى 8 % عام 1986، وهذا مدعاة إلى القول إن النمو الذي شهدته صناعة تكرير النفط في دول الإقليم أقل سرعة من أطراف أخرى في العالم ، والحالة كذلك في عدد المصافي في السنتين، 1986 و2001 .

6) أما عند المقارنة بين دول إقليم الخليج ، فإن السعودية هي الكبرى حيث تنتج

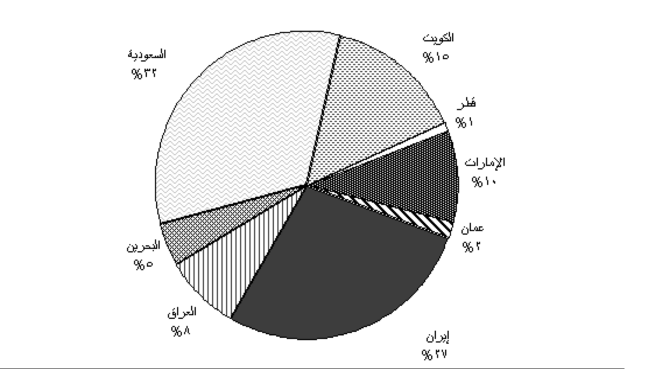
حوالى 1.8 مليون برميل يوميا، وهو ما يمثل حوالى 20 % من إنتاجها النفطي عام 2001، وتأتي إيران في المرتبة الثانية بطاقة تكريرية تصل إلى حوالى 1.5 مليون برميل يوميا بنسبة 29 % تقريبا من إنتاجها النفطي الخام ، وتأتي الكويت في المرتبة الثالثة بإنتاج حوالى 770 ألف برميل يوميا أي بنسبة 37 % من إنتاجها من الخام، أما قطر وعمان فهما أصغر الدول الخليجية من حيث حجم التكريرحيث أنتجتا عام 2001 حوالى 58 و85 ألف برميل يوميا على التوالي (الشكل رقم 5). ولكن عند المقارنة بين نسبة ما يكرر من النفط الخام المنتج إلى نسبة ما ينتج منه فتأتي البحرين في المرتبة الأولى بإنتاجها حوالى 250 ألف برميل يوميا، أي ما يساوي حوالى ستة أمثال إنتاجها المحلي من الخام في حين الجزء الأكبر من الخام يأتي من السعودية حيث تكرر لحسابها، مما يعني أن هذه الدولة كانت الأولى في الإقليم التي رسمت سياسة تصنيع البترول ليس للاستهلاك المحلي، بل بهدف التصدير في المقام الأول لما يحقق ذلك لها قيمة إضافية لاقتصادها بديلا عن إنتاج النفط المتواضع بها مقارنة ببقية دول الخليج الأخرى. ومن باب التحقق ما إذا كانت دول الإقليم متجهة نحو تصنيع نفطها الخام، كان ينبغي معرفة نسبة ما يكرر إلى ما ينتج من النفط، لأن النمو المطلق الذي تحقق كما بينته الدراسة ، في جزء سابق، لا يكفي للتأكد من حقيقة التوجه، فكان من المنطقي مقارنة ما يكرر مع النفط الخام المنتج محليا. لذا تم اختيار عامين وهما 1986 و2001 وبفارق زمني 15 سنة لتحليل بياناتهما للوصول إلى النتيجة، فكان الجدول رقم (5) الذي يوضح بصورة عامة أن نسبة ما تم تكريره من النفط في عام 1986 كان أكبر من نسبة ما تم تكريره عام 2001 ، فقد انخفضت النسبة من 26.5 % تقريبا إلى حوالى 24 % من إجمالي النفط المنتج في السنتين. وفطريا يتضح أنه باستثناء البحرين، فإن كلا من إيران والإمارات دون غيرهما من دول الإقليم شهدتا نموا حقيقيا في تصنيع النفط ، ولكن بنسب صغيرة وهي 10 % و 7 % تقريبا على التوالي، ففي إيران، على سبيل المثال، ارتفعت نسبة النفط المكرر من إجمالي النفط الخام بها من حوالى 29 % إلى 39 % تقريبا، وقد يكون ازدياد

الحاجة المحلية من المشتقات النفطية سببا رئيسا لهذا النمو، وخاصة في ظل الحظر الجزئي المفروض عليها. وعلى عكس حالة إيران هذه ، فإن النسبة انخفضت كثيرا في دولة مثل الكويت من حوالى 47 % إلى 37 % تقريبا على الرغم ممّا يعرف عنها بأنها قد أرست خططا نحو المزيد من تكرير نفطها لتزويد محطات التوزيع التي تملكها في أوروبا وغيرها، (الشكل رقم6). وبصورة عامة، فإن إنتاج دول الخليج الثماني مجتمعة من المنتجات المكررة مثل 24 % فقط من الإنتاج الكلي لها من النفط الخام المنتج عام 2001 ، وتُعَدُّ هذه النسبة منخفضة، وهي دليل على عدم اهتمام دول الخليج الكبيرفيما عدا البحرين والكويت بتصنيع النفط بدلا من تصديره خاما، وبالمقارنة مع دولة مصدرة للنفط وعضو في منظمة أوبك وهي فنزويلا ، فقد أنتجت حوالى 2.3 مليوني برميل يوميا من النفط الخام، وكررت منه حوالى 1.2 مليون برميل أي بنسبة 52 % وتستهلك منه حوالى 430 ألفا وتصدر الباقي وهو 800 ألف برميل إلى الأسواق الدولية (298- 291 : International 1994).

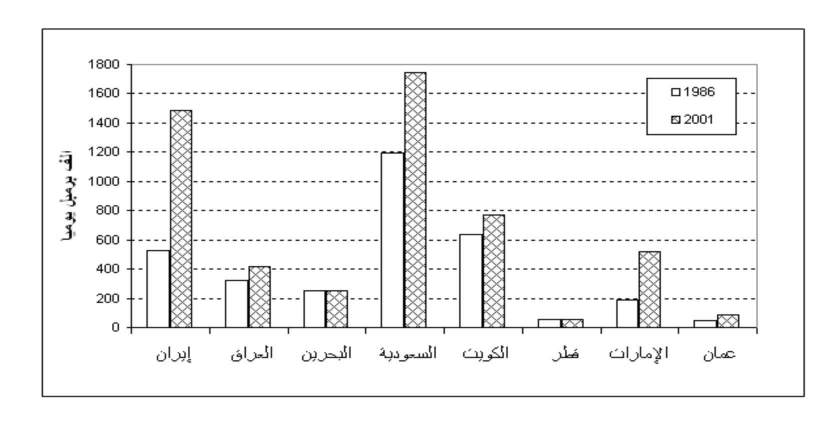
الجدول رقم (5) مقارنة بين نسبة النفط المكرر إلى النفط الخام المنتج في دول الخليج بين عامي 1986 و2001

الدولة	إنتاج النفط الخام 1986 مليون برميل يوميا	حجم التكرير 1986 ألف برميل يوميا	نسبة المكرر إلى المنتج % عام 1986	إنتاج النفط الخام 2001 مليون برميل يوميا	حجم التكرير 2001 ألف برميل يوميا	نسبة المكرر إلى المنتج % عام 2001
إيران	1.806	530	29.4	3.804	1.484	39.0
العراق	1.788	319	17.8	2.452	418	17.1
البحرين	0.044	250	568	0.043	249	579
السعودية	4.883	1195	24.5	8.871	1.745	19.7
الكويت	1.365	634	46.5	2.117	773	36.5
قطر	0.332	56	16.9	0.864	58	6.7
الإمارات	1.374	185	13.5	2.566	515	20.7
عمان	0.541	48	8.9	0.964	85	8.8
المجموع	12.133	3.217	26.5	22.181	5.327	24.0

المصدر : بيانات الجدولين رقم (2) ورقم (4)



الشكل رقم (5) التوزيع النسبي للنفط المكرر في دول إقليم الخليج العربي عام 2001



الشكل رقم (6) إنتاج النفط المكرر في دول إقليم الخليج العربي عامي 1986 و2001

ومن جانب آخر، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تقوم بتكرير جميع إنتاجها من النفط والذي يصل إلى حوالى 9 ملايين برميل يوميا، وتضيف إليه نفطا مستوردا بالكمية نفسها تقريبا. وتقدم دولة سنغافورة نموذجا آخر، فهي دولة نامية لا تنتج النفط ولكنها تقوم بتكرير ما يقارب 1.3 مليون برميل يوميا لتغطية حاجاتها، واستفادت من موقعها الجغرافي في تزويد أسواق إقليمها بهذه المنتجات النهائية المهمة. والجدول رقم (6) يشير إلى نماذج أخرى من الدول النامية ككوريا الجنوبية

والهند، والمتقدمة كألمانيا وفرنسا واليابان التي تعنى بصناعة النفط، هذه الصناعة التي تؤدي إلى تحقيق إنتاج دائم لمشتقات نفطية غاية في الأهمية للحياة اليومية في جميع الدول، وبأسعارمناسبة تفرق كثيرا عن أسعار النفط الخام.

الجدول رقم (6) أكبر دول العالم في تكرير النفط ومصدر المادة الخام 2001

المركز	الدولة	عدد المصافي	حجم التكرير مليون برميل يوميا	حجم إنتاج النفط الخام محليا مليون برميل يوميا
1	الولايات المتحدة	153	16.8	8.1
2	روسيا	42	5.4	7.3
3	اليابان	35	4.8	00
4	الصين	95	4.5	3.3
5	كوريا ج.	6	2.6	00
6	ألمانيا	17	2.3	0.09
7	إيطاليا	17	2.3	0.08
8	الهند	17	2.1	0.73
9	كندا	21	1.9	2.7
10	فرنسا	13	1.9	0.04
*	سنغافورة	3	1.3	00

* ليست في هذا الترتيب ، إنما تم اختيارها؛ لبيان حالة خاصة مقارنة مع دول الخليج

المصدر: EIA، International Energy Annual Report 2001، PP : 62- 64

فالبيانات الصادرة عن وزارة الطاقة الأمريكية الخاصة بأسعار النفط الخام بالمقارنة مع أسعار المنتجات النفطية تبين أن متوسط أسعار النفط الخام في عام 1981، على سبيل المثال، بلغ حوالى39 دولارا للبرميل (42 جالونا) في حين كان الجالون الواحد من المنتجات يباع في المتوسط بحوالى 135 سنتا أي 57 دولارا للبرميل بأقل تقدير(International،287)، حيث تتفاعل عوامل الإنتاج المختلفة في تحقيقها مقارنة مع أسعار النفط الخام التي تشهد تذبذبات كبيرة بين40 دولارا للبرميل وأقل من 10

دولارات كما حدث بين بداية الثمانينات ومنتصفها، وفي فترات لاحقة من التسعينات وبداية الألفية الثالثة.

من ناحية أخرى، تشير بعض مصادر البيانات المتعلقة بصناعة النفط أن إيران والعراق تنخفض فيهما نسبة استغلال الطاقات التصميمية لمصافيها، فهي بين 72 % و86 % على التوالي لأسباب سياسية وأخرى فنية، مما يعني تكلفة أعلى للمخرجات النهائية، في حين تشير المصادر نفسها إلى تفوق واضح لعمان في استغلال الطاقة التصميمية لمصفاتها الوحيدة حيث تصل إلى 98 % (Arab oil: 313).

استهلاك المنتجات النفطية في دول الإقليم: أما بخصوص استهلاك المنتجات النفطية في دول الإقليم، فإن الجدول رقم (7) يبين جوانب من ذلك:

فجميع الدول الخليجية فيما عدا العراق، مكتفية ذاتيا من المنتجات النفطية من الناحية الكمية، ولكن قد تحتاج في فترات معينة إلى منتجات خفيفة أخرى فتقوم باستيرادها. وبصورة عامة، فإن حوالى 60 % من المنتجات المكررة في الخليج في عام 2001 البالغة حوالى 5.3 ملايين برميل يوميا تستهلك محليا، أي إن المصدر منها لا يتعدى 2.1 مليوني برميل يوميا، وهذا يمثل حوالى 11 % من إجمالي صادرات دول الخليج من النفط الخام ومشتقاته معا البالغ حوالى 19 مليونا يوميا، هذه النتيجة تؤكد أن صناعة تكرير النفط قاصرة بالدرجة الأولى على الأسواق المحلية لسد حاجاتها ومتطلباتها من هذه المواد المهمة.

إن البحرين والكويت هما أكثر الدول الخليجية في تبني فكرة تصنيع الخام قبل تصديره، فالبحرين لا تستهلك من منتجاتها إلا 1 % والكويت 24 % تقريبا، و تقوم البحرين، على سبيل المثال، بتصدير 35-40 % من منتجاتها المكررة إلى دول شبه القارة الهندية، و25-30 % إلى دول الشرق الأقصى، و20-25 % إلى دول الخليج الأخرى (Arab Oil: 73). ولدولة الكويت ممثلة في شركة النفط الكويتية تجربة يجب أن تذكر حيث إنها بدأت منذ عام 1983 بإنشاء مصاف في أوروبا (في إيطاليا وبلجيكا)، وكذلك في آسيا (في تايلند والصين والهند وباكستان)، وأنشأت بالتعاون مع شركائها

الأوروبيين محطات خدمة لبيع المنتجات بلغ عددها 5785 محطة في أكثر من عشر دول أوروبية تسوق فيها حوالى 225 ألف برميل يوميا (Arab Oil: 232 -235)

وتختلف الدول الخليجية ، من ناحية أخرى، في نصيب الفرد من استهلاك المنتجات النفطية، ويعود ذلك لعدة أسباب مثل: نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي وتنوع الوضع الاقتصادي والتنموي والحضري، وكذلك اتساع البلاد وموقعها الجغرافي وغيرها ، فمتوسط استهلاك الفرد مرتفع كثيرا في الكويت يصل إلى حوالى 28 برميلا سنويا، وينخفض كثيرا في إيران وعمان إلى حوالى 7 براميل للفرد سنويا، في حين المتوسط العام لنصيب الفرد في المنطقة من حيث استهلاك المنتجات النفطية يبلغ حوالى 10 براميل للفرد سنويا، ومن المتوقع ارتفاع استهلاك الفرد في كل من إيران والعراق ، وذلك بسبب التنمية التي تخططان لها، وكذلك بسبب النمو السكاني بهما.

الجدول رقم (7) استهلاك المنتجات النفطية المنتجة في دول الخليج 2001

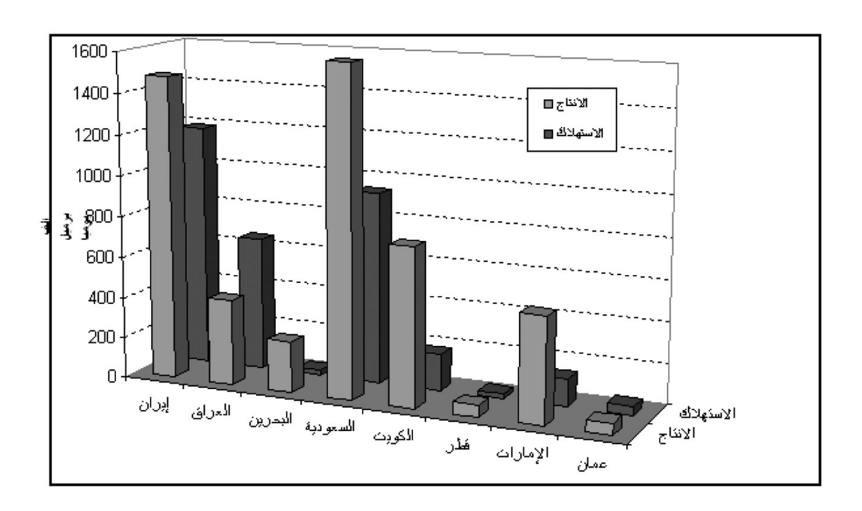
الدولة	إجمالي الإنتاج (ألف برميل يوميا)	كمية الاستهلاك المحلي ألف برميل يوميا	النسبة المئوية للاستهلاك المحلي %	عدد السكان مليون نسمة 2001	نصيب استهلاك الفرد (برميل سنويا)
إيران	1.484	1.189	80.1	64.6	6.7
العراق	418	655	157	23.6	10.3
البحرين	249	22	8.8	0.7	12.3
السعودية	1.645	937	57	20.8	16.4
الكويت	773	177	22.9	2.4	28.4
قطر	58	24	41.4	0.6	14.7
الإمارات	515	135	26.2	3.3	14.9
عمان	85	45	52.9	2.6	6.6
الإجمالي	5.327	3184	59.8	118.6	9.8

نسبة الاستغلال ونصيب الفرد من حساب الباحث.

المصدر : بيانات المصافي النفطية من منظمة الأوبك والأوابك منقولة من :

Arab oil and gas directory. 2002 ، أما بيانات السكان فمن :

Population Reference Bureau 2001 and others



الشكل رقم (7) مقاربة بين إنتاج المنتجات المكررة واستهلاكها

في دول إقليم الخليج العربي عام 2001

خامسا: الطلب العالمي والمحلي على المنتجات النفطية المكررة ومستقبلها في إقليم الخليج:

يقول أحد الخبراء: (إن الطلب على المشتقات النفطية يتوقف على التطورات التي تحدث في المجالات التقنية والاقتصادية والسياسية، ولكن الطلب عليها يزداد بشكل كبير في الحالات الطارئة) (مجلة النفط: 153). وبالفعل، تؤكد التقارير الاقتصادية النمو الاقتصادي في الصين خلال السنوات القليلة الماضية:

1 - أنه قد أدى بالطلب الصيني على النفط ومشتقاته إلى الارتفاع من حوالى 5 ملايين برميل يوميا سنة 2002 ليصل إلى أكثر من 6.2 ملايين سنة 2004 أي بمعدل زيادة 25 % خلال سنتين.

ومن المتوقع أن ينمو الطلب إلى حوالى 16 مليونا بحلول عام 2025، ونصف هذه الكمية سيكون من المستوردات (تقرير هيئة الإذاعة البريطانية،2004).

والهند القريبة جدا جغرافيا من إقليم الخليج العربي، تشهد هي الأخرى نموا اقتصاديا واجتماعيا وحضريا وعمرانيا متسارعا لم تشهده من قبل، فالإنتاج القومي نما فيها في السنوات الماضية، ومن المتوقع أن يستمر النمو بمعدلات تصل إلى أكثر من 8 % تقريبا في ثلاث سنوات مضت من الألفية الثالثة، مما يعني نمو إجمالي الناتج القومي، ومن ثَمَّ ارتفاع نصيب الفرد الهندي، و تشير التقاريرأيضا أن هناك نموا كبيرا بخصوص تملك الأفراد للسيارات، وخاصة الجديدة منها، فعلى الرغم من أن المتوسط كان بين 7 و8 سيارات لكل ألف من السكان حتى وقت قريب، نرى أنه خلال السنوات الأخيرة ارتفع المعدل بنسبة 23 % (الجزيرة نت).

وفي جهة أخرى من العالم، فإن الولايات المتحدة الأمريكية التي لا يزيد عدد سكانها على 286 مليون نسمة (سنة 2001)، تستهلك وحدها حوالى 20 مليون برميل يوميا من النفط، أي ربع الإنتاج العالمي، وبما أنها لم تنشئ منذ منتصف السبعينات مصفاة واحدة جديدة بسبب القوانين البيئية الصارمة المحلية والفيدرالية، فإنها تعتمد كثيرا على النفط المستورد من بينها بين مليون إلى مليونين من المنتجات النفطية لتلبية الحاجات المتزايدة مما يعني تأثرها كثيرا بزيادة أسعار النفط، فقد بلغت قيمة فاتورة المشتقات النفطية 32 مليار دولار عام 2003 مقابل 201 مليار عام 2004 وذلك للتسعة أشهر الأولى فقط من العامين، وذلك بسبب ارتفاع أسعارهذه المواد الحيوية، لارتباطها الوثيق بأسعار النفط الخام المرتفعة (خدوري 2004 :42).

أما في دول إقليم الخليج العربي، فإن السوق فيها يتسم بعدة خصائص حالية ومستقبلية من بينها: النمو الكبير والمستمر للأحجام السكانية، بالإضافة إلى التطورات النوعية في الحياة الاقتصادية والعمرانية والحضرية وغيرها. وفي الوقت نفسه، تجاور الإقليم لدول تتميز أسواقها بالطلب المتزايد على الطاقة في المستقبل ومن بينها على سبيل المثال الهند وباكستان وتركيا ودول بلاد الشام ومصر وغيرها (الجدول: 10)، وهي كذلك محدودة في إنتاجها النفطي واحتياطيه، ومحدودة في تكريرها له. لذلك، فإن دول إقليم الخليج، وخاصة دول مجلس التعاون الخليجي،

أقدر من غيرها على توفير الطاقة المطلوبة؛ لما تتمتع بها من مزايا نسبية مرتبطة بالنشاط النفطي، تؤدي ، بكل تأكيد ، إلى تميزها وتفوقها في إنتاج المزيد من المنتجات النفطية وبأسعار تنافسية، كما بينتها هذه الدراسة في مواضع سابقة.

الجدول رقم (8) يبين النمو السكاني المتوقع، استنادا إلى بيانات صندوق السكان التابع للأمم المتحدة، أنه بحلول عام 2025 سيصل إجمالي سكان الدول الثماني لإقليم الخليج العربي إلى حوالى 187 مليون نسمة، أي بنسبة زيادة تصل إلى أكثر من 50 % عما كان عليه الوضع عام 2001، وهذا يعني زيادة الطلب على المشتقات النفطية من حوالى 3.2 ملايين برميل يوميا إلى حوالى 5.3 ملايين، ومن المتوقع أن الطلب سيكون أكبر إذا ما استند بالقياس إلى معايير أخرى قائمة فعلا كالنمو الاقتصادي والحضري. فحري بدول الخليج أن تخطط لبناء المزيد من المصافي قبل أن يصبح كثير منها في موقف صعب بحلول عام 2025؛ حيث من المتوقع أن يستهلك كل المنتج من المشتقات محليا، وكنتيجة سوف تنخفض نسبة الصادرات منها، ومن ثَمَّ يتسبب الدعم المتوقع الذي سوف تقدمه جميع دول الإقليم لهذه المادة الحيوية في استنزاف المزيد من ميزانيات الدول ، في حين أن التصدير للخارج حاليا في معظم دول الخليج، كما هو الحاصل اليوم، هو الذي يعمل على تخفيف الأعباء نتيجة للدعم المقدم.

الجدول رقم (8) تقديرات الطلب على المنتجات المكررة في دول الإقليم عام 2025

الدولة	حجم التكرير 2001 (ألف برميل يوميا)	الاستهلاك المحلي 2001 (ألف برميل يوميا)	% من التكرير المحلي	السكان 2001 (مليون نسمة)	السكان 2025 (مليون نسمة)	الطلب على التكرير 2025 ألف برميل يوميا (تقدير)
إيران	1.484	1189	80.1	64.6	90.8	1671
العراق	418	655	100	23.6	41.1	1165
البحرين	249	22	8.8	0.7	1.7	53
السعودية	1.745	937	53.7	20.8	40.1	1806
الكويت	773	177	22.9	2.4	3.8	288
قطر	58	24	41.4	0.6	0.8	32
الإمارات	515	135	26.2	3.3	3.8	163
عمان	85	45	52.9	2.6	5.3	99
المجموع	5.327	3.184	43	118.6	187.3	5.277

من إعداد الباحث بناء على :

المصدر :

1) بيانات السكان : Population Reference Bureau، 2001، World Pop. Data Sheet

2) بيانات الطلب على المنتجات المكررة :World Energy Annual Report. 2001

وإذا ما انتقلنا إلى معرفة وضع الطلب في الدول المجاورة لإقليم الخليج، وأخذنا في الاعتبار كذلك عنصرا واحدا وهو النمو السكاني ، فإن الجدول رقم (9) يوضح ما لا يدع مجالا للشك تنامي الطلب على المنتجات النفطية مستقبلا في هذه الدول المجاورة للخليج، فالبيانات تشير إلى أن نموا كبيرا سوف تشهده هذه الدول في الزيادة السكانية، فمن المتوقع أن يزيد السكان من حوالى 1.4 مليار نسمة في عام 2000 إلى حوالى 1.9 مليار عام 2025. لذا، فإنه من المتوقع أيضا أن يزداد الطلب على المنتجات البترولية ليصل إلى حوالى 6.4 ملايين برميل يوميا بأقل تقدير مقارنة مع 4.5 ملايين عام 2001 .

وعلى ذلك كله، يتضح لنا أن الطلب على المنتجات النفطية سوف يكون كبيرا خلال الفترة القادمة حتى نهاية الربع الأول من القرن الحادي والعشرين على المستويين المحلي والإقليمي، حيث تبين من التحليل البسيط الأولي السابق أن الإجمالي على الطلب سوف يصل إلى حوالى 11.6 مليون برميل يوميا بأقل تقدير بحلول عام 2025.

وبما أن دول الخليج تمتلك من المقومات التي تتطلبها هذه الصناعة وبمزايا نسبية متفوقة مقارنة مع غيرها لأسباب جغرافية، وخاصة الموقع، أو اقتصادية كتوافر السيولة المالية، أو رخص تكلفة الطاقة والمادة الخام، أو بشرية حيث أحجام الأسواق المتواضعة نسبيا. فالسؤال الأخير الذي يحتاج إلى إجابة في هذا البحث: ماذا في جعبة دول الخليج من تخطيط لهذه الصناعة الحيوية ؟ .

الجدول رقم (9) تقديرات الطلب على المنتجات المكررة في دول الجوار الخليجي عام 2025

الدولة	عدد المصافي 2001	الطلب 2001 ألف برميل يوميا	السكان 2000 مليون نسمة	السكان 2025 مليون نسمة	تقدير الطلب 2025 ألف برميل يوميا
الهند	17	2.200	1.002	1.363	3.200
باكستان	3	240	151	227	370
تركيا	6	720	65	88	1.000
مصر	9	730	68	97	1.100
الأردن	1	90	5	9	150
سوريا	2	242	17	27	400
السودان	3	122	29	46	250
اليمن	2	130	17	38	300
المجموع	43	4.494	1.354	1.895	6.396

من إعداد الباحث بناء على :

المصدر :

1) بيانات السكان : Population Reference Bureau، 2000 World Pop. Data Sheet

2) بيانات الطلب على المنتجات المكررة :World Energy Annual Report 2001

مستقبل تكرير النفط في إقليم الخليج العربي:

لقد دعت الاستراتيجية العامة للتنمية الصناعية في دول مجلس التعاون الخليجي في أحد بنودها، على سبيل المثال، إلى الاستغلال الأنسب للموارد الطبيعية المتاحة والمتمثلة بدرجة رئيسة في النفط والغاز الطبيعي بتصنيعها وزيادة قيمتها (الأمانة العامة، 1998: 4) . وتشير أوراق العمل التي تقدمها الجهات المسئولة في دول إقليم الخليج العربي، وكذلك الدراسات الخاصة بالاستثمارات المالية المتوقعة في مجال تصنيع النفط وتكريره أن دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية لديها خطط لاستثمار حوالى 4396 مليون دولار لإنشاء مصافٍ جديدة أو إجراء تحسينات أو توسعات على المصافي القائمة، وعلى رأسها السعودية باستثمارات تبلغ حوالى 1500 مليــون دولار (Arab Oil،2002: 551) ، أما إيران فقد رصدت الشركة الوطنية NIORDC) المسئولة

عن ذلك 3437 مليـــون دولار للغرض نفسه منذ عـــام 1994 (Arab ،2002:137 -139) . ويتبين أن الدولة الوحيدة من بين دول الإقليم المستثناة حتى كتابة هذا البحث في وضوح خططها بشأن تكرير النفط هي العراق .

وبمراجعة استراتيجيات وخطط الجهات المسئولة عن صناعة النفط في دول إقليم الخليج ، وبمراجعة أوراق العمل التي تقدمها هذه الجهات أو التصريحات التي يدلي بها مسئولو القطاع النفطي، وكذلك الاطلاع على ما يكتبه المهتمون بهذا الموضوع، أمكن للباحث رصد جوانب من الاستراتيجيات والخطط التي تتبناها دول الإقليم في شأن تنمية صناعة النفط بتكريره، والتي يمكن تقسيمها إلى مجموعة من الصور وهي على النحو الآتي:

1 - **إجراء توسعات في المصافي القائمة** : تقوم الدول كافة بين الحين والآخر على إجراء توسعات في المصافي المقامة بإضافة وحدات فرعية، أوإدخال تحسينات على الوحدات القائمة فعلا، كما جرى على سبيل المثال في مصفاة الرويس وأم النار وغيرهما (دولة الإمارات، 1999: 216) ، وكذلك كانت التوجهات الإيرانية خلال فترة الحظر باجراء توسعات في كل من مصفاة عبادان؛ لتصل طاقتها إلى 555 ألف برميل، ومصفاة آراك إلى 300 برميل 139 -Arab.2002:137) .

2 - **إنشاء مصاف جديدة معتمدة على النفط الخام:** معظم دول الإقليم تخطط لإنشاء وبناء مصافٍ جديدة تعتمد على النفط الخام مثل المصافي التي تخطط لها إيران في كل من كرمنشاه وجزيرة قشم ، ومصفاة قطر الثانية في مسيعيد، ومصفاة جديدة في عمان، وفي دولة الإمارات (Arab، 2002) .

3 - **إنشاء مصاف جديدة معتمدة على المكثفات النفطية بدلا من الخام** : تتجة دول من الإقليم وخاصة قطر وعمان، إلى إنشاء مصاف لا تعتمد على النفط الخام

بل تستخدم المكثفات الناتجة من تسييل الغاز الطبيعي كمادة خام، وذلك بسبب محدودية احتياطيهما من النفط الخام مقارنة مع احتياجهما من الغاز الطبيعي كعمان وقطر. ففي قطر، على سبيل المثال، سوف تنشأ أول مصفاة لإنتاج المشتقات من المكثفات في مدينة رأس لفان الصناعية بطاقة 140 ألف برميل يوميا حيث من المنتظر بدء الإنتاج فيها في أواخرعام 2005 (التنمية الصناعية في قطر، 2001: 62).

4 - **استمرار إنشاء مصاف مشتركة في خارج الإقليم :** كانت السعودية أولى دول المنطقة في إنشاء مصاف مشتركة في دول أخرى كالسودان ولبنان وماليزيا وأسبانيا (شقلية،1984 : 324-325)، وتدرس السعودية توسيع استثماراتها وتعتزم إنشاء 4 مصافٍ مشتركة في كل من الصين وكوريا الجنوبية واليونان والفلبين لإنتاج حوالى845 برميل يومياً ، حصتها فيها تمثل في المتوسط حوالى 33 % بناء على ورقة عمل قدمت في المؤتمر الثامن للطاقة العربية (Arab.2002: 377).

5 - **دعوة القطاع الخاص الوطني أو الأجنبي بالدخول في هذه الصناعة:** بدأت دول الخليج منذ فترة وجيزة بفتح باب صناعة تكرير النفط للقطاع الخاص الوطني أو الأجنبي بعد أن كانت هذه الصناعة حكرا على الحكومات لما كانت تمثله هذه الصناعة من أهمية قومية تحقق أهدافا للمجتمع ليست اقتصادية فحسب، إنما أمنية كذلك. فعمان سمحت بإنشاء أول مصفاة يمتلكها القطاع الخاص كأول حالة في الإقليم، وكذلك اتخذت إيران قرارا بالسماح لشركات خاصة وطنية وأجنبية بإقامة مصاف تنتج حوالى 300 ألف برميل يوميا لسد الاحتياجات المتزايدة. في حين أن السعودية عازمة على إنشاء مصفاة في رابغ بطاقة 400 ألف برميل، وطرح جزء من أسهمها على القطاع الخاص السعـــــودي، إضافة إلى شركاء أجـــــانب. وفي إمارة الشارقة أكثر من مصفاة؛ لتكريـــــر النفط بملكية خاصة تقع في ميناء الحمريـــة .

الجدول رقم (10) ملخص بأهم المشروعات المستقبلية لصناعة التكرير

في دول إقليم الخليج العربي

الدولة	المشروع	الاستثمارات التقديرية
إيران	توسعات في مصفاة عبادان إلى 550 ألف برميل توسعات في مصفاة آراك إلى 300 ألف برميل مصفاة جديدة في كرمنشاه إلى 225 ألف برميل مصفاة جديدة في جزيرة قشم بطاقة 120 ألف برميل	3437 مليون دولار
العراق	لا يوجد	-
البحرين	تجديدات في المصفاة القائمة	600 مليون دولار
السعودية	مصفاة في مدينة رابغ للتصدير : 400 ألف برميل	1500 مليون دولار
الكويت	تجديدات وتوسعات في المصافي الثلاث القائمة	126 مليون دولار
قطر	إنشاء مصفاة ثانية في مدينة مسيعيد مصفاة في مدينة راس لفان 140ألف برميل يوميا	400 مليون دولار
الإمارات	توسعات في مصافي أبو ظبي (أم النار و الرويس) مصفاة جديدة في الشارقة (الحمرية)	900 مليون دولار
عمان	مصفاة جديدة في صحار	870 مليون دولار

وإذا ما نفذت دول الخليج خططها تلك أو غيرها، تكون قد حققت أهدافا اقتصادية واجتماعية وأمنية، وأحسنت التصرف في مواردها الناضبة حتما في يوم من الأيام مهما طالت أعمار بقائها .

ومما يؤكد ضرورة توجه دول الخليج إلى تصنيع نفطها تلك الفروق الكبيرة في معظم الأحيان بين سعر النفط الخام ومنتجاته، واستعان الباحث لهذا الغرض بالبيانات الخاصة بالأسواق الأمريكية والصادرة عن جهات وإدارات مسئولة عن الطاقة فيها ، فعندما كان سعر الخام في المتوسط في عام 1991 حوالى 17.82 دولارا للبرميل ، كان متوسط أسعار المشتقات حوالى 1.20 دولار للجالون (أي 50.4 دولارا للبرميل) (International.1994: 287) فالفرق كبير جدا بين متوسط أسعار النفط الخام ومتوسط أسعار المنتجات النفطية في أي سوق. وهذا يعني أن من يصنع نفطه

سيحقق بكل تأكيد قيمة مالية إضافية، وخاصة أن الطلب على منتجاته ومشتقاته ينمو بشكل كبير في المناطق المجاورة لإقليم الخليج العربي .

الخاتمة :

توصل البحث إلى نتائج عديدة من أبرزها:

1 - إن إقليم الخليج العربي ظل فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وما يزال، الإقليم الأهم من حيث النشاط النفطي على الرغم من ظهور منافسين جدد خاصة دول إقليم بحر قزوين ، نلاحظ أن الإمكانات التي يزخر بها الإقليم كبيرة جدا، ورغم مرور أكثر من 90 عاما على بداية الإنتاج النفطي ، فعمليات الكشف مستمرة وتسجل أرقاما جديدة في احتياطيه ومن المتوقع أن يعزز كل ذلك مكانة المنطقة لعشرات السنين.

2 - تعد دول الخليج من الدول المصدرة للنفط الخام، حيث تعد الإقليم الأهم في العالم من حيث كمية التصدير ، على الرغم من انخفاض الكمية مقارنة بالسبعينات، نجد أنها تمثل حوالى 25 % من كمية النفط المصدر عالميا في عام 2001، وتعد السعودية أكبر دولة في العالم حيث تصدركمية تزيد على سبعة ملايين برميل يوميا. وتغيرت مع الوقت الخريطة الجغرافية لصادرات دول الإقليم من نفطها، حيث كانت أوروبا الغربية قد انفردت باستيرادها كميات أكبر لعقود سابقة عديدة، ولكن الوضع الحالي يشير إلى تنامي اعتماد دول شرق آسيا على نفط الخليج؛ حيث اليابان وكوريا الجنوبية والصين تأتي على رأس القائمة.

3 - إن جميع دول إقليم الخليج العربي بها مصافٍ لتكرير النفط، وإن المصافي الأولى ظهرت في وقت مبكر من بدايات اكتشاف النفط في الدول الست الأولى، وقد كانت بطاقات تصميمية وإنتاجية متواضعة، ولكن صناعة التكرير تأخرت في آخر دولتين تنتجان النفط، وهما: الإمارات وعمان؛ حيث أنشئت وحدات التكرير بعد 15 سنة من بداية الإنتاج النفطي بهما. وأول المصافي أنشئت في إيران عام 1928، والبحرين كانت أولى دول مجلس التعاون، وذلك في سنة 1936 أي بعد 3 سنوات تقريبا

من إنتاجها النفطي .

4 - يبلغ عدد المصافي في دول الخليج 37 مصفاة، تكرر حوالى 5.3 ملايين برميل يوميا أي ما نسبته 24 % من الإنتاج الإجمالي من النفط الخام بالإقليم، ولا تمثل الكمية التي تكررها الدول، فيما عدا البحرين، إلا نسبا صغيرة من إنتاجها النفطي الخام ، فقطر تكرر فقط 7 % تقريبا من إنتاجها النفطي يوميا، و9 % في الإمارات والعراق 17 % وترتفع في الكويت لتصل إلى حوالى 37 % كثالث أكبر دولة.

5 - تقع مصافي دول الخليج على سواحلها البحرية وبالداخل، ومعظمها، وخاصة الكبيرة ، هي الساحلية المنشأة أساسا لتصدير منتجاتها إلى الأسواق العالمية التي تستقبل حوالى 60 % من إنتاج المكررات بالإقليم ، وتأتي البحرين والكويت في مقدمة الدول الخليجية في نسبة ما تصدره من منتجاتها النفطية المكررة، والنسبة القليلة تستهلك محليا.

6 - اتسم النمو في تصنيع النفط بالبطء على الرغم من مرور زمن طويل ، ففي الفترة من 1986 -2001 كان معدل النمو السنوي حوالى 4.4 % رغم إمكانات هذه الدول، في حين انخفضت النسبة في العلاقة بين النفط الخام المنتج والمكرر منه للفترة نفسها بنسبة 2.5 %، في حين أن دولا مثل : سنغافورة وكوريا الجنوبية والهند تحرز تقدما سريعا في صناعة تكرير النفط.

7 - يتوقع ازدياد الطلب المحلي الخليجي والإقليم المجاور له على مشتقات النفط بشكل كبير، فإن سكان دول المنطقة كلها وحسب تقديرات صندوق الأمم المتحدة للسكان، سيزداد من حوالى 1.5 مليارنسمة في عام 2000 إلى حوالى 2.1 مليارين بحلول عام 2025، ناهيك عن المتغيرات الإيجابية المتوقعة لمعظم دول المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وعمرانيا وغيرها. وعليه ، توقعت الدراسة أن الحاجة المحلية إلى دول الخليج والدول المجاورة لها فقط تتراوح بين 11 و 12 مليون برميل من المكررات يوميا بأقل تقدير عام 2025 ، مما يستدعي من دول الإقليم، وهي التي تملك مقومات مميزة لهذه الصناعة الحيوية، التخطيط لتصنيع ما لا يقل عن 50 % من إنتاج النفط الخام بها.

8 - بينت الدراسة أن السعودية والكويت تخوضان تجربة في صناعة تكرير النفط بتوسيع دائرة بناء وتملك المصافي ومحطات التوزيع في خارج أراضيها، فالكويت تمتلك مساهمات وحصصًا في مصافي نفط عالمية تقدر بحوالى 250 ألف برميل يوميا، وتمتلك أيضا 157 محطة توزيع الوقود ببلجيكا وحدها، و550 محطة أخرى في غرب أوروبا الأخرى، و200 محطة توزيع في تايلاند. والسعودية من جانب آخر تمتلك 1.6 مليون برميل يوميا في مصافي العالم في أوروبا وأمريكا وشرق آسيا وتخطط للمزيد وخاصة مع الصين والهند.

9 - تخطط جميع دول الإقليم ، فيما عدا العراق حتى كتابة هذا البحث؛ لتنمية صناعة تكرير النفط على نطاق واسع ، ورصدت مبالغ تصل إلى حوالى 7.8 مليارات دولار لإنفاقها على استثمارات في هذه الصناعة المهمة. واتبعت في سبيل تحقيق ذلك عدة سبل من بينها: إنشاء مصاف جديدة سواء المعتمدة على النفط الخام أو المكثفات الناتجة من الغاز الطبيعي، أوعن طريق إحداث توسعات في المصافي القائمة، أوالتوجه نحو تخصيص هذه الصناعة جزئيا أو كليا، وأخيرا عن طريق إنشاء مصافٍ مشتركة خارج بلادها.

المصادر والمراجع :

أولا : باللغة العربية :

1 - الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الاستراتيجية العامة للتنمية الصناعية ، الرياض، 1998

2 - التنمية الصناعية في قطر ، إدارة التنمية الصناعية بوزارة الصناعة والطاقة ، الدوحة ، 2001

3 - توفيق ، محمود ، جغرافية النشاط الاقتصادي في البحرين ، رسائل جغرافية (137) الجمعية الجغرافية الكويتية ،العدد 137 ، مايو 1990

4 - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، 2000

5 - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي ، إقليم النطاق الجبلي غربي آسيا ، المجلد الخامس ، الرياض ، 1999

6 - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي ، إقليم شبه الجزيرة العربية (القسم الأول) ، الرياض ، 1999

7 - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي ، إقليم شبه الجزيرة العربية (القسم الثاني) ، الرياض ، 1999

8 - جامعة قطر ، موسوعة المعلومات القطرية ، المجلد الجغرافي ، جامعة قطر ، الدوحة ، 1998

9 - الجزيرة نت ،(تقرير اقتصادي عن الهند ونمو دخل الفرد الهندي) ، 2004/7/20

10 - الجميلي ، عاطف محمد ، (النفط العربي : فرص وتحديات المستقبل المنظورللقرن الحادي والعشرين) ، في مؤتمر النفط والغاز في سياسات الأمن الدولي ، مركز زايد للتنسيق والمتابعة ، أبوظبي ، يونيو2002 ، ص ص 67-86

11 - الجهني ، عيد بن مسعود ، (أهمية دول مجلس التعاون الخليجي في سوق النفط الدولية) ، في مؤتمر النفط والغاز في سياسات الأمن الدولي ، مركز زايد للتنسيق والمتابعة ، أبوظبي ، يونيو 2002 ، ص ص 31-41

12 - الحبيب دلالة ، الاقتصاد الصناعي والمجال ، دار سراس للنشر ، تونس 1990

13 - خدوري ، وليد ، ظاهرة أسعار النفط العالمية في عام 2004 ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 310 ، ديسمبر 2004 ، ص ص 43-50

14 - دولة الإمارات العربية المتحدة ، الكتاب السنوي ، وزارة الإعلام والثقافة ، أبوظبي ، 1999

15 - الراجحي ، صالح عبدالله ، " الأوضاع النفطية في جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز" ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد 93 ، أبريل 1999 ، ص ص 149-205

16 - رسول ، أحمد حبيب ، جغرافية الصناعة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1985

17 - الزوكة ، محمد خميس ، جغرافية المعادن والصناعة ، دار الجامعات المصرية ، الإسكندرية،1981

18 - الشافعي ، نظام عبدالكريم ، التنمية الصناعية في قطر والخليج ، الطبعة الثانية ، الدوحة ، 1999

19 - شقلية ، أحمد رمضان ،(صناعة تكرير النفط في المملكة العربية السعودية) ، بحوث المؤتمر الجغرافي الأول ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، 1984 ، ص ص 295-232

20 - صالح ، حسن عبدالقادر ، الموارد وتنميتها ، أسس وتطبيقات على الوطن العربي ، مكتبة محمد جميعان ، عمان ، 2002

21 - قطر للبترول ، التقرير السنوي 2000 ، الدوحة ، 2001

22 - متولي ، محمد ، حوض الخليج العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1980

23 - متولي ، محمد وأبو العلا ، محمود ، جغرافية الخليج ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، 1993

24 - مجلة النفط والتعاون العربي ، " تقرير عن ندوة مواصفات المشتقات النفطية وانعكاساتها على الصناعات ذات العلاقة " ، العدد 107 سنة 2004 ، ص ص 153-156

25 - منظمة الخليج للاستشارات الصناعية ، مصافي تكرير النفط ومعالجة الغاز الطبيعي في دول مجلس التعاون ، الدوحة ، 1994

26 - منظمة الخليج للاستشارات الصناعية ، ملامح الاقتصاد الصناعي في دول الخليج ، الدوحة،2000

27 - منظمة الخليج للاستشارات الصناعية ، ملف الخليج الإحصائي 2003 ، الدوحة ، 2003

28 - المهر ، خضير عباس، اقتصاديات نفط الشرق الأوسط ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، 1984

29 - هيئة الإذاعة البريطانية (القسم العربي) ، تقرير اقتصادي عن الصين بعنوان (العملاق الصيني يغير الحسابات في سوق النفط) ، بتاريخ 2004/5/22

30 - اليوسف ، نورة عبدالرحمن ،(الانتاج من الدول المصدرة للنفط خارج أوبك) ، مجلة النفط والتعاون العربي ، العدد 100 ، 2002 ، ص ص 39-7

ثانيا : باللغة الإنجليزية :

- Alexander، J. and Gibson، L. ، Economic Geography، White Hall Books Ltd.، NewYork، 1979.

- Arab Petroleum Research Center ، Arab oil and gas directory 2002 ، Paris ، 2002.

- EIA (Energy Information Administration)، Country Analaysis Brief، Iran energy oil information، Washington، USA، 2001.

- EIA (Energy Information Administration)، Country Analaysis Brief، Persian Gulf oil & natural gas export information، Washington، USA، 2001.

- EIA، (Energy Information Adminstration)، International Energy Annual 2001، Washington ، USA، 2001.

- International Petroleum Encylopedia، PennWell، Tulsa، USA، 1994.

- Opec Bulletin، Jan/ Feb، 2004، pp. 11- 27.

- Opec، Annual statistical bulletin 2001 and 2004.

- Phlips Concise World New Atlas، England، 1995.

- Petroleum Economist ، Millennium Energy Atlas، Schlumberger، London، 1999 .

- Population Reference Bureau ، World population data sheet 2000 and 2001 .

تملك الأرض ومشكلة الديون وأثرهما في التحول في الأراضي في فلسطين العثمانية 1858-1917م

د. زهير غنايم عبد اللطيف*

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على مشكلة الديون وأثرها في انتقال ملكية الأراضي في فلسطين في نهاية العصر العثماني (1858-1917م) من الفلاحين إلى كبار الملاك والأثرياء من خلال توضيح العوامل المؤثرة في الزراعة سواء العوامل الطبيعية من أمطار وحرارة وأمراض وأوبئة، أو العوامل البشرية كالضرائب ولا سيما العشر والويركو ورسوم الحيوانات. وقد ساهمت هذه العوامل في إفقار الفلاحين؛ لأنهم كانوا يدفعون معظم إنتاجهم للدولة والمرابين والملتزمين والمخمنين والجاندرمة (الشرطة) العثمانية. ولما كان المتبقي للفلاحين؛ من إنتاجهم بعد دفع حصص هؤلاء لا يكفي لسد حاجاتهم المعيشية لجئوا إلى الاقتراض من المرابين والبنوك، ولما كان هؤلاء لا يمنحون القروض إلا بضمان الأراضي اضطر الفلاحون إلى رهن أراضيهم، وعندما كانوا يعجزون عن سداد هذه القروض كانوا يضطرون إلى التنازل عن أراضيهم للتجار وأثرياء المدن من المتنفذين وكبار الموظفين مما أدى إلى انتقال الأراضي من الفلاحين إلى فئة جديدة من الملاك تملك الأراضي ولا تعمل بها.

* دائرة التاريخ – كلية الآداب - جامعة القدس- فلسطين

The Land Ownership and The Debits Problem and Its Impact on Transformation of The Land in Ottoman Rule to Palestine: 1858 – 1917

Dr. Zuhair Ghanaem Abed Al-Lateef

Abstract

The study aims to identify the debit problem and its impact on transferring the ownership of the land in Palestine at the end of Ottoman state rule: (1858 –1917) from farmers to big owners and wealthiest. This will be done thorough identifying the factors which affecting agriculture from both sides: diseases and epidemics, or human forces such as, taxation, and especially ten and Al-Warko animal fees. These factors are mainly having contributed to the impoverishment of peasant. This is because they were paying most of their produce to the state, lenders, Almukhamin (The person who estimate the taxes) and Ghandermh (Ottoman police). As the reminder of the farmer production quotas after all payment above mention, is not sufficient to meet live expenses, they borrowing money from moneylenders and banks. However, when the from moneylenders and banks not granted loans only by ensuring land peasants to mortgage their land, the forced to cede their land to the wealthy merchants cities from the powerful and senior staff when they are unable to repay their loans. This is led to the transition of land from farmers to a new category of land owners has not worked on it.

* *Faculty of Arts-History Department - Al-Quds University-Palestine*

المقدمة

ملكية الأراضي

شكلت الأراضي المشاع (الميري) معظم الأراضي في فلسطين، حتى بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت الدولة هي المالك الفعلي لها، ولكنها سمحت للمزارعين بفلاحتها ولم تسمح لهم ببيعها أو شرائها، وفي مقابل ذلك فرضت عليهم دفع عُشر الإنتاج. كما انتشرت أراضي الوقف والملك الخاص بشكل محدود في المدن والقرى.

قوانين تملك الأراضي

أصدرت الدولة العثمانية في عام 1858م قانون الأراضي الذي نص على تمليك الأراضي الميري وتسجيلها بأسماء الفلاحين القائمين بزراعتها، وكان شرط تمليكها أن يثبت المزارعون أنهم يفلحون هذه الأراضي منذ مدة لا تقل عن عشرة أعوام وأنهم يدفعون الضرائب المقررة للدولة خلال هذه الفترة، إضافة إلى دفع رسوم تسجيل الأرض، وقد عَدَّت الدولة الأراضي المتروكة وتلك التي لم يستطع الفلاحون إثبات أنهم يزرعونها ويدفعون عنها الضرائب المقررة، أراضيَ محلولة تنقل ملكيتها إلى الدولة.

وقد أدى قانون تملك الأراضي الميري إلى تحويل الأراضي إلى سلعة تجارية خاضعة لقانون العرض والطلب، الأمر الذي شجع المزارعين على بيع أراضيهم للتجار والأثرياء والمتنفذين في المدن، وخصوصًا أن الفلاحين كانوا يعانون أوضاعًا مالية سيئة.

وتبع ذلك إصدار قانون تملك الأراضي للأجانب عام 1868م والذي سمحت الدولة العثمانية بموجبه للأجانب شراء الأراضي وتملكها، مما فتح المجال واسعًا أمام رعايا الدول الأوروبية، ولا سيما اليهود منهم، لشراء الأراضي، وترافق ذلك مع بداية

ظهور الحركة الصهيونية التي أخذت تسعى إلى شراء الأراضي وإنشاء المستعمرات؛ اليهودية عليها تمهيدًا لإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين[1].

العوامل المؤثرة في الزراعة:

الظروف المناخية:

تأثرت الزراعة بالظروف المناخية ولاسيما الحرارة والأمطار، بحيث أدت إلى انخفاض الإنتاج الزراعي في بعض السنوات وزيادته في سنوات أخرى، وقد كانت الأمطار غير منتظمة السقوط، فقد تسقط بغزارة في أول الموسم، وتقل في آخره أو العكس، كما أن ارتفاع الحرارة أو انخفاضها كان يؤثر بصورة كبيرة في المحاصيل الزراعية فيؤدي إلى تلفها أو نضجها في وقت مبكر، وقد عبرت صحيفة البشير[2] سنة 1879م عن أثر الأمطار في المحاصيل الزراعية وأسعارها فقالت: «بينما كان الجميع بهاجس عظيم وخوف من جراء الغلاء والضيق الصادرين عن قلة الأمطار وعدم الإقبال بموسم الحبوب في هذه السنة، وإذ بغتة هبت العواصف وهطلت الأمطار ولبثت الأمطار تهطل أيامًا وليالي برمتها، وقد تنازلت أسعار الحبوب وسوقها بارد من قلة الطلب والكل قد علل نفسه بالأمل بموسم جيد»[3].

وفي سنة 1904م تأخر سقوط الأمطار فساءت أحوال الزراعة[4]، إلا أن الأمطار هطلت بغزارة في آخر الموسم، وترافقت بارتفاع درجة الحرارة، فتضرر موسم القطاني حتى أن بعضهم لم يحصل منه على بارة[5] واحدة[6].

وتذكر جريدة فلسطين[7] أن غزة وبئر السبع كانتا تعتمدان على زراعة الشعير، ولكن المطر كان ينقطع في بعض السنين في شهري آذار ونيسان (مارس أو أبريل) فينخفض الإنتاج إلى أقل من النصف، وهذا ما حدث في الموسم الزراعي 1911م – 1912م حيث انخفض الإنتاج إلى 800 ألف كيلة[8]، في حين كان الإنتاج في السنوات المخصبة يصل إلى مليوني كيلة[9].

وتأثرت زراعة الحمضيات بشكل خاص بالظروف المناخية، مما كان يؤدي إلى انخفاض الإنتاج، فمثلاً انخفض إنتاج البرتقال سنة 1893م بمقدار الربع في قضاء

يافا عن السنة التي قبلها بسبب انحباس الأمطار، وقدرت الخسائر التي لحقت بأشجار البرتقال في يافا سنة 1901م من جراء العواصف والرياح الشديدة بحوالى 25 ألف ليرة عثمانية[10].

كما تأثرت الزراعة بالأوبئة والأمراض التي أصابت المحاصيل الزراعية، ففي سنة 1905م أصيبت أشجار الليمون والبرتقال بنوع من الحشرات التي كانت تقضم الأغصان فتؤدي إلى تلفها[11].

الأوضاع الصحية:

وتركت الأوضاع الصحية للسكان تأثيرًا سيئًا في المزارعين، فقد انتشرت الأمراض بينهم، وقضت على أعداد كبيرة منهم، ففي سنة 1902م انتشر الهواء الأصفر (الكوليرا) في قضاء يافا، وقدر عدد المصابين بهذا المرض في اللد بحوالى ألف شخص توفي منهم 600، وتوفي في يافا حوالى 92 شخصًا[12]، وانتشرت الملاريا سنة 1912م وقضت على أعداد كبيرة من الناس[13].

وقد أوضح محمد رفيق التميمي[14] ومحمد بهجت[15] - مؤلفا كتاب «ولاية بيروت» – أثر الأمراض في ناحية جماعين في لواء نابلس فقالا: «فقد استولى هذا البلاء الإلهي المبرم على كافة جهات الناحية فأفنى ألوفًا من أبناء الوطن. وقد ظهر لنا من تحقيقاتنا أن ربع النفوس في كل قرية ذهبت ضحية التيفوس والهواء الأصفر. ولا يمكننا أن نتصور منظرًا فجيعًا أعظم من مشاهدة استيلاء الأمراض السارية بصورة سريعة وفجيعة وفتكها الفتك الذريع بواسطة الجهل المتكاثف بين الأهليين وعدم الحيطة من الحكومة المحلية وقلة العلاجات»[16].

وكانت أمراض الطاعون والحمى والجدري والهواء الأصفر والملاريا والزحار (الدوسنطاريا) والحصبة والخانوق (الدفتيريا) وأبو الركب (حمى الدنج) أمراضًا

دائمة الانتشار في مختلف مناطق فلسطين، وتؤدي سنويًّا إلى وفاة مئات من السكان، وهذا يجعل من الفلاحين غير قادرين على متابعة العمل في أراضيهم وترك مساحات واسعة من الأراضي التي يتوفى أصحابها دون زراعة[17].

التسويق:

واجهت الزراعة مشكلات تتعلق بالتسويق؛ حيث أدت زيادة الإنتاج في بعض السنوات إلى هبوط الأسعار، ففي سنة 1875م انخفضت أسعار الحبوب ولا سيما الحنطة بسبب زيادة الإنتاج، ويظهر ذلك مما كتبه مراسل «البشير» في عكا عن وجود كميات من الحنطة فيها، وأنه لا يوجد محلات لتخزينها ولا مشترون لها، وهذا ينطبق على المحاصيل الأخرى لكثرة الوارد إليها من الحبوب[18].

كما أن الطلب على المحاصيل من الخارج كان يؤدي إلى ارتفاع أسعارها، ففي سنة 1878م ارتفعت أسعار الحبوب بعكا بسبب ازدياد الطلب عليها في يافا، وعندما قل الطلب انخفضت الأسعار، فبعد أن بيعت كيلة الحنطة بخمسين قرشًا والذرة بخمسة وثلاثين انخفضت الأسعار، فأصبحت كيلة الحنطة تباع من 32 - 35 والذرة من 20 - 22 قرشًا، حتى أنه كان في الناصرة حبوب كثيرة لم يرض أصحابها أن يبيعوا الكيلة بخمسين قرشًا وزاد من انخفاض الأسعار، أن محاصيل السنة التالية كانت وفيرة جدًّا[19].

وكانت الحمضيات من أكثر المنتوجات الزراعية تأثرًا بأحوال الأسواق الخارجية، فقد أشار القنصل الإنجليزي في يافا في تقرير له حول البرتقال بين سنتي 1900 - 1901م أن المضاربة كثرت في تجارة البرتقال، وانخفضت أسعاره في الأسواق الإنجليزية[20]، وقد بلغ مجموع ما خسرته يافا من صادرات البرتقال بين سنتي 1908-1910م حوالى ستة ملايين وثلاثمائة ألف[21] فرنك تقريبًا [22].

الجراد:

تأثرت الزراعة جراء انتشار الجراد الذي كان يهاجم المحاصيل الزراعية فيقضي عليها، فقد انتشر الجراد بصورة كبيرة سنة 1745م وسنة 1797م وسنة 1811م فقضى على المحاصيل الصيفية والشتوية[23]، وفي سنة 1878م اجتاح الجراد مناطق لواء القدس وأتلف المحاصيل والأشجار[24]، كما غزا الجراد قضاء يافا سنة 1901م فأتلف مساحات واسعة من المحاصيل الزراعية[25].

وانتشر الجراد سنة 1915م في كل مناطق بلاد الشام من تخوم مصر إلى جبال طوروس، فعاث في الأرض فسادًا فأكل الورق والنبات والزيتون والصنوبر والكينا[26].

وكان غزو الجراد يؤدي إلى انخفاض الإنتاج الزراعي، وهذا ما ظهر من خلال المقارنة بين كميات الإنتاج في سنتي 1912م و 1913م في قضاء حيفا باعتبار الأُقَّة[27] وحدة الحساب لكمية الإنتاج[28].

نوع المحصول	السنة 1912	السنة 1913
القمح	5.833.568	4.096.800
الشعير	3.863.840	2.275.000
السمسم	1.251.000	700.000
العنب	164.800	68.100

كما عانت الزراعة من هجمات البدو على القرى الزراعية، فمثلاً كانت القبائل البدوية دائمة الإغارة على سهل مرج بن عامر[29]، وعطلت النشاط الزراعي فيه حتى بداية السبعينات من القرن التاسع عشر عندما فرضت الدولة العثمانية سيطرتها على المنطقة، ودفعت القبائل البدوية شرقًا[30].

أدت هذه العوامل إلى انخفاض الإنتاج الزراعي إلى مستويات قياسية في بعض السنوات، فتدهورت الأوضاع المعيشية للفلاحين وانتشرت المجاعة بينهم، مما أجبر المزارعين على بيع أراضيهم، وظهر ذلك واضحًا في سنتي 1870-1871م. فمثلاً باع

عدد كبير من سكان قرية الطيرة القريبة من حيفا أراضيهم وأشجار زيتونهم لتجار حيفا، حيث أشارت سجلات المحكمة الشرعية في حيفا إلى عشرات من عمليات البيع التي تمت في هذه الفترة[31]، وهذا ما يؤكده أسعد منصور[32] الذي وصف المجاعة التي حدثت في هذه السنة، فقال: «ابتدأ الجوع من تشرين الثاني سنة 1870م في القرى الكبيرة والمراكز، وامتنع التجار عن تسليم الفلاحين بسبب حرب أواسط أوروبا، ومما زاد البلاء سماح الدولة بدخول عربان البادية إلى هذه البلاد فرعت مواشيهم فضلة الجراد واشتروا غلال البلاد فضلاً عن التشليح والخطف وقطع الطرق ثم طردتهم الحكومة، ولكن بعد فوات الأوان ونفاذ القوت فارتفعت أسعاره ارتفاعًا فاحشًا لم يعهد له مثيل، كيلة الحنطة من 50 إلى 120 قرشًا نقدًا و 189-200 ديناً، والذرة من 30-120 نقدًا و 190 دينًا، وهذا الدين إلى سبعة أشهر فقط، والسمن من 33-99 والسكر من 14-24 قرشًا»[33].

نمط الملكية:

كذلك تأثرت الزراعة بنمط الملكية الذي كان سائدًا في العصر العثماني، ولا سيما أن معظم الأراضي كانت أراضيَ ميرية (مشاعية) تعود ملكيتها للدولة يفلحها المزارعون، ويؤدون عنها ضريبة العشر، وتوزع عليهم بصورة دورية بين فترة وأخرى قد تكون سنة أو أكثر، ولذلك لم يزرع الفلاحون الأرض نفسها سنويًّا وإنما كانوا ينتقلون من قطعة إلى أخرى؛ ليزرعوا معظم أراضي القرية، وكان هذا النمط من الملكية المشاع من أسباب تخلف الزراعة وقلة إنتاج الأرض؛ لأنه لم يشجع الفلاحين على العناية بالأرض وزيادة خصوبتها؛ لأنهم إن فعلوا ذلك يذهب جهدهم لغيرهم في السنة المقبلة[34].

وعانى المزارعون من ممارسات الشرطة العثمانية الذين كانوا يأخذون جزءًا من إنتاجهم، ويوضح التميمي وبهجت مؤلفا كتاب «ولاية بيروت» ذلك «يؤخذ من وصف مخاطبنا القروي أن الجاندرمة[35] الدستورية[36] هي أعظم ضررًا بألوف من

الدرجات من الجاندرمة في الدور الاستبدادي[37]، فقد كان نفر الجاندرمة في الدور السابق يأخذ ما يطلب من الرشوة بلا ضوضاء ولا جلبة ويركن إلى الفرار من القرية، أما الجاندرمة الدستوري فإنه يسلب الفلاح ماله ودجاجه وطعامه وشعيره ويضربه علاوة على ذلك، ولذلك أصبح من الضروري إصلاح هذه الشيعة من محافظي الأمن تأمينًا لسلامة الشعب وحفظًا لراحته»[38]، ويذكر أحد الكتاب في جريدة «الاتحاد العثماني»[39] «أن الضابطة – الشرطة – الذين كانوا يرافقون الملتزمين لا يقبلون من المأكل إلا غالي الثمن فيضطر الفلاح إلى ذبح أنعامه، وإن رفض ذلك ضرب بالكرباج وأودع السجن[40].

وينقل إحسان النمر[41] عن ابن عمه محمود آغا النمر الذي عمل في تحصيلات المالية ما يوضح أثر الجاندرمة في الفلاحين قائلًا: «أعتقد أنه إنما قضى على الدولة العثمانية وبغّضها للناس سلك الجاندرمة»[42].

الضرائب:

ساهمت الضرائب التي كانت الدولة العثمانية تفرضها على المزارعين في إفقارهم ودفعهم إلى الاستدانة وخسارتهم لأراضيهم، وقد تزايدت حاجة الدولة العثمانية إلى المال مع تزايد الحروب التي اضطرت إلى خوضها ضد الدول الأوروبية وحاجتها إلى الأموال للإنفاق على مشاريع الخدمات من طرق وسكك حديدية ومدارس التي بدأت بإنشائها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن هذه الضرائب:

ضريبة الويركو

فرضت الدولة العثمانية هذه الضريبة سنة 1839م، وفي 17 كانون الثاني (يناير) 1861م تم تقسيمها إلى فئتين: ويركو الأملاك الذي فرض على الأراضي والأبنية، وويركو التمتع وفُرض على الأشخاص الذين يمارسون مهنًا حرة، مثل: التجار والحرفيين والبقالين والحدادين وغيرهم[43].

وقد شكلت ضريبة الويركو مصدرًا مهمًّا لخزينة الدولة العثمانية، وعبئًا ماليًّا على الفلاحين، فعلى سبيل المثال بلغت قيمة ويركو الأملاك المخمنة عن أراضي وبيوت قرية دير طريف[44] مبلغ 4270 قرشًا سنة 1873م، وعن قرية بيت سوسين مبلغ 8792 قرش سنة 1874م، في حين بلغت 3653 قرشًا عن قرية المزرعة[45] سنة 1896م[46].

وقد بلغ إجمالي ضريبة الويركو المترتبة على أراضي 39 قرية ومزرعة في ناحية بني حارثه[47] سنة 1870م مبلغ 131984 قرشًا، في حين بلغ إجمالي ضريبة الويركو المترتبة على الأراضي والمسقفات في متصرفية القدس سنة 1871م مبلغ 3.549.151 قرشًا، أي ما يعادل 34.5 % من واردات المتصرفية البالغة 10.316.774 قرشًا[48]، وذكرت جريدة فلسطين أن قيمة ويركو الأملاك المحصل من قضاء يافا بلغ حوالى 12781 ليرة عثمانية سنة 1912م[49]، وكان مقدار الويركو الذي يجمع من قضاء غزة يتراوح بين ثلاثة عشر ألفًا وعشرين ألف ليرة عثمانية[50].

وزاد من مساوئ هذه الضريبة على المزارعين أن الموظفين الذين كانوا يقومون بتخمين قيمة الأبنية والأراضي، غالبًا ما كانوا يتلاعبون في عملية التخمين، فتنخفض قيمة العقارات التي يملكها الوجهاء، ومن ثَمَّ يقل ما يدفعه هؤلاء من الويركو، أما تلك التي يملكها عامة الناس فترفع قيمتها المخمنة حتى أن الاختلاف في قيمة التخمين كان موجودًا في أراضي القرية الواحدة المتشابهة في المساحة والخصوبة، كذلك في دور القرية[51].

العُشر

كانت ضريبة العُشر أحد أهم العوامل المؤثرة في الزراعة، وألحقت الأضرار المستمرة بالفلاحين، ودفعتهم إلى ترك العمل بالزراعة والهجرة إلى المدن والمناطق البعيدة عن سيطرة الدولة، فقد عمدت الدولة العثمانية إلى رفع نسبة العشر باستمرار لتصل 12.63 % أسقط منها 13 سنتيمًا سنة 1906م لتسهيل الحساب فبقي 12.5 %، ولكن العشر عمليًّا كان يصل أحيانًا إلى 30 % أو أكثر[52].

وزاد من سوء ضريبة العشر على الفلاحين أن تقديرها كان يتم عن طريق التخمين من الموظفين المختصين في الألوية، وكان يحدث ظلم شديد في التخمين، بحيث ترفع قيمة التخمين على الفلاحين البسطاء، وتخفض على أصحاب النفوذ[53]، كذلك كان المخمنون يبالغون في تخمين المحاصيل ويدفع ذلك المزارعين إلى رشوتهم لتخفيض نسبة التخمين[54].

وكانت طريقة التخمين تؤدي إلى زيادة نسبة العشر؛ لأن المحصول قد يصاب بالضرر بعد التخمين بسبب قلة الأمطار أو ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها، أو قد يتعرض للأمراض بعد التخمين فيؤدي ذلك إلى انخفاض الإنتاج، ويبقى العشر على ما هو فيخسر الفلاح جزءًا كبيرًا من المحصول المتبقي له، لا سيما أن الدولة كانت في السنوات المجدبة تصر على إلزام القرى بالبدل نفسه في السنوات المخصبة، وكانت تستخدم القوة أحيانًا؛ لإجبار المخاتير والاختيارية في القرى على التزام قراهم بالبدل السابق[55].

ويوضح مؤلفا كتاب «ولاية بيروت» ذلك قائلين: «لا يمكننا أن نتصور قرويًّا لم يصب بضرر من المخمنين وظلمهم فإن كافة المأمورين الذين انتخبوا لهذه الوظيفة المهمة قد قاموا بتأدية وظيفة التخمين قبل أن تنضج المزروعات، وبعد أن أتموا وظيفتهم هجم الحر على المزروعات بصورة غير اعتيادية، فجف الحب في سنبله وفسد ولم يُهتم بالضيق الفاحش في التخمين، كما أنه لم يُنظر إلى ما أصاب الزرع من جفاف بسبب ضربة الشمس المحرقة، فذهب المتعهدون والجاندرمة فأخذوا جميع ما حصل عليه الفلاح، وسلبوا كافة ما عنده من المؤنة فملئوا بها الأنبار (المخازن) غير ناظرين في عملهم إلى التعاليم الموضوعة»[56].

إن التلاعب في التخمين بين القرى التي يملكها الوجهاء والمتنفذون، والقرى التي يملكها عامة الناس، كان يدفع الفلاحين إلى وضع أراضيهم وأنفسهم تحت حماية هؤلاء الوجهاء والمتنفذين مقابل حصص معينة من إنتاج أراضيهم قد يصل إلى الربع من أجل التخلص من ظلم المخمنين[57].

كما كان المخمنون لا يؤخذون بعين الاعتبار المصاريف التي تنفق على المحاصيل الزراعية، ولا سيما الأشجار المثمرة مثل الزيتون واللوزيات والحمضيات التي تحتاج إلى نفقات كبيرة وسنوات عديدة حتى تعطي ثمارها، وكان ذلك مثار احتجاج بعض المزارعين الذين رفعوا العرائض للمسئولين يطالبونهم بالإنصاف، وهذا ما يظهر من الرسالة التي بعثها أحد الفلاحين إلى عثمان أفندي النشاشيبي ممثل القدس في مجلس المبعوثين يشكو فيها من ارتفاع العشر على أشجار اللوز التي يزرعها والتي قد تصل إلى 30 % من الإنتاج[58].

وقد وصلت الشكوى من ارتفاع ضريبة العشر إلى المطالبة بإلغائها عن بيارات الحمضيات في يافا والقرى المحيطة بها؛ لأن هذه الضريبة لا تأخذ بعين الاعتبار ما تحتاج إليه هذه البيارات من تكلفة عالية في استصلاح الأرض وشراء الأسمدة والآلات اللازمة للري، وهذا ما يظهر من العريضة التي قدمها مزارعو ومخاتير قرى قضاء يافا إلى متصرف القدس وجاء فيها: «... فأصلحنا رمالها بالشغل والسماد. وحفرنا وبنينا بها آبارا بمواسير ارتوازية وبرك وأقنية حجرية؛ لحفظ المياه وجرها. واستجلبنا لها من أوروبا الآلات البخارية والغازية مع جميع اللوازم، وواظبنا سبع سنوات على إنماء الشجر وريه، وشغل الأرض وتسميدها، وبذلنا ألوف الليرات على كل بستان فمن هذه الإيضاحات يظهر جليًّا لعطوفتكم أن المحصول الجزئي والابتدائي لهذه البساتين لم يأت عفوا، ولا هو بفضل الأمطار، ولا حصل في ظرف خمسة أشهر كما هي الحال مع الحبوب التي تروى من ماء السماء، ولا كان للأنهر يد في سقايتها كما يجري في صيدا وطرابلس الشام، بل هو نتيجة تعب وكد وتعطيل رأسمال عظيم ووقت أثمن من المال. فلما أعطت هذه البساتين ثمرًا خطر لبعض مأموري الدور السابق أن يزيدوا عليها الويركو فرفعوا قيمته من 300 غرش إلى 2500 غرش أي من غرش وربع إلى عشرة غروش عن كل دونم، ثم طرحوا حاصلاتها للتعشير وصاروا يقدرون الثمر في أيلول (سبتمبر)، فالبستان الذي يقدر بخمسمائة ليرة يقبضون عنه عشرًا (

62 ليرة ونصفًا) مع أن ثمر البرتقال لا ينضج قبل كانون، ولا يمكن بيعه إلا بالتدريج حتى نيسان (أبريل). وطالما أصابته العواصف، وأتلفت المحصول برمته، ولم يبق للمزارع شيء فيكون قد خسر 200 ليرة مصروف البستان السنوي، وخسر علاوة عليها نحو مائة ليرة عشراً وويركو هذا فضلاً عن فائدة رأسمال التي لا تقل عن 250 ليرة سنويًّا فيقع من جراء ذلك تحت الديون وينتهي الأمر ببيع البستان(59).

كذلك زاد من الآثار السلبية للعشر جمعه عن طريق الالتزام، فكانت الدولة تضع حق جمع العشر في منطقة ما في المزاد العلني، ويكون المزايد الأعلى هو ملتزم هذه المنطقة، وغالبًا ما كان الملتزم يأخذ نسبة تفوق نسبة العشر المقررة، ويوضح ذلك أسعد منصور قائلاً: «لم يكن للحكومة قاعدة واحدة مطردة فكانت أحيانًا تجبي الأموال بطريقة الالتزام، فيدفع الملتزم مبلغًا معينًا وهو يأخذ حصة الحكومة وهناك الطامة الكبرى والبلية على الفلاح»(60).

وقد بالغ الملتزمون في جمع نسبة تفوق نسبة العشر، فكان لا يسمح للفلاحين بالحصاد قبل أن يصل العشار أو ممثله إلى القرية، الذي يتأخر عن القدوم عمدًا ليجبر الفلاحين المضطرين إلى الحصاد على أن يتفقوا معه على كمية معينة من المحصول لقاء العشر، ويقدم سكان القرية إليه وإلى مرافقيه وخيولهم الطعام والعلف أثناء ذلك، بل إنه كان يجبر الفلاحين على نقل حصته من العشر إلى المدينة، وغالباً ما كانت هذه الحصة تصل إلى ثلث المحصول(61).

الرسوم على الحيوانات

فرضت الدولة العثمانية أربعة قروش على كل رأس من الأغنام والماعز والجاموس وعشرة قروش على الإبل، وكانت هذه المبالغ تزيد بين فترة وأخرى، فأضافت 25 بارة إلى كل رأس من الغنم، وفرضت 10 قروش على الجمل المعد للنقل، ثم أضافت قرشًا باسم التجهيزات العسكرية، وقرشًا ونصفًا باسم الأسطول إلى أن أصبح

13 قرشًا و 20 بارة على كل جمل، ولكنها اعفت الجمال المعدة لحراثة الأرض من الرسوم[62]، وفي عام 1885م بلغت الرسوم المفروضة على الأغنام في لواء عكا نحو 437.302 قرش[63]، ارتفعت لتصل إلى 440.977 قرشًا عام 1893م[64]، في حين بلغت الرسوم في قضاء يافا سنة 1912م حوالى 1604 ليرة عثمانية[65]، وذكر عارف العارف أن الحكومة العثمانية كانت تجبي 77000 قرش عن مدينة غزة، وثلاثة أضعاف هذا المبلغ عن قراها[66].

وقد شكلت الأموال المجموعة من العشر والويركو ورسوم الأغنام التي كان يدفعها المزارعون معظم إيرادات الدولة، وهذا ما يظهر من الجدول الآتي الذي يوضح الإيرادات المجموعة في لواء عكا بالقروش في عام 1301هـ[67].

السنة	العشر	ضريبة المباني	ضريبة المواشي	الجندية	ضرائب أخرى	المجموع
1301هـ1883م	3.275.000	1.785.934	562.877	175.725	124.925	5.924.461

ويظهر الجدول الآتي المبالغ المجموعة من الويركو والعشر ورسوم الأغنام في قضاء عكا عامي 1303 و 1310هـ/ 1885م و 1895م مقارنة مع مجموع الإيرادات في اللواء بالقرش[68]

نوع الضريبة	سنة 1303/ 1885م	النسبة	سنة 1310/ 1895م	النسبة
الويركو	1.692.398	% 26	1.841.334	% 28
رسوم الأغنام	437.302	% 7	440.972	% 7
الأعشار	3.877.529	% 60	3.170.496 +680.425	% 49
مجموع الواردات	6.542.281	% 93	5.755.662	% 84

ويظهر من الجدول أن العشر والويركو ورسوم الأغنام تشكل معًا ما بين 84 % - 93 % من مجموع الواردات في هذين العامين، في حين يظهر الجدول الآتي إيرادات الدولة

من العشر والويركو وغيرها من الضرائب في قضاء غزة سنة 1310هـ/ 1894م[69].

الضريبة	المبلغ	
	بارة	قرش
الويركو	26	1.197.704
تمتع	10	99.282
تجهيزات عسكرية	20	17.000
تذاكر ويركو	00	9.575
ثمن طوابع	00	1.720
معارف	35	9.567
العشر (غزة)	10	129.610
العشر (قرى غزة)	00	1.317.908
مجموع العشر في غزة وقراها	00	1.447.519
المجموع	31	2.780.756

وقد ارتفعت إيرادات الدولة بعد عشرة أعوام فبلغت عام 1904 حوالى 3.339.80 قرش (33.398 ليرة عثمانية)، وهذا ما يظهره الجدول الآتي[70]:

الضريبة	باره	قرش
ويركو الأملاك والعقارات	5	1.213.183
ويركو التمتع	20	74.879
بدلات عسكرية	10	20.334
رسوم الأغنام	-	85.200
بدلات الأعشار	15	15.715.22
حاصلات الأعشار على الزيتون	15	133.60
رسوم متنوعة	-	61.835
بدل إيجار	-	6.480
أثمان تذاكر	-	18000
معارف	15	10.566
تجهيزات	-	178.380
حيوانات	-	86.060
المجموع	80	3.339.801

وهذا يعني أن النسبة العظمى من الضرائب كانت تقع على عاتق الفلاحين، وهذا يفسر ما كان يعانيه الفلاحون من أوضاع مالية سيئة؛ لأن معظم إنتاجهم كان يذهب لصالح الحكومة والملتزمين، في الوقت الذي قلت فيه الضرائب المفروضة على التجار، وغيرهم من أصحاب المهن والحرف الأخرى.

لقد أدى ارتفاع الضرائب المفروضة على الفلاحين، ولا سيما ضريبتي العشر والويركو إلى إجبار بعض المزارعين على ترك قراهم والهجرة إلى المناطق النائية البعيدة عن سيطرة الدولة، فقد ذكر مؤلفا كتاب ولاية بيروت أن مائة أسرة من سلفيت(71)، و 20 أسرة من كفل حارس(72)، وكافة الأهالي في قرية زيتا(73) التابعة للواء نابلس هاجرت إلى جهات حوران(74)؛ هربًا من الضرائب التي كانت تفرضها الدولة عليهم(75).

إن عدم مقدرة الفلاحين على دفع الضرائب بانتظام للخزينة، حمل الدولة على تأجيلها إلى سنوات قادمة، مما أدى إلى تراكم مبالغ كبيرة من الأموال على الفلاحين ودفعهم إلى الاقتراض والتنازل عن أراضيهم لسداد هذه الديون، ومن أوضح الأمثلة على ذلك أراضي قرية أبو شوشة(76) قضاء الرملة، ومساحتها 20.000 دونم والتي انتقلت ملكيتها إلى اليهودي الألماني بيرغهايم(77) عام 1872م مقابل دفع مبلغ 46000 قرش لخزينة الدولة تمثل مجموع الضرائب المتأخرة على سكان القرية(78).

بل زاد الأمر سوءًا أن الفلاحين تركوا العمل في الزراعة وهجروا أراضيهم في بعض المناطق فتحولت أراضيهم إلى أراضٍ محلولة من حق الدولة السيطرة عليها وهذا ما حصل في الأغوار الشمالية التي سجلها السلطان عبد الحميد باسمه وعرفت باسم أراضِي الجفتلك (بعد عزله عام 1908) بالأراضي المدورة، وتعود ملكيتها للدولة حيث عرضتها للبيع(79).

جهات الإقراض

كان المتبقي للفلاحين من إنتاج أرضهم لا يكفي معيشتهم اليومية، لذلك لجأوا

إلى الاقتراض من المرابيين، أو من البنوك العثمانية والبنوك الأجنبية المنتشرة في المدن الفلسطينية وهي:

البنك الزراعي العثماني

أسس سنة 1888م برأسمال جاء من اقتطاع نسبة 12 % من العشر بهدف تقديم القروض للمزارعين بفائدة لا تزيد على 6 % منعًا لاستدانتهم من المرابيين الذين كانوا يقرضونهم بفائدة كبيرة، ويستولون على أراضيهم في حالة عدم قدرتهم على سداد ديونهم. وكان البنك يقدم القروض إلى المزارعين بضمان أراضيهم، وفي حال عدم قدرتهم على سداد القروض كان يقوم ببيع أراضيهم؛ لتحصيل قيمتها وغالبًا ما كان التجار والأثرياء يشترون هذه الأراضي[80].

وقد امتد نشاط البنك الزراعي؛ ليشمل المدن والقرى ومناطق القبائل البدوية، وهذا ما يظهر من الاطلاع على سجل الأراضي المرهونة للبنك الزراعي في يافا، والذي يبين المبالغ المقترضة في يافا وقراها في الفترة الواقعة بين سنتي 1308هـ- 1332هـ (1890م- 1913م) والذي اشتمل على 805 معاملة إقراض موزعة على 27 موقعًا وصلت قيمتها إلى 2.573.442 قرشًا كان نصيب مدينة يافا منها 340 معاملة بلغت قيمتها 684680 قرشًا، ونصيب الرملة 272 معاملة بلغت قيمتها 990.775 قرشًا، وكانت المبالغ التي اقرضها البنك للمزارعين تتراوح بين 200 قرش إلى 50 ألف قرش، فمثلاً حصل أحمد بن صالح من قرية يازور[81] على قرض بقيمة 200 قرش، في حين حصل كل من الشيخ وأكد بن عايش وهزاع بن عرار وحسين محمود الوحيدي ودرويش بن الشيخ عيسى من عربان قضاء بئر السبع على قرض قيمته 3900 قرش، في حين حصلت آمنة بنت صالح بن إبراهيم على قرض قيمته 3900 قرش، وشيخة بنت عبد الغني السعدي من قصبة اللد على قرض قيمته 1300 قرش[82].

وقد بلغ عدد عمليات الاقتراض من البنك الزراعي في حيفا وثماني عشرة قرية

خلال الفترة ما بين عامي 1310هـ- 1331هـ/ 1892م- 1912م حوالى 608 عمليات، وبلغ عدد الأموال المقترضة 2.760289 قرشًا[83].

وعلى الرغم من أن البنك الزراعي قدم تسهيلات مالية كبيرة للمزارعين نرى أنه لم يتردد في بيع أراضي الذين لا يستطيعون سداد ديونهم عبر الإعلان عن بيعها في المزاد لتحصيل قيمة القروض، ولذلك فإن البنك لم يحد من عمليات بيع المزارعين لأراضيهم، بل أدى إلى نتيجة مغايرة للغاية التي أنشأ من أجلها، وهذا ما يظهر من الإعلانات العديدة في الصحف، وما تضمنته سجلات المحاكم الشرعية من حجج عن بيع أراض لم يستطع أصحابها سداد ديونهم للبنك، ومنها مثلاً ما نشرته جريدة «طرابلس الشام»[84] عام 1895م وجاء فيها «سيطرح للمزايدة تسع وثلاثون قطعة أرض في قرية المكر لواء عكا ملك الكفيلين أحمد وأخيه الشيخ خليل إبراهيم من أهالي وتجار عكا؛ نظرًا لامتناع المكفول مصطفى الأسود من أهالي القرية المذكورة عن سداد مبلغ ثلاثمائة قرش رائج[85] الخزينة لصندوق شعبة بنك زراعة عكا»[86].

وفي حجة من سجلات المحكمة الشرعية في حيفا سنة 1912م أن محمود بن عبد الرحيم بن الشيخ محمد الخطيب من عرعره[87] وكل عبد الله بن محمد الماضي بيع ما بتصرفه كامل الست عشرة قطعة أرض المرهونة للبنك الزراعي إلى الحاج محمود بن أحمد من أهالي حيفا بمبلغ 7200 قرش وعشر ليرات فرنسية[88] ودفع قيمة الرهن إلى البنك الزراعي في حيفا[89].

وقد نشرت جريدتا «المنادى»[90] المقدسية و«فلسطين» اليافية خلال الفترة ما بين عامي 1911م1913-م حوالى 450 إعلانًا عن بيع ممتلكات في المزاد العلني منها 430 ملكية تراوحت مساحتها بين 2 دونمين إلى 457 دونم، في حين تجاوزت 20 ملكية مساحة كل منها 547 دونمًا بل وصلت بعض المساحات إلى 3000 دونم[91].

ويوضح الجدول الذي نشرته جريدة «فلسطين» سنة 1911م الآتي أسماء المقترضين والمبالغ المقترضة، ومساحة الأراضي التي رهنت لضمان سداد القروض في عدد من قرى غزة[92].

المقترض	القرية	المساحة بالدونم	المبلغ بالقرش
درويش بن الحاج مصطفى	الفالوجة	255	1530
محمد وعبد الفتاح وعبد القادر أولاد يوسف القناص	الفالوجة	420	2520
أحمد خليل ومحمد إبراهيم	هوج	284	1126
مخائيل بن خليل الصراف	هوج	570	2363
حسين الشيخ علي	الفالوجة	180	10800
عطا الله بن أحمد	هوج	566	22660
حسين عبد الهادي حسين علي	الفالوجة	4800	28800
خليل ومحمد وإسماعيل وصفية أولاد إبراهيم الحولي	الفالوجة	494	29940
عبد الجواد عبد العزيز	الفالوجة	84	28800
نصار عثمان	كراتيا	205	16400
محمود مصطفى عليان عزام	بعلين	227	8250
صفية وحليمة بنتا محمد الحاج	بيت طيما	94	5820
على فرحات	البطانى غربى	102	12200
محمد مصطفى أبو صبور	بيت طيما	63	3640
حسين النجار	الفالوجة	431	25860
أحمد محمد صالح	الفالوجة	580	20950
جبر بن مصطفى	حليقان	121	6055

وفي إعلان آخر نشرته صحيفة فلسطين، ويظهر المبالغ التي استدانها سكان قرية بربرة والأراضي التي رهنت مقابل هذه القروض(93).

المقترض	المساحة بالدونم	مقدار الدين	المبلغ المطلوب
عبد القادر عيسى	49	1445	2450
عبد القادر عيسى	181	1221	9050
عبد الهادي عبد الرزاق أبو مايلة	428	980	21400
رشيد أحمد زين	127	1481	3200
رشيد ومحمد ولدا أحمد زين	466	1258	2145
عبد القادر وصفية ولدا يوسف السرحان	292	1006	1460
محمود وآمنة وشامية أولاد عبد ربه	927	1223	34125
محمد أحمد أبو صفية	463	1130	2315
سليمة سليم خير الدين	74	1474	375
إبراهيم وأحمد وآمنة وصبحة وحليمة أولاد الشيخ محمد جبر	172	1355	8600
أحمد محمد عايش	346	10268	17300

وزاد في عجز البنك عن القيام بالدور المحدد له أن القائمين عليه كانوا من كبار الملاك والتجار فسخروا البنك لخدمة مصالحهم، فمثلاً كان علي عرابة وميخائيل عيد وجرجي خوام أعضاء في مجلس إدارة البنك الزراعي في عكا سنة 1905. في الوقت الذي كان فيه ميخائيل عيد من كبار الدائنين في عكا. فكان يقرض المزارعين الأموال بضمان أراضيهم، ويبيعها بالمزاد العلني عند عجزهم عن سداد ديونهم[94]. ونشرت جريدة «ولاية سوريا»[95] الإعلان الآتي الذي يوضح ذلك، وفيه «أنه طرح قبلاً للمزايدة النظامية العلنية الأرض المشجرة زيتون بموقع التين بأرض قرية المغار[96] التابعة لعكا ... ملك أصليبي الحلو من أهالي القرية المذكور المحكوم عليه بموجب إعلام تجاري بمبلغ 2300 قرش إلى ميخائيل عيد وأخيه جبرائيل من أهالي عكا، فقد انتهى مزاد الأرض والزيتون على عزيز عيد أحد أهالي عكا بمبلغ مئة وثمانين ريَّالا[97] مجيديًّا أبيض»[98].

وقد أكد إحسان النمر ذلك قائلاً: «وأسست الحكومة بنكًا زراعيًّا فتحت له فروعًا في لواء نابلس، و أوجدت لجنة من الوجهاء لكل فرع، ففي نابلس تشكلت برئاسة عبد الكريم آغا النمر وعضوية السادة أحمد الجبر وداود الخياط وأمين الخماش ومحمد السايح وقاسم الشافعي، وفي طولكرم برئاسة الشيخ قاسم الجلاد وعضوية محمود أبو شنب وبدير قاسم[99].

البنك العثماني The Imperial Bank

أسس البنك عام 1862م برأسمال إنجليزي فرنسي مشترك مقداره عشرة ملايين ليرة إنجليزية (1.350.000.000 قرش)، وأصبح البنك الرسمي للدولة العثمانية، واتخذ من الأستانة مقرًّا له، وافتتح فروعًا له في المدن الفلسطينية مثل يافا وحيفا والقدس، ومارس البنك الإقراض المالي للسكان بضمان أراضيهم وعقاراتهم[100]، وهذا ما يظهر من الإعلان الذي نشرته جريدة فلسطين عن بيع أملاك كل من الشيخ درويش والشيخ يوسف ولدي أحمد سليم الدجاني والشيخ محمد توفيق الدجاني في

قريتي بيت دجن(101) وجباليا(102) والبالغ مساحتها حوالى 376 دونم، إضافة إلى قطعة أرض مشجرة وخانتين وباغجتين والبالغ قيمتهما حسب الإعلان 423.116 قرشًا من أجل سداد الدين العائد عليهما لصالح البنك العثماني، ولمجموعة من الدائنين لم يحددهما الإعلان(103).

البنك الإنجليزي الفلسطيني The Anglo Palestine Company

أُسس البنك عام 1902م، ومقره الرئيس لندن، وأنشئت فروع له في المدن الفلسطينية الكبرى، مثل صفد وطبريا وحيفا ويافا والقدس، وقد نشط البنك في تقديم القروض للفلاحين بضمان أراضيهم، للاستيلاء عليها في حالة عجزهم عن سداد هذه القروض، وقد أدار اليهود معظم فروع البنك، فمثلاً كان زالمن بن داويد بن لبيب مردخاي الإسرائيلي من تبعية روسيا يتولى إدارة فرع يافا منذ تأسيسه حتى عام 1909م(104)، وقد سيطر اليهود من خلال البنك على مساحات من الأراضي في فلسطين، وهذا ما أشارت إليه إحدى الحجج الشرعية من حيفا عندما أشارت إلى أن زالمن بن داويد بن لبيب مردخاي قد وكل كلا من ناتان بن يهودا كرزبان من تبعية روسيا وحاييم يهودا من تبعية الدولة العثمانية بصفتهما مديرين لشركة انجلو فلسطين في حيفا بوضع يدهما على قطع الأراضي الثلاث العائدة له في حيفا(105).

بنك فلسطين الألماني

أُسس البنك عام 1897م، ومقره برلين؛ لتشجيع المصالح الاقتصادية والاستعمارية الألمانية في الدولة العثمانية من خلال ممارسة الأعمال المصرفية وشراء الأراضي، لا سيما أن المستوطنين الألمان من أتباع جماعة المعبد أنشأوا مستعمرات لهم بالقرب من حيفا ويافا والقدس، وقد فتح البنك فروعًا له في القدس وطبريا وصفد، وبلغت أرباح البنك سنة 1912م حوالى 2.440.000 مارك(106).

إن الهدف من إنشاء هذه البنوك في فلسطين هو خدمة المشاريع الاستعمارية

للدول الأوروبية في فلسطين، فقد أنشأ البنك الإنجليزي الفلسطيني (شركة أنجلو فلسطين) في لندن، لخدمة المشروع الصهيوني ولمساعدة الحركة الصهيونية على شراء الأراضي، وقد أدار اليهود معظم فروع هذا البنك في فلسطين وحرص على تقديم القروض للفلاحين بضمان أراضيهم تمهيدًا للسيطرة عليها، أما بنك فلسطين الألماني فكان الهدف من إنشائه تشجيع المصالح الاقتصادية الألمانية في فلسطين من خلال ممارسة الأعمال المصرفية وشراء الأراضي، ولا سيما بعد ازدياد المصالح الألمانية في فلسطين منذ عام 1870م وإنشاء العديد من المستعمرات الألمانية في فلسطين وتحسن العلاقات الألمانية العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر.

المقرضون (المرابون)

المقرضون المحليون

انتشر المقرضون (المرابون) في المدن والقرى وكانوا على استعداد دائم لتقديم القروض للفلاحين بضمان أراضيهم، وكانت القروض المرتفعة الفائدة أحد الأسباب في إفقار الفلاحين، فيقول مؤلفا كتاب «ولاية بيروت» عن ذلك: «فإن الأغنياء يقرضون الفلاح أموالاً بفائض خمسة عشرة في المئة لستة أشهر، وأما الجاهل المحتاج إلى الدراهم فإنه لا يفتكر بثقل الشروط أو ضعفها، بل غاية ما يتصوره الوصول إلى الدراهم بأي طريقة كانت، وبعد أن يقرض الغني شيئًا من المال للفلاح يصبح سيدًا له وحاكمًا عليه لأن القروي الفقير الذي لا يملك سوى القليل من الدخل السنوي لا يتمكن حين حلول الوعدة (موعد سداد الديون) من أداء الدين فيتهدده الغني الدائن بماله من النفوذ لدى رجال الحكومة، فيضطر القروي أخيرًا إلى تجديد معاملة الدين بشروط أثقل من الأولى، ومن المحقق أن أكثر أغنياء نابلس تقريبًا يقرضون أموالهم سنويًّا بفائض يتراوح بين 60 % - 70 %، ولقد أعادت مسألة الإقراض والاستقراض طريقة الاستعباد في بلادنا الدستورية؛ لأن القروي الذي يعجز عن تأدية الديون المتراكمة عليه يصير عبدًا لذلك الغني المقرض، والغالب أن يكون

ظالمًا وعديم الوجدان، وحبًّا في دوام إرضائه واستنداء رحمته؛ يُبقي القروي لنفسه نذرًا قليلاً من محاصيله الصيفية والشتوية ويقدم الباقي للمقرض الغني على أمل أن يحسب ذلك من أصل الدين الذي له. وعلى الرغم من تكرر هذه المعاملة في كل عام فإن القروي المسكين لا يتخلص من الدين، ويكثر في نابلس عدد من المقرضين الذين تتراوح ثروتهم بين العشرة آلاف إلى الأربعين ألف ليرة بسبب معاملة الإقراض والاستقراض، ولا يطلب فلاحو الناحية (ناحية جماعين) من الحكومة سوى افتتاح مؤسسة مالية؛ لقرضهم أموالاً بفائض معتدل، وإن البنك الزراعي لا يقوم بتهوين الاحتياجات المبرمة للقروي ما دامت شروطه الحاضرة متبعة[107].

وكتبت صحيفة «المقتبس»[108] عام 1913م موضحة أثر الديون في المزارعين قائلة: «وإذا استدان الفلاح عندنا فإنه يقع تحت عبء الفوائد الثقيلة التي لا تقل عن العشرين بالمائة وتحت رهن أراضيه وأمواله، وإذا نضج الزرع فغلته لا تكفي لسداد فوائد الأموال المستدانة فيجبر بحكم الضرورة أن يستلف غيرها وهلم جرا حتى يأتي ذلك اليوم الذي تباع فيه أملاكه، ويصبح بعد أن كان مالكًا عبدًا رقيقًا»[109].

وتحدث عبد الجواد القاياتي[110] عن الشيخ يوسف الفاهوم من الناصرة فقال: «والشيخ يوسف الفاهوم له شركات في الزرع وأراضٍ واسعة، وهذا سبب زيادة ثروته العظيمة التي لا تضاهى في تلك النواحي، وله معاملات وديون كثيرة على كثير من مشايخ العشائر وأعيان البلاد هناك»[111].

ويذكر القساطلي[112] في أثناء زيارته لقرية يبنه[113] من بلاد غزة بأن أراضي هذه القرية مخصبة، وأهلها أصحاب نشاط في الزراعة غير أنه لاستغراقهم في الفايظ (الفائدة) الذي يدفعون عنه 40 إلى 50 بالمئة في السنة لا يتمتعون بأثمار أتعابهم. وتزداد الفائدة في الديون القصيرة المدى، وتتناقص في الديون البعيدة

المدى شريطة أن تتوافر فيها ضمانة جيدة، وإلا فضل أصحاب المال تخبئة مالهم على المخاطرة باستثماره في الديون. والفائدة الدارجة بالنسبة إلى الفلاحين كانت بحدود 30 % والضمان للدين هي محاصيلهم. ولكن هذه النسبة لم تكن مطبقة في كل مكان وقد تصل أحياناً إلى خمسين أو مائة بالمائة في السنة الزراعية(114).

ويستخلص من دفتر رهونات الأراضي الذي يحمل رقم 1، أن عدداً من كبار الملاك في حيفا كانوا من كبار المقرضين، وسيطروا من خلال عمليات الإقراض التي قاموا بها على مساحات واسعة من الأراضي في القرى التي اقترض سكانها منهم، في عشر من قرى حيفا، وقد بلغت الأموال المقترضة 394.053 قرشاً تم خلالها رهن 41.780 دونم من أراضي هذه القرى مقابل الحصول على هذه الأموال(115).

وقد احتوت سجلات المحاكم الشرعية على أمثلة عديدة تظهر الحجم الهائل لمشكلة الديون التي وقع فيها المزارعون، ويظهر ذلك من خلال القوائم التي ضمت أسماء المقترضين التي احتوتها تركات تجار المدن، فمثلاً تضمنت تركة يوسف مصطفى زاغ الجبالي من أهالي نابلس عام 1867م ديوناً عينية ونقدية على 65 شخصاً من أهالي سلفيت بلغت قيمتها 101.572 قرشاً(116).

لم تكن فئة المرابين مقصورة على تجار المدن، بل ظهر بعض من هؤلاء في القرى، وظهر ذلك واضحاً في دفتر ديون محمد مصطفى يعقوب أبو صفية من أهالي عين كارم(117) التابعة لناحية بني حسن(118) المتوفى في 11 ربيع الآخر 1305هـ / 1887م الذي يظهر عمليات إقراض واسعة من القرى المجاورة بلغت 79 عملية إقراض تشتمل على النقود والحنطة والذرة والشعير والعنب والزيت، بل تشمل الأبقار والثيران(119).

وفي إحدى الحجج من محكمة حيفا الشرعية أن لمحمد العابدي من حيفا، ديوناً بقيمة 506.292 قرشاً على مزارعين في عدد من القرى المحيطة بحيفا(120).

ويوضح الجدول الآتي أسماء عدد من المقرضين من حيفا وعدد عمليات الإقراض التي قاموا بها والمبالغ المقترضة في كل قرية ومدينة مقدرة بالقرش[121].

الدائن (المرابي)	الموقع	المبلغ	عدد عمليات الاقتراض
بيترو بن سليمان أبيلا	الطيرة	36.866	12
الحاخام إبراهيم كوهين اليهودي	الطيرة	12.785	3
« « « «	حيفا	10.728	2
جول روزنك اليهودي الفرنسي	قيسارية	415.000	2
مصطفى الخليل	مرج التركمان	8000	1
ميخائيل وجبرائيل عيد	المغار	3600	1
عبد الغني بيضون	مرج التركمان	61.260	1
مصطفى ضيا باشا	كفر عان	30.975	1
جورج وإيليا ولدا حبيب حوا	نهر المفشوخ	287.175	1
محمود استيتيه	حيفا	20.000	1
أسعد جرجوره	صفورية	2700	1
رفعت عبد اللطيف الصلاح	أجزم	2000	1

وقد احتوت سجلات المحاكم الشرعية والصحف العثمانية المحلية على أمثلة كثيرة تبين أثر الديون في خسارة الفلاحين لأراضيهم بعد أن عجزوا عن دفع الديون المستحقة عليهم، ومنها مثلاً أن قسيطة بن سعيد جرجوره من الناصرة حجز على ثلاثة عشر كرم زيتون عائدة لحسين بن علي المزارع من قرية المجيدل[122] بعد أن عجز عن سداد دينه البالغ 2390 قرشًا[123].

وفي إعلان آخر أن كلا من طه شقير ويوسف خشان وناصر إبراهيم الأحمد وذيب الطاهر وعلي الموسى وعبد الله القاسم ويوسف الأحمد باعوا 189 قطعة أرض في قرية كفر عان قضاء عكا بيعًا وفائيًا[124] لمصطفى ضيا باشا متصرف حماة بمبلغ 295 ليرة فرنسية (30.975 قرش)، إلا أنهم عجزوا عن سداد الدين فبيعت أراضيهم في المزاد العلني[125].

وفي إعلان آخر نشرته جريدة «ولاية سورية» جاء فيه: «بعد خمسة عشر يومًا سيطرح للمزايدة القانونية الأراضي الواقعة في مقر عشيرة التركمان[126] الملحقة بقضاء عكا وقدرها ستون قطعة أرض والمفروغة وفاء من طرف الخواجة عيسى

الصيقلي إلى عبد الغني بيضون من تجار عكا، ومن تبعة الدولة العلية بمبلغ قدره ثلاثة آلاف وستون ريالًا مجيديًّا (61.260 قرشًا) مقسطة على ثلاثة أقساط إلى أحد وثلاثين شهرًا، وحيث انقضت المدة المذكورة، ولم يف المديون المرقوم دينه تقرر بناء على استدعاء المديون المرقوم واستدعاء الداين المومأ إليه بيع الأراضي المذكورة، فمن كان له رغبة في شرائها فعليه أن يراجع دلال دائرة بلدية عكا»[127].

وقد احتوت سجلات المحكمة الشرعية في حيفا على أمثلة عديدة على بيع أراض وقع أصحابها في مشكلة الديون، فمثلاً كان بيترو بن سليمان أبيلا من كبار المقرضين في حيفا، وأبدى استعدادًا مستمرًّا ودائمًا لتقديم القروض، فتشير إحدى الحجج أنه أقرض محمود بن داود بن سليمان حجير من الطيرة مبلغ 730 ليرة فرنسية (76.650 قرشًا) وفي مقابل ذلك وَكَّلَ شكري بن جبور القرداحي ببيع ما يملكه وهو أربع قطع أراض في الطيرة مساحتها 365 دونمًا لمن يشاء وسداد الدين لبيترو أبيلا[128].

وفي حجة أخرى أن ألفريد بن جريس التويني باع كامل (التسعة) قراريط أرض من مجموع 24 (قيراطًا) في جميع الأربعة بساتين العائدة له في قرية نهر المفشوخ[129] بيعًا وفراغًا وفائيين[130] إلى جورج وإيليا ولدي حبيب حوا من عكا بمبلغ 2735 ليرة فرنسية (287.175 قرشًا)[131].

وكان اليهود أكثر نشاطًا في مجال الإقراض، وأظهروا استعدادًا دائمًا لتقديم القروض لا سيما لأصحاب الملكيات الكبيرة، ولا شك أن هدف اليهود لم يكن الاستثمار في الأراضي والزراعة، وإنما كان لأغراض استعمارية استيطانية من أجل السيطرة على أكبر مساحة من الأرض من خلال تقديم القروض للمزارعين وكبار الملاك بضمان أراضيهم، ومن ثم السيطرة على هذه الأراضي، وقد احتوت الصحف المحلية وسجلات المحاكم الشرعية على أمثلة عديدة تظهر دور اليهود في عمليات الإقراض، فعلى سبيل المثال صدر عن دائرة إجراء يافا إعلان يقضي بطرح حصة الشيخ موسى والشيخ حسن الوحيدي من أهالي قرية المخيزن البالغة مساحتها 531 دونمًا في المزاد العلني؛ لأجل استيفاء الدين عليهما، ومقداره ألف ومائتان وعشر ليرات فرنسية مع

الفائدة والمصاريف المحكوم بها إلى سلمون مرخادي برسكي اليهودي العثماني المقيم في يافا[132].

وظهر جول روزنك اليهودي الفرنسي كأحد أكبر المقرضين في حيفا، وتمتاز عمليات الإقراض التي قام بها بارتفاع المبالغ المقترضة واتساع مساحة الأراضي المرهونة، فتذكر إحدى الحجج الشرعية من محكمة حيفا الشرعية أن عزيز بن عبد الفتاح الميقاتي من حيفا وَكَّلَ جول روزنك ببيع كامل حصته في جميع (التسع) قطع أراضي الواقعة في قرية سارونا[133] في قضاء طبريا، وبيعها بيعًا باتًّا لمن يشاء بعد أن استدان منه مبلغ 1000 ليرة عثمانية[134]، وفي حجة أخرى أن لمعة بنت صادق باشا كريمة عزيز أفندي الميقاتي اقترضت مبلغ 300 ليرة فرنسية (31.500 قرش) من جول روزنك اليهودي الفرنسي، وفي مقابل ذلك وَكَّلته ببيع ما تملكه من أراضٍ في قيسارية[135] والنطالة والزرغانية في ناحية قيسارية[136].

وأشارت حجة أخرى إلى أن هنري ولطف الله ابني جرجي لطف سرسق من بيروت، ونقولا الخوري من الناصرة رهنوا أراضيهم في سهل الناصرة (مرج بني عامر) إلى إفرايم بن لبيب كروس الإسرائيلي العثماني من حيفا بمبلغ 10.000 ليرة عثمانية[137].

وكان بعض هؤلاء اليهود يحملون التبعية (الجنسية) العثمانية، وبعضهم الآخر يحمل تبعية الدول الأوروبية، فمثلاً أشارت السجلات الشرعية في محكمة حيفا الشرعية إلى يعقوب دانيال اليهودي العثماني، وسيمون جوردا اليهودي الفرنسي، والياهو شايد اليهودي الفرنسي، وقد هاجر هؤلاء إلى فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وحصل بعضهم على التبعية العثمانية، في حين احتفظ معظمهم بالتبعيات الأوروبية، وعمل هؤلاء في خدمة المشروع الصهيوني في فلسطين مستغلين تبعيتهم للدول الأوروبية في شراء الأراضي، ولا سيما أن نظام الامتيازات وقانون تملك الأجانب لعام 1886م وحالة الفقر التي يعيشها الفلاحون؛ أعطى هؤلاء

الحرية الواسعة في شراء الأراضي وتملكها في فلسطين؛ تمهيدًا لإنشاء المستعمرات اليهودية عليها[138].

الخلاصة:

شهدت فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية مهمة تمثلت في حركة الإصلاحات العثمانية وازدياد التغلغل السياسي والاقتصادي الأوروبي فيها، وترافق ذلك مع توسع الحركة التجارية مع أوروبا.

بدأت حركة الإصلاحات العثمانية بصدور خط شريف غولخانة عام 1839م وتبعه صدور التنظيمات الخيرية (خط شريف همايون) عام 1858م، وقد تضمنت هذه الإصلاحات تعهدًا بالعمل على إصلاح التعليم والقضاء والإدارة.

وفي عام 1864م صدر قانون الولايات والذي أعاد تنظيم ولايات الدولة العثمانية وغَيَّرَ نظام الإدارة العثمانية من نظام الإدارة اللامركزية إلى نظام إداري مركزي بحيث أصبح جميع الموظفين في الولاية يتبعون لمن هو أعلى منهم في العاصمة وليس لوالي الولاية كما كان سابقًا، ومُنِعَ الولاة والموظفون الإداريون من ممارسة الأعمال المالية والتجارية، واقتصر على العمل الإداري فقط.

وقد أدى ذلك إلى ازدياد أعداد الموظفين الإداريين في الولايات والألوية بعد أن أنشئت فيها أجهزة إدارية خاصة بالتعليم والصحة والشرطة والقضاء، لم يقتصر وجود هذه الأجهزة على مراكز الولايات، بل امتدت إلى مراكز الألوية الأقضية والنواحي أيضًا.

وقد ترافقت هذه الإصلاحات بإصدار القوانين المتعلقة بملكية الأرض، وأولها قانون تمليك الأراضي الميري لعام 1858م والذي سمح للفلاحين بتمليك الأراضي التي كانوا يزرعونها مقابل دفع رسوم تسجيلها بعد أن كانت أراضِيَ مشاعية تعود ملكيتها للدولة لا يجوز التصرف فيها بالبيع والشراء.

وقد أدى القانون إلى ظهور فئة من كبار الملاك استطاعت عن طريق الشراء والديون تملك مساحات واسعة من الأراضي، بحيث أصبح عدد محدود من هؤلاء يملكون مئات الآلاف من الدونمات، واستطاع نقولا سرسق من تجار بيروت شراء أراضي سبع وعشرين قرية في سهل مرج بن عامر، واشترى سليم الخوري من تجار حيفا أراضيَ قرى كاملة، مثل: الباجور وبريكة والهريج والخضيرة والنفيعات.

وأصدرت الدولة العثمانية في عام 1868م قانون تملك الأجانب الذي سمحت بموجبه لهم بشراء الأراضي وتملكها، وقد أتاح هذا القانون للأجانب، وبخاصة اليهود شراء الأراضي وتملكها في فلسطين، لا سيما أن القانون تزامن مع ظهور الحركة الصهيونية التي أخذت تسعى منذ نشوئها إلى تهجير اليهود إلى فلسطين، وشراء الأراضي لإقامة المستعمرات اليهودية عليها، وقد استطاع اليهود الذين يحملون التبعية الأجنبية من شراء مساحات واسعة من الأراضي على الرغم من التعليمات التي أصدرتها الدولة، والتي تمنع اليهود من شراء الأراضي وتملكها، ولكن هذه التعليمات لم تكن تنفذ على أرض الواقع، ووجد اليهود العديد من الطرق للتهرب منها.

ترافقت هذه التطورات مع الأوضاع الاقتصادية والمعيشية القاسية التي كان يعاني منها الفلاحون نتيجة ارتفاع الضرائب المفروضة عليهم، وإهمال الدولة وعدم اهتمامها بتحسين أوضاعهم، مما دفع بعضًا من هؤلاء إلى بيع أراضيهم لأثرياء المدن، وتجارها، في حين اتجه البعض الآخر إلى الاستدانة من المرابين والبنوك بضمان أراضيهم على أمل أن يقوم بالسداد، ولكن ارتفاع فوائد القروض وتدني الإنتاج الزراعي وكثرة الضرائب أدى إلى عجزهم المستمر عن السداد، مما كان يضطرهم إلى التنازل عن أراضيهم لهؤلاء المقرضين (المرابين).

أدت الإصلاحات العثمانية إلى تغير في تركيبة المجتمع الفلسطيني، فقد كان هذا المجتمع قبل التنظيمات يتكون من فئتين أساسيتين، هما: الولاة وكبار الموظفين ويشكلون الفئة العليا والثرية، ويشرفون على الإدارة والحكم، ويمارسون التجارة إلى جانب المشايخ والمتنفذين الذين كانوا يجمعون الضرائب عن طريق الالتزام. وذلك في

مقابل الفلاحين الذين يشكلون أغلبية السكان، إلى جانبهم فئة محدودة من أصحاب الحرف اليدوية والمهن التجارية وأصحاب الوظائف الدينية.

أما بعد التنظيمات، أخذت تركيبة المجتمع في التغير التدريجي، فبدأت الفئة الرأسمالية المكونة في الأساس من تجار المدن بالظهور والازدياد، والتي بدأت بالتوسع في أعمالها الاقتصادية والتجارية والمالية وساعدها على ذلك ازدهار الحركة التجارية مع أوروبا فتراكمت لديها الأموال والثروة فاتجهت إلى الاستثمار في الأراضي والزراعة ولا سيما مع ازدياد الطلب الأوروبي على المحاصيل المحلية.

كانت هذه الفئة الرأسمالية تتكون من تجار وأثرياء المدن، مثل: تجار بيروت والذين انتقل بعضهم إلى المدن الساحلية الفلسطينية في حين فضل البعض الآخر البقاء في بيروت والإشراف على أعماله التجارية فيها، إضافة إلى ذلك هناك فئة التجار والأثرياء في المدن الفلسطينية، مثل: حيفا وعكا ويافا وغزة ونابلس والخليل والتي استطاعت هي الأخرى امتلاك مساحات واسعة من الأراضي في مختلف أنحاء فلسطين، وتضم هذه الفئة عددًا من الأعيان والمتنفذين الذين استطاعوا عن طريق الشراء والإقراض امتلاك مساحات واسعة من الأراضي.

في مقابل هذه الفئة كان هناك الفلاحون والذين ازدادت أوضاعهم سوءًا مع تطبيق التنظيمات العثمانية، وأصبحوا يتكونون من فئتين: الفلاحون الذين يملكون الأرض ويعملون بها، والفلاحون الذين لا يملكون الأراضي، وإنما يعملون في الأراضي التي يملكها التجار والأثرياء، وكلتا الفئتين عانت من النتائج السلبية للتنظيمات العثمانية والتي تمثلت في الضرائب التي كانت تدفع إلى، إضافة إلى ما كان على الفلاحين المستأجرين دفعه إلى كبار الملاك لقاء عملهم في أراضيهم واستغلالهم لها.

الحواشي (الهوامش):

1 - نوفل (مترجم)، الدستور العثماني، ج1، ص36-15؛ زهير، عكا ص325-307.

Kennth Stein> The Land Guestion Pp. 10-12 Samuel Bergheim> Land Tenure> Palestine Exploration Found> 1894> P. 191.

2 - أصدرها الآباء اليسوعيون في بيروت في أيلول (سبتمبر) 1870م، طرازي، تاريخ الصحافة، ج3، قسم 1، ص4، أديب، الصحافة، ص146.

3 - البشير، العدد 444، 14 آذار (مارس) 1879م،ص4.

4 - البشير، العدد 1642، 26آذار (مارس) 1904م، ص3.

5 - البارة: عملة فضية عثمانية تساوي 10 فلوس، والقرش يساوي 40 بارة. الكرملي، النقود، ص166.

6 - البشير، العدد 1651، 30آيار (مايو) 1904م،ص3.

7 - صحيفة صدرت في يافا في سنة 1911م، حتى عام 1948م، خوري، الصحافة، ص 20.

8 - الكيلة: الوحدة المعيارية في الدولة العثمانية منذ عام 1841م، وتساوي 35.27 لترًا، بشارة دوماني، إعادة اكتشاف، ص98.

9 - فلسطين، العدد 169، 25 آب (أغسطس) 1912م، ص1.

10 - الليرة العثمانية: وحدة النقد الرئيسة في الدولة العثمانية منذ سنة 1260هـ/1844م، وعرفت بالليرة المجيدية نسبة إلى السلطان عبد المجيد، وتساوي 100 قرش و5 ريالات مجيدية. الأنسي، دليل بيروت، ص66، الكرملي، النقود، ص98، 169.

11 - البشير، العدد 1695، 3نيسان (أبريل) 1903م/ص3، الطراونة، يافا، ص296-290.

12 - البشير، العدد 1567، 10 تشرين الثاني (نوفمبر) 1902م، ص2.

13 - المنادى، العدد 37، 22 تشرين الأول (أكتوبر) 1912، ص2.

14 - ولد في نابلس عام 1885م، درس فيها ثم تابع دراسته في الأستانة وفي جامعة السوربون الفرنسية، عمل مدرسًا في أواخر الحكم العثماني وخلال الاحتلال البريطاني لفلسطين. توفي عام 1956م. الزركلي،الأعلام ج3، ص 30، محمد، أعلام، ج3، ص 145-143، العودات، أعلام، ص 79، 80.

15 - محمد بهجت الكاتب، ولد في حلب عام 1890م، درس اللغتين العربية والتركية، عمل في الصحافة في الأستانة ومعلمًا للفلسفة في بيروت، التميمي وبهجت ولاية بيروت، لواء نابلس ج1، ص 10، 11.

16 - التميمي، وبهجت؛ لواء نابلس، ج1، ص77.

17 - البشير، العدد 1290، 12تموز 1897، ص2، والعدد 1079، 12أيلول (سبتمبر) 1892/ص2، العورة، سليمان، ص187،186، زهير، عكا ص 133-129.

18 - صحيفة البشير، العدد 64، كانون الأول 1875م، ص2.

19 - صحيفة البشير، العدد 397، 19 نيسان 1878م، ص3.

20 - مجلة المقتطف، ج8، آب 1908، ص 815.

21 - عملة فرنسية استخدمها السكان في بلاد الشام في نهاية العصر العثماني، وكانت تساوي خمسة قروش صاغ عثمانية. زهير، عكا، ص 523، أمين، ملكية، ص20.

22 - صحيفة الاتحاد العثماني، العدد 421، 7 شباط (فبراير) 1910، ص 2، 3.

23 - البديري الحلاق، حوادث دمشق ص92-89، حنانيا المنير، الدر، ص102.

24 - صحيفة البشير، العدد 406، 2 حزيران (يونيو) 1878، ص4.

25 - البشير، العدد 1482، 1 نيسان (أبريل) 1901م، ص102، أسعد، الناصرة، ص95.

26 - حنا صلاح، فلسطين، ص31.

27 - الأُوقَّة: وتساوي 1.28 كيلو غرام. دوماني، اكتشاف فلسطين، ص297.

28 - التميمي وبهجت، ولاية بيروت، القسم الجنوبي، ص242، 243، (طبعة 1916م).

29 - مرج بن عامر: يقع شمال فلسطين ويفصل جبال الجليل عن جبال نابلس، ويمتد بشكل طولي من الغرب إلى الشرق ما بين حيفا غربًا إلى بيسان وجنين شرقًا.

30 - المقتبس، العدد 552، 11 كانون الأول، 1910م، ص1، جريدة «ولاية سوريا»، العدد 980، 10 تشرين الأول (أكتوبر) 1884م، ص2؛ Oliphant، Haifa، P.59

31 - زهير، عكا، ص 354-335.

32 - أديب ومؤرخ من رجال الكنيسة الإنجيلية في فلسطين، ولد في شفا عمرو، ودرس في القدس، عمل مدرسًا في القدس ويافا وقسًا في الناصرة ورام الله، ألف عدة كتب، منها تاريخ الناصرة، توفي سنة

1941م، عادل، أعلام، ص347، 348، محمد، أعلام، ج1، ص 321، 322.

33 - أسعد، الناصرة، ص98.

34 - جريدة فلسطين، العدد 87، 5 تشرين الثاني (نوفمبر) 1911م، ص2، والعدد 104، 7 كانون الثاني (يناير) 1912م، ص3، زهير، عكا، ص397،398.

35 - أبو بكر، ملكية، ص522.

36 - يقصد الفترة التي تلت إعلان العمل بالدستور العثماني منذ عام 1908م.

37 - يقصد فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني ما بين عامي 1908-1876م.

38 - التميمي وبهجت، ولاية بيروت الجزء الأول (لواء نابلس)، ص76.

39 - صحيفة يومية سياسية وأدبية واجتماعية، أصدرها الشيخ أحمد حسن طباره في بيروت في 20 أيلول (سبتمر) 1908م. طرازي، تاريخ الصحافة ج1، ص10.

40 - الاتحاد العثماني، العدد 164، 24 آذار (مارس) 1909، ص1، 2.

41 - ولد في نابلس عام 1905م، شارك في الحركة الوطنية الفلسطينية، ألف العديد من الكتب، منها تاريخ جبل نابلس والبلقاء، نبال، تراجم، ص 234، محمد، أعلام، ج1، ص 123-120.

42 - إحسان، تاريخ، ج3، ص50.

43 - نوفل، «الدستور»، ج2، ص 31-19، زهير، عكا، ص493، عبد العزيز، الإدارة ص171، الاتحاد العثماني، العدد 168، 28 آذار (مارس) 1909م، ص1، 2.

44 - دير طريف: قرية تقع شمال شرق الرملة. أبو حمود، المواقع، ص89.

45 - قرية تقع إلى الشمال من مدينة عكا، أبو حمود، ص 190.

46 - الطراونة، قضاء يافا، ص342.

47 - إحدى النواحي التي كانت تتبع لمتصرفية القدس، أمين، ملكية، ص 175-156..

48 - أمين، ملكية الأراضي، ص528، 529.

49 - الطراونة، يافا، ص 342.

50 - عارف، غزة، ص195، 196.

51 - الاتحاد العثماني، العدد 168، 28 آذار (مارس) 1909، ص1، 2.

52 - رجائي، ضريبة العشر، ص 444، زهير، عكا، ص 485، 486؛ أمين، ملكية، ص529، 530؛ عارف، «المفصل»، ص 330، 331.

53 - صحيفة «الاتحاد العثماني»، العدد 272، 10 آب (أغسطس) 1909م، ص4. العدد 166، 26 آذار (مارس) 1909، ص1،2.المنادى، العدد 19، 11 حزيران (يونيو) 1902، ص2.

54 - Conder. Tent Works . P .265-266.

55 - الاتحاد العثماني، العدد 148، 5 آذار (مارس) 1909م، ص1،2.

56 - التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ص498-177، 501 (طبعة 1916م).

57 - الاتحاد العثماني، العدد 166، 26 آذار (مارس) 1909م، ص1،2

58 - فلسطين، العدد 143، 26 أيار (مايو) 1912م، ص1.

59 - فلسطين، العدد 166، 15 آب (أغسطس) 1912م، ص1.

60 - أسعد، الناصرة، ص406، رجائي، ضريبة العشر، ص 446.

61 - Bergheim. Lond Tenure PP 195-199. ، انظر أيضا صحيفة الاتحاد العثماني، العدد 148، 5آذار (مارس) 1909م، ص 1،2، والعدد 164، 24 آذار (مارس) 1909، ص1،2.

62 - حنا صلاح، فلسطين، ص 48، عارف، المفصل، ص 331، غزة، ص 193؛ زهير، عكا، ص 494، إحسان، نابلس ص 46،47، محمد، خطط، ج5، ص81.

63 - سالنامة ولاية سوريا لعام 1303هـ / 1885م، ص200.

64 - سالنامة ولاية سوريا لعام 1310هـ / 1895م، ص 474، 475..

65 - الطراونة، يافا، ص 346.

66 - عارف، غزة، ص193.

67 - شولش، تحولات ص 295.

68 - سالنامة ولاية سوريا لعام 1303هـ، 1885م، ص 220، 221، سالنامة ولاية بيروت لعام 1310هـ/ 1893م، ص 474، 475.

69 - عارف، غزة، ص196.

70 - عارف، غزة، ص196.

71 - تقع إلى جنوب غرب مدينة نابلس. أبو حمود، المواقع، ص222.

72 - قرية جنوب غرب نابلس. حسن، المواقع، ص159.

73 - تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة نابلس. أبو حمود، المواقع، ص106.

74 - حوران: اسم يطلق على الأراضي الواقعة جنوب سوريا وشمال الأردن، وكانت المنطقة تشتهر بزراعة الحبوب ولاسيما القمح.

75 - التميمي وبهجت، ولاية بيروت، ج1، نابلس ص77.

إن تفسير ذلك هو انتقال هذه الأسرة إلى المناطق التي لا تستطيع الدولة الوصول إليهم فيها، حيث أشارت بعض المصادر أن بعض الناس كانوا ينتقلون إلى المناطق النائية والمعزولة بعيدًا عن مراقبة رجال الدولة، إضافة إلى أنه يصعب الوصول إليهم فيها.

76 - قرية تقع جنوب شرق الرملة. الخالدي، كي لا ننسى ص180، 181.

77 - بيرغهايم: يهودي ألماني ينتمي إلى عائلة بيرغهايم المقيمة في القدس التي امتلكت أراضيَ واسعة في القدس ويافا والرملة. شولش، تحولات، ص 141، رافق، فلسطين، ص951.

78 - شولش، تحولات، ص 141، زهير، عكا، ص 364، أمين، ملكية، ص530، رافق، فلسطين، ص951.

79 -جريدة «ولاية سوريا»، العدد 1061، 17 شعبان 1303هـ/21 أيار (مايو) 1886م، ص2، المقتبس العدد 1298، 21 شوال 1331هـ/33 أيلول (سبتمبر) 1913، ص2.

– الكرمل، العدد 748، 17 أيلول (سبتمبر) 1921، ص4، والعدد 747، 14 أيلول 1921، ص4.

80 - جريدة المقتبس، العدد 1216، 13 حزيران (يوليو) 1913م، ص3، البشير، العدد 1658، 19تموز (يوليو) 1905م، ص2، زهير، عكا، ص 525، 526، أمين، ملكية ص 525، العارف، غزة، ص192.

81 - تقع إلى الشرق من مدينة يافا، الخالدي، كي لا ننسى، ص 724-722.

82 - الطراونة، قضاء يافا، ص 386، أمين، ملكية، ص 545، 546.

83 - انظر دفتر زراعة بائقة (أراضي دفتري، سجل 3).

84 - صحيفة أسبوعية أصدرها محمد كامل البحيري في طرابلس الشام عام 1893م، التميمي وبهجت، ولاية بيروت، القسم الشمالي، ص262، زهير، عكا، ص14.

85 - القرش الرائج: استخدم في الدولة العثمانية، ويساوي عشرة (10 بارات)، في حين يساوي القرش

الصحيح 40 بارة. الكرملي،النقود، ص 181-179.

86 - طرابلس الشام، العدد 111، 21 أيار (مايو) 1895، ص4.

87 - قرية تقع جنوب حيفا، أبو حمود، المواقع، ص144.

88 - من العملات الأوروبية التي انتشرت في الدولة العثمانية وكانت تساوي 100 قرش. أمين، ملكية، ص 20، زهير، عكا، ص 523-521.

89 - سجلات المحكمة الشرعية في حيفا، ش261، س5، ص112، ن 142، 19 رجب 1330هـ/ 2 تموز (يوليو) 1912م.

90 - صدرت في القدس في 8 شباط 1912م. يوسف، الصحافة ص22.

91 - أمين، ملكية، ص 545، 546.

92 - فلسطين، العدد 87، 17 تشرين الأول (أكتوبر) 1911م، ص3.

93 - فلسطين، العدد 96، 20 تشرين الأول (أكتوبر) 1911م، ص2.

94 - البشير، العدد 1658، 5 جمادى الأولى 1322هـ، 18 تموز(يوليو) 1904م، ص2.

95 - جريدة أسبوعية حكومية كانت تصدرها ولاية سورية في دمشق في يوم الثلاثاء من كل أسبوع. زهير، عكا ص15.

96 - قرية تقع إلى جنوب شرق مدينة عكا. أبو حمود، المواقع، ص192.

97 - من النقود الفضية التي ضربت في عهد السلطان عبد المجيد، 1844م. الطراونة، قضاء يافا، ص425.

98 - جريدة «ولاية سوريا»، العدد 1090، 27 ربيع الأول 1304هـ / 24 كانون الأول (أكتوبر) 1886م، ص2.

99 - إحسان، نابلس، ج3، ص50، 51.

100 - قرية إلى الجنوب الشرقي من يافا، الخالدي، كي لا ننسى، ص 693-690.

101 - قرية شمال مدينة غزة. أبو حمود، المواقع، ص51.

102 - صحيفة فلسطين، العدد 283، 12 تشرين الأول 1913م، ص4.

103 - الطراونة، قضاء يافا، ص 389.

104 - سجلات محكمة حيفا الشرعية، ش 141، س 8، ص124، ن 8، 25 تشرين الأول (أكتوبر) 1909م.

105 - المقتبس، العدد 1127، 11 آذار 1913م، ص3، الطراونة، قضاء يافا، ص 389.

106 - التميمي وبهجت، ولاية بيروت، لواء نابلس، ص75، 76.

107 - أصدرها في دمشق محمد كرد علي في 16 كانون الأول (ديسمبر) 1908م. طرزي،تاريخ الصحافة، ص13.

108 - صحيفة المقتبس، العدد 946، 3 نيسان (أبريل) 1912م، ص1.

109 - رحالة مصري، زار بيروت والقدس ودمشق عام 1882م وغيرها من المدن الشامية، ودون ملاحظاته هذه في كتاب سماه (نفحة البشام في رحلة الشام)، انظر القاياتي، نفحة البشام، ص5-11.

110 - من كبار الملاك في مدينة الناصرة في نهاية العصر العثماني. القاياتي، نفحة البشام، ص105-106.

111 - القاياتي، نفحة البشام، ص 105، 106.

112 - دمشقي عمل لحساب صندوق اكتشاف فلسطين، دون مشاهداته في أثناء عمله في كتاب سماه (الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية). رافق، فلسطين ص980.

113 - تقع إلى جنوب غرب مدينة نابلس، أبو حمود، المواقع، ص222.

114 - رافق، فلسطين، ص 949.

115 - دفتر خاقاني أراضي، من عام 1307هـ – 1329هـ،، ص 184-1.

116 - أمين، ملكية ، ص 537 – 539.

117 - تقع إلى الغرب من مدينة القدس. الخالدي، كي لا ننسى، ص 643-638.

118 - إحدى النواحي التي كانت تتبع لمتصرفية القدس. أمين، ملكية، ص 164، 165.

119 - أمين، ملكية الأراضي، ص 544-541.

120 - سجلات محكمة حيفا الشرعية، ش 141، س9، ص 114، ن 652، 7 ربيع الآخر 1332هـ/ 4آذار (مارس) 1914م.

121 - الجدول مستخلص من سجلات المحكمة الشرعية في حيفا.

122 - من قرى الناصرة إلى الجنوب الغربي منها. الخالدي، كي لا ننسى، ص 679-677.

123 - جريدة «ولاية سوريا»، العدد 1080، 15 تشرين الأول (أكتوبر) 1886م، ص2.

124 - أحد أشكال بيع الأرض، إذ ترهن الأرض عند أحد الأغنياء، لفترة محددة حتى يتم سداد الدين (الرهن) وإذا لم يتم ذلك تباع الأرض بالمزاد العلني، ويسترد الراهن ماله، أو يأخذ الأرض بدلاً من المال، زهير، عكا، ص327.

125 - جريدة ولاية سوريا، العدد 1134، 12 تشرين الثاني (نوفمبر) 1887م، ص2.

126 - قبيلة تركية هاجرت إلى فلسطين خلال الحروب الصليبية وأقامت في غرب سهل مرج بن عامر غربًا حتى عرف هذا الجزء باسم مرج التركمان، علياء الخطيب، عرب، ص35-15 .

127 - جريدة ولاية سوريا، العدد 1143، 13 كانون الثاني (يناير) 1888م، ص2.

128 - سجلات حيفا، ش 141، س 9، ص 589، ن 74، 8 صفر 1332هـ / 6 كانون الثاني (يناير) 1913م.

129 - قرية نهر المفشوخ: تقع قرب مدينة عكا.

130 - البيع والفراغ الوفائي: هو البيع الذي لا رجوع عنه.

131 - سجلات حيفا، ش 141، س 8، ص 189، ن 43، 27 ربيع الأول 1328هـ / 8 نيسان (أبريل) 1910م.

132 - الطراونة، قضاء يافا، ص281.

133 - قرية تقع إلى الشمال من يافا. أبو حمود، المواقع، ص 109.

134 - سجلات حيفا، ش 141، س 9، ص 82، ن 601، 21 صفر 1332هـ / 19 كانون الثاني (يناير) 1914م.

135 - تقع جنوب حيفا على ساحل البحر المتوسط، أبو حمود، المواقع، ص171، الخالدي، كي لا ننسى، ص129-127.

136 - سجلات حيفا، ش 141، س 9، ص 23، ن 414، 5 من ذي القعدة 1331هـ / 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1913م.

137 - سجلات محكمة حيفا الشرعية، ش 141، س 10، ص 55، ن 717، 4 رمضان 1332هـ / 27 تموز (يوليو) 1914م.

138 - مناع، فلسطين، ص232-227، زهير، عكا، ص194-177.

قائمة المصادر والمراجع

1 - الوثائق:

1 - دفتر خاقاني أراضي من سنة 1307هـ – 1329هـ، أراضي ورهونات.

2 - دفتر زراعة بانقة (أراضي ورهونات) سجل 3.

3 - سالنامة ولاية بيروت لعام 1310هـ / 1893م.

4 - سالنامة ولاية سورية لسنة 1303هـ/1885م.

2) **المصادر والمراجع**

1 - إبراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، نشرة الخوري، قسطنطين المخلصي، صيدا، دير المخلص 1936م.

2 - إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، نابلس، مطبعة النصر التجارية، الطبعة الأولى، 1961م.

3 - أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية 1175-1154هـ/1762-1740م، تنقيح محمد سعيد القاسمي، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية 1379هـ/1959م.

4 - أسعد منصور، تاريخ الناصرة، القاهرة، دار الهلال، الطبعة الأولى، 1923م.

5 - الكزاندر شولش، تحولات جذرية في فلسطين 1882-1856م، ترجمة كامل العسلي، عمان منشورات الجامعة الأردنية، الطبعة الأولى، 1989م.

6 - أمين أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس 1918-1885م، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، الطبعة الأولى، 1996م.

7 - بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين، أهالي جبل نابلس 1900-1700م، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، 1988م.

8 - حسن عبد القادر، قسطندي نقولا أبو حمود، عادل شحادة غوشة، محمد محمود السرياني، المواقع الجغرافية في الأردن وفلسطين، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر.

9 - حنا صلاح، فلسطين وتجديد حياتها، نيويورك، المطبعة التجارية الأمريكية، الطبعة الأولى، 1919م.

10 - حنانيا المنير، الدر المرصوف في تاريخ الشوف، تحقيق أغناطيوس، جوزف البان جروس برس، دون تاريخ الطبعة أو مكانها.

11 - خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة 1983م.

12 - رجائي الحسيني، ضريبة العشر المستبدلة، مجلة الكلية، م16، ج1/ أيلول 1930م.

13 - زهير غنايم، لواء عكا في فترة التنظيمات العثمانية 1864 - 1918م، بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى 1999م.

14 - شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخطيب 1800 - 1914م، ترجمة عباس حامد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى 1990م.

15 - عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، القدس، دون دار النشر، الطبعة الأولى 1961م.

16 - عبد الباسط الأنسي، دليل بيروت، تقويم الإقبال لسنة 1327هـ/ 1980م، مطبعة الإقبال.

17 - عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، 1281 - 1333هـ/ 1864 - 1914م، القاهرة، مطبعة المعارف 1969م.

18 - عبد الكريم رافق، فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني،الدراسات الخاصة، المجلد الثاني، الدراسات التاريخية، بيروت، الطبعة الأولى 1990م.

19 - فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية 1330هـ/ 1912م.

20 - قسطندي نقولا أبو حمود، المواقع الجغرافية في فلسطين، القدس جمعية الدراسات العربية 1984م.

21 - محمد سالم الطراونة، قضاء يافا في العهد العثماني 1864 - 1914م، دراسة اقتصادية اجتماعية،

عمان، نشر بدعم من وزارة الثقافة، الطبعة الأولى 2000م.

22 - محمد رفيق التميمي، محمد بهجت الكاتب، فلسطين في نهاية العصر العثماني من خلال الرحلة التي قاما بها تحت عنوان ولاية بيروت، الجزء الأول، لواء نابلس، الجزء الثاني، لواء عكا، دراسة وتحقيق زهير غنايم، محمد محافظة، عمان، الشركة الجديدة للطباعة والتجليد، الطبعة الأولى 2000م.

23 - مرمرجي الدومنيكي، بلدانية فلسطين العربية، قام بالفهرسة، محمد خليل الباشا، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى 1987م.

24 - محمد عبد الجواد القاياتي، نفحة البشام في رحلة الشام، بيروت، دار الرائد العربي 1981م.

25 - محمد عزة دروزه، نشأة الحركة العربية، بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، الطبعة الثانية، 1983م.

26 - محمد عمر حمادة، إعلام فلسطين، دمشق، بيروت، دار قتيبة، الطبعة الأولى 1412هـ/ 1991م.

27 - نبال تيسير خماش، تراجم أعيان مدينة نابلس وريفها في 900، عام عمان، الطبعة الأولى 1995م.

28 - نعمة الله نوفل (مترجم) الدستور العثماني، مجموعة القوانين العثمانية، بيروت، المطبعة الأدبية 1988م.

29 - وليد الخالدي، كي لا ننسى، قرى فلسطين، التي دمرتها إسرائيل سنة 1948م، وأسماء شهدائها، ترجمة حسني زبنه، تدقيق سمير الديك، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى.

30 - يوسف خوري، الصحافة العربية في فلسطين 1876م- 1948م، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الثانية 1986م.

31 - يعقوب العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، عمان، بدون ناشر، الطبعة الثانية 1987م.

2) الصحف والمجلات مصورة على أشرطة ميكروفيلم، مكتبة الجامعة الأردنية.

- الاتحاد العثماني
- مجلة المقتبس
- البشير
- مجلة المنادى
- مجلة المقتطف
- مجلة ولاية سورية

3) المراجع والمصادر باللغة الإنجليزية:

- Bergheim، Somuel، Land Tenure In Palestine PEF 1894.
- Oliphant، Laurance، Haifa or life in modern Palestine، Edinburgh and London، William Black Wood and Sons 1887.
- Conder، Claude، Tent Works in Palestine، London 1875.

التحليل الجيومورفولوجي للخصائص المورفومترية للجزء الأعلى من حوض وادي الرميمين وحوض نهر تكالا

- دراسة مقارنة في الجيومورفولوجيا المناخية -

د. صبري محمد التوم*

الملخص

ركزت الدراسة على التحليل الجيومورفولوجي للخصائص المورفومترية لحوضي نَهْرَي (حوض تكالا والجزء الأعلى من حوض الرميمين)، إذ يقعان في إقليمين مناخيين مختلفين تمامًا (الاستوائي والبحر المتوسط شبه الجاف). وقد تم تحديد الشبكة النهرية في كلا الحوضين بالاعتماد على الخرائط الطبغرافية، والصور الجوية (1: 25000)، والعمل الميداني. وأظهرت الدراسة مجموعة من الحقائق المتمثلة في: وجود اختلافات أساسية في الخصائص المورفومترية بين الحوضين (أطوال الروافد، و مساحة الأحواض، والكثافة، والتكرار النهري، والاستطالة، والاستدارة، ونسبة التضرس، وانحدار الروافد)، وأرجع الاختلاف في هذه الخصائص إلى الظروف المناخية. انطبقت قوانين هورتون على كلا الحوضين، وقد أخذت العلاقة بين مجموعة من المتغيرات المورفومترية (متوسط مساحة الأحواض، ومتوسط أطوال الروافد، وعدد الروافد، ومتوسط درجات انحدار الروافد، والتكرار النهري) والمرتبة النهرية العلاقة الأُسية (ص = أس ب) . أظهر توفيق المنحنيات أن العلاقة الأُسية (ص =أس ب) كانت أفضل الروابط التي أظهرها التحليل في العلاقة بين المؤشرات المختلفة سواء كانت العلاقة سالبة أو موجبة، فقد ارتبطت مساحة الأحواض بعلاقات ارتباط موجبة وأُسية مع أطوال الروافد في المرتبتين الأولى والثانية في كلا الحوضين. وسجل مؤشر أطوال الروافد أعلى معامل تحديد (80 %) مع مساحة الأحواض في المرتبة الأولى. ارتبطت الكثافة التصريفية بعلاقة أُسية سلبية مع مساحة الأحواض في المرتبتين الأولى والثانية، في حين كانت أُسية إيجابية مع التكرار النهري، واحتل التكرار النهري الدرجة الأولى تفسيرًا للتباين في الكثافة التصريفية من بين المؤشرات المورفومترية.

---

* *أستاذ الجغرافيا الطبيعية والخرائط المشارك - الجامعة الإسلامية – غزة- فلسطين*

Geomorphological analysis of Morphometric Characteristics of the Upper Part of the Rumeimine and Tekala Catchments:

A study in the Climatic Geomorphology

Dr. SAbri Mohammed AlTom

Abstract

The study concentrated on the Geomorphological analysis of morphometric characteristics of two catchments (The upper parts of the Rumeimine and Tekala) which are located in two different climate regions (Tropical and semiarid). The network was defined in both catchments depending on topographic maps, Arial photographs (1: 25000) and fieldwork. The study showed a group of main basic different facts in the morphometric characteristics between the two catchments (Stream length; Catchment area; Drainage density; Stream frequency, Elongation; Circularity; Relative relief and Streams slopes). The difference is endowed to climate conditions. Horton's laws were applied in both cachments gave the power equations (Y=aXb) between morphometric variables: (mean of basin area, mean of Stream length, Stream number, mean of Streams slopes, Stream frequency and stream order). Curves fitting indicate that the power equations (Y=aXb) is the best relation between different indices, whether the relation is negative or positive. The basin area is positively correlated with stream length in both the first and second stream orders in both catchments. The index of stream length shows the highest Coefficients of Determination (80%) with the basin area in the first order. The relationships between the stream density and the basin area in the first and the second order are negatively correlated with exponential equation (Y=aXb) where it was powerly correlated with stream frequency. The stream frequency holds the first class in the interpretation of variance in the drainage density of the morphometric indices.

المقدمة

استحوذت دراسة الأحواض النهرية على جانب كبير من الدراسات الجيومورفولوجية، فركزت على كيفية تشكيل سطح الأرض بواسطة المياه الجارية، وكيفية تحرك مياه الأمطار على السفوح، ومن ثم إلى الروافد النهرية. تشكل الشبكات النهرية الوسيط الذي من خلاله يتم نقل المياه، والحمولة خلال الأحواض النهرية، وتُعَدُّ شبكات التصريف المائي في الأحواض النهرية انعكاسًا حقيقيًّا للعوامل البيئية الطبيعية متمثلة في الوضع الجيولوجي والبنية الجيولوجية والظروف المناخية والنباتية، ومن ثم أي تغيرات تحدث لهذه العوامل تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في الشبكة المورفومترية للأحواض النهرية، والتي بدورها تؤثر في تطوير أشكال أرضية في أحواض التصريف النهري من خلال نشاط عمليات الحت والنقل والإرساب النهري .

زاد الاهتمام بالدراسات المورفومترية لشبكات الأنهار بعد الدراسة الرائدة لهورتون في النصف الأول من القرن الماضي (Horton، 1945)، وتبع ذلك مجموعة من الباحثين أمثال (1955) Maxwell، و(1956) Schumm، و(1957) Strahler، و(1959) Morisawa، (1966) Shreve، و(1984) Abrahams، وسلامة (1980)، وعاشور (1983)، و التركماني (1988) ، وبوربة (2002). أظهرت تلك الدراسات أن الخصائص المورفومترية للأحواض النهرية هي نتاج العوامل الطبيعية المتمثلة في التكوين الصخري، والبنية، والمناخ، والنبات، وحاول الباحثون إيجاد علاقات ما بين خصائص الشبكات النهرية المورفومترية وبعض المؤشرات الطبيعية مثل: العلاقة بين الكثافة التصريفية والمناخ (Abraham، 1972 ; Chorley & Morgan، 1962)، والربط بين الخصائص المورفومترية والتكوين الصخري مثل:(1957) Melton، و(1971) Wilson، و(1980) Day، وسلامة (1980). وحاول (Chorley، 1957) وضع مؤشر نباتي كدليل على الخصائص المورفومترية، في حين ركزت

المدرسة الجيومورفولوجية العربية، والتي كان للمدرسة الجيومورفولوجية المصرية قصب السبق والريادة فيها، على دراسة الحوض النهري كوحدة جيومورفولوجية مع اختلاف مساحات وخصائص تلك الأحواض، وكانت الدراسات المورفومترية العامة جزءا منها، ولا يتسع المقام لذكرها، ويكفي أن نذكر بعض الأسماء المتميزة في هذا المقام مثل دراسات كل من : أبو العز، وأبو العينين، وعاشور، ومحسوب، وشاور، وجاد، وأبو راضي، وتراب، و محمود في مصر، والدراسات الرائدة التي أعدها سلامة في الأردن.

أهداف الدراسة

كثرت الدراسات التي تعرضت لدراسة الخصائص المورفومترية للأحواض النهرية مختلفة المساحة، خاصة تلك الدراسات التي تدرس الحوض النهري كوحدة جيومورفولوجية. ويلاحظ أن كل هذه الدراسات تعرضت لدراسة حوض نهري واحد أو مجموعة أحواض نهرية في بيئة جغرافية واحدة، إلا أنَّ قلة منها التي حاولت عقد مقارنات بين الخصائص المورفومترية للأحواض النهرية في أقاليم مناخية مختلفة تمامًا، وبعيدة عن بعضها، لذلك جاءت هذه الدراسة؛ لتحقق الأهداف التالية:

- دراسة انعكاس الظروف المناخية على الخصائص المورفومترية لحوض الجزء الأعلى من حوض الرميمين، وحوض تكالا من الناحية الجيومورفولوجية.
- دراسة الخصائص المورفومترية لحوضي الجزء الأعلى من حوض الرميمين وتكالا، إذ يقعان في إقليمين مناخيين مختلفين تمامًا (الاستوائي، والبحر المتوسط شبه الجاف).
- دراسة العلاقات المتبادلة بين الخصائص المورفومترية في كلا الحوضين.
- إبراز الخصائص المورفومترية لكلا الحوضين، لما لتلك الخصائص من أهمية في إلقاء الضوء على مائية الروافد النهرية، و إنتاجها الرسوبي، ودورها في تشكيل وتطوير الأشكال الأرضية في أحواضها.

منطقتا الدراسة :

اشتملت الدراسة على حوضين نهريين، الأول يشكل جزءًا من الأجزاء العليا لحوض وادي الرميمين في وسط غرب الأردن برافديه الأساسيين: وادي زي و وادي الحرمية، و يقع بين خطي طول 20 42 35 و 12.3 48 35 شرقًا، ودائرتي عرض 30.12 4 32 و 51.35 7 32 شمالاً، ويتجه نظام التصريف من الغرب إلى الشرق ثم إلي الشمال. والثاني حوض نهر تكالا الذي يشكل أحد الروافد العليا لنظام حوض نهر أولونجات Ulu Langat في ولاية سلانور بماليزيا، المحصور بين خطي طول 18.3 50 101 و 32.54 52 101 شرقًا و دائرتي عرض 12.41 3 3 و 34.14 5 3 شمالاً (الشكل 1).

الملامح البيئية لحوضي الدراسة :

أولا : حوض وادي الرميمين:

الوضع الجيولوجي

يعد أحد روافد وادي الرميمين من الجهة الغربية، والذي بدوره يشكل جزءًا من نظام حوض نهر الزرقاء، وهو جزء من الهضبة الكلسية الصوانية ذات التصريف الغوري في وسط غرب الأردن، وأهم الوحدات الصخرية التي تتكشف في المنطقة الوحدة الكلسية العقدية التي ترسبت فوق صخور الحجر الرملي، وتعود إلى السينوماني الأسفل (عابد، 1982)، وتنقسم إلى قسمين: تكوين ناعور (وحدة الحجر الطيني المارلي): ويتكون من تعاقب المارل والغضار مع الكلس الدولوميتي الرمادي مع وجود بعض الصوان، وتتميز بصلابتها، وتشكل أحيانًا جروفًا حادة، وتظهر على السطح في مناطق كثيرة، وتكوين الفحيص (وحدة الحجر الكلسي المارلي) ترسب فوق تكوين ناعور، وتظهر على السطح في بعض الأماكن، وترسبت الوحدة الكلسية الأكنودية فوق الوحدة العقدية السابقة، وترجع إلى السينوماني الأعلى (Bender، 1974)، وتنقسم إلى تكوين الحمر الذي يرجع إلى السينوماني، الذي ترسب فوق تكوين الفحيص: ويتكون من تعاقب طبقات الكلس والكلس الدولوميتي مع المارل،

ويحتوي على طبقات من الصوان (خضير، 1988)، ويظهر على شكل شريط ضيق في سفوح وادي الحرمية، يعلوه تكوين شعيب: الذي يعود إلى التوروني (عابد، 1982)، ويتكون من تعاقب مارل وطباشير تتخلله طبقات من الكلس العقدي، وينتشر في وادي الحرمية، وترسبت صخور الوحدة الكلسية الكتلية فوق صخور الوحدة الأكنودية: وهي عبارة عن طبقات متتالية من الكلس الكتلي الصلب رقيق التطابق مع بعض عقيدات وطبقات من الصوان (عابد، 1982)، وتعود إلى التوروني، وتظهر في أجزاء قليلة جدًّا من أعالي وادي الحرمية.

أدى عدم استقرار غور وادي الأردن، وتوالي عمليات الهبوط حتى البليستوسين الأعلى إلى تصابي الأنظمة النهرية، ومنها حوض الرميمين، فارتفعت نسبة التضرس، والتقطع، وعدم انتظام المقاطع الطولية، والعرضية للأنهار (التوم، 1990)، بالإضافة إلى تكوين الأودية الخانقية، ويظهر ذلك على قطاعات الانحدار المقيسة على المنحدرات الجانبية للأودية (التوم، 2004).

العوامل المناخية :

يتبع الرميمين مناخ البحر المتوسط الجبلي شبه الجاف، وتتباين معدلات الأمطار السنوية في الحوض، فيقل معدل سقوط الأمطار كلما اتجهنا ناحية الشرق، فبينما سجل المعدل السنوي 491.7 ملم في محطة أم جوزة؛ تناقص إلى 377.6 ملم في محطة الرميمين الواقعة إلى الشرق من أم جوزة، وتتركز الأمطار في شهور الشتاء، إذ يسقط 85 % منها في أشهر كانون الأول وكانون الثاني وشباط وآذار (ديسمبر ويناير وفبراير ومارس).

نظرًا لعدم وجود محطة في الحوض لقياس درجات الحرارة، أخذت قراءات محطة البقعة، التي هي أقرب إلى الحوض من جهة الشرق، وتمتاز درجات الحرارة باعتدالها وتتراوح معدلاتها الشهرية ما بين 6°م في كانون الثاني (يناير) إلى 23°م في تموز وآب (يوليو وأغسطس) (التوم، 1990).

التربة

تنتشر تربة البحر المتوسط الحمراء والليثوسول المتطورة عن الصخور الكلسية والمارلية والطينية (مورمان Moorman، 1959)، ويختلف سمك التربة من مكان إلى آخر حسب طبيعة درجة الانحدار والموقع، ولوحظت علاقة عكسية بين درجة الانحدار وسمك التربة، باستثناء المناطق التي توجد بها الغابات، ويزداد سمك التربة على المدرجات الجبلية، ونتيجة لقلة الغطاء النباتي العشبي تفتقر التربة إلى الأفق A والمواد العضوية (أبو سمور 1986)، وتتراوح الطاقة الاستيعابية للرطوبة من 8.5 إلى 19.5 % .

تنتشر التربة الفيضية الحديثة في قيعان الأودية، مثل وادي زي، لذلك ترتفع فيها نسبة الطين، ويصل عمقها أحيانًا إلى 3 م، وتنتشر بها بعض الكتل الصخرية الصغيرة المتساقطة، والمنقولة لها من المنحدرات شديدة الانحدار.

الغطاء النباتي

تغطي سطح الحوض في مناطق متفرقة شجيرات مختلفة، مثل الصنوبر الحلبي في المناطق التي يزيد ارتفاعاتها على 850م فوق منسوب البحر، في حين تنتشر أشجار البلوط في المناطق المحصورة بين 790 إلى 850م، وتغطي الشجيرات المختلفة أجزاء متفرقة من الحوض، ويتعرض الغطاء النباتي في الحوض إلى عمليات الإزالة؛ لإحلال الزراعة محل الغطاء الشجري (أبو سمور، 1987).

تنتشر الحشائش في مناطق قليلة في الحوض، ولا تزيد ارتفاعاتها على 25سم ، ولا تشكل نطاقًا متصلًا بل هي بقع متناثرة، أو تحت الشجيرات الحرجية.

ثانيًا : حوض نهر تكالا:

الوضع الجيولوجي

يشكل جزءًا بسيطًا من نظام العرف Range الجبلي، الذي يُعَدُّ العمود الفقري

في شبه جزيرة الملايو، ويرجع إلى الترياسي وأوائل الجوراسي (1973) Gobbett and Hutchison، ويعتقد أن هذا التكوين يشكل باثوليث يتكون معظمه من الصخور الجرانيتية. ويقع حوض تكالا في الجزء الغربي من العرف حيث تسود الصخور الجرانيتية التي ترجع إلى الترياسي والجوراسي، وتصنف صخور الحوض ضمن تكوين جرانيت سمنيه Semenyih Granite الذي يتميز بحبيباته الكبيرة (Roe، 1953).

العوامل المناخية :

يقع الحوض ضمن المناخ الاستوائي الموسمي، المتميز بمعدل سقوط أمطار عالية، له قمتان تتبع الأولى الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الممتدة من إبريل إلى سبتمبر، والثانية الرياح الموسمية الشمالية الشرقية الممتدة من أكتوبر إلى مارس، ويتراوح معدل الأمطار في الحوض 2290–2510ملم/عام.

لا توجد فوارق في المتوسطات الحرارية الشهرية؛ إذ يُعَدُّ شهر أيار (مايو) أكثر شهور العام حرارة بمعدل 25.1°م ، في حين سجل شهر كانون الثاني (يناير) أدنى المتوسطات بمعدل 23.5م.

التربة

تصنف تربة حوض تكالا بأنها تربة الأراضي شديدة الانحدار المعروفة باسم رانجوم (Rangom) (Gopinahtan & Paramananthan ، 1979)، وتغلب عليها التربة الرملية الطينية الغرينية والرملية الطينية، ومع العمق تتحول إلى طينية، ويتباين سمك التربة من منطقة إلى أخرى؛ إذ تظهر الصخور مباشرة على سطح المنحدرات أحيانًا، وبشكل عام تكسو المنحدرات طبقة من التربة يصل سمكها إلى 6 أمتار أحيانا، يرجع ذلك إلى الظروف المناخية، وتسارع عمليات التجوية المختلفة، وما يلعبه الغطاء

النباتي من دور حماية للتربة من الانجراف (Al- Toum، 1997).

الغطاء النباتي

يقع الحوض ضمن الغابة الاستوائية، فلا تخلو أي بقعة منه من الأشجار، باستثناء مجاري الأنهار التي تغطيها الأغصان من أعلى أحيانا، وتتميز أشجار الغابة هنا بالتنوع الكبير، وكانت نتيجة المسح الميداني لثلاثة منحدرات، ظهور أكثر من خمسين نوعًا، وتتباين ارتفاعاتها لتصل إلى أكثر من 50 مترًا، وتصنف بـ (Hill Dipterocarp and Non- Dipterocarp - Al Toum، 1997).

يلعب النبات دورًا مهمًّا في سير العمليات الجيومورفولوجية على المنحدرات، سواء كان ذلك عن طريق عمليات التجوية، أو تقليل تأثير ارتطام قطرات المطر على التربة، وارتفاع معدل التسرب إلى داخل التربة، وتقليل معدل الجريان السطحي.

طريقة الدراسة :

أسلوب الدراسة

من أجل دراسة الخصائص المورفومترية للحوضين قيد الدراسة؛ تم توفير مجموعة من الخرائط والصور الجوية للحوضين، وقد اشتملت على ما يلي:

أولا: حوض الجزء الأعلى من حوض الرميمين :

- خرائط طبغرافية مقياس 1 : 50000 في لوحتي السلط وصويلح 1947.
- خرائط حوض الزرقاء السفلي أرقام 3، 5 ، 6 مقياس 1 : 25000 لعام 1977، وبفاصل كنتوري 5 و 10م.
- خرائط جيولوجية مقياس 1 : 25000 لوحات عمان ، علان ، السلط ، العالوك.
- غطاءان من الصور الجوية مقياس 1 : 25000 تصوير عام 1953 و 1984.

ثانيا : حوض نهر تكالا

- خريطة طبغرافية رقم 94f أولولنجات مقياس 1 : 25000 لعام 1969، وبفاصل كنتوري 10 أقدم.
- خريطة جيولوجية للمنطقة نفسها 1 : 100000

طريقة تحديد الشبكة النهرية

تم تحديد شبكة الروافد النهرية على الخرائط الطبغرافية مباشرة كما هي موضحة عليها بواسطة الخط الأزرق، إذ تُعَدُّ الخرائط ذات مقياس 25000:1 من أدق الخرائط المستخدمة في الدراسات المورفومترية (عاشور ، 1983)، على الرغم من أنها قد لا توضح بعض روافد المرتبة الأولى، لذلك أشارت دراسات مختلفة إلى أخذ الحيطة والحذر عند التعامل معها (Cotton، 1964 ; Eyles. 1966)، ثم استخدمت طريق تعرجات خطوط الكنتور؛ لتتبع الروافد غير المحددة بالخط الأزرق، وتعتمد على تتبع خطوط الروافد النهرية من خلال انحناءات خطوط الكنتور حتى تصبح خفيفة التقوس (Smart. 1972 ; Butzer. 1976). واستخدم جهاز استيريوسكوب؛ لتتبع الروافد غير الواضحة بالأسلوبين السابقين، تلا ذلك العمل الميداني؛ للتأكد من صحة توقيع الروافد النهرية، وتوقيع أي رافد لم يسبق تعينه، خاصة في حوض تكالا ذي الغطاء النباتي الكثيف الذي يغطي سطح الأرض، فلا تظهر بعض روافد المرتبة الأولى بتحليل الصور الجوية (إلياس Eyles. 1966)، وبذلك تم تحديد ورسم الشبكة النهرية النهائية في الحوضين (الشكل 2)، للمزيد عن الخصائص المورفومترية للأحواض النهرية راجع (1971) Doornkamp & King، ومحسوب (1998)، و أبو العينين (2000)، وسلامة (2004).

استخدمت عجلة القياس؛ لقياس الأطوال، وبلانيميتر بلاكوم؛ لقياس المساحات على الخرائط، وفي الحالتين كان يتم القياس ثلاث مرات، ويعتمد المتوسط، إلا إذا كان الفرق بين القياسات كبيرًا فيتم القياس مرة رابعة.

وبناء على ما سبق تم تحديد وتصنيف شبكة الروافد النهرية في كلا الحوضين بجميع رتبها حسب طريقة سترلير1964(Strahler) المعدلة عن طريقة هورتــون Horton 1945.

تنقسم المؤشرات المورفومترية التي تم قياسها واشتقاقها إلى مجموعتين:

الأولى: تشمل العناصر التي قيست، وعينت مباشرة، وتشمل: المساحة، وأطوال

الروافد، وعدد الأنهار في كل مرتبة نهرية، ومحيط وأطوال الأحواض، ومنسوب منطقة المصب وأعلى نقطة في الحوض ورتبة الرافد.

الثانية: تشمل المؤشرات التي تم اشتقاقها، وهي:

1 –خصائص الشبكة النهرية، وتشمل :

الكثافة التصريفية (كم/كم2) = $\frac{\text{الطول الإجمالي لشبكة الروافد النهرية (كم)}}{\text{مساحة الحوض (كم}^2\text{)}}$

التكرار النهري (روافد/كم2) = $\frac{\text{عدد الروافد في الحوض}}{\text{مساحة الحوض (كم}^2\text{)}}$ 2

نسبة التقطع = $\frac{\text{عدد الروافد بجميع رتبها في الحوض}}{\text{محيط الحوض (كم)}}$ 3

رتبة الرافد:

وتعبر عن مكانة الرافد بالنسبة إلى الشبكة النهرية في الحوض، وحسبت على أساس أسلوب(1964) Strahler ، فكل رافد لا يغذيه رافد يصنف بالمرتبة الأولى، وهكذا تتكون روافد المرتبة الثانية من التقاء رافدين من المرتبة الأولى، وبالأسلوب نفسه تتكون روافد المرتبة الثالثة، من التقاء رافدين من المرتبة الثانية، وهكذا، وكذلك صنفت روافد المرتبة الأولى، والثانية إلى روافد المصادر (الخارجية)، والروافد الداخلية (سلامة 1980، Abrahms & Campbell، 1976 Abrahms).

معدل أو نسبة التشعب= $\frac{\text{عدد الروافد في مرتبة ما}}{\text{عدد الروافد في المرتبة التي تعلوها}}$ 4

الخصائص الشكلية

تشمل الخصائص الشكلية المؤشرات التالية :

الاستدارة= $\frac{\text{مساحة الحوض (كم}^2\text{)}}{\text{مساحة دائرة محيطها يساوي محيط الحوض (كم}^2\text{)}}$ 5

الاستطالة= $\frac{\text{قطر دائرة مساحتها تكافئ مساحة الحوض (كم}^2\text{)}}{\text{طول الحوض (كم)}}$ 6

معامل الشكل= $\frac{\text{مساحة الحوض (كم}^2\text{)}}{\text{مربع طول الحوض (كم)}}$ 7

معدل أطوال الأنهار= $\frac{\text{متوسط أطوال الروافد في مرتبة ما (كم)}}{\text{متوسط أطوال الروافد في المرتبة التي تعلوها (كم)}}$ 8

الخصائص التضاريسية

تشمل الخصائص التضاريسية المؤشرات التالية :

معدل انحدار الروافد = $\frac{\text{فرق المنسوب بين نقطة المصب والمنبع (متر)}}{\text{طول الرافد (متر)}}$ 9

نسبة التضرس (م/كم) = $\frac{\text{التضرس م (الفرق بين منسوبي أعلى وأخفض نقطتين في الحوض)}}{\text{طول الحوض (كم)}}$

المنحنى الهبسومتري

يعتمد المنحنى الهبسومتري في حساباته علي العلاقة بين النسب المساحية المحصورة في ارتفاعات مختلفة (Strahler، 1957) .

المعامل الهبسومتري = $\frac{\text{الارتفاع النسبي}}{\text{المساحة النسبية}}$

يتم ذلك من خلال الخطوات التالية :

- حساب نسبة ارتفاع خط كنتور معين فوق مستوى القاعدة للحوض إلى أقصى ارتفاع في الحوض، ويمثل ذلك على الإحداثي الرأسي.

- قياس مساحة الحوض النهري كله، ثم تقاس المساحات المحصورة بين (كل خط كنتور والذي يعلوه) خطوط الكنتور السابق تحديد نسب الارتفاعات لها.

- حساب نسبة المساحة بين أي خط كنتور والخط الذي يعلوه إلى المساحة الكلية للحوض ويمثل على الإحداثي الأفقي .
- توقيع النسب السابقة على الشكل البياني المكون من محورين أفقي ورأسي.
- توصيل النقاط وتقاس المساحة أدنى وأعلى المنحنى؛ لمعرفة مقدار ما تم نحته وما هو المتبقي .

نتائج الدراسة والمناقشة العامة

مساحة الأحواض النهرية

تشكل مساحة حوض الجزء الأعلى من حوض الرميمين (33.25 كم2) ثلاثة أضعاف وربع ضعف مساحة حوض تكالا (9.78 كم2)، وبمقارنة مساحة الأحواض في المراتب النهرية المختلفة (الجدول 1) تبين أن المتوسط العام لأحواض الروافد في المراتب المختلفة في حوض الرميمين يكبر أربعة أضعافها في حوض تكالا، ويمكن ربط مساحة الأحواض النهرية بالظروف المناخية، متمثلة في ارتفاع معدل الأمطار، ونظام سقوطها شبه اليومي، وارتفاع معدل الحرارة اليومي، أدى ذلك إلى سرعة التأثير في التكوين الصخري الجرانيتي في تكالا، في حين حدث عكس ذلك في حوض الرميمين فالظروف المناخية شبه الجافة التي يمر بها الحوض الآن أدت إلى قلة معدل تطور عمليات الحت النهري، والصخور الجيرية أصبحت أكثر صلابة (سلامة، 1980). يمكن تفسير تزايد مساحة حوض الجزء الأعلى من وادي الرميمين بالرغم من تساوي المراتب النهرية في كلا الحوضين إلى عمليات التصابي التي مر بها حوض الرميمين متمثلة في حركات الرفع التي أصابت الهضبة الكلسية، وعمليات الهبوط في مستوى الأساس متمثل في منطقة الغور، بالإضافة إلى الظروف المناخية الرطبة في البلايوستوسين الأعلى فأدت مجتمعة إلى تسارع عمليات الحت الراسي والتراجعي، وساعد على ذلك صخور الحوض الجيرية التي تكون ضعيفة في حالة توافر الرطوبة، فأدى كل ذلك إلى سرعة تطور الحوض سابقا، وبطء العمل الجيوموفولوجي الآن،

و أشار سلامة (1980) إلي قلة الأثر الجيومورفولوجي للأمطار الهاطلة مع زيادة مساحة الأحواض النهرية، وفسر ذلك بأن زيادة مساحة الأحواض النهرية يؤدي إلى زيادة الفاقد من مياه الأمطار عن طريق البخر والتسرب، الأمر الذي يؤدي إلى قلة تطوير جريانات مائية بصبيب مائي كبير، ومن ثم قلة الطاقة الحتية للأنهار، أما أبو العينين (2000) فأوضح أن علاقة طردية بين الصبيب المائي، ومساحة الأحواض النهرية. وذلك عكس ما يحدث الآن في حوض تكالا من نشاط حتّي كبير جدا بسبب توافر الأمطار، ونظام توزيعها شبه المنتظم على كل أيام السنة، وقلة مساحة الحوض.

يميل تركز المساحات الحوضية في كلا الحوضين نحو الفئات الصغيرة، فحوالى 83.5 % من إجمالي أحواض المرتبة الأولى مساحتها أقل من 0.2 كم2 في الرميمين، وحوالى 65.8 % من أحواض المرتبة الأولى في تكالا مساحتها أقل من 0.03 كم2، الملاحظة نفسها تتكرر في مساحة أحواض المرتبة الثانية، إذ إن 62.6 % ، 71.4 % من إجمالي أحواضها تتركز في الفئات الأولى الصغيرة في حوضي الرميمين وتكالا على التوالي، يعني ذلك أن انحناء المنحنى التكراري لتوزيع مساحات المرتبتين في الحوضين يميل في اتجاه اليمين، أو موجب (الشكل 3 أ).

أطوال الروافد :

تركزت معظم أطوال الروافد المائية في المرتبتين الأولى والثانية في الفئات الدنيا، بمعنى أن التواء المنحنى التكراري لأطوال الروافد كان موجبا في الحوضين (الشكل 3 أ)، و بمقارنة أطوال الروافد نجد أن متوسط أطوال الروافد في حوض تكالا أقل منه في حوض الرميمين (الجدول 1)، ويرجع ذلك إلى زيادة معدل الأمطار في حوض تكالا مما يؤدي إلى سرعة تشكيل روافد المراتب الدنيا على المنحدرات، ومن ثم ترتفع مراتب الروافد المختلفة بشكل سريع، وقد جاء المعدل قريبا من معدل الأطوال الذي

توصل إليه Peh في ماليزيا (Peh، 1980). وتشكل نسبة أطوال روافد المرتبة الأولى من أجمالي أطوال الروافد في كلا الحوضين حوالى 54.6 % و49.9 % لكل من حوضي الرميمين وتكالا على التوالي، وهي مشابه لما توصل إليه محمود في حوض دجلة بمصر (محمود، 2005)، وأقل مما سجله سلامة في وادي شعيب في الأردن (Salameh، 1988). أما تطور روافد الرميمين فتأخذ وقتًا أطول بسبب نشاط الحت التراجعي الذي يؤدي إلى إطالة الروافد الموجودة بدلاً من تكوين روافد أخرى، وتوصل إلى النتيجة نفسها سلامة في الأردن (سلامة، 1980). ويستطيع الجيومورفولوجي الاستفادة من أطوال الروافد في معرفة كثافة التعرية، ونقل الرواسب والحمولة، وكمية المياه ومعدل التسرب.

الكثافة التصريفية :

تُعَدُّ الكثافة التصريفية انعكاسًا للظروف البيئية خاصة الأمطار؛ إذ ترتفع الكثافة مع ارتفاع معدلات الأمطار، والصخور قليلة النفاذية؛ لأن ذلك يؤدي إلى زيادة الصبيب المائي، ومن ثم سرعة تطور شبكة الروافد النهرية، ولحساسية الكثافة للظروف البيئية رأى كثير من الكتاب إمكانية اعتبارها أساسًا للتميز بين الأحواض النهرية المختلفة (Horton ،1945 و Strahler، 1957; 1958)، وتكمن أهمية الكثافة في أنها مؤشر على الظروف المناخية (Gregory، 1976)؛ إذ تعمل الأمطار الغزيرة على شدة الحت التراجعي، و يؤدي ارتفاع الكثافة إلى سهولة التصريف، ومن ثم تُعَدُّ مؤشراً على حجم وسرعة تطور الفيضانات.

تركزت تكرارات الكثافة التصريفية في الفئات الدنيا؛ إذ سيطرت الفئة الثانية في المرتبتين الأولى والثانية في كلا الحوضين على حوالى 65 % من مجموع التكرارات، بمعنى أن التواء المنحنى التكراري للكثافة النهرية كان موجبا (الشكل 3 ب).

ارتفع معدل الكثافة التصريفية في حوض تكالا (5.13 كم/كم2) أكثر من حوض الجزء الأعلى من الرميمين (2.26 كم/كم2)، ومن ثم جميع المراتب النهرية المختلفة

(الجدول 1)، بالرغم من تطور حوض تكالا فوق صخور جرانيتية، والرميمين فوق صخور جيرية. وتبعا لتصنيف سميث (Smith ،1950)، وستيرلر (Strahler، 1957) فإن الكثافة في حوض الرميمين تصنف النسيج بأنه خشن، أما حوض تكالا فهو متوسط النسيج (Gregory & Willing، 1973).

ويفسر ذلك بزيادة معدل الأمطار، وقلة نفاذية صخر الجرانيت، والغطاء النباتي الكثيف، وارتفاع درجات الحرارة، كل ذلك أدى إلى نشاط وزيادة المياه الجارية السطحية، ومن ثم سرعة تكون روافد على المنحدرات المختلفة في حوض تكالا، العكس في حوض الرميمين، فالصخور الجيرية ذات مسامية ونفاذية عاليتين، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة تسرب مياه الأمطار علي حساب الجريان السطحي، ومن ثم قلة تطوير روافد نهرية على المنحدرات، وضعف القدرة الحتية للمجاري النهرية الموجودة فعلا. لذلك تعكس الكثافة التصريفية الظروف المناخية بشكل أساسي، وأشارت دراسة (Melton، 1957) أن 93 % من الاختلافات في الكثافة التصريفية ترجع إلى الظروف المناخية؛ إذ تعمل الأمطار الغزيرة وشدة الحت التراجعي على تقطيع السطح بعديد من الأنهار القصيرة ، الشديدة الانحدار، والعميقة السريعة الجريان (أبو العينين، 2000)، و بالمقارنة مع أحواض أخرى من البيئتين نفسيهما تقارب المعدل في تكالا مع نظيره في حوضي لونج Lawing و شونكاك Chongkak في ماليزيا (Lai، 1992)، أما في الأردن فقد انخفض المعدل في حوض الرميمين عن أحواض أخرى تطورت فوق صخور جيرية (4.97كم/كم2) (سلامة، 1980)، في حين تساوت معها في وادي الكرك في الأردن (2.2كم/كم2) (القرالة، 2005).

التكرار النهري :

ارتفع متوسط التكرار النهري في تكالا (28.6 مجرى/كم2) عنه في الرميمين (6.9 مجرى/كم2)، بمعنى أن معدل التكرار النهري في حوض تكالا ارتفع إلى أربعة أضعاف نظيره في حوض الرميمين، وهذا المعدل تكرر في كل المراتب النهرية الأربعة

(الجدول 1)، كذلك اختلف شكل التوزيع التكراري للفئات، إذ سجل أكثر من 60 % من التكرارات في الفئتين الأولى والثانية في حوض الرميمين؛ لذلك ظهر التواء موجب في المرتبتين الأولى والثانية، اختلف شكل التوزيع التكراري في حوض تكالا فكان توزيع القيم أكثر تفلطحًا في المرتبتين الأولى والثانية (الشكل 3 ب). ويدل معدل التكرار النهري على أن النسيج ناعم في حوض تكالا في حين هو متوسط النسيج في الرميمين، ويمكن تفسير ذلك بأن الظروف البيئية في حوض تكالا متمثلة، في: الظروف المناخية الحالية من زيادة الأمطار، وارتفاع متوسط انحدار سطح الحوض العام في تكالا إلى 26.53، والغطاء النباتي الكثيف، وقلة الفاقد من مياه الأمطار بالتسرب والبخر، ومن ثم زيادة الجريان السطحي، كل ذلك أدى إلى زيادة قوة العمل الجيومورفولوجي مثل تسارع عمليات الحت الراسي، والتراجعي، وتطور أودية المنحدرات بشكل سريع رغم أن التكوين الصخري جرانيتي صلب، عكس ذلك قلة الأمطار وقلة متوسط انحدار السطح (10.23) وقلة الغطاء النباتي، وارتفاع مسامية ونفاذية الصخور الجيرية في حوض الرميمين أدى إلى ضعف العمل النهري الحتي، ومن ثم قلة تطوير أودية المنحدرات.

نسبة التقطع

ارتفع معدل نسبة التقطع في حوض تكالا عنه في الرميمين في المراتب الثلاثة العليا (الجدول 1)، وهذا أمر طبيعي؛ إذ يزداد عدد الروافد في تكالا، وتقل المساحة إلى الربع تقريبًا. ويرجع ذلك إلى الظروف المناخية الاستوائية، والخصائص التضاريسية في حوض تكالا، فارتفاع نسبة التضرس، ومعدل درجة انحدار المنحدرات والظروف المناخية أدت إلى سرعة تكون الروافد النهرية على المنحدرات، هذا يؤكد أن الحوض يمر في مرحلة الشباب الجيومورفولوجي.

معدل التشعب :

ارتفعت نسبة التشعب في حوض تكالا (5.2) عنها في الرميمين (4.7) (الجدول 1)، ويفسر ذلك بسرعة تطور الروافد في تكالا عنه في الرميمين بسبب الظروف المناخية

الرطبة فيه، وتوافق معدل التشعب في حوض تكالا مع ما توصل إليه بيه(Peh، 1980) في ماليزيا. وتشابه المعدل في الرميمين مع ما توصل إليه سلامة (1980) على مستوى كل الأحواض النهرية في الأردن، في حين ارتفع عن المعدل الذي توصل إليه سلامة في وادي شعيب (سلامة Salameh، 1988)، وسجل وادي الكرك معدل تشعب تراوح بين 2.89 و 10 (القرالة 2005)، وفي وادي بيشة الأعلى في السعودية كان المعدل 4.59 (محسوب 1998).

أشكال الأحواض النهرية

تتخذ الأحواض النهرية أشكالاً مختلفة، وقد اشتقت مقاييس الاستدارة والاستطالة والشكل؛ لتحديد مدى اقتراب الأحواض النهرية من المستطيل، أو الدائرة، أو المثلث (الجدول1) وكانت النتائج على النحو الآتي :

1 -الاستدارة

تدل على مدى تقارب أو تباعد الحوض النهري من الشكل الدائري، وكلما ارتفع المعدل دل على اقتراب شكل الحوض من الشكل الدائري، ارتفع معدل الاستدارة في حوض الرميمين عنه في حوض تكالا، وذلك في المرتبتين الثانية والثالثة، في حين كان العكس في المرتبة الرابعة فسجل 55 % في الرميمين و 58 % في تكالا، يرجع ذلك إلى طول الفترة الزمنية التي تعرض فيها حوض الرميمين للحت النهري، قبل تغير الظروف المناخية من الفترة الرطبة إلى المرحلة شبه الجافة حاليا، بعكس حوض تكالا إذ يشهد حاليا ظروفًا مناخية رطبة تسمح بنشاط حتي كبير. ويلاحظ أن المعدل يمر في المرحلة المتوسطة، يفسر ذلك بأن الروافد النهرية في حوض تكالا تتبع خطوط عيوب جيولوجية، وأنها تأخذ الشكل شبه المتوازي، فجعلت من الحوض يأخذ الشكل المربع لذا ارتفعت نسبة الدائرية فيه.

عند رسم التوزيع التكراري لفئات الاستدارة في الحوضين في المرتبة الثانية جاء التوزيع معتدلا (الشكل 3 جـ).

2 -**الاستطالة**

تشير الاستطالة إلى مدى اقتراب الحوض من الشكل المستطيل، بمعنى الاقتراب من الامتداد الطولي. سجل المعدل ارتفاعًا في جميع مراتب حوض تكالا عنه في الرميمين (الجدول 2) وسجلت المرتبة الرابعة أعلى قيمة في المراتب النهرية في حوض تكالا بلغت 0.84 في حين سجل أقل من ذلك في حوض الرميمين (0.65)، يفسر ذلك بنشاط عمليات الحت الراسي والتراجعي؛ إذ يؤديان إلى إطالة الأودية النهرية في مرحلة الشباب، إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه بأن الروافد في تكالا تتبع خطوط ضعف جيولوجي، وتأخذ الشكل شبه المتوازي، في حين الظروف شبه الجافة في الرميمين أدت إلى شبه تحنط للأشكال الأرضية، بمعنى أن عمليات الحت الراسي والتراجعي شبه متوقفين، وتجدر الإشارة إلى أنه كلما زاد معدل طول الحوض عن عرضه مال الحوض نحو زيادة معدل الاستطالة، وبما أن الحت التراجعي في حوض تكالا أسرع من الحت الجانبي، لذلك تمتد الأحواض في الاتجاه الطولي أكثر منها في الاتجاه العرضي، ويظهر أن الاستطالة مؤشر مهم على عنصري الانحدار والتضرس، فكلما زاد معدلهما زادت الاستطالة الناجمة عن معدل زيادة الحت الراسي، وما يتبع ذلك من زيادة الانهيارات الأرضية على جوانب الأنهار، وهذا ما لوحظ في حوض تكالا من تسارع عمليات انهيارات الجوانب النهرية التي أدت إلى ارتفاع معدل انحدار كبير من جوانب الأنهار إلى أكثر من 50. لم يختلف شكل التوزيع التكراري لمعدل الاستطالة عنه في معدل الاستدارة؛ إذ اتخذ الشكل المعتدل في المرتبتين الأولى والثانية في كلا الحوضين (الشكل 3 جـ).

3 -**معامل الشكل:**

ارتفع معامل الشكل في حوض تكالا (0.56) عنه في الرميمين (0.33)، ويدل ذلك على أن عرض الأحواض النهرية في منطقة المنابع لا يزيد كثيرًا على عرضها في

منطقة المصب في حوض تكالا؛ لأن الأحواض في تكالا تميل إلى الاستطالة أكثر منها إلى الاستدارة. أما في حوض الرميمين فالمعدل قريب من المعدل الذي توصل إليه سلامة (1980) في الأردن، فالأحواض النهرية في الأردن تميل إلى أن تأخذ شكل مثلث، عريض في منطقة المنابع، وضيق في منطقة المصب، قد يفسر ذلك بالنظر إلى شبكة التصريف النهري في الشكل (2)، لنجد أن شبكة المجاري النهرية في حوض الرميمين تأخذ الشكل الشجري في اتجاه عام ناحية الشمال الشرقي، الأمر مختلف في حوض تكالا، فجميع الروافد الفرعية متوازية مع بعضها في اتجاه عام نحو الجنوب؛ لتصب جميعها في الرافد الأساسي الذي يأخذ اتجاهًا عامًّا من الغرب إلى الشرق، لذلك الشكل في حوض تكالا يخضع لعوامل البنية الجيولوجية.

درجة انحدار الروافد النهرية والسطح

قَلَّ متوسط درجات انحدار الروافد المختلفة في حوض تكالا عنه في الرميمين في المراتب الثلاثة الدنيا، في حين تساوت في المرتبة الرابعة، وقد تركزت معظم تكرارات زوايا الانحدار في المرتبتين الأولى والثانية في كلا الحوضين في الفئات الوسطى، بمعنى أن المنحنى التكراري لفئات انحدار الروافد كان معتدلا الشكل 3 د)، وللمقارنة بين الحوضين يلاحظ انخفاض متوسط انحدار الروافد النهرية في جميع المراتب في تكالا إلى 4.92 ، في حين ارتفع المتوسط في الرميمين إلى 6.36، ويقل انحدار الروافد مع زيادة المرتبة النهرية، وهذا أمر طبيعي في كل الروافد النهرية.

ارتفع متوسط انحدار السطح في تكالا عنه في الرميمين؛ إذ سجل متوسط درجات الانحدار في الحوضين 26.53 و 10.33 على التوالي، وبناء على تصنيف ينج لزوايا الانحدار، يصنف تكالا بأنه شديد الانحدار، في حين أن متوسط الانحدار في الرميمين، يرجع إلى العامل المناخي المتمثل في زيادة كميات الأمطار، وارتفاع كثافتها، إذ أدى إلى زيادة القدرة الحتية للروافد النهرية متمثلة في زيادة معدل الحت الرأسي في تكالا،

ومن ثم زيادة تعميق مجاري الأنهار، وبدوره يزيد من مدى تعرض جوانب المنحدرات إلى الانهيارات الأرضية، لذلك تزيد درجات انحدار المنحدرات في الأجزاء السفلى عنها في الأجزاء العليا، اختلف الوضع في الرميمين، إذ تغيرت الأحوال المناخية إلى الجفاف فانعكس ذلك على قلة العمل الحتي النهري، فأصبح شبه محنط، وأتيحت الفرصة للعوامل الجيومورفولوجية الأخرى أن تسوي المنحدرات، لذلك قلّت درجات انحدار المنحدرات به.

نسبة التضرس

زاد متوسط نسبة التضرس في حوض تكالا (80.2م/كم) عنه في الرميمين (76.2م/كم) (الجدول 1)، إلا أن زيادة نسبة التضرس في المرتبة الثانية في الرميمين عنها في تكالا، واقتراب المعدلات من بعضها في المرتبتين الثالثة والرابعة، يؤكد حتمية أن الرميمين مر بظروف مناخية رطبة أدت إلى تقدمه في المرحلة الجيومورفولوجية، ومن ثم زادت المساحات الحوضية، وانخفاض معدل التضرس، و الآن يمر الحوض في مرحلة ركود حتي، في حين العكس في تكالا إذ ما زال الحوض في مرحلة النشاط الجيومورفولوجي، سواء الحت أو النقل النهري، أو الحت في المنحدرات، وما تبع ذلك من تراجع مناطق تقسيم المياه، وانخفاض منسوبها العام، وتراجع المنحدرات (التوم، 2004)، وساعد على سرعة عمليات التعميق النهري كثرة الصدوع في تكالا، وأن معظم الروافد تتبع خطوطًا انكسارية، إضافة إلى أن العلاقة عكسية بين المساحة الحوضية ونسبة التضرس (سلامة، 1980).

المنحنى الهبسومتري

بعد استعراض بعض الخصائص المورفومترية في كلا الحوضين من اختلاف وتشابه، وللوقوف على المرحلة الجيومورفولوجية التي يمر بها الحوضان، لذلك تم حساب التكامل الهبسومتري للحوضين؛ إذ إن المنحنى يشير إلى مدى التضرس،

والمرحلة الجيومورفولوجية التي تمر بها الأحواض النهرية، ومن ثم سلوك العمليات النهرية في أحواضها.

سجل التكامل الهبسومتري 58.5 % و 59.3 % في حوضي الرميمين وتكالا على التوالي (الشكل 4). وبناء على هذه النتائج يمكننا الحكم بأن الحوضين ربما تجاوزا مرحلة عدم التوازن، ودخلا مرحلة النضج الجيومورفولوجي (شاور، 1982)، وتشير شدة الانحدار في منطقة المصب في كلا المنحنيين إلى شدة عمليات الحت النهري في المناطق العليا، إلا أن وجه الاختلاف في أن عمليات الحت النهري الآن شبه متوقفة في حوض الرميمين بسبب ظروف الجفاف، في حين العكس في تكالا إذ يشهد ظروفًا مناخية رطبة، ولاكتمال الصورة الجيومورفولوجية نقارن هذه النتائج بأخرى في الظروف المناخية نفسها، بالنسبة إلى الأردن نجد أن المعدل أقل بكثير مما توصل إليه سلامة في وادي شعيب (Salmeh، 1988) والقرالة (2005) في وادي الكرك، في حين تشابه مع دراسة (Lai، 1992) في ماليزيا في حوضي Lawing و Chongkak. يمكن إرجاع التباين والتشابه إلى زيادة مساحة الأحواض النهرية في الأردن عن حوض الجزء الأعلى من الرميمين ، في حين تشابه المساحة والظروف المناخية مع تكالا في ماليزيا.

بناء على كل ما سبق نخلص إلى أن الظروف المناخية، خاصة الأمطار، تلعب دورا أساسيا في العمل الجيومورفولوجي النهري، فزيادة معدل سقوط الأمطار في تكالا (2500 ملم سنويا) أدت إلى زيادة نشاط العمل النهري فيه، انعكس ذلك على العناصر التالية :

- سرعة تكوين روافد المرتبة الأولى؛ ليرفع بذلك من درجات المراتب العليا، ليتعادل بذلك مع حوض الرميمين الذي يكبره أربع مرات في المساحة تقريبا، بالإضافة إلى ارتفاع كل من معدل الكثافة التصريفية، والتقطع والتشعب.
- أدى ارتفاع معدل الحت الراسي إلى زيادة تعميق الروافد النهرية، وما تبع ذلك من انهيارات جوانب الأنهار؛ ليزيد من درجة انحدارها، ويرفع من معدل التضرس.

- كذلك ارتفع معدل الحت التراجعي فأدى إلى إطالة الأودية؛ ليرفع من معدل الاستطالة.

لكن الظروف شبه الجافة في حوض الجزء الأعلى من الرميمين أدت إلى ضعف العمل الجيومورفولوجي النهري في الحوض، فأصبح النهر ونظامه شبه محنط بعدما تكون في البلايوستوسين يوم أن كانت الظروف المناخية أكثر رطوبة من الآن ، ولم يطور النهر كثيرا في نظامه الحالي بالرغم من الصخور الجيرية المنتشرة في الحوض.

خصائص المرتبة الأولى (الروافد الخارجية والداخلية):

تختلف الخصائص الجيومورفولوجية والمورفومترية لروافد المرتبة الأولى في الحوض الواحد وبالمقارنة بين الحوضين ، بناء علي توزيعها المكاني قسمت إلى قسمين الروافد الخارجية (المصادر) والداخلية. تنتشر الروافد الخارجية على أطراف الحوض بالقرب من المحيط، وهي المسئولة عن تطور المراتب النهرية العليا، وتوسيع مساحة الحوض، وما يتبع ذلك من سرعة تقدم المرحلة الجيومورفولوجية، وعمليات الأسر النهري، في حين تنتشر الروافد الداخلية داخل الحوض، بعيدة عن خط تقسيم المياه مع الأحواض الأخرى (المحيط). يوضح الجدول رقم (2) الخصائص المورفومترية لأحواض المرتبتين الأولى والثانية في الحوضين موضع الدراسة، ومنه يمكن استخلاص النتائج التالية:

ارتفع عدد روافد المرتبة الأولى إلى 98 و 120 رافدًا في حوضي الرميمين وتكالا على التوالي، وبذلك اشتملت على نسبة 77.2 % و 78.4 % من إجمالي الروافد التي قطعت سطح الحوضين، شكلت الروافد الخارجية 23 % و 43 % من مجموع أعداد روافد المرتبة الأولى في حوضي الرميمين وتكالا على التوالي، وبالمقارنة مع الأردن فقد ارتفعت في وادي شعيب وبلغت 34.35 % (Salameh، 1988) ، وتلتقي معظم الروافد الخارجية مع نفسها؛ لتشكل روافد المرتبة الثانية، وكانت النسبة 72.7 % و 61.5 % في الرميمين وتكالا على التوالي.

تشكل مساحة أحواض المرتبة الأولى من مساحة كلا الحوضين ما نسبته 39.78 % من الرميمين و 34.05 % من حوض تكالا، زادت مساحة أحواض الروافد الخارجية على الداخلية في المرتبتين الأولى والثانية في كلا الحوضين (الجدول 2)، يرجع ذلك إلى عمليات الحت التراجعي التي تؤدي إلى إطالة الروافد، ومن ثم زيادة مساحتها على حساب منطقة تقسيم المياه مع الأحواض النهرية الأخرى، بعكس الروافد الداخلية التي تقل مساحتها مع تقدم الدورة الجيومورفولوجية، لأنها محصورة في وسط الحوض، وتؤدي إلى تخفيض سطح الحوض، وكل زيادة في أعدادها تكون على حساب مساحة الأحواض الداخلية الأخرى.

الجدول رقم (2): المتوسط والانحراف المعياري الخاص بالروافد الداخلية والمصادر في المرتبتين الأولى والثانية في الرميمين وتكالا

المؤشر		المرتبة الأولى				المرتبة الثانية			
		الرميمين		تكالا		الرميمين		تكالا	
		المصادر	الداخلية	المصادر	الداخلية	المصادر	الداخلية	المصادر	الداخلية
عدد الروافد		22	76	52	68	9	15	18	10
المساحة (كم2)	س¯	0.183	0.122	0.029	0.027	1.026	0.519	0.267	0.218
	ع	0.093	0.093	0.025	0.018	0.865	0.406	0.219	0.156
طول المجرى (م)	س¯	411	426	210	222	840	593	614	492
	ع	206	284	122	119	771	531	638	330
درجة انحدار الرافد	س¯	8.63	12.2	9.099	10.3	6.319	8.311	3.73	4.978
	ع	3.32	4.86	4.688	4.38	3.53	2.371	2.113	2.207
الكثافة التصريفية	س¯	2.63	4.04	9.57	9.3	2.26	3.21	5.35	5.37
	ع	1.47	1.89	11.45	2.9	0.58	0.98	1.38	0.82
التكرار النهري	س¯	6.74	12.82	53.6	55.3	5.6	9.82	27.5	22.1
	ع	3.1	9.2	32.9	36	2.23	5.42	24.1	5.4
الاستطالة	س¯	0.65	0.58	0.65	0.61	0.73	0.64	0.67	0.64
	ع	0.13	0.09	0.13	0.06	0.16	0.08	0.14	0.12
شكل الحوض	س¯	0.34	0.27	0.35	0.30	0.43	0.33	0.37	0.33
	ع	0.14	0.09	0.12	0.07	0.18	0.09	0.15	0.13
الاستدارة						0.68	0.67	0.60	0.66
						0.13	0.13	0.11	0.14
نسبة التضرس						12.1	16.9	14.9	14.5
						4.9	5.3	7.8	3.9

لم تختلف أطوال الروافد الخارجية عن الداخلية في الحوضين في المرتبة الأولى بكلا الحوضين، في حين في المرتبة الثانية زاد متوسط أطوال الروافد الخارجية عن الداخلية في كلا الحوضين ، ولا يوجد تفسير مقنع لهذه الظاهرة ، إلا إذا افترضنا أن روافد المرتبة الثانية في الحوضين تشكل الامتدادات العليا للمراتب العليا ، وكما سبقت الإشارة إلى أن الروافد النهرية في تكالا تتبع خطوطًا انكسارية في ذلك يعطي الروافد فرصة للتطور السريع.

قلَّتْ درجات انحدار الروافد الخارجية عن الداخلية في المرتبتين الأولى والثانية في كلا الحوضين، يفسر ذلك بطول عمر الروافد الخارجية عن الداخلية، أي تقدم المرحلة الجيومورفولوجية في الروافد الخارجية، الأمر الذي يؤدي إلى قلة انحدار الروافد، وسرعة تكون الروافد الداخلية على المنحدرات المختلفة، الأمر الذي يعكس زيادة في درجات انحدارها.

ارتفع معدل الكثافة للروافد الداخلية عن الخارجية في حوض تكالا في المرتبتين، في حين تقارب المعدل في حوض الرميمين، ويمكن تفسير ذلك بأن عمليات التعرية المتسارعة، وطول فترة الاستقرار المناخي الحالية أدت إلى تطور الشبكة النهرية بشكل متعادل في تكالا، إلا أن استمرار عمليات الهبوط المتكرر في مستوى القاعدة العام في الرميمين سابقا أدت إلى سرعة تطور الروافد الداخلية، ومن ثم قلة مساحتها، في حين بقيت الروافد الخارجية بعيدة عن تأثير مرحلة التصابي، صاحب ذلك تحول في الظروف المناخية نحو الجفاف في العصر الحديث.

جاءت نتائج الاستطالة لتؤكد كل ما سبق؛ إذ ارتفع معدل الاستطالة للأحواض الخارجية عن الداخلية في المرتبتين (الأولى والثانية) في كلا الحوضين.

نخلص إلى وجود اختلافات أساسية في الخصائص الجيومورفولوجية والمورفومترية بين الروافد الداخلية والخارجية في المرتبتين الأولى والثانية بكلا الحوضين.

العلاقات المتبادلة بين المؤشرات المورفومترية

أولا- بواسطة تطبيق بعض قوانين هورتون

تم تطبيق بعض قوانين هورتون على الشبكة النهرية في كلا الحوضين، وقد رسمت نتائج توفيق المنحنيات على النحو المذكور في الشكل (5).

قانون عدد المجاري النهرية Law of stream numbers

ظهرت علاقة خطية عكسية بين عدد الروافد النهرية والمرتبة النهرية في كلا الحوضين، وارتفع معامل التحديد إلى معدل عال جدا (0.996) في كليهما، بمستوى معنوية عالٍ (0.001)، بمعنى نقص عدد الروافد النهرية مع زيادة المرتبة.

قانون أطوال المجاري النهرية Law of stream lengths

ظهرت علاقة خطية بين متوسط أطوال الروافد النهرية والمرتبة، وتميل العلاقة إلى التجانس والثبات في حوض تكالا أكثر منها في حوض الرميمين، يفسر ذلك بتجانس الظروف المناخية والجيولوجية في تكالا عنها في الرميمين، فارتفع معامل التحديد إلى 0.99 في تكالا، وانخفض إلى 0.93 في الرميمين، وبمعامل ثقة عالية (0.001)، وبذلك انطبق قانون هورتون لأطوال الروافد في الأحواض النهرية.

قانون مساحة الأحواض النهرية Law of basin areas

يتكرر الأمر في العلاقة بين متوسط المساحات الحوضية والمرتبة النهرية، وظهرت العلاقة السابقة نفسها، فقد ارتفع معامل التحديد إلى قيم عالية جدا في كلا الحوضين (0.998)، وبمعامل ثقة بلغ (0.001)، ذلك بسبب أن كل رتبة أكبر من الرتبة التي تسبقها (الأدنى منها) في الحوض، لذلك أحواض المرتبة الثانية أكبر من الأولى والثالثة أكبر من الثانية، وهكذا.

قانون انحدار المجاري النهرية Law of stream slops

ظهرت علاقة خطية عكسية بين متوسط درجة انحدار الروافد والمرتبة النهرية بكلا الحوضين، وقلت درجة الانحدار بنسب تكاد تكون ثابتة، وارتفع معامل التحديد (0.992) في حوض الرميمين عنه في تكالا (0.904). وقد انتظمت النقاط الخاصة بالرميمين حول خط الانحدار، في حين هناك حُيُود بسيطة لبعض النقاط عن الخط في حوض تكالا، وربما يفسر ذلك بأن بعض الروافد تتبع خطوطًا انكسارية، وأخرى لا تتبعها بالإضافة إلى اختلاف المرحلة الجيوموفولوجية التي يمر بها كلا الحوضين، فحوض تكالا ما زال في مرحلة الشباب المتأخر، ويتمتع بظروف مناخية رطبة تؤدي إلى تسارع عمليات الحت، على العكس من ذلك في حوض الرميمين الذي استطاع ولو بشكل بسيط أن يسوي من مقطعه الطولي بسبب طول عمر الحوض النهري.

عند رسم متوسط التكرار النهري على المراتب النهرية جاءت العلاقة خطية عكسية في كلا الحوضين، وارتفع كذلك معامل التحديد إلى 0.94 في حوض الرميمين، في حين انخفضت إلى 0.90 في حوض تكالا.

نخلص إلى القول بأن قوانين هرتون انطبقت على الحوضين عدا بعض النقاط خرجت عن المسار بعد توفيق المنحنيات، وأرجع ذلك إلى أن بعض الروافد النهرية تتبع عيوبًا جيولوجية .

ثانيا-العلاقة بين العناصر المورفومترية

1 -العلاقة بين أطوال الروافد النهرية والمساحات الحوضية

أظهر تحليل الانحدار بين المساحات الحوضية (م حـ) وأطوال الروافد النهرية في المرتبتين الأولى والثانية، سواء طول النهر الأساسي (ط ر) أو مجموع أطوال الروافد في الحوض (مجـ ط ر) علاقات ارتباط خطية موجبة، وبثقة عالية في الحوضين قيد الدراسة؛ إذ ارتفع معامل التحديد ومعامل الثقة إلى درجة عالية، وكانت العلاقة كما هي مبينة في المعادلات من 11 إلى 16 ،إلا أن العلاقة لم تظهر بالثقة نفسها في

المرتبة الثالثة بكلا الحوضين، ويرجع ذلك إلى قلة الأحواض في المرتبة الثالثة (أربعة أحواض مرتبة ثالثة في كل من الحوضين).

الحوض	المرتبة	المعادلة	R^2	قيمة F	
الرميمين	الأولى	م حـ = 0.24768 ط ر$^{0.79858}$	0.445**	76.2	11---------
تكالا	الأولى	م حـ = 0.8125 ط ر$^{1.0403}$	0.675**	245.3	12---------
الرميمين	الثانية	م حـ = 0.85988 ط ر$^{0.65187}$	0.594**	32.1	13---------
الرميمين	الثانية	م حـ = 0.00027 مجـ ط ر$^{1.04206}$	0.824**	102.9	14---------
تكالا	الثانية	م حـ = 0.39434 ط ر$^{0.79142}$	0.820**	118.3	15---------
تكالا	الثانية	م حـ = 0.19114 مجـ ط ر$^{1.14306}$	0.960**	520.9	16---------

** مستوى المعنوية 0.0001 ، م حـ مساحة الأحواض، ط ر طول الرافد ، مجـ ط ر مجموع أطوال الروافد

وبذلك يمكن حساب قيم مساحات الأحواض النهرية في البيئات الخاصة نفسها بالحوضين من خلال قياس أطوال الأنهار بها، ومساعدة المعادلات الستة السابقة (من 11 إلى 16)، وقد ظهرت قيمة الثابتين أ ، ب بثقة عالية (0.001)، ويعني ارتفاع كل من معامل التحديد ومستوى الثقة، أي إنَّ أية زيادة في مساحة الأحواض النهرية في الحوضين ترجع إلى الزيادة في طول النهر الأساسي، أو مجموع أطوال الروافد النهرية في الحوض، وارتفاع معامل التحديد في المعادلتين 14 و 16 عنه في المعادلتين 13 و 15 مؤشر على أن المساحة في المرتبة الثانية في الحوضين يمكن تفسيرها بأطوال مجموع الروافد، أكثر من تفسيرها بواسطة طول الرافد الأساسي المصنف بالمرتبة الثانية، وقد أشارت دراسات سابقة إلى وجود العلاقات الخطية نفسها بين مساحة الأحواض النهرية وطول الرافد الأساسي أمثال مورجان (1971) ،Morgan و نيوسون (1978) Newson، وكومار وباندي(1981) Kumar & Pandey، وحسان وزملائه(.Hassan et al.

1982) ، والتركماني (1988)، وشاراما وبيدماجا(Sharma & Padmaja 1997).

في حين أظهر معامل الارتباط (الجدول 3) أن العلاقة سالبة وبمستوى ثقة عالية بين أطوال الروافد وكل من درجة انحدار الروافد، والتكرار النهري، ونسبة التضرس، ومعدل الاستدارة. ويمكن تفسير ذلك بأن زيادة طول الرافد تؤدى إلى زيادة مساحة الأحواض، لكن في الوقت نفسه يقل معدل الانحدار بسبب زيادة الطول مع ثبات فرق المنسوب، ومن ثم يقل معدل نسبة التضرس، وإطالة النهر حتما سيؤدي إلى زيادة واضحة في طول الحوض، ومن ثم يزيد من معدل الاستطالة، ويقلل من معدل الاستدارة.

الجدول رقم 3 : علاقات الارتباط بين بعض المتغيرات المدروسة

أولا : علاقات الارتباط بين مساحة الأحواض النهرية مع بعض المتغيرات المورفومترية في المرتبتين الأولى والثانية في الرميمين وتكالا

الحوض	المرتبة	طول الرافد الأساسي	التكرار النهري	درجة انحدار الرافد الأساسي	عدد الروافد	طول الحوض	نسبة التضرس
الرميمين	الأولى	**0.69	-0.67**	-0.27**	-	-	-
	الثانية	**0.90	-0.62**	-0.57*	**0.83	**0.90	-0.49*
تكالا	الأولى	**0.80	-0.71**	-0.41**	-	-	-
	الثانية	**0.93	-0.55**	-0.21**	**0.86	**0.92	-0.30*

ثانيا : علاقات الارتباط بين الكثافة التصريفية مع كل من المساحة و التكرار النهري وطول الحوض

الحوض	المرتبة	المساحة	التكرار النهري	طول الحوض
الرميمين	الأولى	-0.45**	**0.64	-
	الثانية	**0.40-0	**0.58	-0.32*

تكالا	الأولى	**0.27-	**0.48	-
	الثانية	**0.48-	**0.83	*0.47-

ثالثا :علاقات الارتباط بين طول الرافد الأساسي مع كل من درجة انحدار الرافد الأساسي و التكرار النهري

الحوض	المرتبة	درجة انحدار الرافد الأساسي	التكرار النهري	طول الحوض
الرميمين	الأولى	*0.24-	**0.49-	-
	الثانية	**0.55-	**0.51-	**0.89
تكالا	الأولى	*0.28-	**0.59-	-
	الثانية	*0.20	*0.46-	**0.94

** مستوي الثقة 0.0001

* مستوي الثقة 0.01

مما سبق يتضح أن أحواض المرتبة النهرية الثانية تميل إلى الاستطالة؛ إذ إن قيمة الأس exponent ارتفعت إلى 0.8 ، وهذا مؤشر على أن مساحة الأحواض تزداد بسبب زيادة في امتدادها الطولي عن امتدادها العرضي، وبذلك تزداد استطالة الأحواض النهرية ، وكما سبقت الإشارة إلى أن استطالة الأحواض النهرية تزداد في التكوينات الصخرية الصلبة، ذات الانحدارات الشديدة، وهذا ما تمثل في حوضي الدراسة.

لمعرفة درجة تأثير المؤشرات المورفومترية المختلفة قيد الدراسة في المساحات الحوضية في الحوضين، ثم تشغيل الانحدار الخطوي مرتين على اعتبار أن مساحة الأحواض متغير تابع، والمؤشرات المورفومترية الأخرى متغيرات مستقلة (الجدول رقم 4)، ظهر أن أطوال الروافد النهرية تشكل المتغير الأساسي تفسيرًا للتباين في المساحة، إذا حل مؤشر طول الرافد الأساسي في المرتبة الثانية بالدرجة الأولى في حوض الرميمين (ر2 = 0.82) ومستوي معنوية (0.0001)، في حين جاء مؤشر مجموع أطوال الروافد النهرية في الدرجة الأولى بالمرتبة الثانية في حوض تكالا، وبمعامل تحديد ارتفع إلى 0.97 وبمستوى معنوية للمؤشرين (0.0001)، واحتل مؤشر الكثافة

التصريفية الدرجة الثانية، بمعامل تحديد بلغ 0.10 ، و 0.01 لكل من حوضي الرميمين وتكالا على التوالي، وحل في الدرجة الثالثة التكرار النهري.

2 -العلاقة بين الكثافة التصريفية ومساحة الأحواض النهرية

أظهر تحليل الارتباط أن الكثافة التصريفية ترتبط بعلاقات عكسية مع مساحة الأحواض، وبعلاقات ارتباط موجبة مع التكرار النهري، أما مؤشر مساحة الأحواض ارتبط بعلاقات موجبة وعالية، وذات دلالة إحصائية مع كل من عدد الروافد في الحوض، وطول الحوض، في حين ارتبط بعلاقات سالبة مع كل من درجة الانحدار، ونسبة التضرس، والكثافة التصريفية، والتكرار النهري. وهذا أمر طبيعي فقد سبقت الإشارة إلى أن زيادة أطوال الروافد تؤدي إلى زيادة المساحة، لذلك فإن المساحة تزداد مع زيادة عدد الروافد؛ لأن تشكيل أي رافد جديد، خاصة الخارجية منها سوف يؤدي إلى زيادة في المساحة، وزيادة المساحة ستؤدي إلى قلة التضرس، وقلة التضرس تؤدي إلى قلة عدد الروافد، ومن ثم يقل معدل التكرار النهري (الجدول رقم 3).

معنى ذلك أن العلاقة خطية سالبة بين المتغيرين، وهذه النتائج أكدت نتائج دراسات سابقة مثل (1975) Pethick، و(1978) Ferguson، و(Engstrom 1989 & 1981). بمعنى كلما زادت مساحة الأحواض النهرية قلت كثافتها النهرية، ويمكن التوقع ببساطة قيمة الكثافة التصريفية من مساحة الأحواض النهرية طبقًا للمعادلات الأربعة (17 إلى 20).

أخذت نتيجة توفيق المنحنيات بين المتغيرين ﴿ والكثافة التصريفية (ك ت) ومساحة الأحواض النهرية (م حـ) ﴾ في المرتبتين الأولى والثانية في الحوضين العلاقات التالية:

الحوض	المرتبة	المعادلة	ر^2	قيمة F	
الرميمين	الأولى	ك ت = 1.2367 م حـ $^{-0.44293}$	0.336××	48.1	17---------
تكالا	الأولى	ك ت = 2.2458 م حـ $^{-0.35065}$	0.377××	71.6	18---------
الرميمين	الثانية	ك ت = 2.384 م حـ $^{-0.20452}$	0.239××	6.9	19---------
الرميمين	الثانية	ك ت = 3.9722 م حـ $^{-0.1659}$	0.438××	20.2	20---------

**مستوى المعنوية 0.0001 ، *مستوى المعنوية 0.01

لمعرفة أكثر المؤشرات المورفومترية تأثيرًا في معدل الكثافة التصريفية، تم تشغيل الانحدار الخطوي على اعتبار الكثافة التصريفية متغيرًا تابعًا والمتغيرات الأخرى مستقلة في المرتبة الثانية، فاحتل التكرار النهري الموقع الأول في المرتبتين الأولى والثانية في حوض الرميمين والثانية في تكالا، في حين جاءت مساحة الأحواض في موقع متأخر؛ إذ بلغ معامل تحديد في المرتبة الثانية 0.07 و 0.09 لكل من حوضي تكالا والرميمين على التوالي (الجدول رقم 4)، وهذا يعكس مدى العلاقة بين المساحة والكثافة التصريفية وإن كانت عكسية .

(الجدول رقم 4) : نتائج تحليل الانحدار الخطوي في المرتبتين الأولى والثانية في الحوضين عند أخذ المساحة والكثافة التصريفية كمتغيرين تابعين، وباقي المتغيرات كمتغيرات مستقلة

المتغير التابع	الكثافة التصريفية في الرميمين		المساحة في الرميمين	الكثافة التصريفية في تكالا		المساحة في تكالا
المتغيرات المستقلة	المرتبة الأولى	المرتبة الثانية	المرتبة الثانية	المرتبة الأولى	المرتبة الثانية	المرتبة الثانية
المتغير	التكرار النهري	التكرار النهري	طول النهر	شكل الحوض	التكرار النهري	إجمالي أطوال الروافد
معامل التحديد (ر^2)	**0.40	**0.34	**0.82	**0.45	**0.69	**0.96
المتغير	طول النهر الأساسي	الاستدارة	الكثافة	الاستطالة	المساحة	الكثافة
ر^2	**0.22	*0.18	**0.10	**0.28	××0.07	*0.01
المتغير	المساحة	نسبة التقطع	إجمالي أطوال الروافد	التكرار النهري	إجمالي أطوال الروافد	التكرار النهري
ر^2	**0.13	*0.13	*0.03	**0.08	0.07	×0.01
المتغير		إجمالي أطوال الروافد	التكرار النهري		شكل الحوض	
ر^2		0.15	*0.02		0.05	
المتغير		المساحة				
ر^2		*0.09				
مجموع ر^2	0.75	0.89	0.97	0.81	0.88	0.98

**مستوي الثقة 0.0001 *مستوي الثقة 0.01

3 -**العلاقة بين الكثافة التصريفية والتكرار النهري**

ظهرت علاقة خطية موجبة بمستوى ثقة عال جدًّا، وأظهر توفيق المنحنيات بين الكثافة التصريفية (ك ت)، والتكرار النهري (ت ن)، وارتفع معامل التحديد، وأخذت العلاقة بينهما في المرتبتين الأولى والثانية وفي كلا الحوضين الشكل الآتي (المعادلات من 21 إلى 24):

الحوض	المرتبة	المعادلة	ر^2	قيمة F	
الرميمين	الأولى	ك ت = 1.2366 ت ن 0.44301	0.34**	48.1	21---------
تكالا	الأولى	ك ت = 2.2466 ت ن 0.35055	0.38**	71.5	22---------
الرميمين	الثانية	ك ت = 1.3088 ت ن 0.37335	0.43**	16.4	23---------
تكالا	الثانية	ك ت = 2.1414 ت ن 0.29205	0.63**	44.3	24---------

** مستوى المعنوية (0.001)

هنا تأكيد لنتائج دراســـــات ســـــابقة توصلت إلى العلاقـــــات نفسها، مثل(1957) Melton، و (1978) Newson، وأكد تحليل الانحدار الخطوي هذه النتيجة عند اعتبار الكثافة التصريفية في المرحلة الثانية متغيرًا تابعًا، وباقي المتغيرات كمتغيرات مستقلة. احتل مؤشر التكرار النهري الدرجة الأولى في الحوضين، وقد بلغ معامل التحديد 0.69 و 0.34 في تكالا والرميمين على التوالي، وبمستوى معنوية عالٍ جدا (الجدول رقم 4).

النتائج :

خلصت الدراسة إلى الإجابة عن مجموعة الأسئلة التي طرحت في البداية، ولبَّت الأهداف العامة للدراسة، وأهم هذه النتائج هي :

- بروز دور العوامل المناخية أساسية في العمل الجيومورفولوجي، فالرطوبة الآن في حوض تكالا لعبت وما زالت تلعب دورًا مباشرًا على سير العمليات الجيومورفولوجية

النهرية، متمثلة في زيادة معدلات الحت الراسي والتراجعي في الروافد النهرية، فأدى ذلك إلى تكرار عمليات الانهيارات الأرضية على السفوح الدنيا المجاورة مباشرة لتلك المجاري النهرية، بالرغم من أن صخور الحوض من الجرانيت الصلب جدا قليل المسامية و النفاذية . في حين اختلف الوضع في حوض الجزء الأدنى من الرميمين؛ إذ تشهد المنطقة مرحلة شبه جفاف الآن أثرت سلبا في العمل الجيومورفولوجي النهري، وجعلته شبه محنط، كيف لا والعامل النهري نفسه ضعيف جدا، على الرغم من أن صخور الحوض صخور جيرية ضعيفة أمام الرطوبة؛ إذ ترجع غالبية تطور الشبكة النهرية والأشكال الأرضية في الحوض إلى الفترات الرطبة التي مرت علي الحوض في البلايوستوسين.

- وجود اختلافات في الخصائص المورفومترية بين الحوضين متمثلة في زيادة أطوال الروافد، وزيادة مساحة أحواضها في حوض الرميمين عنها في تكالا، على العكس من ذلك زاد معدل الكثافة، والتكرار النهري في حوض تكالا عنه في الرميمين. ارتفع معدل الاستطالة في تكالا ، في حين ارتفع معدل الاستدارة في الرميمين . ارتفع معدل نسبة التضرس وقل معدل انحدار الروافد في تكالا، وعلى العكس من ذلك في حوض الرميمين بمعنى قل معدل نسبة التضرس، وارتفع معدل انحدار الروافد.

- انطبقت قوانين هورتون على كلا الحوضين، وقد أخذت العلاقة بين مجموعة من المتغيرات المورفومترية (متوسط مساحة الأحواض، ومتوسط أطوال الروافد، وعدد الروافد، و متوسط درجات انحدار الروافد، والتكرار النهري)، والمرتبة النهرية العلاقة الأسية (ص = أس^{ب}) .

- أظهر توفيق المنحنيات أن العلاقة الأسية (ص =أ س^{ب}) كانت أفضل الروابط التي أظهرها التحليل في العلاقة بين المؤشرات المختلفة سواء أكانت العلاقة سالبة أم موجبة، فقد ارتبطت مساحة الأحواض بعلاقات ارتباط موجبة وأسية مع أطوال الروافد في المرتبتين الأولى والثانية في كلا الحوضين. وقد أظهر تحليل الانحدار الخطوي أن أطوال الروافد من أهم المؤشرات المورفومترية تفسيرًا للتباين في

المساحات الحوضية، إذ ارتفع معامل التحديد إلى أكثر من 80 % في المرتبة الأولى في كلا الحوضين. وتكررت العلاقة نفسها بين الكثافة التصريفية ومساحة الأحواض، وكانت العلاقة سلبية في المرتبتين الأولى والثانية في كلا الحوضين. ارتفع معامل الارتباط الإيجابي بين الكثافة التصريفية والتكرار النهري في الحوضين، وقد أظهر تحليل الانحدار الخطوي أن التكرار النهري أهم المؤشرات المورفومترية تفسيرًا للتباين في الكثافة التصريفية ، واحتل المرتبة الأولى في كلا الحوضين.

المراجع العربية و الأجنبية

أبو العينين، حسن سيد (2000) أصول الجيومورفولوجيا، دراسة الأشكال التضاريسية لسطح الأرض، ط 12، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية .

أبو سمور، حسن (1987) الطبقات النباتية المكونة للمجموعات النباتية في حوض وادي زي، دراسات، العلوم، 12 : 15-37.

التركماني، جودة فتحي (1988) تطبيق الطرق الكمية؛ للكشف عن بعض خصائص الأودية في منطقة شرق شبه جزيرة سيناء، المجلة الجغرافية العربية، 20: 101-135 .

التوم، صبري محمد (1990) حوض وادي الرميمين «دراسة جيومورفولوجية»، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمان.

التوم، صبري محمد (2004) مورفولوجية المنحدرات في الجزء الأعلى من حوض الرميمين وحوض تكالا - دراسة في الجيومورفولوجية المناخية، مجلة الجامعة الإسلامية-غزة، 12 (2) : 59-87.

القرالة، محمد جميل (2005) التحليل الجيومورفولوجي للخصائص المورفومترية لحوض وادي الكرك ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، 30: 171-194 .

جودة، جودة حسنين (1998) الجيومورفولوجيا علم الأشكال الأرضية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

خضير، كمال محمد (1988) جيولوجية عمان ، شقير وعكشة للطباعة والنشر، عمان.

سلامة، حسن رمضان (1980) التحليل الجيومورفولوجي للخصائص المورفومترية للأحواض المائية في الأردن، دراسات، 7 (1) : 97-132.

سلامة، حسن رمضان (2004) أصول الجيومورفولوجيا ، دار الميسرة، الأردن .

شاور، آمال (1982) التعبير الكمي لدورة التعرية عند ديفز مع التطبيق على بعض الاودية في مصر، المجلة الجغرافية العربية، 14: 39-55.

عابد، عبد القادر (1985) جيولوجية الأردن، مكتبة النهضة الإسلامية، عمان.

عاشور، محمود محمد (1983) التحليل المورفومتري لشبكات التصريف المائي (مصادر البيانات

وطرق القياس)، المجلة الجغرافية العربية، 15: -101 124 .

محسوب، محمد صبري (1998) جيومورفولوجية الأشكال الأرضية، دار الفكر العربي، القاهرة.

محمود، سمير سامي (2005) جيومورفولوجية وادي دجلة، المجلة الجغرافية العربية، 45: 341 – .391

مزرا ، معراج نواب و البارودي، محمد سعيد (2005) السمات المورفولوجية والخصائص المورفومترية والهيدرولوجية لأودية الحرم المكي ، مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية، عدد خاص : 175:264.

- Abrahams، A. D.، (1984) Channel networks a geomorphological perspective، WRR، 20:161168-.
- Abrahams، A. D.، (1972) Drainage densities and sediment yields in Eastern Australia، Aust. Geogr. Studies، 10: 1941-.
- Abrahams، A. D.، & R. N. Campbell (1976) Source and tributary- source link lengths in natural channel networks، Geol. Soc. Am. Bull.، 87: 10161020-.
- Al-Toum، S. M. M.، (1997) Surface erosion study in the granite area of Hulu langat، Selangor D. E.، Malaysia، Unpublished Ph.D thesis، UKM، Malaysia.
- Bender، F.، (1974) Geology of Jordan، Gebruder Borntraeeger، Berlin.
- Butzer، K. W.، (1976) Geomorphology from the Earth، New York، Haper & Row Publishers.
- Chorley، R. J.، (1957) Illustrating the Laws of Morphometry، Geol. Magazine، 94: 140-150.
- Cotton، C. A.، (1964) The control of drainage density، N. Z. J. Geol. & Geophy.، 7: 348352-.
- Day، D. G.، (1980) Lithologic controls of drainage density: a study of six small rural catchments in New England، N.S.W. Catena، 7: 339351-.
- Doornkamp، J. C.، & King، C. A. M.، (1971) Numerical analysis in geomorphology an introduction، Edward Arnold، London، 272p
- Engstrom، W. N.، (1989) Morphometric analysis of mountain drainage basins in the basin and range province، U S A، Z Geomorph N F 33 (4): 443453-.
- Engstrom، W. N.، (1981) Quantitative Geomorphology of Some Desert Mountain Drainage Basins، Z Geomorph N F.، 25 (4): 383390-.
- Eyles، R. J.، (1966) Stream representation on Malayan Maps، J. Trop. Geography، 22:

19-.

- Ferguson, R. I., (1978) Drainage density - basin area relationship, Area, 10: 350352-.

- Gregory, K. J., (1976) Drainage network and climate, In: Geomorphology and climate, Derbyshire, E. (Ed) London: John Wiley and Sons.

- Gregory, K.J., & D.E. Walling (1973) Drainage Basin Form and Process: A Geomorphological Approach, London: Edward Arnold. 456p.

- Gobbett, D. J., & C. S. Hutchinson (1973) Geology of the Malay Peninsula. Wiley-Interscience. New York: John Wiley and Sons.

- Gopinahtan, B., & S. Paramananthan (1979) Steepland soils of Peninsular Malaysia, In: Malaysian Seminar on fertility and management of deforested land: 6167-.

- Hassan, F. A., M. A. Yehia, A. M. Abdallah & H. Hamroush (1982) Morphometry of desert wadi drainage on the West Bank between Danfiq and Ballas, Luxor- Qena Region, Egypt, Qatar Univ. Sci. bull., 2 (1) : 143166-.

- Horton, R. E., (1945) Erosional development of streams and their drainage basins, Bull. Geol. Soc. Amer., 56: 275370-

- Kumar, A., & Pandey, R. N., (1981) Quantitative geomorphology of small drainage basins of Hazaribagh plateau, Geogr. Rev. India, 43 (2): 196203-.

- Lai, F. S., (1992) Sediment and solute yields from logged, steep upland catchments in Peninsular Malaysia, Unpublished Ph.D thesis, University of Manchester, UK.

- Maxwell, J. C., (1955) The bifuraction Ratio in Horton>s law Numbers, Am. Geophys. Union. Tr., 36 : 520.

- Melton, M. A., (1957) An analysis of the relations amang elements of climate, surface properties and geomorphology, tech. Report, II, office of naval research, Dept. Geol., Colombia Univ. NY.

- Moorman، F.، (1959) Report to the government of Jordan on soil of east Jordan، FAO، no، 1132.

- Morgan R. P. C.، (1971) A morphometric study of some valley systems on the English chalklands، Ins. Br. Geogr.، 54: 3343-.

- Morisawa، M. E.، (1959) Relation of morphometric properities to runoff in the little Mill Greek، Ohio، Drainage basin tech. Report No. 17، Dep. Geol.، Colombia Univ. NY

- Padmaja، G.، (1975) Some aspects of quantitative drainage characteristics of the Dhund basin، Geogr. Rev. India، 37 (2): 158164-.

- Pethick J. S.، (1975) A note on the drainage density- basin area relationship، Area، 7:21722-.

- Roe، F. W.، (1953) The geology and mineral resources of the neighbourhood of Kuala Selangor and Rasa-Selangor، Federation of Malaya، with an account of Geology of Batu Arang Coalfield. Geol. Sur. Dept. Memoir No. 7. New Series. Kuala Lumpur: Caxton Press.

- Salameh، H. R.، (1988) Morphology of the first-order streams in a semi-arid watershed: Wadi shueib Basin، Jordan، Arab J. for the humanities، 8 (30): 405435-.

- Schumm، S. A.، (1956) Evolution of drainage systems and slopes in Badlands at Perth Amboy، New Jersey: Geol. Soc. Am. Bull.، 67: 597646-.

- Shreve، R. L.، (1966) Statistical law of stream numbers، J. Geology، 74: 1738-.

- Sharma، H.S.، & G. Padmaja، (1977) Quantitative geomorphic characteristics of streams of the morel basin، Rajasthan، Geogr review of India، 39 (4) : 353366-.

- Smart، J. S.، (1972) Quantitative characterization of channel network structure، WRR.، 8(6) :148796-.

- Strahler، A.N.، (1957) Quantitative analysis of watershed geomorphology. Trans. Am. Geophys. Union، 38 (6): 913920-.

- Strahler، A. N.، (1958) Dimensional analysis applied to fluvial eroded landforms، Bull. Geol. Soc. Am.، 69: 279300-.

- Strahler، A. N.، (1964) Quantitative geomorphology of drainage basin and Channel Networks، Part II Sect 4-II. In: Handbook of Applied Hydrology، V. T. Chow (Ed.) New York: McGraw-Hill Book Company، Section 4-II.

- Wilson، l.، (1971) Drainage density، length ratios، and lithology in a glaciated area of southern connecticut، Geol. Soc. Am. Bull.، 82: 29552956-.

- Zakaria A. S.، (1972) Morphometry of part of Kelantan river catchment، Sains Malaysian، 1 (1): 5976-.

الجدول رقم (1) : المتوسط (س -) والانحراف المعياري (ع) للخصائص المورفومترية المقاسة والمحسوبة علي جميع المراتب النهرية في الرميمين وتكالا

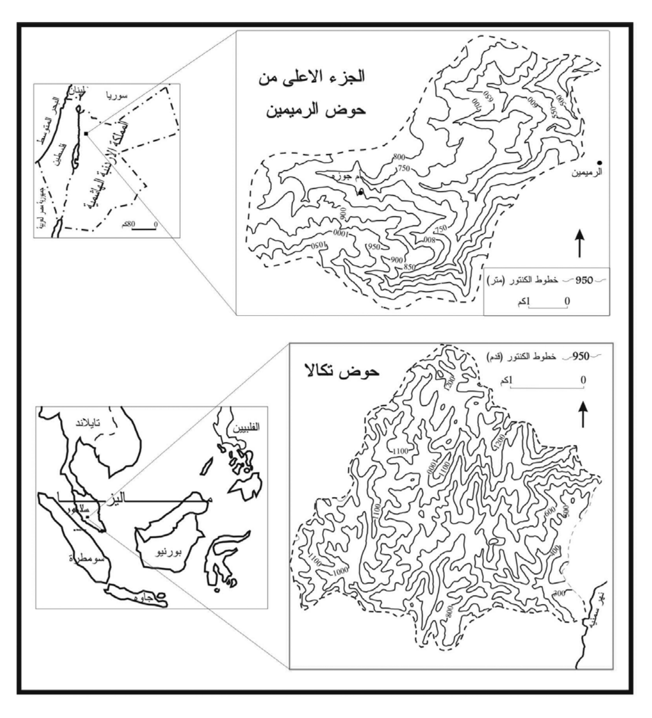
أولا : المساحة وطول الرافد والكثافة النهرية والتكرار النهري ونسبة التقطع وعدد الروافد ومعدل التشعب

المتغير		المساحة (كم2)		أطوال الروافد (م)		الكثافة النهرية		التكرار النهري		نسبة التقطع		عدد الروافد		معدل التشعب	
المرتبة النهرية		الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا
الأولى	س-	0.136	0.028	423	217	3.72	9.42	11.45	54.59			98	120		
	ع	0.097	0.021	267	119	1.9	7.8	8.62	34.6					4.1	4.6
الثانية	س-	0.709	0.25	685	571	2.85	5.36	8.23	25.57	1.226	2.121	24	28		
	ع	0.651	0.197	627	546	0.96	1.19	5.42	19.56	0.354	0.602			6	7
الثالثة	س-	5.358	1.275	1788	1323	2.21	5.15	4.25	18.7	2.098	3.75	4	4		
	ع	3.13	0.969	1195	654	0.52	0.53	1.29	4.89	0.479	0.742			4	4
الرابعة		33.25	9.78	10510	4937	2.26	5.13	3.79	15.75	4.582	10.465	1	1		

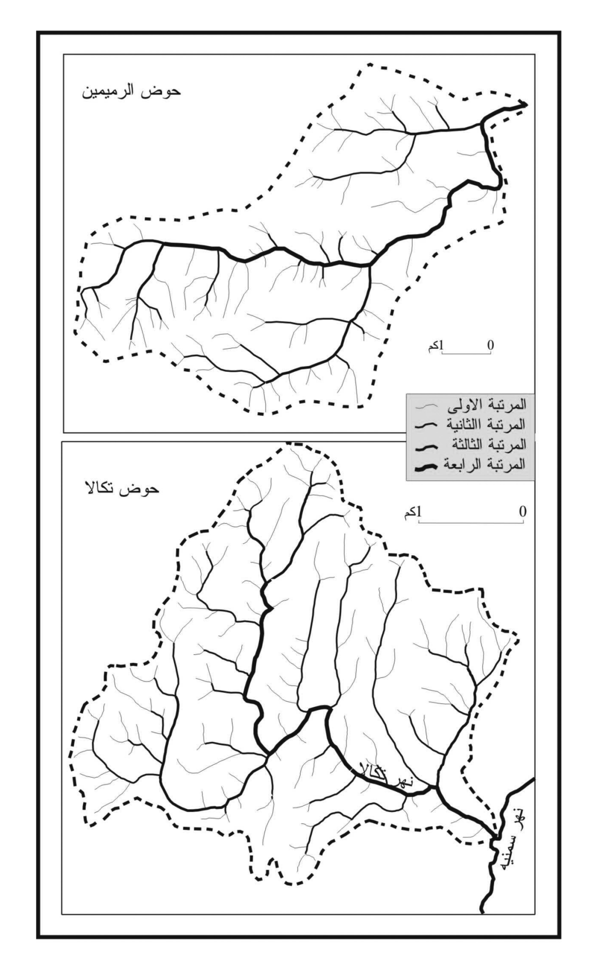
ثانيا : الاستدارة والاستطالة والشكل ودرجة الانحدار ونسبة التضرس

المتغير		الاستدارة		الاستطالة		الشكل		درجة الانحدار		نسبة التضرس	
المرتبة النهرية		الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا	الرميمين	تكالا
الأولى	س-	*	*	0.598	0.63	0.298	0.32	11.39	9.78	*	*
	ع			0.109	0.10	0.109	0.10	4.79	4.54		
الثانية	س-	0.67	0.61	0.677	0.66	0.37	0.36	7.564	4.178	150.5	147.3
	ع	0.12	0.126	0.122	0.133	0.13	0.14	2.954	2.192	55.7	66
الثالثة	س-	0.68	0.53	0.69	0.75	0.38	0.53	3.945	3.183	87.9	111.2
	ع	0.11	0.13	0.05	0.15	0.055	0.13	1.559	2.022	17.2	3.18
الرابعة		0.55	0.58	0.65	0.84	0.33	0.56	2.536	2.545	76.2	80.2

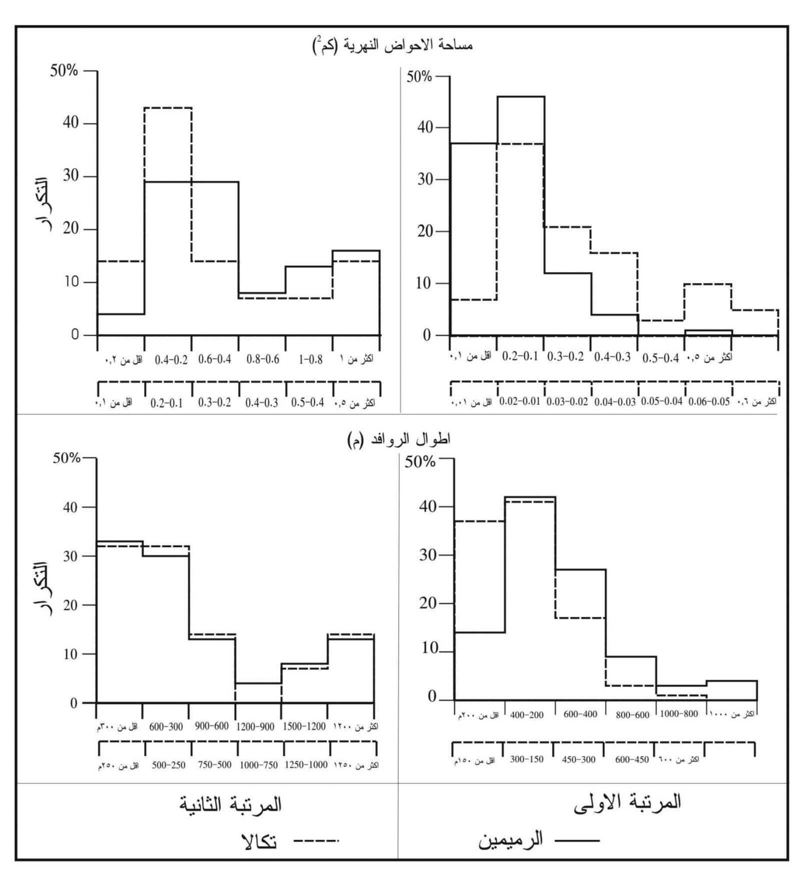
* القيمة لم تحسب



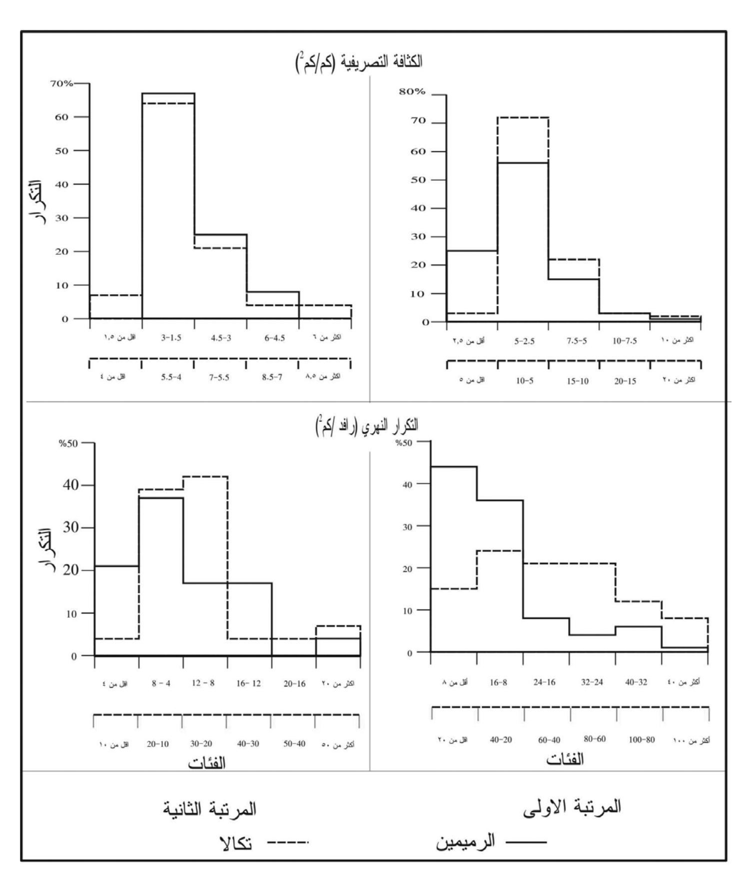
الشكل رقم (1): موقع الخريطة الكنتورية لكل من الجزء الأعلى
من حوض الرميمين وحوض تكالا



الشكل رقم (2): المراتب النهرية في الحوضين

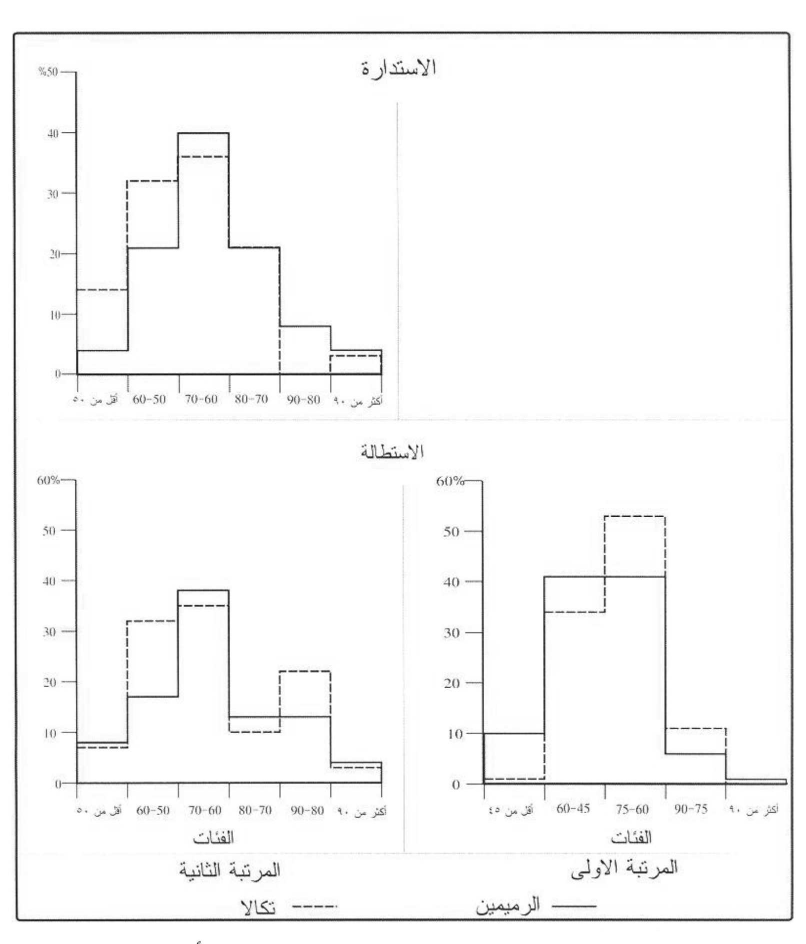


الشكل رقم (3 أ): بعض التكرارات النهرية في المرتبتين الأولى والثانية
من حوضي الجزء الأعلى من الرميمين وتكالا

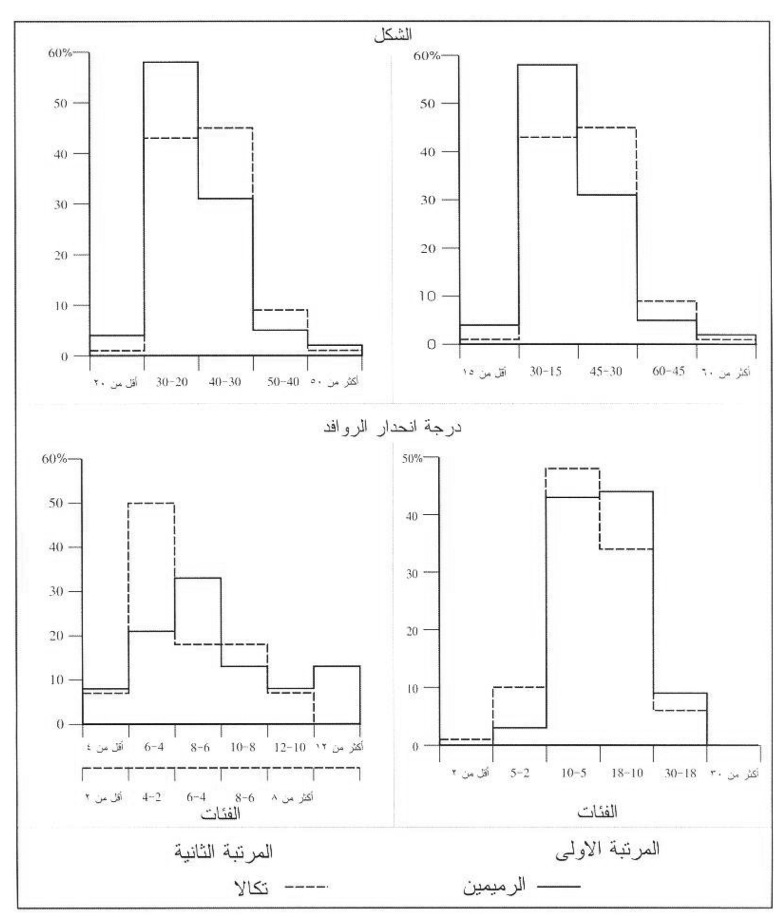


الشكل رقم (3 ب): بعض التكرارات النهرية في المرتبتين الأولى والثانية

من حوضي الجزء الأعلى من الرميمين وتكالا

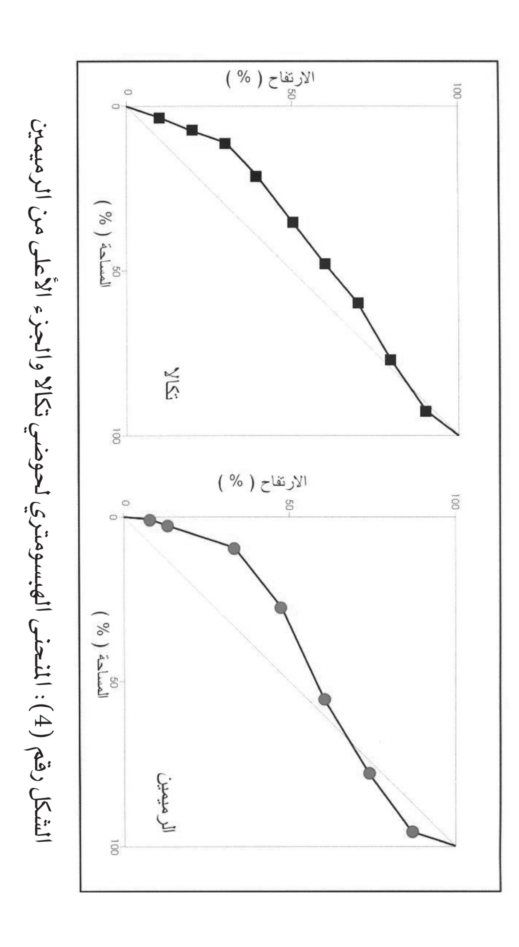


الشكل رقم (3 جـ): بعض التكرارات النهرية في المرتبتين الأولى والثانية من حوضي الجزء الأعلى من الرميمين وتكالا

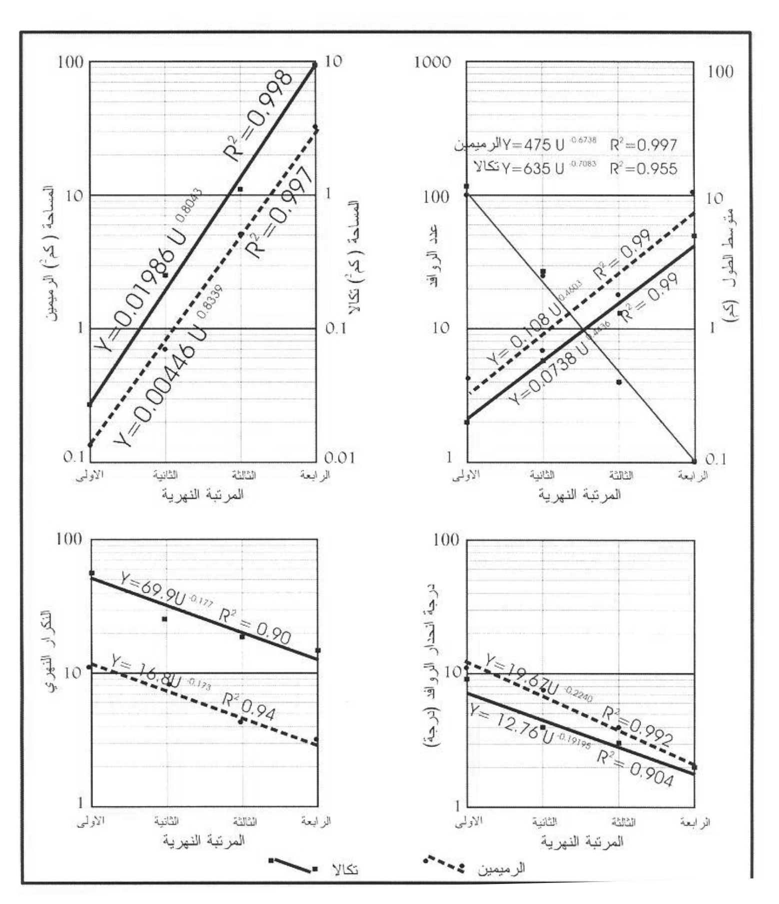


الشكل رقم (3 د): بعض التكرارات النهرية في المرتبتين الأولى والثانية من حوضي الجزء الأعلى من الرميمين وتكالا





الشكل رقم (4) : المنحنى الهبسومتري لحوضي تكالا والجزء الأعلى من الرميمين



الشكل رقم (5) العلاقات المتبادلة بين المرتبة النهرية وكل من المساحة وعدد الروافد النهرية ودرجة انحدارها ومتوسط أطوالها في كلا الحوضين

Tomozeiu, R. Busuioc, A. Stefan, S. 2002. Changes in Seasonal Mean Maximum Air Temperature in Romania and their Connection with Large-Scale Circulation. International Journal of Climatology, 22: 12181-1196.

Turkes, M. and Erlat, E. 2003. Precipitation Changes and Variability in Turkey Linked to the North Atlantic Oscillation During the Period 1930-2000. International Journal of Climatology, 23: 1771-1796

Turkes, M and Erlat E. 2005. Climatological Responses of Winter Precipitaion in Turkey to Variability of the North Atlantic Oscillation During the Period 1930-2001. Theoretical and Applied Climatology, 81: 45-69.

Uvo, C. 2003. Analysis and Regionalization of Northern European Winter Precipitation Based on its Relationship with the North Atlantic Oscillation. International Journal of Climatology, 23: 1185-1194

Wedgbrow, C.S. Wilby, R.L. Fox, H.R. and O>Hare, G.O. 2002. Prospects for Seasonal Forecasting Summer Drought and Low River Flow Anomalies in England and Wales. International Journal of Climatology, 22: 219-236.

Wilby, R.L. O>Hare, G.P. Barnsley, N. 1997. The North Atlantic Oscillation and British Isles Climate Variability. Weather, 52: 266-276.

Wang, W. Anderson, B.T. Kaufman, R.K. and Myneni, R.B. 2004. The Relation Between the North Atlantic Oscillation and SSTs in the North Atlantic Basin. Journal of Climate, 17: 4752-4759.

Wood, N.L.H. 2004. Regional Climate Trends in South-West England and the North Atlantic Oscillation. Weather, 59: 38-41.

Observed Record (1901-2000) and 16 Scenarios (2001-2100). Tyndall Centre Working Paper No 55.

Mitchell, T.D and Jones, P.D. 2005. Improved Method of Constructing a Database of Monthly Climate Observations and Associated High- Resolution Grids. International Journal of Climatology, 25: 693-712.

Mote, T.L. 1998. Mid-Tropospheric Circulation and Surface Melt on the Greenland Ice Sheet. Part I: Atmospheric Teleconnections. International Journal of Climatology, 18: 111-129.

Panagiotopoulos, F. Shahgedanova, M. Hannachi, A. Stephenson, D. 2005. Observed Trends and Teleconnections of the Siberian High: A Recent Declining Center of Action. Journal of Climate, 18: 1411-1422.

Perry, A. 2000. The North Atlantic Oscillation: an Enigmatic See-Saw. Progress in Physical Geography. 24: 289-294.

Pirazzoli, P. A. and Tomasin, A. 2003. Recent Near-Surface Wind Changes in the Central Mediterranean and Adriatic Areas. International Journal of Climatology, 23: 963-973.

Pryor, S.C. Barthelmie, R.J. 2003. Long-Term Trends in Near-Surface Flow Over the Baltic. International Journal of Climatology, 23: 271-289.

Scheifinger, H. Menzel, A. Koch, E. Peter, C. and Ahas, R. 2002. Atmospheric Mechanisms Govering the Spatial and Temporal Variability of Phenological Phases in Central Europe. International Journal of Climatology, 22: 1739-1755.

Sheridan, S. C. 2003. North America Weather-type Frequency and Teleconnection Indices. International Journal of Climatology, 23: 27-45

Stephenson, D.B. Pavan, V. Bojariu, R. 2002. Is the North Atlantic Oscillation a Random Walk. International Journal of Climatology, 20: 1-18.

Spraks, T.H. and Menzel, A. 2002. Observed Changes in Seasons: An Overview. International Journal of Climatology, 22: 1715-1725.

Terray, L. Demory. M-E. Deque, M. Coetlogon, G. Maisonnave, E. 2004. Simulation of Late-Twenty-First-Century Changes in Wintertime Atmospheric Circulation Over Europe Due to Anthropogenic Causes. Journal of Climate, 17: 4630-4635.

Link Between El-NINO and Springtime North Atlantic Oscillatioon and European-North African Rainfall. International Journal of Climatology, 23: 1239-1311

Kozuchowski, K. M. 1993. Variation of the Hemispheric Zonal Index Since 1899 and its Relationship with Air Temperature. International Journal of Climatology, 13:853-861.

Krichak, S.O. and Alpert, P. 2005. Signature of the NAO in the Atmospheric Circulation During Wet Winter Months Over the Mediterranean Region. Theoretical and Applied Climatology, 82:27-39.

Kysely, J. 2002. Temporal Fluctuations in Heat Waves at Prague-Klementinum, the Czech Republic, from 1901-97, and their Relationship to atmospheric Circulation. International Journal of Climatology, 22:
33-50.

Laternser, M. and Schneebli, M. 2003. Long-term Snow Climate Trends of the Swiss Alps (1931-1999). International Journal of Climatology, 23: 733-750.

Lolis, C.J. Bartzokas, A. and Katsoulis, B.D. 2002. Spatial and Temporal 850hPa Air Temperature and Sea-Surface Temperature Covariance's in the Mediterranean Region and Their Connection to Atmospheric Circulation. International Journal of Climatology, 22: 663-676.

Lucero, O.A and Rodriguez, N.C. 2002. Spatial Organization in Europe of Decadal and Interdecadal Fluctuation in Annual Rainfall. International Journal of Climatology, 22: 805-820

Luterbacher, J. and Xoplaki, E. 2003. 500-Year Winter Temperature and Precipitation Variability Over Mediterranean Area and its Connection to the Large-scale Atmospheric Circulation. Mediterranean Climate: 133-153, Eds.Bolle, H-J. Springer-Verlag.

New, M. Hulme, M. and Jones, P. 2000. Representing Twentieth-Century Space-Time Climate Variability. Part II: Development of 1901-96 Monthly Grids of Terrestrial Surface Climate. Journal of Climate, 13: 2217-2238.

Mitchell, T.D. Hulme, M. and New, M. 2002. Climate Data for Political area. Area, 34: 109-112.

Mitchell, T.D. Carter, T.R. Jones, P.D. Hulme, M. and New, M. 2004. A Comprehensive Set of High-Resolution Grids of Monthly Climate for Europe and the Globe: The

75:179-187.

Goodess, C.M. and Jones, P.D. 2002. Links Between Circulation and Changes in the Characteristics of Iberian Rainfall. International Journal of Climatology, 22: 1593-1615.

Gouirand, I. and Moron, V. 2003. Variability of the Impact of El NINO-Southern Oscillation on Sea-Level Pressure Anomalies over the North Atlantic in January to March (1874-1996). International Journal of Climatology, 23: 1549-1566.

Hanna, E. Jonsson, T. and Box, J.E. 2006. Recent Changes in Icelandic Climate. Weather, 61: 3-8

Hasanean, H.M. 2004. Wintertime Surface Temperature in Egypt in Relation to the Associated Atmospheric Circulation. International Journal of Climatology, 24: 985-999.

Honda, M. Yamane, S. and Nakamura, H. 2005. Impacts of the Aleutian-Icelandic Low Seesaw on Surface Climate during the Twentieth Century. Journal of Climate. 18: 2793-2802.

Hurrell, J.W. 1995. Decadal trends in the North Atlantic Oscillation: Regional Temperature and Precipitation. Science, 269:676-679.

Jones, P.D Jonsson, T. Wheeler D. 1997. Extension to the North Atlantic Oscillation Using Early Instrumental Pressure Observations from Gibraltar and South-west Iceland. International Journal of Climatology, 17:1433-1450.

Junge M.M. and Stephenson, D.B. 2003. Mediated and Direct Effects of the North Atlantic Ocean on Winter Temperatures in Northwest Europe. International Journal of Climatology, 23: 245-261

Keevallik, S. 2003. Changes in Spring Weather Conditions and Atmospheric Circulation in Estonia (1955-95). International Journal of Climatology, 23: 263-270.

Kettlewell, P.S. Stephenson, D.B. Atkinson, M.D. and Hollins, P.D. 2003. Summer Rainfall and Wheat Grain Quality: Relationships with the North Atlantic Oscillation. Weather, 58: 155-164

Knippertz, P Ulbrich, U Mrques F. and Corte-Real J. 2003. Decadal Changes in the



References

Bader, J. Latif, M. 2005. North Atlantic Oscillation Response to Anomalous Ocean SST in a Coupled GCM. Journal of Climate, 18: 5382-5389.

Bednorz, E. 2002. Snow Covers in Western Poland and Macro-Scale Circulation Conditions. International Journal of Climatology, 22: 533-541.

Bartzokas, A. Lolis, C.J. and Metaxas, D.A. 2003. The 850hPa Relative Vorticity Centres of Action for Winter Precipitation in the Greek Area. International Journal of Climatology, 23: 813-828.

Box, J.E. 2002. Survey of Greenland Instrumental Temperature Records: 1873-2001. International Journal of Climatology. 22:1829-1847.

Brunetti, M. Maugeri, M. Nanni, T. 2002. Atmospheric Circulation and Precipitation in Italy for the Last 50 Years. International Journal of Climatology, 22: 1455-1471

Cohen, J. and Barlow, M. 2005. The NAO, the AO and Global Warming: How Closely Related. Journal of Climate, 18: 4498-4513.

El-Kadi, A.K.A. 2007. 20th Century Temperatures of Palestine: Variability, Trend and the Global Warming (1901-2000). Journal of the Social Sciences, Faculty of Arts, Bahrain University. (Submitted).

Eshel, G. Cane, M.A. Farrell, B.F. 2000. Forecasting Eastern Mediterranean Droughts. Monthly Weather Review, 128: 3618-3630.

Feidas, H. Makrogiannis, T. Bora-Senta, E. 2004. Trend Analysis of Air Temperature Time Series in Greece and their Relationship with Circulation Using Surface and Satellite Data: 1955-2001. Theoretical and Applied Climatology, 79: 185-208.

Fowler, H.J. and Kilsby, C.G. 2003. A Regional Frequency Analysis of United Kingdom Extreme Rainfall from 1961 to 2000. International Journal of Climatology, 23:1313-1334

Fowler, H.J. and Kilsby, C.G. 2002. Precipitation and the North Atlantic Oscillation: A Study of Climatic Variability in Northern England. International Journal of Climatology, 22:843-866.

Garcia, R. Munoz, T. Hernandez, E. Ribera, P. and Gimeno, L. 2003. Temperature Predictability in the Great Mediterranean Area. Theoretical and Applied Climatology,

the 20th century, similar to those observed in surface temperature changes, whereas they don’t correlate with the NAO index variability (Pirazzoli, and Tomasin, 2003).

Wood (2004) concluded that NAO as bipolar indexes it cannot be expected to adequately represent the three-dimensional temperature field that sets boundary conditions for the forced hemispheric waves.

Weak but statistically significant relationships were found between Iceland climate and NAO (Hanna, et al 2006). They concluded that NAO index is a purely statistical measure, imperfectly representing the underlying physical mechanisms and causes.

The negative mode is associated with westerly wind and moving depression over the Mediterranean and brings mild and wet westerly maritime wind over the Eastern Mediterranean.

The results of this study lead to the conclusion that the North Atlantic atmospheric circulation (NAO) has strong impact and significant connection to the temperature variability over Palestine. Annual NAO results in predominantly negative relationships with monthly and seasonal temperature. These negative relationships were strengthened in the case of monthly and seasonal NAO and associated monthly and seasonal temperatures. These results confirmed the well-known dipole patterns of the atmospheric circulation between North-Atlantic Western-Europe and the Eastern Mediterranean (Hurrel, 1995, Jones et al 1997, Turkes and Erlat, 2005).

Negative NAO is associated with warmer temperature and the apposite with positive NAO. Same conclusions have been found over Greece (Feidas, et al, 2004), Egypt (Hasanean, 2004) and for the whole Eastern Mediterranean countries (Luterbacher and Xoplaki, 2003).

temperatures were associated significantly with annual NAO, and changed to higher significant level with seasonal NAO. The relationships were predominantly negative. Categories of NAO and their relationships also satisfied the objection of its categorizations.

Negative NAO indices bring warmer conditions, whereas the positive NAO indices are associated with the apposite conditions (Tables 3 and 4). These results were in apposite to that found over Europe-North Atlantic sector, confirming the well known dipole teleconnections pattern between the Eastern Mediterranean and the North Atlantic Western Europe.

This is climatologically sound, since positive NAO is associated with strong westerly circulation and moving depression over Europe and it is absent over the Mediterranean. The Mediterranean in this phase may be influenced by more meridional circulation

The NAO phases also shows clear and negative significant relationships with Palestine temperature. However the explained variance was not high, and does not exceed 40% at it is best in February (Table 5) in the period 1930-1970. However it is larger than that found in other countries. Meanwhile, NAO represents a mode of atmospheric variability that is not yet completely understood (Uvo, 2003).

Junge and Stephenson (2003) concluded that NOA alone is not a good model for explaining a large fraction of the interannual variance of winter means temperature of Central England, and NOA is no longer the dominant SLP pattern for determining Central England temperature. The prediction of European climate needs more than just NOA prediction.

Wind activity in the central Mediterranean decreased from at least 1951 to the mid 1970s, and then increased until the end of

these relationships were significant. These findings imply strong relationships between NAO and Eastern Mediterranean and the Middle East. The results obtained here are also in accordance to that found over Greece (Feidas, et al 2004) and to the strong predictability of North Atlantic mean sea level pressure (NAO) and the Eastern Mediterranean (Eshel, et al 2000, Garcia et al, 2003). The least significant relationships were found between winter temperature and winter NAO (Table 5). In contrast to the stronger relationships were usually found in Europe.

NAO					
	December	January	February	Winter	Annual
1901-2000	-0.419	-0.500	-0.531	-0.204	-0.433
1901-1930	-0.421	-0.221	-0.495	-0.161	-0.380
1930-1970	-0.369	-0.584	-0.626	-0.007	-0.585
1970-2000	-0.363	-0.524	-0.364	-0.193	-0.184
1970-1994	-0.407	-0.547	-0.340	-0.241	-0.049

Table 5. Correlation Coefficient between winter season, winter months, annual temperatures and NAO positive and negative phases. Bold values are significant at 0.05 and bold italic at 0.01 or more.

Therefore it is reasonable to conclude that the effects of NAO go beyond the Western-Europe North Atlantic regions into the Middle East and the Eastern Mediterranean. Therefore, the conclusion of Scheifinger, et al (2002) cannot be supported and is questionable.

Conclusion

Annual and monthly temperatures have significantly been shown to relate to annual NAO. These relationships increased when using the monthly NAO and monthly temperature. Seasonal

1990s and a subsequent negative trend in the recent period is clear distinction from the global warming unabated throughout the whole winter period 1950-2004 (Cohen and Barlow, 2005).

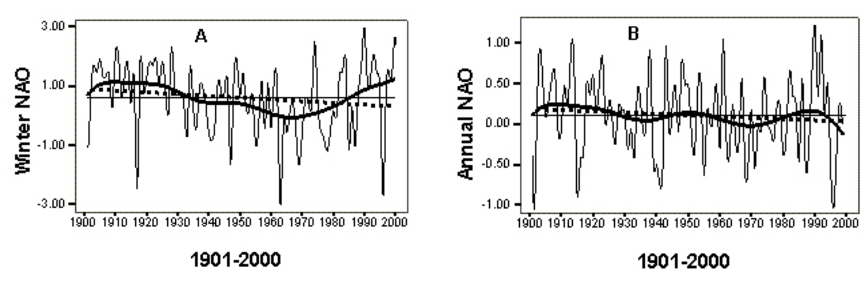


Figure 3. Winter (A) and Annual (B) NAO

The end of the century winter North Atlantic European region atmospheric circulation is characterized by a doubling(halving) of the occurrence of the NAO+ (NAO-) climate regime (Terray et al 2004).

Temperature and precipitation patterns during the 1995-1996 winter changed dramatically as the oscillation reversed its sign from extremely positive to extremely negative index, the winter of this period in many parts of Northern Europe was the coldest for at least 10 years and reminiscent of many in the 1960s, it was also very dry winter in Northern Europe, in contrast, the prolonged drought broke in the western Mediterranean (Jones et al 1997).

NAO Positive, Negative Phases and the Temperature

According to the above definition of the negative and positive phases of winter and annual NAO (Figure 3), Table 5 shows the correlation coefficient between NAO and winter months, winter season and annual temperatures.

The relationships between NAO positive, negative phases and the temperature were predominantly negative (Table 5). Most of

spring months and seasons, as well as no relationships was found in spring months and season with (+0.5≥ NOA ≥ -0.5). The same result was with NAO≤-0.5. Spearman indicates a significant relationship of -0.207 significant at 0.05 between April NAO≥+0.5 and April temperature. May NAO≥+0.5 was significantly correlated with a value of -0.396 with May temperature and it was significant at 0.03.

Positive and Negative NAO Phases.

At this section we examined the relationships between the long-term run of positive and negative sequences of NAO and the temperature.

From the turn of the 20th century until about 1930 the NAO showed a positive trend, which subsequently reversed from the early 1940s to early 1970s (Hurrell, 1995 and Gouirand and Moron, 2003) (see Figure 3).

From early 1970s to early 1990s NAO was in positive phase (Hurrell, 1995, Wilby et al 1997, Stephenson, et al, 2002, Pryor and Barthelmie, 2003, Bartzokas, 2003, Laternser and Schneebeli, 2003, Pirazzoli and Tomasin, 2003 and Turkes and Erlat, 2003).

Moreover Jones et al (1997) stated that the period since 1970s is the most prolonged positive phase of the oscillation and the late 1980s and early 1990s, (Figure 3), is the period with highest values (strongest westerlies), the winter of 1995-1996 marked a dramatic switch in the index, with the change from 1994-1995 being the greatest change recorded from one year to the next since the series began in 1823. Bader and Latif (2005) concluded that the observed recent positive trend in NAO has a likely contribution from the observed warming in the Indian Ocean via the circum-global pattern.

NAO has vigorous upward trends during the 1970s-early

Spring

The overall relationships of spring months and season were negatively correlated with NAO. Spring months except April were correlated significantly with annual NAO (Table 2A). When monthly NAO was used the relationships were strengthened and attained higher significant levels except April (Table 2B).

The correlation coefficient between annual NAO and spring temperature was -0.317 and it is highly significant at 0.001 level of significant (Table 1A). The relationship between Spring NAO and spring temperature was significant at 0.006 (Table 1B). This means that the annual (Table 1A) and seasonal spring temperatures were significantly related to spring seasonal and annual NAO (Table 1B)

No significant relationships were found with NAO≥+0.5, NAO≤-0.5, and (0.5+≥ NOA ≥ -0.5) and the temperature.

Spring negative NAO≤-0.5 was warmer by 0.6°C than NAO≥+0.5 (Table 3). The negative spring NAO≥-1 is warmer by 0.7°C than the positive spring NAO≥+1 (Table 3). March negative NAO≤-1 was warmer by 1.9°C than March positive NAO≥+1(Table 4).This means that negative spring NAO index was associated with warmer temperature than the positive NAO index (Table 3). Using extreme positive spring NAO≥+1, the correlation was -0.493 and it is significant at 0.06. When spring NAO in the extreme negative index of NAO≤-1 the relationship was not significant.

No significant relationship was found in both March and April temperature and the NAO≥+1. No correlation were found between Annual NAO≥+0.5 and spring months, however Spearman Rank correlation indicate a values of -0.454 with March temperature and it was significant at 0.05.

No relationships were found between annual NAO≤0.5 and

	NAO Indices				
Months	NAO≥+1	NAO≤-1	-0.5≥NAO≤+0.5	NAO≥+0.5	NAO ≤-0.5
January	10.6	12.1	11.1	11	12.2
February	11.2	13.2	12.0	11.2	13.3
March	13.2	15.1	14.3	13.3	14.0
April	17.7	17.6	17.8	17.4	17.9
May	20.7	21.7	21.4	20.9	22.1
June	23.8	24.1	24.0	23.6	24.8
July	26.0	25.9	25.9	25.7	26.4
August	26.3	26.9	26.4	26.2	26.4
September	24.6	25.0	24.8	24.7	24.8
October	21.7	22.5	22.1	22.3	21.7
November	16.9	17.8	17.6	16.8	17.3
December	12.3	13.6	13.1	12.3	13.2

Table 4. Monthly Average Temperature Associated with Monthly NAO Indices

No relationships were found between all annual NAO categories and autumn season and its months (September, October and November). Small differences of the average autumn temperature associated with Annual NAO≥ +0.5 and NAO≤-0.5 was found (Table 3). Autumn negative NAO indices were associated with warmer conditions than autumn positive NAO indices (see Table 3). Furthermore only October and autumn temperatures was correlated significantly at 0.01 level of significant with a value of -0.38 and -0.38 with NAO≤-0.5 respectively.

Autumn temperature associated with negative NAO≤-0.5 is warmer by 0.4°C than the positive Autumn NAO≥+0.5. Negative NAO≤-1 is warmer by 0.8°C than positive NAO≥+1 (Table 3)

The non exist significant relationships between autumn temperature and annual NAO (Tables 1A and 2A) could be interpreted by the irregular and unsettled weather conditions peculiar for this season in the year.

negative relationships of -0.303 and -0.247 with annual NAO (Table 2A).

Average summer temperatures associated with NAO ≥+1 and NAO ≤-1 were 26.3°C and 25.9°C (Table 3) respectively while the correlation coefficients were positive but not significant. However it is interesting to note that only positive NAO in summer season was associated with warmer conditions over Palestine than the negative NAO (Tables 3 and 4). This apposite pattern may signify the change of Northern Hemisphere atmospheric circulation between winter and summer. Positive NAO index is statistically significantly related to higher than normal summer temperatures over the Balkans and vice versa (Lolis, et al 2002).

No relationship were found in June, July and August with both indices of NAO ≥+1 and NAO ≤-1, despite the NAO≤-1 in July were it was -0.433 and significant at 0.05.

No significant relationships were found with each summer NAO indices of ≤-0.5, and ≥+0.5 and the monthly, seasonal and annual temperatures of summer. Lolis et al (2002) stated that no significant relationship between 850hPa temperature and NAO was found in the Mediterranean region in summer. Furthermore only in summer there was non significant correlation between NAO and south-west England (Wood, 2004).

Autumn

No relationships were found between annual NAO and the months of autumn (Table 2A), however when the monthly NAO was used the relationships with autumn monthly temperatures was turned to strong negative significant relationships (Table 2B). The correlation between autumn temperature and autumn NAO was -0.276 and significant at 0.005 level of significant (Table 1B).

NAO≥+1 was significant at 0.05. No significant relationships were detected in December with the two indices.

The formations of the positive phase with strong Icelandic Low in winter led to warmer conditions simultaneously over Europe, the southeastern United States, and the Far East and colder conditions on the other coastal regions of North America and around the Middle East, the apposite conditions are observed for the negative phase (Honda, et al 2005, Uvo, 2003) (see Table 3). In addition, cold anomalies in winter around the Middle East are associated with the intensified Azores high (Honda et al 2005), i.e., positive NAO (see Figure 1). In winter a sea-saw pattern of 850hPa temperature was found between Western Europe and the Middle East, and a positive NAO is significantly related to negative 850hPa temperature anomalies over the Eastern Mediterranean and the Middle East and vise versa (Lolis et al 2002). February negative NAO≤-1 was warmer by +2^{o}C than February positive NAO≥+1 (Table 4). In winter during positive NAO Egypt becomes cooler and during negative NAO years the zonal trajectories of Atlantic heat brings anomalously warmer period to Egypt (Hasanean, 2004), as identified in Palestine. Tomozeiu, et al (2002) found a good relation between the winter NOA index and the Romanian temperature in the period 1960-1998.

Summer

Summer months and season all display a negative correlation with NAO and annual NAO showed strong negative relationships with summer temperature (Table 1A). On contrary the relationships between summer seasonal NAO and summer temperature declined and not significant (Table 1B).

June and July, in spite of August, showed strong significant

Annual NAO (A)												
	Jan	Feb	Mar	Apr	May	Jun	Jul	Aug	Sep	Oct	Nov	Dec
CC	-.271	-.476	-.297	-.079	-.291	-.303	-.247	-.148	-.155	.082	-.077	-.196
Sig.	.007	.000	.003	.435	.003	.002	.014	.144	.126	.420	.450	.052
	Monthly NAO (B)											
CC	-.5	-.531	-.505	0.077	-.326	-.127	-.016	-.238	-.194	-.310	-.270	-.419
Sig.	0.000	0.000	0.000	0.448	0.001	0.208	0.871	0.017	0.053	0.002	0.007	0.000

Table 2. Correlation Coefficient (CC) between (A) Annual NAO, (B) Monthly NAO and the Monthly Average Temperatures and their Significant (Sig.) levels.

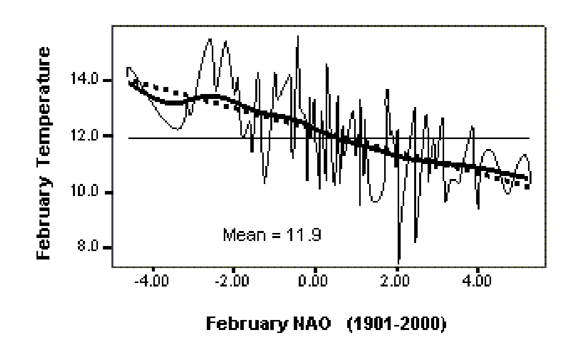


Figure 2. February Temperature and February NAO (1901-2000)

Seasons	NAO≥+1	NAO≤-1	NAO≥+0.5	NAO≤-0.5	-0.5≥NAO≤+0.5
Winter	11.7	12.6	11.8	12.6	11.9
Spring	17.6	18.3	17.5	18.1	17.6
Summer	26.3	25.9	25.3	25.6	25.4
Autumn	21.1	21.9	21.2	21.6	21.4

Table 3. Seasonal NAO and Associated Seasonal Average Temperature

January NAO≥+1 was significantly correlated with January temperature with a value of -0.332 and it was significant at 0.05 level. At the same time January NAO≤-0.5 was also correlated with January temperature with a value of -0.348 and it was significant at 0.05. Only February temperature associated with

Annual NAO (A)				
	Winter	Spring	Summer	Autumn
CC.	-0.147	-0.317	-0.283	-0.069
Sig.	0.148	0.001	0.005	0.500
Seasonal NAO (B)				
CC.	-0.204	-0.272	-0.176	-0.276
Sig.	0.043	0.006	0.08	0.005

Table1. Correlation Coefficient (CC) between (A) Annual NAO, (B) Seasonal NAO and the Seasonal Average Temperatures and their Significant (Sig.) levels.

Preliminary results dividing the Mediterranean into sub-regions indicate close relation between the winter NAO and winter temperature over the Eastern Mediterranean whereas for the Western and Central parts this is not the case (Luterbacher and Xoplaki, 2003).

Winter average temperature associated with NAO≥+1 was not significant (42 years having this value). Negative index of NAO is associated with warmer condition than the positive mode (Table 3). The temperature of the negative mode is warmer by 0.9°C. Only January, February and annual temperature were correlated significantly with annual NAO (≥-0.5 to ≤+0.5) gives values of -0.240, -0.336 and -0.287 respectively. Annual NAO ≥+0.5 showed only a negative significant correlation of -0.39 and

-0.4 with February and March respectively. Furthermore no relationships were found between annual NAO ≤-0.5 and monthly, seasonal and annual temperatures.

The correlation coefficient between winter NAO≤-1 and winter temperature was +0.745, it is very strong and highly significant at 0.03. However, only 8 years were associated with this value.

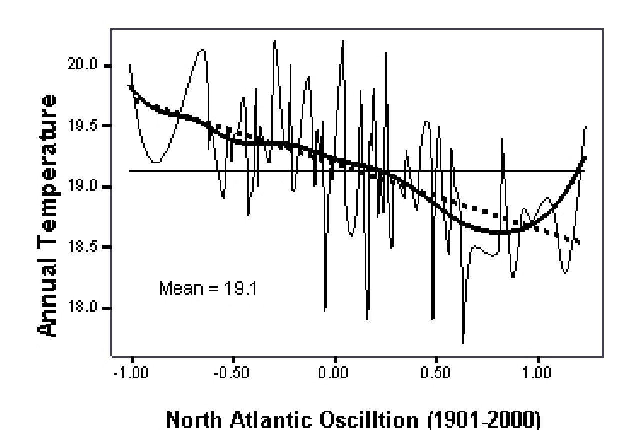


Figure 1.Annual Temperature and Annual NAO (1901-200)

Winter

The correlation coefficient between winter NAO and winter temperature was -0.204 (Table 1B), which is significant at 0.04 level of significant. It is weaker than the relationships between annual NAO and the annual temperature (1901-2000). However the correlation of annual NAO and winter temperature was not significant (Table 1A).

Winter months (December, January and February) were significantly negatively correlated with the annual NAO (Table 2A). The negative relationships were strengthened and attained higher significant levels between monthly NAO and the monthly winter temperatures (Table 2B). It is noted that February attained the highest significant relationship, with an explained variance of 28% (Table 2B and Figure 2).

Discussion

Annual NAO

The correlation coefficient between annual NAO and the annual temperature (1901-2000) was -0.420 and it is statistically significant at 0.001 level (Figure 1). The annual NAO ≥+1 resulted only in three years. If we select NAO ≥+0.5 the number of year having this index is 23 years and the average temperature was 17.8°C, without significant relationships. On the other hand using the values of NAO ≤-0.5, the average annual temperature was 19.5°C, only 10 years having these values, the correlation coefficient was -0.448, but was also not significant. Negative mode of NAO seems to be associated with warm conditions over Palestine, while positive mode ≥+0.5 is associated with lower temperature. The temperature of the positive mode was 1.7°C cooler than the temperature of the negative mode. This is climatologically sound since positive NAO is associated with strong westerly over Northern Europe and more meridional winds associated with strong anticyclonic circulation over the Eastern Mediterranean. Negative NAO is associated with blocking circulation and weaker westerly wind over Europe and the westerly circulation and the associated depression is enhanced and moved over the Mediterranean. This mode is normally associated with maritime westerly component of wind and moving depression over the Mediterranean Sea. Positive NAO is significantly related to positive 850hPa temperature anomalies over France and negative anomalies over the Eastern Mediterranean and the Middle East and vice versa with negative NAO (Lolis, et al 2002).

The correlation coefficient between (-0.5≤NAO≤+0.5) and the temperature was -0.335 and it is significant at 0.01.

month variations for 289 countries covering the land surface of the earth (Mitchell, et al 2002, Mitchell and Jones, 2005). The seasons for both the NAO index and the temperature are defined as March-April-May for spring, June-July-August for summer, September-October-November for autumn, and December-January-February for winter.

Pearson correlation coefficient and Spearman rank correlation coefficient were used to test the significance of the relationships between NAO and the temperatures. The second was introduced when the first failed to do so. Linear trend and time series fitting curves were applied to highlight the most significant link between NAO and temperatures.

Different categories of NAO are used. Negative NAO anomaly index corresponding to normalize NAO index value ≤-1.0 (less than or equal) and a positive NAO anomaly index corresponding to normalized index values ≥+1.0 (greater than or equal) (Sheridan, 2003, Turkes and Erlat, 2003) and a neutral for those values between (0.5+≥NAO≥-0.5). In addition a positive values ≥+0.5 and negative value ≤-0.5 were also used in order to increase the frequency of the index.

NAO represents a large-scale shift in atmospheric mass, and is generally observed via anomalies of sea level pressure, a positive value of +NAO signifies a stronger than average Icelandic Low and Azores High, a greater pressure gradient accompanied by increased wind velocity across the Atlantic (Sheridan, 2003) and a northward shift of storm tracks (Pryor and Barthelmie, 2003, Krichak and Alpert, 2005), and conversely, negative NAO values (-NAO) signify weaker than average pressure centers (Sheridan, 2003) (see Map 1).

among the three indices corresponding to extreme NAO indices. The variability of winter precipitation at most stations in Turkey significantly correlated with variability of the three indices.

Garcia et al (2003) discussed the temperature predictability over the Mediterranean area including Europe to forecast the mean temperature values. They suggest that the NAO can be a major ruling predictability in some areas and NAO is the most important factor influencing temperature predictability over Europe and it is significantly related to NAO. In the Mediterranean area short-range predictability exists and it can be considered as dominated by persistence. They suggest that the influence of NAO on temperature is not homogeneous over the area and North West Europe is the limit of the area under direct thermal influence of the NAO. The influence of NOA is reduced with increasing distance from the Atlantic coast (Scheifinger, et al 2002).

Data and Methodology

For the investigation of the NOA, we used the index supplied by Climatic Research Unit, University of East Anglia which was given on a monthly, seasonal and annual basis, the normalized pressure difference between Gibraltar-Ponta Delgada and Reykjavik (1901-2000). This index might to a certain extent, be influenced by Mediterranean effects (Knippertz, et al 2003).The two sites are located close to the centre of action that comprises the NAO (Jones et al 1997). Temperature data was taken from the same source. The temperature data is a gridded data of high spatial and temporal resolution that are also continuous over the space time domain of interest (New, et al 2000) at a 0.5 degree latitude by 0.5 degree longitude grids resolution (Mitchell et al 2004). This gridded temperature data set contains month by

North Atlantic Oscillation: Concept and Definition

The dipole pattern of variation of the North Atlantic versus the central Atlantic and Western Europe is generally classified as a mode of atmospheric circulation known as the North Atlantic Oscillation (NAO). It is the only mid-tropospheric teleconnection to show up in all months of the year (Mote, 1998).

NAO is a redistribution of atmospheric mass between the North Atlantic subtropical high (Azores high) and Polar low (Icelandic Low). It is a dominant cause of winter variability in the Northern Hemisphere from North America to Europe and a large portion of Asia (Uvo, 2003). The monthly NOA index is estimated as the difference of normalized sea-level pressure between Ponta Delagada, the Azores, and Stykkishomur/ Reykjavic, Iceland (Jones et al, 1997 and Bednorz, 2002).

Goodess and Jones (2002) used two different indices: Gibraltar minus Reykjavik and Ponta Delgada minus Reykjavik from four surrounding pressure grid points to define NAO index.

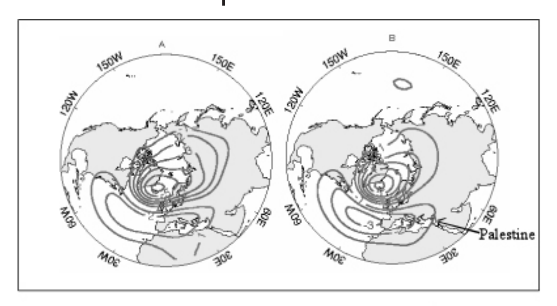
Brunetti et al (2002) used a number of atmospheric indices to examine the 1951-1995 Italian precipitation. They concluded that NOA plays an important role in the winter seasons. However, for the other seasons, it does not explain a significant proportion of the precipitation and wet day's variance. Hasanean (2004) discussed the relationships between Egypt stations temperature and NAO for the period 1901-2000. Different strong relationships were found across Egypt and found that Upper and Lower Egypt behave differentially with NAO index. Turkes and Erlat (2005) examined the relationships between Turkish precipitation and three different NAO indices: Ponta Delegada-Reykjavik, Lisbon-Stykkisholmur and Lisbon-Reykjavik, and concluded that the Ponta Delgada-Reykjavik NAO index is the most superior

circulation typical for this season and reveal a negative correlation with air temperature in Greece. However, they concluded that NOA was not the most appropriate index for understanding temperature variability in Greece (Feidas, et al 2004).

Weaker significant relationships exist between NOA index and both the Sea Surface Temperatures (SSTs) and the 850hPa temperatures over the Mediterranean (Lolis, et al 2002). Wang et al (2004) examined the relationships between SSTs over the Northern Hemisphere and NAO, suggested that the Gulf Stream SSTs anomalous have an important influence in initiating disturbances of the atmospheric circulation over the winter time North Atlantic. However, a suit of GCMs forced with observed SSTs suggested that recent observed trends (1973-2004) in the winter NAO could not be attributed to North Atlantic SSTs variability (Cohen and Barlow, 2005).

Hanna, et al (2006) discussed the relationships between Iceland climate and NAO in the period 1823-2003 and concluded that the existing relationships were not satisfactory.

El-kadi (2007) discussed the variability, trends and the characteristics of Palestine temperature to detect the effects of the global warming. The major objectives of the present study were to examine the existence of any significant relationships between NAO and the temperature of Palestine.



Map 1. Mean Sea Level Pressure Anomalies of (A) Positive North Atlantic Oscillation (+NAO) and (B) Negative North Atlantic Oscillation (-NAO) from Jim Hurrell, 2008, Colorado State University, USA.). The Arrow indicates the Position of Palestine.

may contribute to regional warming trend the patterns strongly suggested that the patterns and magnitude of global warming trends over the last 30 years are largely independent of NAO and AO.

The NOA exerts a significant influence on 850hPa mean winter wind speed over the Baltic and the trend towards greater prevalence of positive NOA phase will be enhanced in a greenhouse gas warmed climate, which will thus be characterized by strong zonal flow (Pryor and Barthelmie, 2003). Examining the zonal circulation between 35-65°N Kozuchowski, (1993) found that there was an increase in its value during the 1970-1980s reaching a maximum in 1990. An increase in the zonal index corresponds with an increase in air temperature in Europe. The increased of zonality, positive NAO mode may be viewed with the finding of Panagiotopoulos et al (2005) of the progressive decline and downward trends of the Siberian High intensity index in the last three decades of the last century, particularly from around 1977 onward.

This may be manifested in the increase of wind activity since 1970s onward, and a general decrease of wind activity from 1951 to about 1975, followed by a predominant increase to the end of the 20th century (Pirazzoli and Tomasin, 2003). Thus the increase/decrease of the wind activity corresponds to positive/negative NAO index. The increase of westerlies is also confirmed by the frequent positive phase of the NAO during recent decades (Tomozeiu, et al 2002).

Feidas et al (2004) examined the relationships between temperature variability in Greece and the atmospheric circulation indices of NAO. They found that the correlation coefficient was significant only in winter, due to the more coherent large-scale

pressure associated with stronger than usual northward-shifted westerlies i.e. a positive phase of NAO. Bader and Latif (2005) using a coupled ocean-atmosphere model, found that a warm Indian Ocean produces a stronger NAO and a cold Indian Ocean produced a weaker NAO pattern. However the changes in the atmospheric circulation above Estonia can only be partly attributed to the intensification of the NOA during 1955-1995, while February wind speed and zonal characteristics are directly related to the increase of the NOA index and have caused a warming tendency at the surface (Keevallik, 2003). Kysely (2002) discussed the relationships of heat waves in Prague and Basil with NOA index, where significant relationships were found. The persistent period of negative NAO indices were accompanied mainly by cold and snowy winter in the Swiss Alps, while with extremely positive NAO index mode resulted in warm winter temperature records (Laternser and Schneebeli, 2003).

Based on an ensemble of climate change scenarios performed with the global general circulation model of the atmosphere with high horizontal resolution over Europe Terray, et al (2004), suggested that the end-of- century anthropogenic climate change over the North Atlantic-European region strongly projects onto the positive phase of the NAO during wintertime. That anthropogenic forcing may induce climate change over the North Atlantic-European region for the winter period through changes in the occurrence of the NAO regimes, in addition to direct radiative forcing.

Cohen and Barlow (2005) confirmed that over the last 16 years, when the Northern Hemisphere temperature trend continued strongly, the NAO and AO (Arctic Oscillation) indices have been decreasing. They suggested that while the NAO and AO

Plant Phonology in spring correlated well with spring temperature and NOA phases in spring (Spraks and Menzel, 2002) and the variability of phonological events in Europe is explained to a great extent by the NOA index (Scheifinger, et al 2002)

Bednorz (2002) studied the connection between the duration of snow cover in western Poland and the fluctuation of NOA. A strong relationship between snow cover in Poland and NOA index was found. The NAO have the greatest influence on snow meltimng extent on the Greenland (Mote, 1998). Box (2002) concluded that most of the observed variability of Greenland temperatures is shown to be linked to NOA. Wedgbrow et al (2002) investigated the relationships between NAO and river flow and drought conditions over England and Wales.

In winter, during positive NAO phase there is a positive snow/ ice season surface air temperature anomaly over northwestern Eurasia caused by enhanced advection of the warm Atlantic air and vice versa during the negative phase. The positive winter surface air temperature in Europe is caused by a positive NAO (Scheifinger, et al 2002).

Significant relationships were also found between winter NAO and UK summer rainfall and wheat production (Kettlewell, et al 2003). Over North America as a whole, NAO associated with many significant changes across the continents, and clear, but different, relationships between frequencies of weather type and NAO have been established (Sheridan, 2003).

Gouirand and Moron (2003) examined the relationship between El-Nino Southern Oscillation (ENSO) and the sea-level pressure over the North Atlantic-European sector (i.e. NOA) in winter over the period 1874-1996. In cold ENSO events the mean sea-level

Introduction

Since its formulations, the North Atlantic Oscillation (NAO) has attracted numerous and a wide range climatological investigations. One of the points of focus in contemporary research is the extent of the influence on climate produced by NAO (Lucero and Rodriguez, 2002). It is one of the best known atmospheric circulation patterns, that control the weather and climate conditions and the extremes in the regions of the Atlantic and the Mediterranean basin (Turkes and Erlat, 2003). It is a part of the major variability of the Northern Hemisphere (Pirazzoli and Tomasin, 2003) and it is a useful index of atmospheric variability on a hemispheric scale that provides an important link to larger scale atmospheric dynamics (Pryor and Barthelmie, 2003). It is an example of a teleconnection or correlation between weather conditions in one area and those occurring elsewhere (Perry, 2000). The NOA is a pressure seesaw between the Icelandic Low and the Azores high (Goodess and Jones, 2002).

NAO represents a preferred mode of variant in the atmosphere over the North Atlantic (Junge and Stephenson, 2003), and produces a very clear signature of surface temperature over the North Atlantic region and the surrounding land masses (Stephenson, et al, 2002) (see Map 1).

Variation of Northern England precipitation was found to be significantly linked with NAO and prominent relationships were also found between NAO and precipitation. The signs and magnitude were different between the windward, leeward and the NAO (positive and negative) index (Fowler and Kilsby, 2003). Similar relationship between NAO and rainfall were found over Iberian Peninsula (Fowler and Kilsby, 2002), though much weaker than over Northern England.

العلاقة بين درجات حرارة فلسطين و ذبذبة الدورة الجوية في (1901ـ 2000) الأطلنطي الشمالي (NAO)

د. أحمد خليل القاضي*

الملخص

يناقش هذا البحث العلاقة بين التغيرات الشهرية و الفصلية والسنوية لذبذبة الضغط الجوي في الأطلنطي الشمالي (NAO) و درجات الحرارة الشهرية والفصلية و السنوية لفلسطين. قسمت الذبذبة إلي فئات موجبة و سالبة، و تم إيجاد العلاقة بين هذه الفئات و درجات الحرارة، كذلك حسبت متوسطات درجات الحرارة الملازمة لهذه الفئات. أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباط سالبة و مميزة إحصائيا بين الذبذبة ودرجات الحرارة. هذه النتائج أكدت ما هو معروف مناخيًّا لتبادلية الاختلاف في الدورة الجوية العامة بين شرق البحر المتوسط و شمال الأطلنطي-غرب أوروبا. التتابعات الموجبة و السالبة لفترات زمنية طويلة لذبذبة شمال الأطلنطي تم تحديدها، و من ثم ربطت بإيجاد علاقتها مع درجات حرارة فلسطين. و لقد ثبت أن الفترات الزمنية للذبذبة السالبة قد تزامنت مع درجات حرارة عالية (دافئة)، و الذبذبة الموجبة مع درجات حرارة منخفضة (باردة).

* أستاذ في قسم الجغرافيا ، جامعة غزة الإسلامية - قطاع غزة - فلسطين.

A Connection between Palestine Temperature and the North Atlantic Oscillations 1901-2000

D. Ahmed Khalil El-Kadi

Abstract

Relationships between the variability of annual, monthly and seasonal NAO and the annual, monthly and seasonal temperatures are investigated. Average monthly, seasonal and annual temperatures were calculated according to different categorization of NAO. Pearson's correlation coefficient and Spearman rank correlation coefficient was used to detect the relationships between annual, monthly and seasonal NAO categories and the associated average temperatures. Linear trend and smooth curves are fitted to display the strength and the direction of the relationships between NAO and the temperatures.

Annual NAO was negatively correlated with monthly, seasonal and annual average temperatures. The majority of these relationships were statistically significant. Monthly and seasonal NAO and the monthly and seasonal average temperature were also exhibited strong and mostly negative significant relationships. The results confirmed the well known dipole pattern between Eastern Mediterranean and North Atlantic-West Europe atmospheric circulations.

The influence of NAO index phases in different periods and its relationships with the temperature have also been attempted. Negative NAO indices bring warmer than average temperatures conditions, while positive NAO indices were associated with cold temperature conditions over Palestine. Strongest relationships were found from December to March and the highest explained variance was found in February.

Key Word Temperature NAO Atmospheric Circulations Palestine

---

* ***Department of Geography, Islamic University of Gaza. - Gaza Strip, Palestine.***



- دلالة النحو ونحو الدلالة.. هل تدور اللغة على ذاتها؟

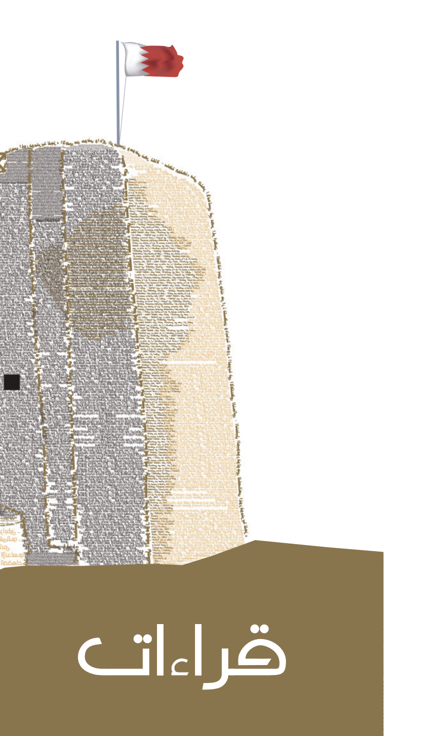
د. صابر الحباشة

- لماذا يستهوينا الرعب؟

د. موسى الحالول

- سندباد في أمريكا: رواية الذات بين عرب أمريكا

د. السيد الأسود



قراءات

العدد 20 - 2011

دلالة النحو ونحو الدلالة ...
هل تدور اللغة على ذاتها؟

د. صابر الحباشة*

إن اللغة إذ تنعكس على ذاتها إنما تؤدي وظيفة لا يسع سائر الأنظمة العلامية أداؤها. فاللغة لا تكتفي بدور الوسيط بين بني الإنسان وسائر الأنظمة العلامية المحايثة لها، بل هي ترتد على نفسها في ضرب من التجريد المضاعف. فكيف للغة أن تستعير أدواتها لتقرب ذاتها؟

وهل الوصول بالظاهرة اللغوية إلى مصاف الدرس العلمي يمنعها من التنكب عن "وهم الوصفية"؟[1] أي هل تبقى الوظيفة الميتالغوية على الاعتقاد بأن اللغة تشف عما خلفها في ضرب من الانسجام والاطراد والأحكام، أم أن الفوضى من المعاني وشتاتا من الدلالات تكسر مسارات التواصل بين اللغة وذاتها من جهة أخرى؟ وما الضوابط والمعايير التي توقفنا على مثل هذه الانزياحات، فهل نحن نسكن اللغة طوعا واختيارا، أم أن ألفتنا بها هي الوجه الآخر لغربة قسرية تجاه هذه الآلة العجيبة المتحكمة في جميع القيم والأعمال الإنسانية؟

لعل تأمل هذه المعضلات الفكرية والواقعية يغرينا بالبحث الواعي عن الشرَك الذي توقع فيه اللغة من ينصب لها شراك العلم وصنارة المنهج، فتكشف له عن قناع

---

* كاتب تونسي

الانتظام والأحكام، وهي في الواقع كون يتمطط واقعيا وماديا ويتوالد فكريا ونظريا. أليس عجز الإنسان بيولوجيا وفيزيولوجيا عن أن يحيط بكل الإنجازات الممكنة للغة، من شأنه أن يؤدي إلى عجز مواز عن اختبار الوظيفة الميتالغوية للغة؟ لعله من المثير أن نثير هذه التأملات اللغوية بعودة إلى نصوص من التراث اللساني (مدونة علوم التفسير والإعجاز خاصة) احتوت ومضات يمكن اتخاذها أرضية فكرية على أساسها يتم التوسع في النظر دون التقيد بها، فما هي بالنسبة إلينا إلا مادة نصية هي مثار أسئلة لسانية خطيرة، فنتعامل معها باعتدال فلا نسقط عليها إجابات اللسانيات المعاصرة، كما لا نتجاهلها ونغض عنها الطرف، بل نستكشف مواطن الطرافة فيها ونستثمرها في البحث المعاصر. فقد أشار فخر الدين الرازي (ت. 606 هـ) - دون تبسط ولا تدقيق - إلى الوظيفة الميتالغوية للغة، وذلك بقوله: "وقد تكون مدلولاتها (أي الألفاظ) أيضا ألفاظا كقولنا: اسم وفعل، وحرف، وعام وخاص، ومجمل ومبين، فإن هذه الألفاظ أسماء ومسمياتها أيضا ألفاظ"[2].

ففي هذا النص نتبين وعي الرازي بأن اللغة تنعكس على ذاتها فتكون واصفة موصوفة في الآن نفسه. وإن اقتصر في أمثلته على الأسماء التي تكون مسمياتها كيانات لغوية، أي إن الدال لغوي والمدلول لغوي، والمرجع لغوي، بخلاف النوع الآخر من الألفاظ التي يكون مرجعها غير لغوي، فإن أمثلة أخرى لم يذكرها الرازي ولكنها تدخل ضمن النوع نفسه مثل الدوال (ب)، (في)، (ك)، وهي أصوات متكونة من حرف وحركة، تدل على حروف جر تفيد معاني شتى، ولكنها في حد ذاتها ليست لها إحالات خارج اللغة، إضافة إلى أنها في انخراطها في عالم اللغة، فهي ليست ذات "أهلية كاملة" كسائر المورفيمات، فهي لا تستجيب لعدة مقولات صرفية واشتقاقية

ونحوية، كمقولات الجنس والعدد والضمير والزمن والإعراب والبناء والجمود... وعلى الرغم من هذا (القصور التكويني) في هذه الوحدات اللغوية، فإنها تؤدي وظائف جمة فهي «تسهم في إنشاء مركبات نحوية دالة، من ذلك ما سماه الجرجاني، عبد القاهر (ت.471 هـ): تعلق الحرف بهما (أي بالاسم و الفعل)» [3]. هذا التعلق ينقسم إلى ثلاثة أصناف:

أولا: وهي الحروف التي تساعد الفعل على عمله، وتتمثل في حروف الجر التي يتعدى بواسطتها إلى مفعوله، أو في واو المعية فهي "تعين الفعل على عمله النصب"[4]، وكذلك نجد أداة الاستثناء (إلاّ)، فهي لا توقع النصب "بواسطتها وعون كمنها"[5] فهذا الصنف الأول من الحروف يساعد الفعل على العمل النحوي المتمثل في إيقاع النصب بالمفاعيل أو بأشباه المفاعيل، فكأن الفعل يعف أو يعرض له عارض يحوجه إلى مثل تلك الحروف؛ ليتم له عمله. وبذلك نفهم أن الأصل في الأفعال إما اللزوم أو التعدي بنفسها، أما التعدي بواسطة حرف جر ففرع على التعدي بالفعل نفسه، وليس صحيحا القول: إن تعدد المفاعيل هو السبب في استعانة الأفعال بحروف جر في إيقاع النصب بالمفاعيل.

ثانيا: يفرد الجرجاني لحروف العطف قسما خاصا؛ وذلك لأنّ عملها لا يقع مساعدا للفعل على عمل النصب، ولكنه يتصل بالأسماء فيجري على المعطوف نفس حركة المعطوف عليه الإعرابية. وقد اقتصر الجرجاني على حروف العطف، ولم يذكر حروف الاستئناف والحال أنه يمكن إدراجها في هذا القسم أيضا.

ولسنا نذهب إلى أن عدم ذكره إياها غفلة منه وسهو، بل لأننا نعلم أنه لا فرق بين

العطف والاستئناف كذلك، وإن اقتصر في أمثلته التوضيحية لهذا القسم من الحروف على حروف العطف فهذا يعود إلى نزعته التبسيطية التوضيحية، وما على القارئ إلا أن يقيس على ذلك لحرف الواو العاطف يمكن أن نقيس عليه الفاء وثم، وما ذكره للواو فحسب إلا لأنها أم الباب في العطف.

ودليل قولنا أن عبد القاهر لا يفرق بين العطف والاستئناف هو قوله: "ولا يعطف الخبر على الاستفهام" [6] ومعلوم أنه يستحيل أن تكون الجملة ذاتها خبرية استفهامية في المقام ذاته والسياق عينه، فلزم أن يكون "العطف" في كلام الجرجاني المقصود به عطف جملة على جملة، وهو ما نصطلح عليه بالاستئناف، وإذا كان العطف والاستئناف عند الجرجاني بمعنى، اقتضى منا ذلك أن نقيس أحدهما على الآخر، فيصح في هذا ما يصح في ذاك.

بل أكثر من ذلك فإن الجرجاني يستعمل في السياق ذاته مصطلحات: العطف، الربط، الاستئناف، الوصل، يقول: و "اعلم أن من شأن "إن" إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء الفاء العاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا. فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف مقطوعا موصولا معا" [7] (أننا ننبه لإمكانية أن يكون، إجراء هذه الألفاظ في هذا السياق لغويا عاديا لا اصطلاحيا).

فهذا القسم الثاني من الحروف يتمثل في حروف العطف والاستئناف، وهي ليست ذات وظيفة إعرابية تسهم في العمل النحوي فتقوم به هي كما هو الحال بالنسبة إلى حروف الجر، أو تساعد الفعل على العمل كما في واو المعية وأداة الاستثناء إلا...، ولكن وظيفة حروف العطف والاستئناف إنما تتمثل أساسا في إضافة قسم ثان إلى قسم أول يكونان معا متعادلين من حيث القيمة التركيبية، ففي حالة العطف يكون المعطوف من

جنس المعطوف عليه، فإن كان اسما فاسم أو مركبا اسميا فمركب اسمي... وكذلك في حالة الاستئناف يتم وصل جملة بأخرى، مما يوحي بوجود تناسب ضروري بين قسمي العطف أو الاستئناف.

أما الفرق بين العطف والاستئناف، فيتمثل في أن الأول يشرك المعطوف مع المعطوف عليه في الوظيفة النحوية في الحركة الإعرابية، في حين يمتنع ذلك في الاستئناف، بما أنه وصل بين جملتين، والجملة لا وظيفة نحوية لها. وبذلك فمجال اشتغال العطف داخل الجملة الواحدة. أما الاستئناف فيتعلق اهتمامه بالجمل أي مجاله النص ككل، فكأنه ينهض لدلالة أرحب من التي يضطلع بها العطف؛ إذ هو يسهم في انسجام النص واتساقه بطريقة مباشرة.

ثالثا: يضاف إلى القسمين الأولين قسم ثالث تقوم فيه حروف المعاني بوظيفة معنوية دلالية في الجمل التي تدخل عليها، فتحتلّ فيها الصدر فتفيد إما النفي أو الشرط أو الاستفهام أو الجزاء. ويحشر الجرجاني في هذا القسم نواصب كـ (إنّ) وأخواتها الداخلة على الجملة الاسمية، وجماع القول في هذا القول الثالث من الحروف إنها جميعها تدخل على الجملة فتحدث فيها معاني لم تكن فيها قبل دخولها، فضلا عن أن بعضها يَسِمُ عنصري الإسناد في الجملة بسمات إعرابية خاصة تؤكد قوة أثر تلك الحروف، في حين يقتصر البعض الآخر من الحروف على التحرير المعنوي كالذي من التقرير إلى الاستفهام أو من التقرير إلى الشرط.. فهذه الحروف هي التي تنشئ المعاني الجديدة بمجرد دخولها على الجملة. فهذه الأصناف الثلاثة من تعلق الحرف بالفعل أو بالاسم أو بالجملة هي التي تخول للغة أن تنتج الدلالات المختلفة بسيطة كانت أو معقدة [8].

وإذا عدنا إلى الإشارة التي عرض لها فخر الدين الرازي، تبين لنا أن الصورة الذهنية الحاصلة من الأسماء التي ليس لها مرجع في الواقع المدرك حسا أو الواقع المدرك عقلا، إنما ترتد إلى النظام اللغوي ذاته، فهي رسوم أعجمية إذا عزلت عن سياق النظام اللغوي. فهل هذا يعني أن عالم اللغة أوسع من عالم الفكر؟ أو يعني أن اختصاص اللغة بتلك الملفوظات التي لا مرجع فكري لها إنما يدل على احتياج اللغة إلى الالتفاف على ذاتها؛ لتنظم قدراتها التعبيرية من ناحية؛ ولتعي حدودها والخانات الفارغة التي تقصر عن القيام بها من ناحية أخرى. فكما أن التجسم الفيزيائي الصوتي للغة عبر جهاز التصويت ليس بقادر على أن ينجز على مستقيم الزمن أكثر من صوت في الوقت نفسه، فإن العبارات والملفوظات لا تؤدي إلا عددا محدودا من المعاني (سواء أحيط بها علما كلها باعتبار الدلالات الحافة أو لم يحط) لا سيما تلك الألفاظ التي لا صلة لها بالواقع وإنما وجودها لغوي صرف، فاحتكاكها بالفكر لا يمكن أن يصل إلى درجة التأمل فيها تأمّلا فلسفيا أو عقليا؛ لأنها في حدّ ذاتها ليست مناط التأمّل، بل هي وسائط مساعدة موجودة وجودا مجردا خاويا من الدلالات المستفيضة الغزيرة، وإنما لها دلالات آلية ميكانيكية تستمدها من اللغة، ولا يمكن أن تتطوّر أو يجتهد فيها إلا بقدر يسير لا يكاد يُذكر، مثل أن يُضاف إلى معنى التشبيه في الكاف، معنى العطف والجمع كما في اللغة القضائية وبالمقابل نجد ثراء الدلالة الذي يسم سائر الألفاظ ذات الوجود اللغوي (السويّ) بما أنها كائنات مزدوجة الوجود أي هي توجد في اللغة كما توجد في الواقع العينيّ أو الذهني ولا تنحبس في قفص اللغة.

على أنّ العلم بهذه الألفاظ التي يتطابق وجودها اسمًا مع وجودها مسمًّى في اللغة، ضروري بالنسبة إلى مستعمل اللغة. وإن كان لا يُقيم لها بالا في حدّ

ذاتها، فإنها هي التي تُمفصل الخطاب وتُهيكله معنويا ودلاليا.

ودونها تكون اللغة عرجاء مَعُوقةً غير مُبينة، فهي بمثابة الروابط المنطقية التي تضع الأمور في نصابها، وتمنع النظام اللغوي كله من التهافت أو التداعي. فهي قنطرة الدلالة وجسر المعنى؛ حيث تسهل ترجمة الخطاب اللغوي الرمزي إلى القوانين الفكرية المنطقية، فهي طائفة من الرموز اللغوية تجنّدت لتحميَ الخطاب اللغوي من العبث والعِيّ والحصَر، دون أن تنغمس في مجاري الألفاظ العادية، فهي الرسول الخارق بين منطق الفكر ومنطق النحو اللذيْن من تراسلهما تنقدح الدلالات وتتولّد المعاني.

الحواشي (الهوامش):

1 - «وهم الوصفية» (illusion du constatif) مصطلح استعمله جون لنشو أوستين(J.L.Austin)، (فيلسوف أمريكي ينتمي إلى الفلسفة التحليلية ولد (عام1911، وتوفي عام 1960) في كتابه "كيف نصنع أشياء بالكلمات؟" وذلك في إطار طرحه نظريتَه في الأعمال اللاقولية حيث يَعُدُّ أنّ ثنائية الصدق والكذب التي تحكم ما عُدّ من قبيل الإخبار وتقرير حالة الأشياء في الكون، إنما هي ثنائية غير دقيقة شواذّها كثيرة، لذلك تجاوزها إلى ثنائية الإنشاءالأولي/ الإنشاء الصريح.

غير أن توظيفنا لهذا المصطلح ("وهم الوصفية") تم على أساس التأمل في اللغة، في وضعية الخطاب كما فعل أوستين Austinأي في اللغة اليومية الحية المعيشة، ولكن على أساس التأمل في نظام اللغة في إحالته إلى نفسه مما قد يؤدي إلى التسلسل، ذلك أن وصف اللغة لا يكون إلا باللغة، وفي استعمالنا لهذا المصطلح حياد عن مجاله في السياق الذي استعمله فيه أوستين، يجعلنا نميل في ضرب من الريبية التي نرجو أن لا تكون هدامة، إلى عَدِّ وصف اللغة لذاتها غير مطابق لحقيقتها وكنهها مما يغذي القول بـ «خطر وقوع الالتباس بين اللغة وما وراء اللغة والدور والتسلسل وذلك باعتبار أن السيمات يقع إظهارها بعبارات معجمية تحتاج هي أيضا إلى تحديد مضامينها وذلك إلى ما لا نهاية له». انظر:

Catherine Kerbrat Orecchioni. Article (Sémantique) in Encyclopaedia Universalis -Paris-1990- p.p.773-779.

ترجمة شعبان بن بو بكر:«مجلة اللسانيات» العدد-3 صيف-1997 تونس ص.ص.59-40).

2 - فخر الدين الرازي: «التفسير الكبير» ج1 – ص.27.

3 -عبد القاهر الجرجاني: «دلائل الإعجاز» تحقيق د. محمد التنجي- ط.-1 بيروت: دار الكتاب العربي- 1955،ص.15.

4-5 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

6 - الجرجاني: «دلائل الإعجاز» تحقيق د.محمد رشيد رضا وغيره ط.-5 ص.180.

7 - الجرجاني: "دلائل الإعجاز" تحقيق د. محمد التنجي- ص.212.

8 - إن الرجوع إلى نصوص الجرجاني يخدم غاية إضاءة ما بدا مبهما في نص الرازي، لكن ما وقفنا عليه عند الجرجاني لا يعدو أن يكون صنفا من أصناف قسم الألفاظ التي تكون في الوقت ذاته دالة ومدلولة وهو صنف الحروف، والحال أن اللغة تحتوي أصنافا أخرى تحيل إلى ذاتها هي الأخرى ولكن لها خصوصية، تعني الضمائر.

فالضمائر المتصلة تحيل إلى نفسها من حيث إنها تعود على الضمائر المنفصلة فقولك: «رأيته» الهاء تحيل إلى "هو"، أما الضمائر المنفصلة فتحيل عادة إلى أسماء بعينها، فقسم الضمائر هو قسم من العناصر اللغوية التي مرجعها غير الواقع، بل هو اللغة ولكنها لا تعود على ذاتها، بمعنى أنها لا تقترن بمعان خصوصية غير أن هذا غير صحيح تماما، فهي تستجيب إلى عدد من المقولات: الاسمية، الجنس، العدد، مع احتمالها لمقولة الإعراب دون أن تظهر عليها الحركة الإعرابية؛ لأنها مبنية. فالضمائر تشترك مع حروف المعاني في كونها كائنات لغوية ليس لها في ذاتها وجود واقعي مدرك حسا أو عقلا، ولكنها تختلف عنها؛ لأنها أسماء تنطبق جملة من المقولات، فتتناهبها المعاني وتتراكب عليها المراجع، في حين تبقى حروف المعاني حاملة لمعانٍ تتعلق بها وحدها مجردة من التجسيم في إحالة بعينها، تتبدل من سياق إلى آخر.

أندرو تيودور

لماذا يَسْتَهوينا الرُّعب؟ (1)

ترجمة د . موسى الحالول*

تثير أفلام الرعب ردودَ فعل قويةً، إذ يتأهب حُماة الأخلاق، وبتفويض من أنفسهم، لإدانة هذه الأفلام دون مشاهدتها، في حين لا تَكلُّ وسائل الإعلام من تحميل هذه الأفلام "القذرة" مسئولية أحداث العنف والاغتيال التي تُرَوِّج لها كثيرًا. أما النقاد الذين يتسامحون مع الثقافة الشعبية عادةً فإنهم يرون أن الرعب هو منتهى الانحطاط. حتى الليبراليون يتساءلون بارتياب عن دوافع مستهلكي هذه الأفلام وطباعهم: هل هم مرضى؟ هل هم أناس مختلون؛ لكي ينغمسوا في شهواتهم الدنيئة المنحرفة؟ أم أنهم مجرد أناس مسلوبي الإرادة، فاستمرءوا العنف والتطرف ويصرخون: هل من مزيد؟ لا شك أن مثل هذه الردود تعكس الاستغراب والتحدي اللذين يشعر بهما غير المستهلكين لهذه الأفلام إزاء هذا الذوق الفريد. وكما يقول بروفي (ص 5) في تعميم مضيء وإن كان مغرقًا في عموميته: «إن سر اللذة في فيلم الرعب المعاصر يكمن فيما يخلقه من توتر وخوف وقلق وسادية ومازوكية في ميل عديم الذوق ومَرَضيٍّ في مجمله. إن لذة النص في الواقع تكمن في ترويعك، وفي محبتك لهذا الترويع في آن معًا؛ إنها صفقة يلعب الأدرينالين دور الوسيط فيها».

* أستاذ مشارك بقسم اللغات الأجنبية، جامعة الطائف، المملكة العربية السعودية

وأي إنسان سَوَيٍّ تستهويه مثل هذه الاهتمامات؟

إن المحير في الأمر هو أن كثيرًا من الناس الأسوياء في ظاهرهم يتلذذون بمثل هذه التجارب. وعلى الرغم من عدم توافر معطيات موثوقة لدينا حول مستهلكي أنواع الرعب المختلفة، فإنه لا ينكر قارئ أو مشاهد أن الرعب، سواء أكان أدبيًّا أم سمعيًّا-بصريًّا، أثبت جاذبيته في عصرنا الحديث، واحتل مكانة مرموقة وخصوصًا في العقدين الماضيين. إذًا فما سر جاذبيته؟ على الرغم من أن باحثين من اختصاصات متعددة درسوا مؤخرًا الموضوع دراسة مطولة ومفيدة في بعض جوانبها؛ فإننا لا نجد إجابة شافية عن سؤالنا عند أي منهم (انظر على سبيل المثال: كارول،1990، وكلوفر 1992، وكرين 1994، وكريد 1993، وديكا 1990، وغريكستي 1989، وجانكوفيتش 1992، وتيودور 1989، وتوتشل 1985). والمشكلة في شطر منها تجريبية. فهذه الدراسات لا تستطيع أن تقدم أكثر من ذلك الدليل الذي يدخل في باب النوادر حول طبيعة مستهلكي الرعب وتفضيلاتهم، لهذا تضطر إلى بناء طروحاتها على تخمينات ربما لا تكون جيدة في أساسها. لكن ليس هذا هو المصدر الوحيد للمشكلة؛ إذ يصعب أن نجد الإجابة الشافية؛ لأننا نفتقر إلى الوضوح والإجماع على طريقة مُرْضية لطرح السؤال الاستنكاري في المقام الأول. فعندما نسأل: لماذا يستهوينا الرعب؟ فإن ما نريده من سؤالنا بالضبط غير واضح.

يمتاز السؤال، حتى في أبسط صيغه، بخاصتين تستلزم كل منهما واحدًا من سؤالين أو كليهما معا: "ما سمة الناس الذين يحبون الرعب؟" و "ما السمة التي يحبها الناس في الرعب؟" ينصبُّ اهتمامنا الرئيس في السؤال الأول على السمات المميزة للناس الذين يحبون الرعب، وعلى الرغم من أن هذا السؤال غالبًا ما يحمل تلميحات إلى غرابة طباع هؤلاء فهو لا يختلف عن السؤال عن طباع الناس الذين يحبون الأفلام الاستعراضية، أو أفلام الإثارة، أو الأفلام البكائية. لأن مسألة تحديد عناصر الرعب الفعلية (أو الاستعراض، أو الإثارة، أو البكاء) تُتْرك بالمحصلة للمستهلكين أنفسهم. وينظر إلى هؤلاء على أنهم مجموعة منتقاة ذاتيًّا بفضل ذوقهم

المشترك، لهذا يفترض المحللون، في بحثهم عن تفسيرات لهذه الظاهرة، أن هذه المجموعة تشترك في خاصّة مميزة تفسر ميولها الغريبة.

لكن عمليًّا يعجز كثير من هذه التفسيرات عن التفريق بين المستهلكين وغير المستهلكين. خذ على سبيل المثال مقولة: "الوحش الكائن فينا" التي نادى بها غركستي (1989) ووثَّقها بحجج قوية، إذ يتتبع أثر هذه المقولة في آراء بعض كتاب أدب الرعب المشاهير أمثال: جيمس هيربرت وستيفن كنغ، وكذلك في آراء الأكاديميين الذين يرون أن التطهير آلية أساسية، أو يدَّعون أن الرعب يدغدغ شهوات مكبوتة راسخة في الأعماق وقابلة للتظهير بالتحليل النفسي. وهذه الآراء، حسب قوله، نابعة من الاعتقاد «أن بني البشر، إما بطبعهم أو بتطبعهم، مهترئون من الداخل، وأن الرعب يردد صدى هذا الخواء في بني البشر» (1989: 86). وهكذا يصبح أدب الرعب قناة لتصريف الوحشية الرابضة في داخل مستهلكي هذا الأدب. فإذا كان الهدف هو التطهير، فالعملية نافعة، إذ تُعَدُّ بمثابة صمام أمان. أما إذا كان الهدف مجرد الإفصاح عن الرعب وجعله شرعيًّا، فينظر إلى هذا الجنس الأدبي بمثابة محرض يشجع مستهلكيه على السلوك المرعب. وفي كلتا الحالتين، تكمن جاذبية الرعب في مداعبته «الوحش» القابع داخل الإنسان المتلفِّع بقشور الحضارة.

ومهما كانت مناقب هذه المقولة أو مثالبها باديةً للعيان، فهي تواجه مشكلة بَيِّنة تتعلق بالرد على سؤالنا: "لماذا يستهوينا الرعب؟" فتشخيصات "الوحش القابع فينا" تنطبق عمومًا على جميع البشر، ومؤداها ما يلي: أن تكون بشرًا يعني أن الوحش، وبغض النظر عن موجبات وجوده، يسكنك. لكن لماذا يؤدي هذا إلى حب الرعب في بعض الحالات، وإلى النفور منه في حالات أخرى؟ سؤال لا يزال بحاجة إلى شرح. فإذا ارتقى البشر إلى حد السيطرة على طبيعتهم الحيوانية وتقييدها، أو إذا قادتهم تجربتهم الطفولية إلى كبت شهواتهم المحرمة، فإن هذه السمات لا يمكن استخدامها لتفسير جاذبية الرعب من دون اللجوء إلى فرضيات إضافية تساعدنا على التمييز بين مستهلكي الرعب، وغير مستهلكيه.

قد يستهوينا الرعب فعلًا؛ لأنه يدغدغ طبيعتنا الحيوانية التي لا فِكاك لنا منها. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن تكون الطبيعة الحيوانية أكثر استحكامًا في بعضنا من بعضنا الآخر، وهذا ببساطة يعيد طرح السؤال، وإن كان يطرحه الآن من حيث السمات التفاضلية لجمهور الرعب. فحتى لو كانت مقولة: "الوحش القابع فينا" معقولة في ظاهرها، فهي لا تجيب حقًّا عن سؤالنا: "ما الذي يميز الناس الذين يحبون الرعب؟" إذ يحتاج هذا السؤال إلى تفسير مختلف.

إن الذين يعالجون الشق الثاني من سؤال: "لماذا يستهوينا الرعب؟" -- أي ما الذي يحبه الناس في الرعب؟ -- يبحثون أيضا عن تفسيرات عامة. فهم يعترفون بوجود شيء مميز لجاذبية الرعب، وهذه الجاذبية تحتاج إلى شرح خاص، والشرح الوافي لابد أن يشمل كافة أشكال الرعب. إنهم يسألون عمليًّا عما يستهوي الناس بعامتهم في الرعب بعامته. وهم يدركون طبعًا أنه مهما بلغت شعبية الرعب، فهو لا يستهوي كل إنسان. إن شمولية منهج هؤلاء الباحثين تكمن في محاولتهم تحديد ميزة أدب الرعب من غيره من الآداب التي تستهوي مستهلكيه، مفترضين أن الرعب بعامته يطرح مشكلات تفسيرية خاصة تفوق تعليلاتنا المعهودة لهذا النوع أو ذاك من الأدب الخيالي. أي إنهم بطريقة ما يقبلون رأي العامة الذي بدأتُ به هذا النقاش، والقائل: إن الاستمتاع بالرعب فيه شيء من الخصوصية، وهذه الخصوصية بالذات تتطلب تفسيرات خاصة تميز جاذبية أدب الرعب من غيره من الآداب.

لا شك أن معظم الباحثين، عمليًّا، يخلطون المقولات النابعة من تفسير ما يميز نصوص الرعب مع تلك التي تطلق على ما يميز مستهلكي الرعب، وإن كانوا، كما سنرى، يقيسون كُلًّا من العنصرين بمقياس مختلف. أما كيف يفعلون ذلك، فهذا يعتمد على مادة الآراء النظرية التي يطبقونها، وهنا نجد فرقًا مهمًّا بين المناهج التي تستلهم التحليل النفسي وتلك التي لا تستلهم هذا التراث، لذلك سأدرس فيما يلي بعض النظريات الحديثة، واضعًا نصب عيني الإسهام الذي تقدمه هذه النظريات للرد على سؤال: "لماذا يستهوينا الرعب؟" بادئًا بالطروحات التي تستخدم نظرية

التحليل النفسي؛ لفهم نصوص الرعب، أو مستهلكيه، أو كليهما. لا بد من التنويه هنا أن هدفي ليس الإحاطة بغنى هذه الطروحات كاملةً، ولكن إضاءة بعض السمات العامة لتفسيرات جاذبية الرعب.

عودة المكبوت

ترتكز أكثر تفسيرات جاذبية الرعب شيوعًا إلى حدٍّ بعيد على مفهومات مستمدة من نظرية فرويد، وسأعرض لهذه التفسيرات، بالتركيز أولاً على نماذج الكبت البسيطة، ثم على التحليلات التي هي أكثر تطورًا التي قدمها التحليل النفسي البنيوي. إن بروز التحليل النفسي هذا ليس بجديد، وإن كانت مكانة جاك لاكان في النظرية الثقافية قد أعطته دفعًا إضافيًّا، ومن المُغري أن نُخمِّن لماذا اتَّجه أولئك الذين حيرهم أدب الرعب، وعلى خلاف كل الفنون الشعبية الأُخرى، نحو التحليل النفسي، بحثًا عما ينير دربهم. لا شك أن هذا الجنس الأدبي يستحضر، في جزء منه، بعض الاعتبارات التحليلية النفسية، مستمدًّا صوره أحيانًا من النظام الرمزي لتفسير الأحلام، وهو يسمح لشخصياته الخيالية أن تقدم تفسيرات شبه فرويدية لدوافعها أو لدوافع غيرها. فحيثما كان القتلة المهووسون هم أبطال أدب الرعب النموذجيون، كما هو الحال خلال العقود الثلاثة الماضية، رافق ذلك افتراضٌ عام عن علم نفس مَرَضي مُتَجَذِّر في ديناميكية-نفسية جنسية تعود إلى أيام الطفولة. وفي هذا المجال، على الأقل، تحرر نورمان بيتس من قيود النفس منذ أمد؛ ليترك أثره المميز في أدب الرعب الحديث.

على الرغم من أن اعتماد أدب الرعب اعتمادًا واعيًا على التحليل النفسي له دلالته بالنسبة إلى الأطر النظرية التي نستحضرها لفهم هذا الأدب، نلاحظ أنّ هذا الاعتماد ليس له أية تبعات نظرية محددة، و(بالكاد) يفسر احتلال نظرية التحليل النفسي مكان الصدارة. فقد نجد أكثر معقولية ذاك الاقتراح القائل بأن نظريات التحليل النفسي التي تعالج أدب الرعب تكتسب مصداقيتها من الاعتقاد السائد أن هواة

الرعب هم مجموعة غريبة الأطوار تحددها نزعة الانحراف. فمن يستهويه الرعب يستهويه شيءٌ شاذ في ظاهره، لذلك تحتاج شخصيته إلى تفسيرٍ خاص، تفسيرٍ غير متاح عادةً لعابر السبيل. إذ كيف يمكن لإنسان أن يرغب في أن يرتعب، بل يَقْرَف، ما لم يكن هناك سبب عميق داخله لا يُدْرَك سِرُّه؟ في اختياره موضوع "الغرائبي" مادةً لإحدى رحلاته النادرة إلى عالم الأدب، يجد فرويد (1955) مسوِّغًا للفكرة القائلة: إن هذه مشكلة مميزة تستحق اهتمامًا خاصًّا من التحليل النفسي، وإن كان فرويد أكثر تواضعًا من بعض أتباعه، حيث أفسح المجال أيضًا لما أسماه «المطلب الجمالي». دعوني أبدأ إذًا باستعادة مختصرة لبعض السمات الرئيسة لتناول فرويد موضوعَ الغرائبي، ونحن إذ نقوم بهذا فلأن مصطلحاته ألهمت كثيرًا ممن أتوا بعده.

تتجلى صفوة التفسير الفرويدي في اقتباس مأخوذ عن شيلنغ بخصوص معنى الكلمة الألمانية unheimlich (وتعني حرفيًّا "غير بيتي" أي غير مألوف، لكنها تترجم إلى "الغرائبي"): "الغرائبي هو اسم يطلق على كل شيء كان يجب أن يبقى سريًّا وبعيدًا عن الأنظار إلا أنه خرج إلى النور" (224). إن الغرائبي في نظر فرويد هو طائفة من الأشياء المرعبة التي تثير القلق؛ لأنها تتصل بعاطفة مكبوتة: «إنه شيء مألوف سِرًا، لكنه تعرض للكبت ثم تحرر منه» (المصدر السابق، 245). وهذه التجربة مألوفة heimlich وغير مألوفة unheimlich في آن معًا، ومصدر الغرائبية فيها أنها كانت مألوفة يومًا ما ثم تعرضت للكبت فيما بعد. طبعًا ليست كل استعادة للرغبات المكبوتة تثير الغرائبي فينا، حيث إن فرويد يميز صورتين محددتين لهذه الظاهرة. ففي الصورة الأولى، ينبع الغرائبي من عودة العقد الطفولية المكبوتة، وفي الثانية من عودة المعتقدات البدائية التي عفا عليها الزمن. ويحاجج فرويد الذي يدرك مدى هشاشة الحد الفاصل بين هاتين الصورتين بقوله: إن هيئة الغرائبي المتأصل في العقد المكبوتة: "أشد مقاومة وتبقى فعالة في الأدب كما هي في الواقع المعاش" (المصدر السابق، 251). يستحضر فرويد في دراسته المعنونة «الغرائبي» عقدة الخصاء والنرجسية الأولية، ودافع التكرار، لكن هناك بالطبع بؤر أخرى محتملة للكبت والغرائبي تحفل

بها النظرية الفرويدية.

وجدتّ هذه الأفكار الأساسية صدى لها في دراسات عديدة للرعب، لاسيما في تلك التي ترتكز على ما يمكن تسميته "أنموذج الكبت". وقد يكون أشهر هذه الطروحات في السنوات الأخيرة مقولة: "عودة المكبوت" التي نادى بها روبن وود وزملاؤه (انظر: بريتون وآخرين، 1979). يستخدم هؤلاء مفهوم «الكبت الزائد» الذي يميزونه، بإيعاز من ماركيوز، من مفهوم فرويد الأصلي عن «الكبت الأساسي.» فالكبت الزائد، بحسب رأي وود، هو حصيلة ثقافات معينة، حيث يتصل في ثقافتنا بشكل رئيس بالطاقة الجنسية لدى الرجال والنساء والأطفال والمخنثين. كما تتصل بالكبت الزائد فكرةُ «الآخر» وآليةٌ إيديولوجيةٌ أساسية «تُسقِط على هذا الآخر ما تكبته في الذات بهدف ترذيل هذا الآخر وإدانته، وإن أمكن، إبادته» (المصدر السابق، 9). إذًا، يتمثل المكبوت على هيئة هذا الآخر المرعب، ولاسيما في وحوش أفلام الرعب. أضف إلى ذلك أنه «في مجتمع نواتُه الأسرة والوفاء لشريك العمر هناك فائض هائل من الطاقة الجنسية التي يجب كبتها، كما أن المكبوت سيجاهد دومًا للعودة» (المصدر السابق، 15). من الواضح إذًا أن التوجه العام لهذا التحليل ينحو إلى توظيف الكبت إيديولوجيًّا للمحافظة على كلٍّ من الكبت الزائد والنظام الاجتماعي البرجوازي الذي يعتمد عليه، على الرغم من أن وود يرى أن الرعب قد يؤدّي في بعض الحالات الخاصة دورًا هدّامًا.

كما يستخدم تُوِتْشِل، وإن كان بطريقة مختلفة نوعًا ما، مقولة: "عودة المكبوت" الفرويدية، لكنه يغفل منها مفهوم الكبت الزائد، ومن ثَمَّ يغفل أيضا التحليل المميز للمجتمع البرجوازي الأبوي الذي يحفل به تفسير وود. يتناول تُوِتْشِل عملية الموضعة الاجتماعية من خلال الأسطورة: "فالأساطير تُبَلِّغ جمهورًا محددًا عن مشكلة محددة في زمن محدد... وهي تبشر بسلوك محدد، سلوك يحافظ على النظام الاجتماعي ويعزز إحساس الفرد بقيمته" (85). وعلى الرغم من أنه يعترف بدور الرعب كمضاد للرعب وكوسيلة لإسقاط رغباتنا المصعَّدة، فإن هذين الدورين يُوَظَّفان في أداء طقس

أساسي من طقوس العبور. ويحاجج تُوتِّشِل بقوله: إن غالبية جمهور أفلام الرعب هم من المراهقين، أي أُناس في طور العبور من «الإشباع الجنسي إلى الجنس الإنجابي» (المصدر السابق، 65). ولإنجاح هذا الأمر والمحافظة على النظام الاجتماعي يحتاج هؤلاء المراهقون إلى معرفة حدود السلوك الجنسي المقبول. إنهم يحتاجون على وجه التحديد إلى معرفة فظاعة سِفاح ذوي القربى: «عليهم أن يتعلموا هذه الفظاعة، والارتعاد هو خير مُعلِّم» (96). لذلك فإن أساطير الرعب معنية بالدرجة الأولى بعملية البدء الجنسي هذه، حيث تعبر الأساطير عن حيرة جمهورها الشاب، وتقدم له بصورة مقنعة الشكلَ الأمثل للسلوك الجنسي، وذلك من خلال أداء وظيفة تشبه طقوس البدء في الثقافات الأخرى.

توضح هاتان الحالتان المتباينتان السمات الرئيسة للتحليل النفسي للرعب، وتشتركان في عدد من الافتراضات الأساسية. فكلاهما ترى أن الكبت سمة تكوينية من سمات التطور الإنساني وآلية نُساق من خلالها؛ للتغلب على شهواتنا الطفولية الهدامة. كما أن الهدف الأساسي لهذا القمع هو السلوك الجنسي، أما الرعبُ فقناةٌ لتفريغ هذه المشاعر المكبوتة. وبهذا يحافظ الرعب على النظام (الاجتماعي)، إما بوساطة التفريغ التطهيري لدوافع هدّامة، وإما بتعزيز قبولنا للمحرمات القمعية الضرورية لبقاء المجتمع. وهكذا من خلال إعطاء أنموذج للتطور الإنساني ينطلق من ضرورة الكبت، يتجلى الرعب وكأنه صمام أمان لمشاعر مكبوتة تهدد بالظهور، أو كأمثولة تذكرنا بالنتائج المرعبة لو خرقنا قواعد السلوك الجنسي. لا شك أن مثل هذه النظريات تعد الإنسان ضحيةً لثقافته وقرباناً غافلاً تقدمه الضرورة على مذبح هذه الثقافة، ما دام عمل سيكولوجيتنا يتوقف على آلية الكبت.

لا شك أن معظم النظريات إما أضافت أو حوَّرت هذا الأنموذج الأساسي للكبت. فعلى سبيل المثال، يفتح وود باب النقاش من أجل إعطاء بعض الرعب، على الأقل، دورًا تحريريًّا، وهذا يعود إلى اهتمام وود بالكبت الزائد، وليس بالكبت الأساسي. وما دام الكبت الزائد يخص المجتمع، أي إنه لا يدخل في صلب عملية التطور الإنساني

ذاتها، فهو قابل للتغلب عليه. لكن الحد الفاصل بين الكبت الزائد والكبت الأساسي ليس واضحًا، وهناك من يريدون أن يطلقوا صفة النسبية التاريخية والثقافية على كثير من عمليات الكبت الأساسية في أثناء تَبَلُّرِها في التراث الفرويدي.

على الرغم من أن تناول الرعب من منظور "عودة المكبوت" قد يشكل في ظاهره همزة وصل بين بعض سمات نصوص الرعب وتكويننا النفسي-الجنسي المزعوم، نلاحظ أنه لا يعالج بصورة مباشرة قضية جاذبية الرعب. وفعلاً، قد يجادل أحدهم أن تَلَذُّذَ الإنسان برؤية الأشياء المرعبة عن كثب أمرٌ مُستبعَد. وفرويد نفسه يعترف بأن الغرائبي الذي نختبره في الواقع (على خلاف الأدب) مدعاة للخوف، ولكي نتذوقه في الأدب يحتاج الأمر إلى مزيد من التفصيل. ينص أحد أكثر الاقتراحات شيوعًا على أن المتعة ممكنة ببساطة لدى التعامل مع القضايا المرعبة فيما يعرف بالظروف الآمنة. وهنا لا نهتم بطبيعة الكبت المميزة؛ لأننا نتعامل مع خوف يستهوينا. يقول اقتراح آخر: إن التطهير العاطفي نتيجة حتمية لعواطف مكبوتة تثير فينا أصداء من أدب الخيال وإن الارتياح الناتج مهما كان آنيًّا فيه من المتعة ما يوازي متعة تخفيف التوتر الجنسي ذاتيًّا. وقد نستمد متعة أكثر تعقيدًا من الغموض اللاواعي الذي يكتنف ردود أفعالنا إزاء الموضوعات المحرمة، كمتعة الانغماس في شهوات طفولية صُعِّدَت وهُذِّبَت، أو من الألم الحادث في سياقٍ من التوحش والقَرَف. وكما يرتئي كارول (1990: 170) في معرض تعديله لمنهج إيرنست جونز في تناول الكوابيس، فإن الأدب الخيالي لا يسمح لنا بهذه إلا على حساب تلك. فالمتعة والألم متلازمان تلازمًا لا فكاك منه، وهذه هي بالضبط آلية عمل الكبت. لكن يجدر بنا أن نُنَوِّه بأنه في كل هذه الطروحات نحتاج إلى طرح أواليات تكميلية لجَسْر الهوة بين الوصف العام للكبت والتفسير الخاص للمتعة، كما إن هذه الأواليات التكميلية تنأى عن الهيئة الصرفة لأنموذج الكبت.

لاشعور الإيديولوجيا

إن تحولاً من هذا النوع يمكن رؤيته بوضوح أكثر في مجموعة رئيسة أخرى تدرس

الرعب من وجهة نظر التحليل النفسي. وتعتمد هذه الدراسات المستمدة في جزء منها من نظرية السينما النسوية على التحليل النفسي البنيوي الذي تميزه من تفسيرات الكبت التي هي أكثر ميكانيكية. وكما تقول باربرا كريد في انتقادها الصائب لنزعتي في تفسير كل نظريات التحليل النفسي بالاستناد إلى أنموذج الكبت، فإن التحليل النفسي البنيوي "يساعدنا على رؤية اللاشعور بوصفه عنصرًا تنظيميًّا فاعلاً في مجموع التمثيل السينمائي، كما أنه يتيح لنا قراءة شاملة لتفسير الخوف في نصوص الرعب بالقياس إلى الشيفرات السينمائية وإخراج المشاهد" (1990: 242). على الرغم من أن أطروحة «القراءة الشاملة» قد تبدو كغيرها من الطروحات موضع تساؤل، نجد أنه يتضح من خلال هذه الآراء أن مفهومات التحليل النفسي تُستخدَم بصيغة تفسيرية أكبر لتشف عن معانٍ معقدة من خلال التحليل الدقيق للنصوص بهدف تعرية «آلية عمل لاشعور الإيديولوجيا» وكمثال على هذا النمط من التفكير سأعالج منهجين متباينين إلى حد ما: منهج كريد (1986، 1993) ومنهج كلوفر (1987، 1992).

تُعنى كريد بالكشف عن دلالة "الأنثى المتوحشة" في أفلام الرعب، مُتوسلةً إلى ذلك بتفسير كريستيفا (المتأثر بآراء لاكان) لمفهوم البؤس. وهي تحذو حذو كريستيفا في التشديد على خرق الحدود في خلق البؤس وفي التركيز على علاقة الأم–الطفل، حيث تشقى الأم نتيجة صراع طفلها للدخول في المجال الرمزي. إن التحول من سلطة الأم إلى قانون الأب هو الأساس الذي تُبنى عليه الأنثى المتوحشة. طبعًا لا يقتصر البؤس في أفلام الرعب على الأنثى المتوحشة، لكن هذه الأخيرة ذات دلالة كبيرة: "يحقق فيلم الرعب مواجهةً مع البؤس (كالجثث، أو النفايات البشرية، أو الأنثى المتوحشة) لكي يلفظ هذا البؤس، ويرسم الحد الفاصل من جديد بين الإنسان وغيره... من شأن فيلم الرعب أن يعزل النظام الرمزي عن كل ما يهدد استقراره، ولاسيما الأم وما يرمز له عالمها". (كريد 1986: 53).

إن تصوير الأنثى على شاكلة "الآخر" يحمي النظام الاجتماعي من خلال

المحافظة على الرمزي الذي تُجنَّد له أفلام الرعب التي تُقَبِّح شخصية الأم مرةً تلو الأخرى" (المصدر السابق، 7)، وهذا سلوكٌ إشاراتيٌّ منشؤه العقلية الأبوية. إذًا، فاستمتاعنا بالرعب هو رغبة «منحرفة» في مواجهة صور البؤس «وما دام المُشاهد يستمتع بالانحراف، فهو يرغب أيضًا، وهو آمنٌ مطمئن في مقعده، في أن يتطهَّر من هذا البؤس ويلفظه إلى الخارج» (المصدر السابق، 49).

طبعًا تعتمد معقوليةُ كلِّ هذا على قبول المشروع الأكبر للتحليل النفسي البنيوي، لذلك فإن تلخيصي الموجز لا يفي مقولة كريد حقها كاملاً. لكن من الواضح أن مفهوم الأنثى المتوحشة يؤدي دورًا مهمًّا في بعض أفلام الرعب، وليس أقله في Alien، The Hunger، The Brood، The Exorcist، Carrie التي تستفيض كريد في مناقشتها (1993: 83-16)، ومن الواضح أيضًا أن إصرار الرعب على خرق كل أنواع القيود له أهمية كبيرة في فهم جاذبيته. لكن لا تحتاج أيٌّ من هذه السمات إلى نظرية التحليل النفسي لتوضيحها، وإن كانت النظرية تجعل مستخدمها متمكنًا من موضوعه. إن فَهْمَ آليةِ تَلَذُّذِنا المنحرف بالرعب يستلزم طروحاتٍ إضافيةً لا تقل عن تلك التي استلزمها أنموذج الكبت غير المُعَدَّل.

قد يكون الأهم من هذا وذاك هو اعتماد هذا التوظيف التفسيري لنظرية التحليل النفسي على قبول مسبق لإطار وصفي مأخوذ أيضًا من التحليل النفسي. أمْعِنْ النظر في التفسيرات الوصفية التالية المأخوذة من بحث كريد المنشور عام 1986: «إن هوس أفلام الرعب بالدم، وخصوصًا بجسم المرأة النازف الذي يغدو جرحًا فاغرًا يوحي إلى أن قلق الخصاء هو قلقٌ أساسي بالنسبة إلى أفلام الرعب» (52)؛ «يخرج رواد الفضاء السبعة ببطء من جُرَيّات نومهم في مشهد أقرب ما يكون إلى الولادة الثانية، ويمكن تفسير هذا المشهد بمثابة فانتازيا بدائية يولد فيها الإنسانُ مكتملَ النمو» (المصدر السابق، 55). ثم «نراها (أي الأم) كَفَم فاغرٍ لطائر آكل للحم البشر، ويرمز ذلك التجويف الأسود الذي يلفه الغموض إلى أعضاءِ المرأة التناسلية» (المصدر السابق، 23). إن هذه الطروحات التفسيرية تثير شكوك من لا يؤمن بنظرية

التحليل النفسي. فإلى من توحي (أفلام الرعب) بقلق الخصاء؟ ولماذا يصبح مشهدٌ ما مشهدَ ولادةٍ ثانية؟ ما الذي يجعلنا نفسره بمثابة فانتازيا بدائية؟ في أية ظروف محددة ترمز التجويفات السوداء إلى أعضاء الأنثى التناسلية؟

لا أطرح هذه الأسئلة من باب التشكيك الخبيث أو الحذلقة الفجة، بل أطرحها كي ألفت الانتباه لميزة الدوران على الذات في هذا النوع من التحليل. فالمحللة تطرح توصيفات للصور تفترض إطارًا تحتل فيه تمثيلات الأنثى المتوحشة مكان الصدارة. ثم تُقَدِّمُ هذه التوصيفات دليلاً على رمزية الأنثى المتوحشة عينها. طبعًا، ليست هذه بالضرورة حلقةً مفرغةً متممة لذاتها، وإن كان هذا يشكل خطرًا حقيقيًّا في بعض الأحوال، لكنها تضطرنا إلى الإقرار بأنه في مثل هذه التناولات تكون لحظة التفسير هي ذاتها لحظة التبرير. لذلك يستحيل على غير المُشايِع لهذه التناولات أن يقتنع بمثل هذه التوصيفات التفسيرية ما لم يقتنع أولاً بالتحليل النفسي البنيوي بعجره وبجره. وبما أن هذه التفسيرات تعمل، إن هي تعمل أبدًا، على مستوى اللاشعور، فإنه يصعب أن نتصور أية أسس إثباتية (بخلاف الفعل النابع من الإيمان النظري) يمكن أن نقيم عليها أو نرفض بموجبها تفسيرات بديلة.

هذا لا يعني أن مفهومات التحليل النفسي غير مُجْدِيَة في سعينا إلى فهم جاذبية الرعب، لكن استخدام هذه المفهومات يحتاج إلى عناية كبيرة، نظرًا لما لهذه المفهومات من قدرة على إطلاق أحكام جارفة تصب في مصلحتها عندما تُستخدَم في التفسير المباشر. ويمكن تبني استراتيجية تلطيفية تُوطِّن عنصر التحليل النفسي في تحليلٍ لنصوص الرعب يتحلى بعمومية أكثر ووعي اجتماعي أكبر، وعلى هذه الاستراتيجية أن تستهل عملها باستخراج شيفرات نظام عمل هذا الجنس الأدبي المعروفة لمستهلكي الرعب أنفسهم، ثم تنتقل عندئذ إلى ما يطيب لها من تحليلات أكثر عمقًا وتَقَعُّرًا. وما يميز هذه الاستراتيجية هو أنها تُوجِد إطارًا تفسيريًّا عامًّا يمكن أن نقارن بموجبه ما نرشحه من تفسيرات أخرى. مع ذلك ليس هناك من سبب يدعونا لافتراض ضرورة أفضلية هذه النظرية أو تلك، لولا إجماعٌ مسبق أن نظريةً معينة تمتلك مغاليق التفسير

الوجودي للنشاط الإنساني، وهذه قناعةٌ تظهر في بعض أعمال التحليل النفسي. إنْ نفعلْ هذا، نرتكب حقًّا منتهى الخَطَل الفكري.

وفي هذا السياق تمتاز دراسة كارول كلوفر للهوية الجنسية gender في أفلام الرعب الحديثة (1992) بفائدتها الجمة، حيث توظف مفهومات التحليل النفسي في إطارٍ تحليلي أشمل. وعلى الرغم من أن تحليلها الكامل يستعصي على التلخيص والإيجاز، لما فيه من الغنى والدقة، سأحاول على الأقل أن أَسْتَجْلِيَ خطوطَه العريضة. إذ ما يميز إسهامها هو ملاحظتها أن المتفرجين الذكور راغبون وقادرون في آنٍ معًا على التماهي مع الشخصيات الأنثوية، وفي أفلام الرعب على وجه التحديد، يتماهون مع «الإناث اللواتي يتنازعهن الخوف والألم» (5). ما معنى هذا؟ تقول كلوفر: إن من شأن الآراء السائدة أن تفترض أن التماهي مع الجنس المغاير غير وارد، بل مستحيل. قد تبالغ كلوفر في مدى انتشار مثل هذه المزاعم، لكن مما لا مراء فيه أن العرف الذي أسسته دراسة لورا مَلْفي (1975) الرائدة عن المتعة البصرية ركز على خاصية التلصص السادي لا على خاصية التعاطف في نظرة الرجل إلى أنثى الشاشة. على الرغم من أن كلوفر تذعن للرأي القائل: إن أفلام الرعب قد توفر للرجل المتفرج ملذاتٍ من هذا القبيل، لكنها لا «تعتقد أن التلصص السادي هو المنبع الأول للرعب» لهذا تجاهد على الصعيدين النقدي والسياسي في سبيل التشكيك في «الانتقاد النمطي الذي يتهم الرعب بتحقيرٍ سادي سافر للنساء» (المصدر السابق، 12). وفي مسعاها هذا تدرس بعض الأنواع المميزة لفيلم الرعب الحديث (كأفلام العنف الدموي، أو الاغتصاب والثأر، أو الأرواح الشريرة التي تَتَلَبَّس البشر) من حيث الملذات التي يختص بها جنسٌ دون غيره، التي يمكن أن توفرها هذه الأفلام للمتفرج الذكر.

تتلخص فكرتُها في زعمها القائل: إن وجود "البطلة لأغراض التماهي يسمح للمتفرج الذكر أن ينغمس في رغباته المحرمة، ويترفَّع عنها في آنٍ معًا، على أساس أن الممثل المرئي هو فتاةٌ في نهاية المطاف" (المصدر السابق، 18). وهكذا تصبح الشخصية المميزة للفتاة الأخيرة Final Girl في أفلام العنف الدموي، وهي الوحيدة

التي تنجو من هجمات القاتل المسعورة، تصبح هدفًا واضحًا لهذا النوع من التماهي: «ففيها من الأنوثة ما يسمح لها أن تُظهِر مخاوفَنا، وتُطْلق ملذاتنا المازوكية من عقالها الفانتازي بطريقة مُرْضِية، لكنها لا تليق بالذكور البالغين، إلا أن أنوثتها لا تبلغ الحد الذي يهدد كفاءة الذكور أو يتحدى فحولتهم» (المصدر السابق، 51).

على الرغم من أن الفتاة الأخيرة، فيما يبدو، قوية وواسعة الحيلة، لكنها "وَهْمٌ مُتَّفَقٌ عليه" في متناول المتفرج الذكر، ويستخدمه لأغراضه السادية-المازوكية. لكن كلوفر تقول: إن هذه ليست القصة بكاملها. ففيلم العنف الدموي يتساهل إزاء قضية الذكورة والأنوثة على نحوٍ أكبر مما يوحي به زَعْمُنا أعلاه. وتُعْطى الفتاةُ الأخيرة سماتٍ ذَكَرية وأنثوية في الوقت ذاته؛ وعلى شاكلة الضحية-الأنثى التقليدية تقاسي محنَ الملاحقة، لكنها أيضا تنجو بذاتها على شاكلة الرجال الأبطال. وعلى المنوال ذاته، فإن ذكورة القاتل، مع كل اعتداده بسلاحه ورمز فحولته، تطرحها أفلام الرعب "بتَحَفُّظ شديد". وبناءً على تحليلٍ أكثر تفصيلاً من هذا، ترتئي كلوفر "أن النص، في كلِّ مستوًى من مستوياته يواجهنا بمخلوقات خُنْثَوية"، لهذا فإن "لعبة هوية الذكورة والأنوثة" هي من صُلْب سينما الرعب الحديثة" (المصدر السابق، 55).

إذًا، إن ما يجذب المتفرج الذكر هو عينه الغموض الذي يكتنف تمثيل الذكورة والأنوثة في سينما الرعب الحديثة. لكن ما الدور الذي يؤديه التحليل النفسي البنيوي في نظرية كلوفر؟ إنه يزودها بمصطلحاتٍ لشرح هذا التوافق الذي يجمع تأرجح الممثل بين الذكورة والأنوثة مع اضطلاعه بتمثيل دور المشاهد بالنيابة، وذلك بالاستناد إلى النظام المجهري لفيلم الرعب. فأفلام الرعب، حسب زعمها، تستدعي كلاً من النظرة "الهجومية" والنظرة "الارتكاسية." فالأولى هي النظرة السادية التَّلَصُّصِية المعهودة التي تتماهى مع الكاميرا، كما مَيَّزها مِتْز (1982) في معرض نقاشه للتماهي الأولي وأعطتها لورا مَلْفي وجهها الجنسي (1975). في فيلم الرعب الحديث يتماهى المشاهد، على الأقل مؤقتًا، مع نظرة الكاميرا والقاتل المتربص. أما النظرة الارتكاسية فنكون فيها نحن المشاهدين مدافعين لا مهاجمين، حيث ينبع انجذابنا من خلال

تعاطفنا وتماهينا مع الشخصيات، وليس من خلال تَلَصُّصِنا المستحكم. تُعطى هذه النظرة صفة الأنوثة، وخلافًا للصدارة التي تُمنح عادةً للنظرة السادية المتحكمة، «فإن النظرة الارتكاسية هي التي تحتل مكان الصدارة في النظام المجهري للرعب» (كلوفر، 1992 :205). عند هذه النقطة لا يبقى بين الانخراط الارتكاسي في الرعب مع المازوكية، أو مع «المازوكية الأنثوية» الفرويدية، على وجه التحديد، إلا فاصلٌ قصير. وبالفعل ترتئي كلوفر أن المخاوف المازوكية التي يُوْلِيها فرويد اهتمامه (كمخاوف الجِماع والحَمْل القسريين والاغتصاب والضرب والخصاء، إلخ) هي ذاتها التي تظهر في الأجناس الفرعية لسينما الرعب الحديثة التي تدرسها. وهكذا تستنتج أن «هدف سينما الرعب الأساسي هو دغدغة مخاوف جمهورها وشهواته المازوكية» (المصدر السابق، 229).

لاحِظْ أن كلوفر هنا تتفادى الوقوع في مَطَبَّات الدوران المنهجي من خلال استحضار مفهومات التحليل النفسي؛ لتشرح ظواهر تصفها أولاً بطرق لا تنطلق من التحليل النفسي. وهكذا يمكننا إعادة هيكله دراسة كلوفر، بحيث تبدو وكأنها تنطلق من ملاحظتين تجريبيتين مترابطتين: الأولى تتعلق بالمشاهدين الذكور الذين يتعاطفون ويتماهون مع ضحايا الرعب من الإناث؛ والثانية تتعلق بالنص، حيث إن تصوير الهوية الجنسية في نصوص الرعب الحديث يكتنفها غموضٌ مثير للانتباه. كما أن توصيفها للنظام المجهري لسينما الرعب وتحليلها لدور المازوكية يوفران الأساس الذي تنطلق منه لشرح هاتين الظاهرتين من منظورٍ مقارن. ويعتمد هذا بطبيعة الحال على افتراضيةٍ نظريةٍ أكثرَ عموميةً، كبعض المفهومات المستمدة من التحليل النفسي البنيوي، بالإضافة إلى أنموذج الكبت بصيغة مُعَدَّلة. لكن المهم في الأمر هو أنه يمكن للباحث أن يحكم على رصانة الشرح دون أن يلزم نفسه بإطار تفسيري مستمد من التحليل النفسي، لهذا يمكن اقتراح تفسيرات أخرى للظاهرة عينها، وهذه سمة جوهرية لحكم من هذا النوع. إذ ما يميز منهج كلوفر من منهج كريد هو هذا الانفتاح النظري؛ إذ إن توصيف الأخيرة لنصوص الرعب قائم بالدرجة الأولى

على مُشَخِّصات التحليل النفسي، مما يجعل من الصعب طرح تفسيرات لاتحليلية -نفسية دون إعادة توصيف النصوص مجددًا. في حين يمكن أن نرى في عمل كلوفر المواضع التي يمكن عندها تعزيز نظريات التحليل النفسي للرعب، وذلك بالتنسيق مع التفسيرات الأخرى. لكن ما هذه البدائل لنظرية التحليل النفسي التي يمكن أن تقدم تفسيراتٍ عامةً لجاذبية الرعب؟

سِمَةُ المُفارَقة في الرعب

إِن دراسة نويل كارول (1990) لسمة المفارقة في الرعب واحدةٌ من أوضح المحاولات العامة وأبلغها حُجَّةً في معالجتها جاذبيةَ الرعب معالجةً لا تعتمد التحليل النفسي منهجًا. ويُعْنى كارول بما يسميه الرعب الفني، أي تلك الحالة العاطفية الخاصة التي تتفرد أعمال الرعب في توليدها حسب زعمه. وقوام هذه الحالة المزعجة هو الخوف والقرف والنفور من جانب المشاهد أو القارئ، وهي استجابةٌ مرتبطةٌ ارتباطًا محددًا بالسمات المميزة لوحوش الرعب. وارتكازًا على توصيف ماري دوغلاس (1966) لمفهومي النجاسة والمحرم، يعرف كارول وحوش الرعب من حيث عدم نقائها، فهي «تتأرجح بين حالة وأخرى بلا قيد أو شرط، متناقضة صراحة، ناقصة، وعديمة الشكل» (كارول، 1990: 32). إنها تخترق التصنيفات الثقافية القائمة. من هنا تنشأ مفارقةٌ واضحة. لا يسعى الناس في الظروف العادية وراء ما يجدونه مقرفًا. لكن يبدو أن أعمال الرعب تشد مستهلكيها «من طريق المتاجرة بعين الأشياء التي تثير القلق، والحزن، والاستياء» (المصدر السابق، 158). كيف لنا أن نفهم ذلك؟

قبل ابتكاره منهجًا خاصًّا به، يقوم كارول برفض عدد من التفسيرات المنافسة الأخرى (بما في ذلك التفسيرات المستوحاة من التحليل النفسي) بزعم أنه يمكن دومًا إيراد أمثلة مضادة تبرهن على أن هذه النظريات، بما فيها من مزايا، لا تحيط بكافة جوانب أدب الرعب. فعلى سبيل المثال، لا نستطيع أن نبرهن بشكل لا يقبل الشك على أن جميع أعمال الرعب تخص الرغبات النفسية–الحسية المكبوتة، ولذلك فإن

أي تفسير يُصاغ على هذه الشاكلة، ومهما بلغت حجته من مضاء في بعض الحالات لا يمكن أن يحل مشكلة جاذبية الرعب العامة. بعد ذلك يطرح مقولتين مترابطتين: نظريته "الشاملة" ونظريته "العامة". تنص نظريته الشاملة، في أبسط معانيها على أن "الرعب آسِرٌ؛ لأن الشَّواذَّ تُوجِب انتباهنا وتثير فضولنا" (المصدر السابق، 195). وسبق له أن قال: إن الوحوش منفرة؛ لأنها خارجة عن المألوف، فهي تُسَفِّه التصنيفات الثقافية، وإلى هذا بالذات مَرَدُّ سحرها وانجذاب جمهور الرعب إليها: «إن مثيرات الرعب الفني تشجع الافتتان، وتثير الحزن في آن معًا، وفي الواقع (الافتراضي) يجب ألا تنفصل هاتان الاستجابتان في الرعب. أضف إلى ذلك أن الافتتان يمكن أن يكون مصدر تَلَذُّذ؛ لأن الحزن الذي نحن بصدده لا يُملي علينا القيام بأي فعل، بل هو مجرد رد فعل تجاه فكرة الوحش لا تجاه الوجود الفعلي لشيء مُقْرِف أو مخيف» (المصدر السابق، 190-189).

أما نظرية كارول العامة، فتمتاز بدقة أكثر، حيث تركز على الرعب القصصي. إن ما يأسرنا في هذا الرعب القصصي ليس استعراضه لوحوشه فحسب، بل ضلوع هذه الوحوش في الإطار العام لرواية البَوْح النمطية. إن اهتمامنا بوحوش الرعب مُسْتَوْحىً من كونها "كائنات مستحيلة" نستطيع أن نتأكد من وجودها (في أدب الخيال) من خلال التشديد الذي تضعه روايات الرعب على "البرهان والاكتشاف والإثبات". إذًا، هناك نوع من التوافق بين الشكل القصصي العام للرعب ورواية البوح، والمخلوقات الممسوخة الشاذة المقرفة التي تشكل نواة اهتمامنا. وقرفنا هو "جزء من الثمن الذي يجب أن ندفعه لقاء متعة بوحها" (المصدر السابق، 184). خلاصة القول، إذًا، إن الوحوش الخارقة للمألوف تأسرنا وتُنَفِّرُنا في آنٍ معًا، والروايات التي تستعرض مثل هذه الوحوش تؤدي ذلك مرتين من خلال بُنْيتها القصصية ذاتها التي تعكس ذلك الافتتان والنفور.

لاحِظْ أن كارول لا ينكر أننا قد نجد جوانب متعة أخرى كثيرة في الرعب، وهو بالفعل يناقش عددًا منها في سياق دراسته، لكن اهتمامه الرئيس هو عزل كل الجوانب

المشتركة والمميزة للرعب في كل العصور والسياقات. ومن ثَمَّ، يأتي تفسيره مغرقًا في عموميته إلى درجةٍ يبدو معها فارغًا، لاسيما أنه لا يحاول طرح تفسيرات اختزالية تتجاوز سمات الرعب التي تعرفها عامة الناس. وكما يقول هو، فإن نظريته "على خلاف نظريات التحليل النفسي الاختزالية، ليست بَرَّاقةً على الإطلاق" (المصدر السابق، 195). مع ذلك يجب ألا يكون هذا مأخذًا عليها. لكن قد يشعر حتى القارئ المتعاطف أن تحليل كارول ينقصه شيء إن هو اتُّخِذَ جوابًا شاملًا عن سؤال: «لماذا يستهوينا الرعب؟» فهو يكاد يصوغ جُلَّ تفسيره بالاستناد إلى سمات أعمال الرعب ذاتها، حيث يخبرنا عن السمات التي تميز نصوص الرعب والتي قد تكون مصدر جاذبيتها الخاصة. لكن، كما رأينا من قبل، عندما يسأل الناس «لماذا يستهوينا الرعب؟» فهذا جزء مما يتساءلون عنه فحسب. إنهم لا ينشدون معرفة ما يميز منتجات الرعب بشكل عام فحسب، بل معرفة ما يميز مستهلكي هذه المنتجات أيضًا. لماذا يستمتع بعض الناس بهذه المادة، في حين يجدها بعضهم الآخر دون أية فائدة تُذْكَر؟

لكي نشرح ولع بعض الناس بالرعب شرحًا وافيًا، علينا إذًا أن نعود إلى كلٍّ من النصوص وقرائها. عندما يحاجج كارول بالقول: إن متعة أدب الرعب تتأتى أساسًا من خرق وحوشه لكل الحدود، يفترض أن جمهور القراء أو المشاهدين بالبداهة يجدون ذلك آسرًا ومزعجًا في آن معًا. قد يكون كارول مُحِقًّا هنا، لكن ذلك لا يشكل تفسيرًا شافيًا لجاذبية الرعب، كما أنه لا يسمح لنا أن نفرق بين المأخوذين به وغير المأخوذين. أنا مولع بالوحوش الخارقة، أما أنت، فلا. لماذا؟ من هنا تنشأ الحاجة إلى تفسيرات "اختزالية" تتجاوز النصوص لتنظر في الصفات التي تميز أولئك الذين يستمتعون بالرعب. في الواقع يقدم كارول وصفًا لما يزعم أنه السمة المميزة لأدب الرعب، لكن إذا كان هذا فعلاً هو الوصف المناسب، فلماذا لا يريد سوى بعض الناس أن يستهلكوه؟ مغزى السؤال طبعًا هو أن فهم جاذبية الرعب يتطلب منا أن نصف ما هو آسر وأن نُشَخِّص، بالإشارة إلى عوامل من خارج النص، مَنْ تأسر ولماذا؟

إن الأسس التي يقوم عليها هذا التحليل الأخير يحددها الوصف المبدئي لجاذبية الرعب المميزة في جزء منها، أما جزؤها الآخر فتحدده الأطر والنماذج التي يُجَنِّدها المحلل للمهمة، سواءٌ أكانت هذه الأطر والنماذج اجتماعية أم نفسية أم غيرها. لكن إذا أردنا تفسيرات شاملة، عندئذ يجب علينا أن نوجد توصيفات شاملة، أي يجب أن نُوَصِّف أدب الرعب بمجمله ونميزه بكذا وكذا. إلا أن هذه التوصيفات تكون حتمًا موضع تساؤل، كما يتضح من المساجلات المضيئة بين كارول (انظر مَقالَيْهِ المنشورين عام 1992) واثنين من نقاده (نيل وفيجن). يقول نيل، على سبيل المثال، إن كارول يُغْفِل «تفسير تلك الجاذبية الفريدة التي يمتلكها أدب الرعب بالنسبة إلى الكثيرين» (1992: 57) ويسميها هو «متعة الارتعاب». في حين تُفَنِّد سوزان فيجن زعم كارول القائل: إن الافتتان والانزعاج متصلان فقط اتصالاً شَرْطِيًّا، وتؤكد أن تمتعها وتمتع غيرها بالقرف يدخل في صلب تذوق أدب الرعب. على الرغم من أن كِلا التفسيرين يختلفان اختلافًا ملحوظًا في جوانب كثيرة، إلا أنهما يقدمان لنا توصيفًا شاملاً بديلاً، واستنباطًا مختلفًا «لسر الجاذبية الفريدة» التي يتمتع بها أدب الرعب. لكننا قد نُجْمِع على أن بعض الناس يتلذذون ولو مؤقتًا بالقرف والارتعاب وخرق الكائنات المتوحشة لكل الحدود. إذًا، قد تكمن المشكلة في افتراضنا أن أيًّا من هذه هي السمة التي ينفرد بها الرعب. في الواقع قد يستحيل وجود سمة مميزة ينفرد بها جنس أدبي يتطور باستمرار.

قسمٌ من التشويق ناجمٌ عن تلك النزعة المستحكمة لدى ناشدي تفسير جاذبية الرعب التي قد تدفعهم إلى تبني منهج اسمي في تعريفهم لهذا الجنس الأدبي، وتحديد ميزاته العامة المزعومة بموجب فَرَمان يُصْدرونه هم. وبهذا يرتكبون ما يمكن تسميته مغالطة تحديد النوع. لكن الأجناس ليست ثابتة، ولا هي مُجَسَّمات نَصِّية ملموسة فحسب. بل تتألف في قدرٍ متساوٍ من معتقدات جمهورها والتزاماته وسلوكه الاجتماعي من جهة، ومن النصوص التي يجب أن تُفْهَم بوصفها ثقافات فرعية ذات توجهات ذوقية محددة لا بوصفها توليفةً من النتاجات الثقافية المستقلة

من جهة أخرى. لذلك لا يمكننا الحديث عن جاذبية جنس أدبي إلا ضمن سياق اجتماعي-زمني محدد. وبما أن الأنواع تتغير مع مرور الزمن، فهي تستهوي قراءً ومشاهدين من طِيِّنات مختلفة. وبمقدار ما يكون هؤلاء فاعلين نشطين غير منفعلين، فإنهم يستطيعون أن يشكلوا تصوراتٍ مختلفة عن هذه الأنواع، وأن ينوعوا الملذات التي يستمدونها منها. في مثل هذه الظروف يصبح الباحث عن تفسير شامل حقًّا كَمَن يُطارد سرابًا. فحسبنا من سعينا أن نتحرى المسببات الخاصة لرواج جنس أدبي ما، علّنا نحيط بجملة العوامل التي ترسم نشاط هذا الجنس. لهذا فإن محاولات التفسير العامة، كمحاولة كارول، التي لا تتبنى منهج التحليل النفسي يمكن أن تتبدد إلى سلسلة من التفسيرات المحددة التي تخص سماتٍ نصيةً بعينها، أو جمهورًا متحولًا، أو أزمنةً تاريخيةً مختلفة أو سياقاتٍ اجتماعيَّة مميزة. كما أن مناهج التحليل النفسي، التي سبق التنويه إلى تبسيطها المفرط المزعوم، ستكون مضللةً بشكل خاص، إذ من شأنها أن تُغفل، باسم الشمولية الزائفة، تعدد استجابات القراء والمشاهدين.

تُرى، بأية طريقة شافية يمكن أن نطرح سؤالا، مؤداه: «لماذا يستهوينا الرعب؟» لكي نتصدّى لهذا الموضوع، علينا أولاً أن نشكك بمقولة تجانس الرعب. فلو سألنا هواة الرعب عن طبيعة استمتاعهم بهذا اللون الأدبي، لجاءت إجاباتهم مختلفةً، قلبًا وقالبًا. إذ تتصل كثير من هذه الإجابات بالحيل القصصية أو بمتعة القلق الناجم عن عدم معرفتنا لسير الأحداث أو بتوتر تيار المتعة المتناوب الذي يلازم هذا القلق. هذه السمات لا تقتصر طبعًا على الرعب، على الرغم من أن هذا اللون قد يُسبغ عليها دلالةً خاصة وينقلها بتأنقه الأسلوبي المميز. كما أن من شأن التوتر الذي يولده فيلم الرعب على سبيل المثال إن يثير استجابات جسدية واضحة، حيث يتسم سلوك مشاهدي الرعب بإشاحة النظر، والقفز في لحظة الصعق، وحبس الأنفاس، والتنفيس عن التوتر بالضحك، وتُعَدُّ هذه الاستجابات مؤشراتٍ مهمَّةً على جودة الفيلم. في الواقع يشكل الإفصاح عن هذه «الأعراض» من قبل المجموع جزءًا من عملية التأطير الاجتماعي للاستمتاع بفيلم الرعب، كما أنها سمةٌ جوهرية لمثل

هذه المناسبة. لذلك يتعلم المتفرجون الشباب هذا السلوك على أصوله، فيستمتعون بمشاهدة هذه الاستجابات المناسبة، كاستمتاعهم بإظهار مثلها. لكنَّ مصادرَ المتعة أكثر اتساعًا، ويمكن أن يهتم الجمهور أيضًا بالسمات القصصية العامة، كالحبكة الجيدة، والشخصيات التي يمكن أن يتعاطفوا معها، والتطابق مع الواقع، والأجواء اللافتة، وغيرها.

بالإضافة إلى التأزم القصصي الذي ينتظره المشاهدون في أفلام الرعب بأنواعها، من الواضح أن هواة الرعب يتوقعون الفظاعة أيضًا، لكن الذي لا يتضح هو شكل هذه الفظاعة. فهذا اللون يتسع لكل شيء من المسخ الحاضر بالإيحاء أو الاستدلال إلى ذلك التصوير النابض بالحياة لكائنات ممسوخة لا تُبقي ولا تَذَر، في حين تتأرجح استجابات المشاهدين بين نفور صرف وانجذاب متذبذب ثم تَنَدُّرٍ خجول واعٍ لذاته. إن هذا التأرجح، والعهدة على كارول، هو السبب الذي يمنعنا من عد جاذبيةً المسخ بذاتها العلامة الفارقة لجاذبية الرعب، ما دامت فظاعة المسخ، وكما يدرك المشاهدون جيدًا، يمكن أن تكون آسرة بطرق متعددة. في الواقع قد يبدو تصوير مسخ ما مخيفًا أو منفرًا أو سخيفًا أو مؤسفًا أو مضحكًا بحسب اختلاف ظروف المشاهدين الاجتماعية أو أزمنتهم. من الذي يخاف الآن من بيلا ليوغوزي؟ [1]. من ذا الذي لم يشهد كيف ينسف جمهورٌ متشككٌ علنًا ذلك التطابق الهش بين فيلم الرعب والواقع؟ إذًا، فتوقع الفظاعة هو توقعٌ عام جدًّا، لكن الصورة الخاصة لهذا التوقع هي التي تحتاج إلى شرح بوصفها إحدى جوانب المتعة المتعددة التي يقدمها الرعب. فالسؤال هو: أي نوع من الخطر الفظيع يستميل من، ومتى، وأين، ولماذا؟

تحفل دراسات الرعب بعدد من هذه التوصيفات الشديدة الاختصاصية، لكنها غير قابلة للتلخيص والإيجاز؛ لأنها بطبيعتها لا تقدم تفسيرات عامة لجاذبية الرعب ولا تركز في تفسيرها على تجانس هواة الرعب، بل تتفق غالبًا في مقاومتها للميول السائدة في تحليل الرعب من حيث دلالته النفسية أو التحليلية النفسية، وتهتم عوضًا عن ذلك بالتجربة الاجتماعية التي يشترك فيها مستهلكو الرعب. أما أي جانب

من جوانب السياق الاجتماعي الذي يشكل مركز الاهتمام الرئيس لهذه التوصيفات فيختلف الأمر من حال إلى أخرى. قد تكون أسهل الطرق لنقل طبيعة هذه التناولات هي وصف بعض المستويات المختلفة التي يمكن أن تطرح عليها شُروحها. وسأعالج هنا ثلاثة من هذه المستويات، علمًا أن هذه التقسيمات أجريت بسبب مواءمتها الإيضاحية والتحليلية فقط، كما أن هناك دراسات خاصة يمكن أن تتدرج هبوطًا أو صعودًا على هذا المقياس. وبناءً على هذا التحديد، إذًا، هناك أولاً بعض التوصيفات ذات المستوى التجريدي المنخفض نسبيًّا التي تقول بوجود صلة موضوعاتية مباشرة بين سمات محددة من سمات هذا اللون الأدبي/السينمائي من جهة وجوانب من التجربة الاجتماعية اليومية لمستهلكي هذا اللون من جهة أخرى. ثانيًا، هناك توصيفات أخرى تركز على تطورات هذا اللون والتي لا تبدو للعيان إلا على المدى البعيد (كتزايد العنف العلني مثلاً أو ازدياد التركيز على السلوك الجنسي). وتسعى هذه التوصيفات إلى تبيان انسجام هذه التطورات مع تيارات التحول الاجتماعي التي لا تحتاج إلى مجهر لمعاينتها. وأخيرًا، هناك طروحات تقول بوجود علاقة بين خطاب الرعب بمجمله وصيغ التفاعل الاجتماعي النمطية التي يفترضها هذا الخطاب سلفًا ويُسْهِم في تعزيزها. دعوني أتوسع قليلاً في تفصيل كل واحدة من هذه الطروحات، عَلَّنا نَتَبَيَّن سماتها المشتركة.

أبسط الطروحات وأكثرها تكرارًا (وليس أقلها أهمية على الإطلاق) هي تلك التي تركز على السمات الموضوعاتية البادية للعِيان في أفلام الرعب في فترات محددة، والتي تنظر إليها بوصفها إفصاحاتٍ عن الهموم الاجتماعية لذلك الزمان. لهذا شاعت، على سبيل المثال، دراسة رعبِ الخيال العلمي لفترة الخمسينات من حيث كونها مجموعةً مترابطةً من الموضوعات، من جملتها خطر الغزو الخارجي ومخاطر القوة النووية، ودور العلم والعلماء. ينظر إلى هذه الأفلام بلا استثناء على أنها تفصح عن مخاوف الأمريكان (رُهاب الأجانب، ومعاداة الشيوعية، والقلق من سيطرة التكنولوجيا والمجتمع الجماهيري) التي شاعت في الخطاب العام والخاص

لتلك الفترة. فعلى سبيل المثال، يقدم بِسْكِنْد (1983: 4) صورةً عن «فترةٍ تضج بالصراع والتناقض، فترةٍ احتربت فيها طائفةٌ من الإيديولوجيات المعقدة طمعًا في ولاء الجماهير.» لهذا درس أفلام الرعب في سياق يشمل الإنتاج السينمائي في الخمسينات الذي عبر عن هذه «الإيديولوجيات المتحاربة.» أما جانكوفيتش فهو إلى حد ما أكثر تحديدًا من بِسْكِنْد حيث يثبت أن تحقيق «الصيغ النقابية أو الفوردية للتنظيم الاجتماعي» في فترة ما بعد الحرب كانت من صلب المخاوف المتنامية حول نظام مغرق في اتكاله على عقلانية علمية –تقنية. فأفلام الغزو الخارجي بالنسبة إليه ليست مجرد انعكاسات للمخاوف من الشيوعية فحسب، بل استجاباتٌ أيضا لقلق متزايد من سيطرة التقنية على حياة المجتمع الأمريكي. وتشترك هذه التناولات مع غيرها على شاكلتها في أنها تفترض أن الأفلام تستهوي روادها؛ لأنها تعبر في جزء منها عن مخاوف هؤلاء الرواد بلغة سهلة وممتعة، وبلغة الثقافة السائدة. يمكن طبعًا أن تطبق هذه الاستراتيجية الإيديوغرافية على أي تركيز شائع على موضوع ما في تاريخ هذا اللون، شريطة إيجاد روابط ملائمة ومُفَصَّلة.

لا تقتصر الصلة بين النص وسياقه طبعًا على موضوعات منفصلة، بل يمكن طرح صلات النص وسياقه على مستويات أعلى من التجريد، وفيما يتعلق بالتحولات الاجتماعية الكبرى. هذا ينقلنا إلى مجال «المستوى» الثاني الذي ميزناه أعلاه. فعلى سبيل المثال، يركز هنا كلٌّ من كارول (1990: 206 - 14) وتيودور (1995) على قضية تجاوز الأصناف في الرعب. إن القول بأن تجاوز الأصناف هو في الأساس ما تتداوله نصوص الرعب يُعَدُّ فكرة مألوفة ومضيئة في آن معًا، إذ غالبًا ما تؤدي دورًا في التفسيرات العامة المزعومة لسحر الرعب (لدراسة تحليلية نفسية انظر كريستيفا (1982)، وكارول (1990) لطرح بديل). لكن يمكن أن نركز بشكل أدق على سمة التجاوز المتغيرة في الرعب، ناسبين مثل هذه التحولات إلى تيارات اجتماعية وثقافية أشمل. ومن هنا نشأت مقولة: إن سمات تخطي الحدود المميزة لأفلام ما بعد السبعينات الحديثة، ولاسيما فيما يسمى برعب الجسد، ترتبط ارتباطًا وثيقًا

بجوانب من التجربة الاجتماعية «ما بعد الحداثية»؛ بل يذهب كارول (1990: 210) إلى حد الزعم أن «لون الرعب المعاصر هو بمثابة تعبير العامة عن ذات المشاعر التي تطرحها سجالات المفكرين الخاصة حول ما بعد الحداثة»؛ إذ يطرح هذا اللون بلغة ثقافيةٍ شعبيةٍ النسبويةَ التصوريةَ الأخلاقية التي تتميز بها هذه الأخيرة (ما بعد الحداثة). بالمحصلة ينظر إلى ميوعة الحدود الجسدية وغموضها المميز في الرعب الحديث على أنها مختلفة اختلافًا هائلًا عن تخطي الحدود الذي تتميز به الفترات السابقة؛ لأنها تعبر عن «تجارب التَّشظِّي الاجتماعي ما بعد الحداثي وعن المواجهة المتفجرة دومًا بين ذَوات مستهدفة وبين عالم المجازفة والخطر الذي تسكنه» (تيودور 1995: 40). ويمكن أن نجد مثل هذا الربط، وإن كان بطريقة مختلفة نوعًا ما، عند ديكا (1990) الذي يحاول أن يربط «البنية التحتية» في أفلام التعقب بما حدث مؤخرًا من تحولات اجتماعية وثقافية، كما نجده أيضًا في مناقشة جانكوفيتش (1992: 112-17) «لأزمة الهوية» في سياق دراسته لرعب الجسد.

من شأن مثل هذه الدراسات أن ترتقي إلى مستوى أعم يتمحور التحليل فيه حول أنظمة كاملة من طروحات الرعب، وكما هو الحال في كل الأجناس، فإن منظومة الرموز والتقاليد التي يتألف منها الرعب تتغير قليلاً وكثيرًا عبر الزمن، مما يؤدي إلى تبدل الأسس التي يستهوي الرعب رواده بموجبها. إذًا، في هذا المستوى تصبح المهمة التحليلية هي التعرف على أنماط التغير التي تطرأ على خطاب الرعب، ثم ربط هذه الأنماط بمحيطها الاجتماعي الثقافي. وقد قمت شخصيًّا بمثل هذه المحاولة في بحثين منشورين عامي 1988 و 1995، حيث قلت: إن أفضل طريقة لفهم التغيرات الكبرى التي تطرأ على الرعب تكمن في علاقتها مع خطابين متميزين للرعب (رعب «الأمن» ورعب «الوساوس»). وكلٌّ من هذين الخطابين راسخٌ ومعتمدٌ على بنى التفاعل الاجتماعي النموذجية الخاصة بفترة شيوع هذا اللون أو ذاك. ولا نرى حاجةً هنا إلى تكرار تفصيلات هذا الطرح (وإذا شئت الاطلاع على ملخص موجز، فانظر بحثي المنشور عام 1995: 37-34). أما من حيث المنهج، فخطتي هي أن أستخدم عُنْوانَيّ

رعب «الأمان» ورعب «الوساوس»؛ لألخص مواطن التضاد الرئيسة في نطاق واسع من رموز الرعب (كقولنا: الخبرة الفعالة مقابل الخبرة غير الفعالة، أو النظام المستتب مقابل الفوضى المتصاعدة، أو التهديدات الخارجية مقابل التهديدات الداخلية، وهَلُمَّ جَرّا). والقصد من هذا هو استبانة نوع المحيط الاجتماعي الذي تُعْقَل فيه مثل هذه الطروحات. وهكذا نجد أن خطاب رعب الوساوس الذي ساد أكثر ما ساد في السنين الخمس والعشرين الأخيرة يفترض مسبقًا وجود عالم لا أمان فيه على الإطلاق. وهو من هذه الناحية خطابٌ رائج وممتع؛ لأن رموزه الأساسية تتطابق مع تجربتنا المميزة للخوف والمجازفة والقلق التي نعايشها في المجتمعات الحديثة.

في جميع هذه الحالات، وبغض النظر عن اختلافاتها وقلة اهتمامها المباشر بخلابة الرعب، فإن فهمنا للجاذبية التي تتمتع بها سمات معينة من هذا اللون مرتبط بجوانب مخصصة من سياقها الاجتماعي-التاريخي. لهذا فإن الأنموذج الذي تفترضه مثل هذه التحليلات عن ألوان الإشباع التي يوفرها الرعب لمستهلكيه يتناقض إلى حد ما مع ذلك الأنموذج الذي تطرحه نظريات التحليل النفسي، حيث غالبًا ما يُوضَع التشديد على إطلاق المشاعر الحبيسة أو الانغماس في شهوات سادية -مازوكية ضاربةٍ جذورها في الأعماق. إن آلية المتعة التي نجدها هنا تتمتع بفاعلية أكثر حيث تُحاجِجُ بأن المشاهد بوصفه فاعلاً اجتماعيًّا يستجلي في الرعب سماتٍ من عالم الخبرة الاجتماعية اليومية، سماتٍ قد حُوِّرَت ربما، لكنها مع ذلك ممتعةٌ من حيث كونها مألوفة لنا أو تمس صميمنا. لذلك فإن الخوف الذي أثارته أفلام الغزو الفضائي في الخمسينات يفصح في إطارٍ خيالي عن مخاوف الحرب الباردة المنتشرة في تلك الحقبة. أو، على سبيل التوسع، إذا كانت أفلام نهاية القرن العشرين تتميز بالوساوس، فإن سحرها يكمن في كون هذه الوساوس تتطابق في نظر المشاهدين مع بعضٍ من سمات الحياة الحديثة. علاوةً على ذلك، فإن تستطيع أن تميز لون الرعبٍ فهو في حد ذاته جزء من عملية عقلنة العالم الاجتماعي الذي هو مصدرٌ لأُطُرٍ مشتركة نستطيع من خلالها أن ندرك، على سبيل المثال لا الحصر، معنى الخوف

ومعنى أن تكون خائفًا. من هنا جاءت ملاحظة غريكستي (1989: 164) أن قصص الرعب هي: «تمارين في اكتشاف العلاقة بين الخريطة والأرض، بمعنى أنها توفر وسيلةً آمنة ومُؤَسْلَبة لعقلنة وقبول ظواهر وتجارب محتملة في غاية الخطر والإقلاق في الظروف العادية (أي الوظيفية)».

تحدث مثل هذه العمليات على مستوى «الوعي العملي» حسب تعبير جيدنز (1984)؛ إذ إن هذه العمليات هي جزءٌ من معرفة الفاعل الاجتماعي عن عالمه اليومي وإمكانية هذه المعرفة ضمن هذا العالم. وعلى الرغم من أن هذا التناول لا يستبعد بالضرورة اللاوعي والكبت من حيث المبدأ فيما يخص ملذات الرعب على الأقل، فإن له مزية الإصرار على المشاركة الفعالة للجمهور في أثناء استهلاكه واستيعابه لنصوصه المفضلة.

إذًا، هناك عمومًا نوعان من النماذج التي سادت محاولات فهم جاذبية الرعب. فمن جهة، هناك التفسيرات، وهي الأكثر بروزًا، التي تنشد شروحًا شاملة باستجلائها في أدب الرعب أو جمهوره سماتٍ محددةً يُظَنُّ أنها تشكل على نحو فذ لحمة جاذبية الرعب. ومثل هذه التناولات تبلغ من التبسيط إلى حد أنها تفسر الرعب بالاستناد إلى سماته الثابتة ظاهريًّا أو سمات مستهلكيه المماثلة، أما آلية الجذب التي تقترحها هذه التناولات فهي مبنية على إشباع حاجاتٍ قائمةٍ سلفًا. أي إنها تسلم بنظرية وجود اجتماعية ترى أن الأفراد ذوو تكوينٍ مسبق في بعض المناحي الرئيسة، كأن يضمروا داخلهم أوالياتِ كبتٍ أساسية، أو تدفعهم حاجاتٌ غريزية حيوانية، ويميلون بطبعهم وبشكل روتيني إلى الاستمتاع بتمثيل الخوارق. ومن جهة أخرى، هناك توصيفات تركز على شرور معينة وترفض التحدي التعميمي الذي يطرحه سؤال: لماذا يستهوينا الرعب؟ هنا تُفْهَم جاذبية الرعب على أنها نتيجة التفاعل بين سماتٍ نصية محددة وظروف اجتماعية مميزة. وتركز نظرية الوجود الاجتماعية الضمنية في هذه التوصيفات على الفاعل الاجتماعي الذي يتخذ مما تنتجه الثقافة وسيلةً لرأب الصدع في حياته اليومية، وذلك من خلال التزامه وعيًا عمليًّا لمحيطه الاجتماعي

والثقافي، وهذا التناول لا يرى جاذبية الرعب على أنها إشباعٌ لحاجة، بمعنى أنها تصب لاشعوريًّا في حقل الرغبات العميقة الجذور، بل هي جاذبيةٌ إدراكيةٌ استدلالية في منحاها. ففي عناصر الخيال نجد صدًى لسماتٍ من التجربة الاجتماعية لرواد هذا الخيال.

قد يقول قائلٌ: إن مثل هذه التوصيفات المغرقة في خصوصيتها لا تقدم شرحًا على الإطلاق، بل تفشل في معالجة سؤال «لماذا يستهوينا الرعب؟» بالطريقة التي بدأت بها هذا النقاش. وهذا صحيح بمعنى من المعاني؛ إذ تفترض أن الرعب كغيره من فنون الأدب يستهوي الناس لأسبابٍ تُقَدَّر بعدد الطرق التي يستطيع مستهلكوه أن يستفيدوا من منتجات هذا الفن. لا شك أن الرعب يدغدغ بعض الناس أو يكون ينبوعًا من التحذيرات المفيدة بالنسبة إلى بعضهم الآخر، في حين يتخذه آخرون مناسبةً اجتماعيةً للمرح الصاخب. ويتلذذ بعض هواة الرعب بالوصمة التي تَلْحَق بهذه الثقافة المنبوذة رسميًّا. ويشعر آخرون أن ارتياد أفلام الرعب هو عنصر أساسي للمحافظة على الهوية الفردية ضمن محيط متميز من الأقران. وعبر الثقافات تتضاعف التحورات وتتعمق في سياق ممارسات ثقافية مختلفة اختلافًا جذريًّا. من الخطأ في مثل هذه الظروف أن ننشد لجاذبية الرعب تفسيرًا يطمح إلى الشمولية، تفسيرًا لا سبيل لديه إلى معرفة تنوع رواد أفلام الرعب، سواء أكان ذلك داخل الثقافة الواحدة أم عبر الثقافات. ومهما حاولت نزعة التحامل المعهودة أن توحي عكس ذلك، فإن هواة الرعب لا يقلون نشاطًا عن غيرهم من مستهلكي الثقافة. وكما يُنَوِّه كرين (1994: 47): «لكي يحقق فيلم الرعب هدفه، على الجمهور ألا يؤجل الشك فحسب، بل عليه أن يصنع أنواعًا محددة من اليقين». إن هذا الإنتاج الخلاق هو الذي يستحوذ الآن بإلحاح على اهتمام دارسي الرعب.

لا شك أن مثل هذا الاهتمام بالفاعلية النشطة يضعنا أمام مشكلاتٍ منهجية حادة، فحيث يكون توجهنا توجهًا تاريخيًّا، كما هي الحال غالبًا، فإنٍ تصورات الفاعلين لا غير هي أفضل ما يتوافر لنا بشكل غير مباشر، وفي كثير من الأحيان لا

يُتاح لنا حتى هذا. من الضروري في مثل هذه الأحوال أن نبدأ تحليلنا للرعب من أبسط المستويات، وذلك من خلال مَوْضَعة نشاط هذا اللون الغني بطريقة تُخَوِّلنا أن نتحرى الإمكانات المتعددة التي توفرها النصوص لمشاهدين مختلفين متغايرين. ونظرًا إلى افتقارنا إلى الدليل المباشر على كيفية استفادة الفاعلين من أشكال تاريخية معينة، علينا أن نلجأ إلى التخمين المُمَنْهَج عَلَّنا نَتَبَيَّن في ظل أية ظروف اجتماعية كان بوسع مستهلكي هذه المادة أن يفهموها. إن من شأن هذا النوع من إعمال الفكر، مُرْفَقًا بتوصيف كامل للظروف الاجتماعية والثقافية التي تشكل مجال عمل الرعب، أن يضع احتياطيًّا كامنًا من الملذات والممارسات في متناول مستهلكي الرعب لينتقوا منها ما يشاءون. وكما رأينا في الحالات التي درسْتُها، هناك دليلٌ لا بأس به في متناول مثل هذا التحليل، وبغض النظر عن مصاعب الاستدلال أو المنهج. إذ إن هذه المصاعب لا تقتصر على البحث التاريخي. فحتى المادة المعاصرة لا تخلو من هذه الإشكالية في بعض أوجهها، حيث يتوقع أن تتوافر في الباحث مهاراتٌ هائلة في مجالات الثقافة وعلم الأعراق وعلم الاجتماع؛ كي يتمكن من إنجاز مهمة توثيق نشاطات القراءة وتقويم الكفاءات الثقافية المتنوعة.

لكن علينا أن نواجه هذه المشكلات. فإذا أردنا حقًّا أن نفهم جاذبية الرعب، أو دلالته الاجتماعية والثقافية فإننا بحاجة إلى أن نتحاشى طرح سؤال «لماذا يستهوينا الرعب؟» بالطرق التقليدية الملغومة. فالسؤال يجب ألا يكون «لماذا يستهوينا الرعب؟» على الإطلاق، بل لماذا يحب هؤلاء الناس هذا الرعب في هذا المكان، وفي هذا الوقت بعينه؟ ثم ما تبعات أن يستنبطوا إحساسهم اليومي بالخوف والقلق، أو «خرائط خوفهم» (حسب تعبير تُوَانْ) من هذه المادة الثقافية المتميزة؟

الحواشي (الهوامش):

1 - بيلا ليوغوزي ممثل أمريكي من أصل هنغاري (١٨٨٢-١٩٥٦) اشتهر عمومًا بأداء أدوار رئيسية في أفلام الرعب التي ابتدأها بفيلم «دراكولا» (يونيفرسال بكتشرز، ١٩٣١). المترجم.

References

1. Biskind, Peter (1983) Seeing is Believing: How Hollywood Taught Us to Stop Worrying and Love the Fifties, London: Pluto Press.
2. Britton, Andrew, Lippe, Richard, Williams, Tony and Wood, Robin (1979) American Nightmare: Essays on the Horror Film, Toronto: Festival of Festivals.
3. Brophy, Philip (1986) <Horrality - the textuality of contemporary horror films>, Screen, 27 (1): 2-13.
4. Carroll, Noel (1990) The Philosophy of Horror: or Paradoxes of the Heart, New York and London: Routledge.

   _____ (1992a) <A paradox of the heart: a response to Alex Neill>, Philosophical Studies, 65: 67-74.

   _____ (1992b) <Disgust or fascination: a response to Susan Feagin>, Philosophical Studies, 65: 85-90.
5. Clover, Carol (1987) <Her body, himself: gender in the slasher film>, Representations, 20: 187-228.

   _____ (1992) Men, Women, and Chain Saws: Gender in the Modern Horror Film, London: BFI Publishing.
6. Crane, Jonathan Lake (1994) Terror and Everyday Life: Singular Moments in the History of the Horror Film, London: Sage.
7. Creed, Barbara (1986) <Horror and the monstrous-feminine: an imaginary abjection>, Screen, 27 (1): 44-70.

   _____ (1990) <Review article: Andrew Tudor, Monsters and Mad

Scientists: A Cultural History of the Horror Movie', Screen, 31 (2): 236-42.

_____ (1993) The Monstrous-Feminine: Film, Feminism, Psychoanalysis, London, New York: Routledge.

8. Dika, Vera (1990) Games of Terror: Halloween, Friday the 13th, and the Films of the Stalker Cycle, London and Toronto: Associated University Presses.
9. Douglas, Mary (1966) Purity and Danger: An Analysis of Concepts of Pollution and Taboo, Harmondsworth: Penguin.
10. Feagin, Susan (1992) <Monsters, disgust and fascination>, Philosophical Studies, 65: 75-84.
11. Freud, Sigmund (1955) [1919] <The «Uncanny>>>, in J. Strachey (ed.) The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, London: The Hogarth Press.
12. Giddens, Anthony (1984) The Constitution of Society: Outline of the Theory of Structuration, Cambridge: Polity Press.
13. Grixti, Joseph (1989) Terrors of Uncertainty: The Cultural Contexts of Horror Fiction, London and New York: Routledge.
14. Jancovich, Mark (1992) Horror, London: B.T. Batsford.
15. Kristeva, Julia (1982) Powers of Horror: An Essay on Abjection, New York: Columbia University Press.
16. Metz, Christian (1982) Psychoanalysis and Cinema: The Imaginary Signifier, London: Macmillan.
17. Mulvey, Laura (1975) 'Visual pleasure and narrative cinema',

Screen, 10(3): 6-18.

18. Neill, Alex (1992) <On a paradox of the heart>, Philosophical Studies, 65: 53-65.
19. Tuan, Yi-fu (1979) Landscapes of Fear, Oxford: Basil Blackwell.
20. Tudor, Andrew (1989) Monsters and Mad Scientists: A Cultural History of the Horror Movie, Oxford and Cambridge, Mass: Basil Blackwell.

    _____ (1995) ‘Unruly bodies, unquiet minds’, Body and Society, 1 (1) 25-41.
21. Twitchell, James (1985) Dreadful Pleasures: An Anatomy of Modern Horror, New York and Oxford: Oxford University Press.

41. Said, Edward W. 2001. “The Clash of Ignorance” http://www.thenation.com/doc.mhtml?i=20011022&s=said] (October 4, 2001).
42. Schmidt, Garbi 2004. Islam in Urban America: Sunni Muslims in Chicago. Philadelphia Temple University Press.
43. Shryock, Andrew 2000. “Family Resemblances: Kinship and Community in Arab Detroit” in Arab Detroit: From Margin to Mainstream, edited by Nabeel Abraham and Andrew Shryock. 573-610. Detroit: Wayne State University Press.
44. Shryock, Andrew 2002. “New Images of Arab Detroit: Seeing Otherness and Identity through the Lens of September 11” American Anthropologist, 104 (3): 917-938.
45. Suleiman, Michael. 1999. Arabs in America: Building a New Future.pp: 257-271 Philadelphia Temple University Press.
46. Varisco, Daniel Martin. 2001. “September 11: Participant Webservation of the ‘War of Terrorism’”, American Anthropologist, 104 (3): 917-938.

Catherine J. Danks. Pp1-22. New York, N. Y. Palgrave.
28. Lash, Scott. 1990.Sociology of postmodernism. London ; New York: Routledge.
29. Levitt, Peggy. 2001.The Transnational Villagers. Berkeley: University of California Press.
30. Ong, Aihwa. 1999. Flexible Citizenship: The Cultural Logic of Transnationality. Durham, NC: Duke University Press.
31. Parry, Wayne. 2005 “(NJ) Arabs a portrait of success in America, U.S. Census says, Associated Press, [Wednesday, March 9, 2005]: http://www.adcnj.us/arab-sdoing-well-ap-03-08-05.htm
32. Punter, David. 2005. The influence of post-modernism on contemporary writing: an interdisciplinary study. Lewiston, NY: Edwin Mellen Press,
33. Said, Edward W. 1979. Orientalism. New York: Vintage Books, Random House.
34. Said, Edward W. 1981. Covering Islam. New York: Pantheon Books.
35. Said, Edward W. 1983. The World, the Text and the Critic. Cambridge, MA: Harvard University Press.
36. Said, Edward W. 1984. “Reflections on Exile.’ Granta 13: 159-172.
37. Said, Edward W. 1986. After the last sky: Palestinian lives. New York : Pantheon Books
38. Said, Edward W. 1993. Culture and Imperialism. New York: Alfred A. Knopf Publishers.
39. Said, Edward W. 1996. Representations of the Intellectual: The 1993 Reith Lectures New York: Vintage.
40. Said, Edward W. 2000. Reflections on Exile and Other Essays. Cambridge, Mass: Harvard University Press.

(Ed.) Identity: Community, Culture, Difference. London: Lawrence and Wishart.

20. Hall, S. (1992). 'The Question of Cultural Identity' in S.Hall, D. Held & T. McGrew (eds.) Modernity and Its Futures. Cambridge: Polity Press in association with the Open University, 273-326.
21. Heath, Brad and Krupa, Gregg. 2005. "Arab-Americans wealthier, better educated, But census figures find Metro Detroiters are an exception to this nationwide trend", The Detroit News: http://www.detnews.com/2005/metro/0503/10/B01-112169.htm
22. Julian, Roberta. 2004. "Hmong transnational identity: the gendering of contested discourses" Hmong Studies Journal, 05, (5): 1-23.
23. Joseph, Suad. 1999. "Against the Grain of the Nation—The Arab" in Suleiman, Michael (ed.) Arabs in America: Building a New Future.pp: 257-271 Philadelphia Temple University Press, 1999.
24. Kearney, Michael. 2000 "Crossing Borders: Changing Social Identities in Southern Mexico," American Ethnologist,27 (3), pp. 788-789.
25. Kaplan, Caren 1996. Questions of Travel: Postmodern Discourses of Displacement. Durham and London: Duke University Press.
26. Kennedy, Paul and Danks, Catherine J. 2001. Globalization and National Identities: Crisis or Opportunity? New York, N. Y. Palgrave.
27. Kennedy, Paul. 2001. "Introduction: Globalization and the Crisis of National Identities" to Globalization and National Identities: Crisis or Opportunity? Ed. by Paul Kennedy and

and Local Community in the Making of Contemporary Asian America" in Across the Pacific: Asian Americans and Globalization, ed. Evelyn Hu-DeHart. pp 29-60. Philadelphia: Temple University Press.

12. el-Aswad, el-Sayed. 2000. Muslim Sermons: Public Discourse in Local and Global Scenarios, presented at the 99th Annual Meeting of the AAA (Invited Secession: Media-Mediated Islam and the Middle East: Giving the Virtual Reality Check) Nov. 15-19 (http://www.inter-nation.org/Features/InterNation-Muslim_Sermons.htm).
13. el-Aswad, el-Sayed. 2002. Religion and Folk Cosmology: Scenarios of the Visible and Invisible in Rural Egypt. Westport, CT: Praeger Press.
14. el-Aswad, el-Sayed. 2004. "Viewing the World through Upper Egyptian Eyes: From Regional Crisis to Global Blessing" in Upper Egypt: Identity and Change (eds. Nicholas Hopkins and Reem Saad. Pp: 55-78, Cairo: AUC in Cairo press.
15. el-Aswad, el-Sayed. 2005. (Book Review) "Islam in Urban America: Sunni Muslims in Chicago" (Philadelphia Temple University Press, 2004). By Garbi Schmidt (DOMES:Digest of Middle East Studies), Vol. 14, (1) 78-81.
16. EL Guindi, Fadwa. 2003. "Arab and Muslim America: Emergent Scholarship, New Visibility, Conspicuous Gap in Academe" in American Anthropologist, Vol. 105, No. 3: 631-634.
17. Eriksen, Thomas Hylland. 2002. Ethnicity and Nationalism: Anthropological Perspectives. London: Pluto Press.
18. Ghareeb, Edmund. 1983. Split Vision: The portrayal of Arabs in the American. Media Washington, D.C.: American-Arab Affairs Council.
19. Hall, S. (1990). "Cultural Identity and Diaspora" in J. Rutherford

References

1. Abraham, Nabeel and Shryock, Andrew. 2000. Arab Detroit: From Margin to Mainstream. Detroit: Wayne State University Press.
2. Appadurai, Arjun. 1996. Modernity at large: cultural dimensions of globalization. Minneapolis, Minn.: University of Minnesota Press.
3. Ashcroft, Bill and Ahluwalia, Pal. 1999. Edward Said: the Paradox of Identity. London; New York: Routledge.
4. Axel, Brian Keith. 2004. "The Context of Diaspora" Cultural Anthropology 19 (1): 26 –60.
5. Boosahda, Elizabeth 2003. Arab-American Faces and Voices: the Origins of an Immigrant Community Austin: University of Texas Press.
6. Cainkar, Louise. 2002 "No Longer Invisible Arab and Muslim Exclusion After September 11" Middle East Report, 224.
7. 7- Clifford, James. 1988. The Predicament of Culture: Twentieth-Century Ethnography, Literature, and Art. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.v
8. Clifford, James. 1999. Routes: Travel and Translation in the Late Twentieth Century. Cambridge, Masachusetts: Harvard University Press.
9. Cohn, Bernard S. 1987. An Anthropologist among the Historians and Other Essays. Delhi: Oxford University Press.
10. Coutin, Susan Bibler 2003 "Cultural Logics of Belonging and Movement: Transnationalism, Naturalization, and U.S. Immigration Politics" American Ethnologist vol. 3 (4), 508-526.
11. Dirlik, Arif. 1999. "Asians on the Rim: Transnational Capital

village" phenomena: globalization of cultures, races, images, capital, products ["information age" or dissemination of images and information across national boundaries with a sense of a global mixing of cultures] (Kennedy and Danks 2001, Punter 2005, Lash 1990).

11. The image of Arab Americans changed within hours of the September 11 attacks (Shryock 2000, Varisco 2000).
12. Cainkar (2002) observed that during the 1990s, a major shift in identification, affiliation and behavior occurred among a significant proportion of Arab Muslims in Chicago. Their primary affiliation changed from secular to religious. They began to identify as Muslims first, and Arabs, Palestinians or Jordanians second. Mosques and religious institutions replaced secular community centers as locales for community social life and education. Secular Arab student organizations dwindled while Muslim student organizations thrived. Muslim women who in the 1980s did not cover their hair began to do so. Islam became more than a private way of life; it became a public, active way of being.
13. Though Edward Said discussed Muslim and Arab diaspora, he, through his personal memory, identified himself as Palestinian (Said 1986). Also, see Dirlik's discussion (1999) of the experience of Asian-Americans who identify themselves with their origins in local societies.

institutions and academic centers. For more incidents related to Campus Watch, visit, for example, the following websites: http://www.danielpipes.org/ and http://www.campus-watch.org/

6. "Edward Said demonstrates the often paradoxical nature of identity in an increasingly migratory and global world" (Ashcroft and Ahluwalia 1999:7).
7. According to a recent report (Parry 2005), "Arab-American men and women earn more than their counterparts in the general population. The median salary for men in 1999, the most recent statistics available, was $41,700, compared with $37,100 for American men as a whole. For women, the average salary was $31,800, compared with $27,200 for all American women". But the population in Metro Detroit, one of the nation's largest hubs for people of Arab descent, defies a national trend of Arabs being wealthier and better-educated than other Americans (Heath and Gregg 2005).
8. For further information on the global aspect of Islam see Schmidt 2004, and el-Aswad 2000; 2002; 2005.
9. The new Dearborn mosque (70,000-square-foot with gold-domes costing $15 million) was established by the Islamic Center of America to serve as a spiritual home for metro Detroit's Arab American population.
10. According to postmodernism, what we call knowledge is a special kind of story, a text or discourse that puts together words and images in ways that seem pleasing or useful to a particular culture, or even just to some relatively powerful members of that culture. It argues that the belief that one particular culture's view of the world is also universally "true" was a politically convenient assumption for Europe's imperial ambitions of the past, but has no firm intellectual basis. Also, post-modernism refers to "global

Endnotes

1. Diaspora may be understood here as a globally mobile category of identification as well as something objectively present in the world today with regard to something else in the past —the place of origin (Axel 2004: 28, Clifford 1999: 244-277).
2. Ethnic archetypes and negative stereotyping of the Arab Americans have been addressed by scholars such as Edward Said (1979, 1981, 1983, 2001), Jack Shaheen (1997, 2001), Soad Joseph (1999), Edmund Ghareeb (1983), Stockton 1994), among others. It is worthy to observe that “there is no box on the census forms for Arab Americans in the ethnicity section, as there is for Asians or Hispanics, for example. Instead, Arab Americans tend to check the box for white or other” (El Guindi 2003: 631).
3. Arab Americans suffered a serious backlash immediately following September 11, 2001. The worst elements of this backlash, including an increase in the incidence of violent hate crimes, were concentrated in the first nine weeks following the attacks. See Report on Hate Crimes and Discriminations Against Arab Americans - The Post September 11 Backlash: http://www.911investigations.net/document1276.html. Also, in Chicago, in the late fall of 2001, an Assyrian church on the north side and an Arab community organization on the southwest side were damaged by arson. The rebuilt community center was again vandalized in March, 2002 (Cainkar 2002).
4. The complete report entitled “Unequal Protection” may be viewed at: http://www.cair-net.org/asp/2005CivilRightsReport.pdf].
5. The problem of targeting Muslims and Arabs has extended to scholars and those working (or who applied to work) in

themselves with broader identity of Arabism or being Arab as well as of Americanism, they show a very strong sense of their motherland identity. For example, they strive to preserve their "Egyptianess" (misriyyah)[13].

Conclusion

Through the usage of the metaphor of Sindbad, this paper has highlighted the significance of migration, narration, family, religion, and media as grounds for the formation of Arab American identity in both public and private zones. The movement between local and global spheres has played a major role in creating a particular sense of Arab immigrants' identity attached to both local and global communities. Arab American identity, one argues, is shaped by many factors but particularly by continuing interactions between conditions in the old and new homelands and by the interplay between their perceptions of themselves and how others see them.

Like other Arab Americans, Egyptian immigrants have moved to the new world of the USA participating in its modern life, while at the same time striving to preserve their cultural heritage. Those who have shown a distance from their old homeland are not against the country or their culture as such, but rather against the politico-economic corruption. The migration of Egyptians to the US is viewed here as integral not only to the global economy but also to global processes of transformation of multiple identities. Arab Americans now are more visible through their successes in representing their identity as well as in economic, political and public life.

Transnational identity is not confined to geographical borders, rather it develops dual consciousness bridging multiple real and imagined spaces. Though Egyptian immigrants tend to identify

debates and work to reduce spatial divisions as well as to accentuate temporal connections between Arab-Americans and their members in the homeland. This all occurs instantaneously, transnationally and at the push of a button.

them with a wonderful opportunity to unite their interests in order to benefit from the diverse material and cultural resources for the purpose of reducing the sense of alienation or ghurba.

Emerging Internet practices require fresh exploration into the parameters of what may have become the norms for analyzing the experience of Arab Americans. The interplay between local and global scenarios is reflected in the mass media and popular culture. Though Arab satellites are globally oriented, they are viewed by Egyptian Americans as representing the local concerns of their (Arab) homeland. Although Al Jazeera (the satellite station based in Qatar) still dominates, other channels, such as Egypt Satellite, NILE, LBC, Dubai, and MBC among others, are challenging its grip on Arab viewers both in the United States and other western-oriented countries. From an Egyptian American's point of view these channels have developed different perspectives and conflicting views even in dealing with the very same event. These different and conflicting channels, however, attract the Arab-American viewers for the fact that they offer different perspectives from those of western or American channels, such as CNN, Fox and the BBC.

Arab satellite stations present critical programs and talk shows inviting eminent Arab thinkers, as well as western and American intellectuals to discuss issues related to liberty, democracy, peace, violence, civil rights, and regional conflicts. Among those interviewed have been successful Egyptian Americans who have been portrayed as role models for the new generation especially those in the homeland. Talk shows include various topics and various programs engaged in religious, political, and economic

Over the years, Egyptian migrants have traveled back and forth between Egypt and the United States, securing a constant circular flow of resources and information. In the new land, Arabs or Egyptian Americans look for social networks (relatives, friends) to lessen the feeling of alienation (ghurba). Ghurba implies meanings of absence (ightirab) from the homeland, alienation and, most importantly, the 'otherness' and 'strangeness' persons experience in a new or unfamiliar environment. The sense of alienation or ghurba has deepened not only because of being away from the homeland or being in a new milieu, but also because of the insecure environment in the new home or country especially since September 11, 2001 when Arabs and Muslim have been mistakenly stigmatized, relatively isolated, and made targets of racial assault[11]. This calamity has generated a soul-searching orientation to socially and religiously cope with the crisis' negative consequences[12]. The new challenge of the postmodern Sindbad or Said and Arab Americans lies in the transnational or double identity they have constructed. They have to cope with both the old localizing strategies (kin-base societies, bounded communities, organic cultures, region, and nation, for instance) and the new globalizing strategies accounting for transnational circuits of culture, identity, and capital.

One of the major changes in the worldviews of Arab immigrants is their effort to look for and use alternatives for enhancing their communication in unconventional ways. This change is embodied in the usage of the most up-to-date electronic means for communication. Cyber-space and Internet sites provide other avenues for bridging Arab Americans with their homeland. Communication networks and transnational media have provided

have become the most visible, the most targeted, and the least understood ethnic group in America. Public interest in Arab and Muslim Americans and Islam has exponentially multiplied since those attacks (EL Guindi 2003: 634).

The shining side of the picture, however, is represented in the preservation of Arab and Muslim heritage on US soil as embodied in two grand cultural events that occurred in Dearborn, Michigan: the opening of the Arab American National Museum on Thursday, May 5, 2005 and the opening of the largest mosque in the US on Thursday, May 12, 2005[9]. While Mansour, a 35-year-old Dearborn resident of Egyptian descent, and his friends observed pictures, musical instruments and other artifacts inside the newly inaugurated Arab American National Museum (the first museum to be established about Arab-Americans), he remarked, "We are finally represented in an excellent way. We can confirm that we are now part of American life"

Postmodern Sindbad[10]: Media and Global proximity

"Identity- who we are, where we come from, and what we are- is difficult to maintain in exile" (Said 1986 :16). It is hard to find in the world today a family or community that has not already had a member, relative, or friend (like Sindbad) migrate to another geographical locality or return home with narrations of stories and possibilities. Within this migratory context or experience, media or mass-mediated events play a significant role (Appadurai 1996: 17). Advanced technological means of communication, such as the Internet and mobile phones, have transcended geographical barriers and enhanced social ties between immigrants and their relatives and friends in the homeland.

This sophisticated statement is expressed though differently by ordinary Arab Americans. For instance, in an interview with a veiled Muslim woman of Egyptian descent, moving from a private or personal reaction to a universal or global consideration, she narrated:

"Americans became sensitive against Muslims after 9/11. I do not want to stereotype. Like me, some women preferred to stay at home to avoid troubles, but could not avoid going out. On the one hand, I work and, on the other, I did not do anything wrong. I found out that some times cultures can force people from other cultures to give up some of their beliefs to make themselves safe, so they have to adapt living without practicing some of what they believe. That makes those people from other cultures suffer in silence. Surprisingly, the problems we faced and the dangerous atmosphere we were involved in, turned out to have benefits which we never thought of, nor dreamed about. Now we are known all over the world and our religion begins to spread out faster than before. People want to know more about the only religion almost all non-Muslim countries fight, or at least, do not like, and abuse."

It is worthy to observe that an Arab scholar, reviewing a book on Arab Americans in Detroit, and commenting on their new condition, stated that the book jacket of Arab Detroit expresses what was until recently an accepted fact, namely, quoting the author, that despite the "complex and rich world the Arabic-speaking immigrants have created [this group remained] barely visible on the landscape of ethnic America". El Guindi, however, said: "Interestingly this observation was made before the attacks on New York and Washington, D.C., on September 11, 2001. I say this is no more the case. Almost overnight Arabs and Muslims

government employees including professors are poorly paid or insufficiently “subsidized”.

Samir asserted that the good thing in the U.S. is that people respect the one who does not deny his/her identity (roots) for whatever reason. “No one can escape his/her social skin,” Samir narrated saying that he had been frequently asked by persons belonging to different ethnic groups if he were Egyptian, to which he answered, “Yes”. In ghurba one becomes more Egyptian than in Egypt. He or she thinks about the homeland more than those who live there. Other interviewees do not accept such a view arguing that people living there [in Egypt] experience alienation [ghurba] because of the difficulty and hardship of life. However, such a view is refuted by Egyptian Americans, especially successful businessmen, who like to invest their capital and experience in various projects in Egypt thereby maintaining economic, social and political ties with the homeland.

Though Muslims in America found in the common acknowledgment of their Islamic identity a bond for social cohesion, the Arab American identity goes beyond the borders of religious affiliation in such a way that a non-Muslim Arab can express common ideas notwithstanding religious or Islamic implications. In his work, “The Clash of Ignorance”, Said (2001a) argues that “if we think of the populations today of France, Italy, Germany, Spain, Britain, America, even Sweden, we must concede that Islam is no longer on the fringes of the West but at its center... in the creation of this new line of defense the West drew on the humanism, science, philosophy, sociology and historiography of Islam... Islam is inside from the start”[8].

their objective in having a new identity through being American citizens, they also stressed their sincere desire to keep their Egyptian identity. Those who came as immigrants confirmed that they had come to the US to have a good education, occupation or job, and a convenient environment that appreciates their potential and industriousness. “I am proud to come to America as well as to be American. This feeling of pride is doubled when I go visit relatives back home”, Samir recounted. He also said, “I work hard here and I make a modest living that I would never make in my homeland[7], even If I spent my whole life there. But, there is no relaxation here in the US. I like to go home to see and visit my relatives, friends and beloved places as well as to relax”. It is not a matter of divided loyalty leading to split personality or the feeling of ghurba or alienation as some intellectuals might think, but rather a matter of longing for roots, real or imagined, in the homeland and full acceptance in the new land. Double identity encompasses a form of double or transnational belonging.

The condition of being in ghurba indicates a state of being far away or alienated physically, socially or psychologically from a social environment. To be more specific, the sense of ghurba is generated from the tension owing to the ongoing process of selecting the best values and modes of behavior found respectively in both Egypt and the US, on the one hand, and rejecting certain patterns of behavior dominant in the two countries, on the other. Regarding Egypt, Samir pointed out that though he loves the country and would like to retire there, the deteriorating economy makes him insecure. He indicated, for example, that prestigious institutes such as public universities suffer from inadequate facilities and meager funding and

to know more about Arabic language and culture. Arab Americans who maintain their Arabic language are eager to communicate in that language at least in the personal and private zones. Even among Arabs who do not speak Arabic, an interviewee recounted that he could not tolerate the situation in which he became "mute and deaf" in utililizing the Arabic language. He blamed his parents for that. I interviewed some elderly Egyptian Americans who regretted that they did not maintain the Arabic language. A retired scholar in Arabic literature recounted that his children, now in the American mainstream, cannot enjoy the beauty of Arabic poetry and literature.

Metaphorically, however, the other side of Sindbads' identity is positively represented. Mobility and plasticity of Arab American identity is represented in what Samir, a manager of a reputable department store, calls "gahiz," a multidimensional term including simultaneous meanings of being "ready" "smart" "alert", "sharp", "capable" and "on the move". "I'm having a new identity that brings new strengths to me. It is a unique blend of both the traditional and "new" or modern sides of "me". It is a combination of sameness and difference. It is like speaking two languages by the same person".

Through his experiences with multiple ethnic groups, Samir, like other Egyptian Americans, has developed strong global awareness without loosing his identification with his motherland or his "Egyptianness". Egyptian-Americans embody the "double identity" or dual citizenship according to which there is a new identity, i.e., the U.S. citizenship added to his/her preexisting Egyptian nationality. Though Egyptian interviewees expressed

ongoing pendulum between the margin or periphery and the center, or between, the old home and the new land respectively is represented in the language. The conflict with language reflects identity conflict. As Said stated: "I always have the sense that I'm not really writing in my own language… I use English, but I was brought up speaking Arabic … I have never known what language I spoke first, Arabic or English, or which one was really mine beyond any doubt. What I do know, however, is that the two have always been together in my life, one resonating in the other, sometimes ironically, sometimes nostalgically, most often each correcting, and commenting on, the other. Each can seem like my absolutely first language, but neither is" (Said 1999). Having lost his country in early youth, Said wrote often that he never felt fully at home anywhere – except perhaps in the 'country of words' (Said 1984). The new generations of Arab Americans face the problem of deficiency or insufficiency of speaking or understanding Arabic. In an electronic message sent to his father working overseas, a 15 year old Egyptian American high school student wrote:

"Dear baba,

I don't know exactly what I am. Am I American or Egyptian? I mean, if I am Egyptian, why do I know English so much better and why do I feel like this (the U.S.) is my true home. But, if I am American, why do I hate prejudice found almost everywhere here? I am confused and this has been bugging me a lot. I am wondering if you can help me with this. It seems like I don't fit in either place. Anyway, how are you baba? I hope everything is tamam [perfect] there. Ok baba, Salam".

There is an urgent need for the American society or government

locality. During our interview, a principle of an elementary school in Dearborn, an American with non-Arab descent said, “The more I know about Arab American culture in America the more I know about the Middle East and the Arab world. I wish I could speak Arabic”. This phrase, acknowledging the spread and diversity of Arab culture, emphasizes the bond between Arab Americans and their homeland as seen not only from an insider’s view but also from an outsider’s.

On considering the relationship between migration and changing identities, it is important to realize that the array of anticipated possibilities is significant. Some identities may be dissolved or vanished in the new society, while other identities gain new dimensions. Personal and cultural identities are never given but are negotiated, constituted and validated through ongoing interactions. Identity formation involves construction and reconstruction throughout the life-course of individuals and groups and through their different faces, roles and circumstances (Hall 1990; 1992, Eriksen 2002). Arab Americans have experienced a gradually emerging sense of identity framed by the American culture as well as by the deep consciousness of, and identification with, the old homeland. Put somewhat differently, there has been a tremendous change among Arab immigrants manifested in the transition from static to dynamic views of space and time as well as from a limited number of alternatives to unlimited options and open possibilities. Because the immigrant sees things both in terms of what has been left behind and what is actually here and now, this notion of “double perspective” (Said 1996: 60) leads to the development of new identity[6].

The notion of double identity as well as the theme of the

"America is a multi-cultural society as well as the land of opportunity. This opportunity is for everybody regardless to her/his ethnic background. I do not have problems with any particular ethnic group. But after September 11, solid evidence has shown that only certain kinds of multi-cultures or ethnic groups are acceptable, while others are "questionable". If a person belongs to the "questionable" culture or group, he/she may be unwelcome. This issue generates a big question mark for me, especially here in the land of freedom. Some stories of incidents that occurred to some Arabs and Muslims following September 11, make me feel as if I were living in a Third World country where government officials and policemen target the citizens based on suspicion, and not on evidence"[5].

Sindbad with Double Identity

Edward Said instigated the question of "traveling theories," suggesting the idea that travel generates a complex system of cultural representation that depends not on power, but on motion and willingness to go into different worlds, use different languages, and understand a multiplicity of disguises, masks, and rhetorics. Travelers must suspend the claim of customary routine in order to live in new rhythms and rituals (Said 1983). Being positioned on the boundary that signifies the division between home and away inspired Said to produce a theory for an intellectual who identifies himself as distanced or alienated and deeply tied to both Western and non-Western cultural elements (Kaplan 1996:115). This statement, one argues, establishes common ground between Said's thought and the experience of ordinary Arab Americans. The concept of movement implies the spreading of cultural elements beyond the confinements of

As unfairness and discrimination increase, the majority of the Arab immigrants experience a sense of alienation ghurba [far away from the homeland]) and consequently an identity crisis. Some interviewees, both Muslim and Christian, recounted that even before 9/11, they changed their names, hid their faith, and did their best to assimilate American culture so as to live without fear of discrimination. Regardless of the rich experience and success of many Arab Americans, since 9/11 the previously passive perception of Arab Americans has changed to take on a destructive and ungodly face3. For them the world, regionally and globally, is becoming increasingly insecure and merciless. The most up-to-date report released on May 11, 2005 by CAIR (the Council on American-Islamic Relations) indicated a total of 1,522 incident reports of civil rights cases in 2004 compared to 1,019 cases reported to CAIR in 2003. This constitutes a 49 percent increase in the reported cases of harassment, violence and discriminatory treatment from 2003 and marks the highest number of Muslim civil rights cases ever reported to CAIR. In addition, CAIR received 141 reports of actual and potential violent anti-Muslim hate crimes, a 52 percent increase from the 93 reports received in 2003[4].

Not only Muslims, but also Christians from Arab descent suffer from the stereotyping against Arabs in general because of physical appearance, language and customs. And the negative attitude toward Muslims does not differentiate between Arab and non-Arab who narrate their own realities and identities. Arab Americans try to prevail over such stereotypes and hardship. This new situation is reflected in a statement of one of Egyptian American. ‘Ali, a dentist living in West Bloomfield, asserted:

image as ‘an immigrant success story’, as ‘the capital of Arab America,’ changed within hours of the attacks; suddenly, it was a scene of threat, divided loyalties, and potential backlash” (Shryock 2001: 917). Such a sketchy and impressionistic conclusion, made immediately after the 9/11 event, however, does not say how Arab Americans survived such a tragedy. Shryock goes on to say, “In the days following September 11, Arab Detroit was awash in American flags. They were displayed prominently in the windows of liquor stores and corner groceries, they flew over gas stations, they even adorned churches and mosques. Flags were worn around throats, affixed to lapels, and tattooed into the skin. For some, American flags were talismanic shields, for others, they were defiant assertions of patriotism. Many non-Arab and non-Muslim observers thought it was all for show—some of it was, of course—but this skeptical attitude only proved how hard it was for Arabs and Muslims to be seen as “authentically” American” (Shryock 2001: 918- 919). Even when they strived to show patriotism, solidarity or loyalty to the society with which they are identified, they were denied such honor.

Arab Americans have experienced a variety of forms of discrimination and stereotyping based on factors such as race and ethnicity, inability to speak the language, dress, customs, and religion[2]. Some critical dimensions of these stereotypes go back to the way Western scholars have misrepresented the Arab (or East) as a changeless, passive, dependent “other” (Said 1979; 1984; 1993; 1996). At the personal level, Edward Said, before 9/11 and in his book, Orientalism (1979), positioned himself as an Arab intellectual in the West, and as such was subject to the very web of racism, cultural stereotypes, and dehumanizing ideology.

decentered, and exilic energies, energies whose incarnation today is the migrant, and whose consciousness is that of the intellectual and artist in exile" (Said 1993: 332). Through the usage of the metaphor of Sindbad, I extend this concept of "consciousness" to be incarnated also in the ordinary, non-academic, or non-artistic immigrants, like the case of the Egyptian interviewed by Ghosh and those of the metro Detroit communities interviewed for this research. In a word, my argument here is that ethnographic findings show that the difference between the intellectual and the ordinary lies in the difference between two forms of discourse: writing or documented discourse and narrating or verbal discourse. If the writer or intellectual, from Said's point of view, finds home in writing, ordinary Arab [Egyptian] Americans (like Sindbad) make a home in narrating or telling stories about their faraway homeland, heritage and personal memories. In addition, I have found that other less formal forms of writing, including personal letters and electronic messages, are used by ordinary immigrants to convey their experiences to their relatives and close friends, as well as to themselves. In a word, for a person who has lost their immediate touch with the homeland, narrating is considered a discursive social space providing a novel source of the sense of rootedness associated with the old homeland. Arab Americans commence their narratives of identity with their homeland.

Prior to September 11, 2001, many Arab-Americans achieved prosperity in business, academia, engineering and other fields and as such were successful and mainstreamed in U.S. society and politics (Boosahda 2003, El Guindi 2003, Nabeel & Shryock 2000, Suleiman 1999). However, one reads that on "September 11, 2001, Arab Detroit entered its own state of emergency. Its

theoretical insights that help us understand the core features of multiplicity, diversity and plasticity of Arab American identity.

The reason for focusing on Edward Said lies in the fact that he wrote eloquently about his now well-documented diasporic experience1 in the U.S. Although some of his writings occur prior to 9/11, they nonetheless highlight the hardships Arabs and Muslims face in both their new and home lands. When confronted with diaspora, Arab intellectuals are torn between their commitment to universal-human values, their commitment to their new land and their attachment to their homeland.

Data drawn from Egyptian communities is used to examine to what extent Edward Said's ideas of migrant and exilic experiences express the common views of other Arab Americans and are not confined to his own case as a dispossessed Palestinian. Finally, Said has been criticized for his formulation of an exilic space because it privileges the Third World writers or academic intellectuals, and not the ordinary exiles who have come to live and work in the metropolis (Kaplan 1996:30).

Sindband's stories of the Self: Edward Said and Arab Americans

In his study of an Egyptian village, Ametap Ghosh, an Indian ethnographer, noticed that both he and an Egyptian interviewee were comparing their cultures in relation only to "the West" saying that "despite the vast gap that lay between us, we were both travelling, he and I: we were travelling in the West" (quoted in Clifford 1997: 4-5).

Said stated that "liberation has now shifted from the settled, established, and domesticated dynamics of culture to its unhoused,

Introduction

This paper focuses on the specific dynamics of movement and dwelling, and the related concepts of travel, migration, and exile that can be cross-culturally studied. Despite the fact that cross-cultural studies of travel as well as transnational cultural studies are scant, population movements and transnational migration are currently the focus of broad academic debates and surround such issues as transnational cultural relations, the renovation of migrants' worldviews, and the dynamics of identity reconstruction (Axel 2004, Clifford 1988; 1999, Cohn 1987, el-Aswad 2004, Kaplan 1996). Studies of migrants' communities have noted that immigrants span borders and attend to multiple national realities (Coutin 2003, Kearny 1998; Levitt 2001, Ong 1999). The migratory experiences of Arabs to the West (or America) as reflected within their expressive narration and writing need to be articulated. They are not well represented in the literature of travel. This paper examines cultural practices related to migration as ways in which persons experience change in their views of the world, of themselves, and of other people. For instance, migrants experience profound changes in their conceptual-social orientation as they move from the state of being a 'majority' at home to that of being a 'minority' in another country, causing the feelings of bewilderment and alienation (ghurba) with which they have to cope.

The study is based on ethnographic data collected from twelve case studies representing different and multi-dimensional experiences of Egyptian Americans living in three metropolitan Detroit, Michigan communities: Dearborn, West Bloomfield, and Troy. These case studies reveal some important and comparative

Sindbad in America: Narrating the Self among Arab Americans

D. el-Sayed el-Aswad

Abstract

Migration is a prototypical rite of passage involving transition in space, territory, and group membership. Migrants are border-crossers who create transnational identities that mediate between different geographies and nations. This transnational identity recalls the folk archetype of Sindbad the Sailor of the Arabian Nights, a metaphor used here to indicate a role model for migrants' successful adventures that go beyond locality, regionality and nationality. Sindbad is not merely a boater, but a determined traveler, adventurer and navigator spirited to succeed in finding new opportunities in new frontiers. Unlike authors such as Clifford (1997: 38), Julian (2004), and others, who have focused heavily on the oral histories of immigrants, in this paper, I discuss different forms of expression, in addition to oral narration, including writing. Arab American writings have played a critical role not only in documenting social and political events, but also in alerting nations and local communities of the consequences of anti-Arab and anti-Muslim attitudes intensively prevalent in the US following 9/11, thus providing a platform for discussions and potential solutions. These views are examined within the perspectives of both Arab American writers, as represented here by Edward Said, and ordinary Arab immigrants of the Detroit metropolitan area. The paper analyzes their complex positioning and various alternatives that have been proposed and discussed by Arab-American intellectuals, especially Edward Said, as related to the experiences of ordinary immigrant Arab Muslims and non-Muslims, and particularly, as in this paper, Egyptian-Arab immigrants [Arab Americans, identity, travel/immigration, diaspora].

---

* ***University of Bahrain***